كرِستِن هارمِل

"حبٌ وغدرٌ وسماح
وتوبة.. رائع!"
نيويورك تايمز

ترجمة:
دلال نصرالله



كتاب الأسماء المفقودة

مكتبة

رواية

kalemat

كتاب الأسماء المفقودة

كتاب الأسماء المفقودة

The Book Of Lost Names

كرستِن هارمل

Kristin Harmel

ترجمة: دلال نصر الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

ردمك: 978-9921-730-75-3

كتاب الأسماء المفقودة

THE BOOK OF LOST NAMES

كرستِن هارمل

KRISTIN HARMEL

ترجمة: دلال نصر الله



2022

kalemat

الفصل الأوّل

مايو 2005

صباح السّبت، أراه في منتصف فترة عملي في مكتبة ونترپارك العامّة؛

الكتاب الذي وقعت عيني عليه آخر مرّة قبل أكثر من ستّة عقود.

الكتاب الذي اعتقدت أنّه اختفى إلى الأبد.

الكتاب الذي عنى كلّ شيء بالنّسبة إلي.

إنّه يحدّق إليَّ من صورة نُشرت له في صحيفة نيويورك تايمز التي تركها أحدهم مفتوحةً على طاولة الكتب المُعادة. تختفي الأصوات وأنا أمد يدي لأمسك الصّحيفة، يداي ترتعشان تمامًا كما ارتعشتا حين مسكته آخر مرّة. أهمس: «مستحيل».

أنظر إلى الصّورة. رجلٌ في السّبعينيّات من عمره يبادلني النّظرات، شعره الأبيض كالثّلج خفيفٌ، وعيناه جاحظتان خلف نظّارة محدّبة.

«بعد ستّين عامًا من انتهاء الحرب العالميّة الثّانية، يسعى أمين مكتبة ألماني لرد الكتب المسروقة إلى أصحابها» كان عنوان المانشيت. أود لو أصرخ للرّجل الذي في الصّورة إنّي أنا صاحبة الكتاب الذي يمسكه، الكتاب المغلّف بتغليف جلدي متهالك، ذي الكعب الممزّق من الجهة اليمنى، والكعب المذهّب الذي كتب عليه بالفرنسيّة الرّسائل والأناجيل. إنّه ملكي، وملك رِمي الذي توفي قبل زمن طويل؛ الرّجل الذي أقسمت على نسيانه بعد الحرب.

لكنّه ظل يخطر على بالي هذا الأسبوع رغمًا عني، مهما

حاولت. غدًا هو الثّامن من شهر مايو، وسيحتفل العالم بالذّكرى السّتين لعيد النّصر في أوروبا. يستحيل، مع كلّ مقدمي الأخبار صغار السّن الذين يتحدثون عن الحرب بوقار كأنّ بإمكانهم فهمها، عدم التّفكير في رِمي، عدم التّفكير في الوقت الذي قضيناه معًا آنذاك، وألّا أفكّر في من أنقذناهم وطريقة انتهاء كل شيء. يخبرني ابني بأنّي محظوظة لتمتعي بذاكرة حادّة في هذا العمر المتقدّم، نقمة في صورة نعمة.

أتوق إلى النّسيان أغلب الأيّام.

أكبح تفكيري المتعلّق برِمي، وأعيد انتباهي للمقالة. أوتو كوهن هو اسم الرّجل الذي في الصّورة، أمين مكتبة (زنترال أوند لانديسبيبليوتيك) العامّة في برلين. رجلٌ قرّر أنّ مهمّته في الحياة هي إعادة الكتب التي سرقها النّازيون. يبدو أنّ في مكتبته الخاصّة أكثر من مليون كتاب كهذا، لكنّ الكتاب الذي يحمله في هذه الصّورة هو كتابي، وهو الذي أصابه بالأرق.

قال كوهِن للمراسل: «هذا الكتاب المقدّس هو المفضّل لدي من بين كتب كثيرة غامضة على رفوفنا. نُشر في باريس عام 1732. كتاب نادر، لكنّ هذا ليس سبب فرادته؛ إنّه متفرّد لأنّنا وجدنا داخله لغزًا مشوّقًا؛ أشبه بشيفرة. من مالكه؟ ما دلالة الشّيفرة؟ كيف امتلك الألمانيّون الكتاب خلال الحرب؟ تؤرقني هذه التّساؤلات».

اغرورقت عيناي بدموع لا مكان لها. مسحتُها، وغضبت من ذاتي لأنّي ما زلت عاطفيّة بعد مرور كلّ تلك الأعوام. قلتُ بلطف لصورة كوهِن: «لطيفٌ أن تسكن المرء الأسئلة عوضًا عن الأشباح».

«امم سيدة أبرامز؟ أتكلمين تلك الصّحيفة؟»

قطع حبل أفكاري صوت جيني فيش؛ مساعدة مدير المكتبة. إنّها تتذمّر من كل شيء، وكلّما سنحت لها سانحة تقترح عليّ التّقاعد نظرًا لبلوغي السّادسة والثّمانين. تراقبني على الدّوام، كأنّ عملي هنا وأنا في هذا العمر يثير استغرابها.

إنّها تجهل معنى عشق الكتب لدرجة الموت، لدرجة انقطاع الأنفاس، لدرجة التّوقف عن الوجود إذا حرمنا منها. أعجز تمامًا عن فهم الأمر حقيقةً. لماذا أصبَحت أمينة مكتبة أصلًا؟

أجبتها دون رفع عيني: «أجل يا جيني. أنا أكلمها فعلًا».

«حسنًا. يفترض ألّا تفعلي ذلك أمام زوّار المكتبة». قالت بلا تهكّم، ثمّ أضافت: «قد يحسبونك مصابة بالخرف». تفتقر إلى حس الدّعابة.

«شكرًا جيني. نصائحك مفيدة جدًّا دائمًا».

أومأت رأسها بجديّة. يبدو أيضًا أنّها تجهل أنّ السّيدات اللاتي يشبهنني -ضئيلات البنية، وشعورهن بيضاء، ويشبهن الجدّات في خصالهن- قادرات على التّهكم.

اليوم، ومع ذلك، لا أملك وقتًا لها. الكتاب يشغل كل تفكيري. الكتاب الذي يضم بين دفّتيه أسرارًا كثيرة. الكتاب الذي أُخِذ منّي قبل معرفة إذا كانت الإجابة الوحيدة التي أريدها فيه.

والآن، في بلد آخر، هنالك رجل يحمل مفتاحًا يفتح كل مستغلق.

«هل أجرؤ؟ خاطبت صورة أوتو كوهِن. أجبت عن سؤالي قبل أنْ يساورني الشّك. «يجب أنْ أفعل هذا. أدين بهذا للأطفال».

«سيّدة أبرامز؟» تقاطعني جيني مرّة أخرى؛ تخاطبني باسم عائلتي، رغم أنّي أخبرتها آلاف المرات بأن تناديني إيڤا، كما تخاطب أمناء المكتبة الأصغر عمرًا باسمهم الأوّل. لكن، يا للحسرة! أنا مجرّد سيّدة مسنّة بالنّسبة إليها. جائزة المرء للانتقال من عقد إلى عقد هو الطّمس التّدريجي لوجوده.

«نعم يا جيني؟» رفعت عيني باتّجاهها أخيرًا.

«أتحتاجين إلى الذّهاب إلى المنزل؟» أعتقد أنّها سألت وهي تتوقع رفضًا. ابتسمت بتكلّف، وهي واثقة من فرض سيطرتها. «للراحة ربّما؟»

النّظر إلى عينيْها يمنحني متعة شديدة. ابتسمت وقلت: «أجل يا جيني. أشكرك جزيل الشّكر. أعتقد أنّي سأفعل هذا».

قبضتُ على الصّحيفة وغادرت.

***

بمجرّد وصولي إلى منزلي -منزلٌ صغيرٌ وثيرٌ على بعد خمس دقائق مشيًا من المكتبة- فتحت حاسوبي.

أجل، لدي حاسوب، وأجل أعرف طريقة استخدامه. لابني (بِن) عادة سيّئة في لفظ المصطلحات الحاسوبيّة ببطء أمامي (إن-تر-نت)، (إي-ميل) كأنّ مفهوم التّكنولوجيا عصي على فهمي. أعتقد أنّ اللوم لا يقع عليه كليًا. وُلِد بِنْ بعد الحرب بثمانية أعوام، وكنت قد غادرت فرنسا، وتركت شخصيّتي السّابقة ورائي. (بن) يعرف أنّي أمينة مكتبة وربّة منزل تتلعثم في نطق الإنجليزيّة أحيانًا.

في مرحلة ما، راودته فكرة خاطئة بأنّي إنسانة بسيطة. ماذا سيقول عنّي لو عرف الحقيقة؟

أخطأت بعدم إخباره. أخطأت بعدم تصحيح فكرته عنّي. لكن عندما ترتاح للاختفاء في قوقعة تحميك، من العسير خروجك منها لتقول: «في الحقيقة، هذا أنا».

لعلّي خشيت هجر والد بِن أيضًا لي، زوجي لويس، لو عرف حقيقتي. هجرني على أي حال -بسبب سرطان البنكرياس منذ عقد واحد- لقد أدركت قدرتي على العيش دونه في وقت أبكر بكثير من عمري رغم أنّي أشتاق إلى رفقته كثيرًا.

دخلت على موقع خطوط دلتا الجويّة الإلكتروني بحكم العادة. لعلّي تعلّمت استخدامه نتيجة أسفار لويس الكثيرة بغرض العمل لكونه عضوًا في برنامج الرّحلات المتكرّرة. الأسعار باهظة، لكنّي ادّخرت الكثير من المال. الوقت الآن قُبيْل الظّهر: هنالك رحلة ستغادر بعد ثلاث ساعات، وأخرى ستغادر عند 9:30 ليلًا، وستحط في أمستردام غدًا، ثمّ ستهبط في برلين عند 3:40 مساءً. اخترت الرّحلة الثّانية على الفور. هناك أمر شاعري يتعلّق بوصولي إلى برلين بعد ستّين عامًا من توقيع الألمان على استسلام غير مشروط للحلفاء في هذه المدينة تحديدًا. سرت في جسدي قشعريرة، ولا أعلم إذا كانت قشعريرة خوفٍ أو حماسة.

يجب أنْ أحزم حقيبتي، سأحتاج إلى مهاتفة بِن. لن يتفهّم، لكن لربما حان وقت إخباره بأنّ أمّه ليست من اعتقد.

يوليو 1942

كانت السّماء فوق مكتبة السّوربون في باريس الواقعة في الدّائرة الخامسة رماديّة ومُحمّلة بالمطر، والرّياح عاصفة. وقفت إيڤا تروب خارج الأبواب الرّئيسة، تلعن الرّطوبة. كانت تعرف، حتّى دون النّظر إلى المرآة أنّ شعرها الدّاكن الطّويل أصبح ضعف حجمه؛ ما جعلها تبدو كالفطر. لم يشكّل ذلك فرقًا؛ الشّيء الوحيد الذي سيلاحظه أي شخص هو النّجمة السّداسيّة الصّفراء المطرّزة على الجهة اليسرى من سترتها. ألغت هذه النّجمة كل العوامل المكوّنة لهُويّتها فلم تعد ابنة ولا صديقة ولا محبّة للإنجليز ولا باحثة دكتوراه في الأدب الإنجليزي.

باتت مجرّد يهوديّة بالنّسبة إلى كثير من الباريسيين الآن.

ارتجفت، وشعرت بقشعريرة مفاجئة. بدا أنّ السّماء تنذر بسوء، كأنّها تعرف سرًّا، أمّا ظلال الغيوم السّاقطة فبدا أنّها تجسيدٌ للظّلام المُخيّم على المدينة ذاتها.

تَحَلّي بالشّجاعة، كان والدها ليقول لها بفرنسيّة ثقيلة فيها لكنة بولنديّة. ابتهجي. لن يزعجنا الألمان إلّا إذا سمحنا لهم بذلك.

لكنّ التّفاؤل ليس واقعيًّا، فالألمان كانوا أحرارًا في إزعاج الفرنسيين اليهود في أي وقت، سواء أرضخت إيڤا ووالدها أم لا.

رفعَت ناظريْها باتّجاه السّماء مرّة أخرى وهي تفكّر. قرّرت المشي نحو المنزل تجنبًا لقطار الأنفاق والقوانين الجديدة التي لا تسمح لليهود بركوب القطار إلّا في العربة الأخيرة الحارّة. لكن من الأفضل أنْ تنزل تحت الأرض فقد تمطر.

«آه، mon petit rat de bibliothèque». صوت أجش خلفها تمامًا قد قطع حبل أفكارها. عرفت من هو قبل الالتفات، إذ لا يوجد إلّا شخص واحد يناديها بـ «فأرة الكتب صغيرتي».

حيّته بصرامة Bonjour: [صباح الخير] جوزِف». شعرت بحرارة في وجنتيْها، وخجلت من انجذابها إليه. جوزِف بالِتيير هو أحد التّلاميذ في قسم اللغة الإنجليزيّة الذين يرتدون النّجمة الصّفراء -رغم أنّه يختلف عنها، لأنّه نصفه فقط يهودي وغير متديّن- كان طويلًا، عريض المنكبيْن، شعره كثيف وداكن، وعيناه زرقاوان شاحبتان. كأنّه نجم سينما، شعورها مشترك مع باقي شابّات القسم حتّى مع الكاثوليكيات اللائي لن يسمح آباؤهن بملاطفة يهودي لهن. لم يكن جوزِف من النّوع الذي يلاطف الفتيات، بل كان أقرب إلى إغواء إحداهن في ركن معتم من المكتبة ثمّ يتركها وهي راغبة فيه.

«تبدين مستغرقة في التّفكير يا صغيرة» قال بابتسام وهو يقبّل إيڤا على وجنتيْها كتحيّة. والدته تعرفها قبل ولادتها، وكان لديه أسلوب يُشعرها بأنّها الطّفلة التي قابلته أوّل مرّة، رغم أنّها الآن في الثّالثة والعشرين وهو في السّادسة والعشرين من عمره.

«أفكّر فقط إذا كانت السّماء ستمطر» أجابته وهي تبتعد عنه قبل أنْ يلاحظ أنّ التّواصل الجسدي يخجلها.

«إيڤا» الطّريقة التي لفظ بها اسمها قذفت الرّعب في قلبها. حين تجرّأت على النّظر إليه مجدّدًا، عيناه قلقتان. «جئت أبحث عنك».

«لماذا؟» لجزء من الثّانية تمنّت أن يدعوها إلى العشاء. محض سخافة، فأين سيذهبان على أي حال؟ لا أماكن تستقبل من يرتدون النّجمة.

مال إليها. «لأحذركِ. هناك مؤامرة. قائمة ضخمة، قبل الجمعة». أنفاسه دافئة على أذنها. «في قوائمهم أسماء عشرين ألف يهودي المولد».

«عشرون ألفًا! مستحيل»

«مستحيل؟ لا. مصادر رفاقي موثوق بها»

«رفاقك؟» التقت نظراتهما. كانت قد سمعت عن التّنظيم السّري، بلا شك؛ أشخاص يعملون على تقويض النّازيّة هنا في باريس. أيقصد هذا؟ لا أحد يعرف عنهم شيئًا. «وكيف تثق بكلامهم؟»

«ولماذا لا أثق بكلامهم؟»

«ولماذا لا أثق؟ احتياطًا، أعتقد أنّ من الأفضل لكِ ولوالديكِ الاختباء للأيّام القليلة المقبلة».

«الاختباء؟» والدها يصلح الآلات الكاتبة، ووالدتها خيّاطة. بالكاد يملكان أجرة الشّقة، ناهيك بالتّواري عن الأنظار. قالت بتهكّم: «ربّما من الأفضل أنّ نحجز في فندق ريتز؟»

«أنا لا أمزح يا إيڤا»

«أكره الألمان كما تكرههم يا جوزِف.. عشرون ألف شخص؟! لا، لا أصدق»

«فقط احذري يا صغيرة». أمطرت السّماء عندئذٍ. ابتعدَ مع المطر، واختفى بين مظلّات كثيرة فُتحت في ممشى جانبي يؤدّي إلى الاتّجاه المعاكس للمكتبة.

***

لعنته إيڤا. انعكس بريق مياه المطر على الرّصيف كما لو كان زيتًا في ضوء الغسق الخافت، وفي أثناء إسراعها من العتبات المؤديّة إلى (رو دي إيكولِ)، تبلّلت بلمح البصر. كانت ستجذب سترتها إلى رأسها، لولا أنّها تذكّرت أنّ النّجمة التي بحجم كف اليد ستظهر للعيان.

«يهوديّة قذرة» تمتم رجل في أثناء مروره، والمظلّة تغطّي وجهه.

لا، لن تركب إيڤا قطار الأنفاق اليوم. أخذت نفسًا عميقًا وبدأت العدوَ باتّجاه النّهر، نحو ازدحام نوتردام، باتّجاه منزلها.

«كيف حال المكتبة اليوم؟» سألها والدها وهو جالسٌ إلى رأس المائدة، فيما كانت والدتها -التي تلف شعرها بمنديل باهت وترتدي، حول جسدها البدين، فستانًا قطنيًّا رثًّا- تسكب حساء البطاطا في صحنه. سكبت بعدها الحساء في إناء إيڤا. بلّلهم المطر جميعًا في أثناء عودتهم، فعلّقوا ستراتهم قرب النّافذة المفتوحة لتجف، والنّجوم الصّفراء باتّجاههم، كأنّها ثلاثة جنود مصطفين، يراقبون بصمت.

«لا بأس». انتظرت إيڤا جلوس والدتها قبل أنْ تتذوّق طعامها الذي بلا طعم.

«لا أفهم سبب إصرارك على الذّهاب» عقّبت والدتها. سكتت لتتناول ملعقة ممتلئة بالحساء وجعّدت أنفها. «لن يسمحوا لكِ بإتمام الدّراسة».

«ستنقلب الأحوال ماموشا [أمّي بالبولنديّة]. أنا أكيدة»

تنهّدت والدتها وقالت: «يا لجيلك وتفاؤله».

«إيڤا على حق يا فايفا. لن يُبقي الألمان هذه القوانين إلى الأبد. ليس لها معنى». ابتسم والد إيڤا ابتسامة يعرف الجميع زيفها.

«شكرًا تاتوش [والدي بالبولنديّة]». إيڤا ووالداها ما زالوا يخاطبون بعضهم تودّدًا بألفاظ من اللغة البولنديّة، على الرّغم من أنّ إيڤا المولودة في باريس لم تزر مسقط رأس والديها. سألت والده: «وكيف كان عملك اليوم؟»

تأمّل والدها الحساء. «لا يعرف السّيد كوجون إلى متى سيستمر عملي معه. قد نضطر إلى...» حدّق إلى زوجته، ثمّ إلى إيڤا. «قد نضطر إلى مغادرة باريس. لن أتمكن من الحصول على عمل هنا، إذا خسرت وظيفتي».

عرَفت إيڤا أنّ تلك اللحظة قادمة، ومع ذلك فاجأها الخبر كلكمة في بطنها. مغادرة باريس تعني أنّها لن تعود إلى السوربون، ولن تستكمل أطروحتها في اللغة الإنجليزيّة التي عملت عليها بجد.

وظيفة والدها على المحك منذ مدة طويلة، مذ بدأ الألمانيّون عزل اليهود بتنظيم مُمنهج عن المجتمع الفرنسي. سمعة والد إيڤا باعتباره أفضل مصلّح آلات كاتبة في باريس أنقذته حتى الآن، رغم عدم قدرته على العمل داخل المكاتب الحكوميّة. السّيد كوجون، مراقب عمله القديم، قد أشفق عليه وكان يدفع له لإنجاز عمل غير رسمي، أنجز معظمه في المنزل. في الواقع، كانت هناك إحدى عشرة آلة كاتبة في مختلف مراحل التّفكيك موضوعة الآن في الرّدهة، وتشير إلى ليل طويل مقبل من العمل.

أخذت إيڤا نفسًا عميقًا وبحثت عميقًا بداخلها عن بصيص أمل. «لعلّ من الأفضل أنْ نغادر يا تاتوش».

غمز لها، وسكتت والدتها. «من الأفضل يا słoneczko؟» ناداها والدها بهذا الاسم دائمًا، ويعني «الشّمس الصّغيرة» بالبولنديّة، فتساءلت إيڤا إذا لاحظ والدها المفارقة السّاخرة التي لاحظتها. أليست الشّمس نجمًا أصفر اللون؟

قالت إيڤا: «قابلتُ جوزِف بالتِيير اليوم...»

«أوه جوزِف!» قاطعتها والدتها، ووضعت راحتي يديْها على وجنتيْها كأنّها طالبة مغرمة. «يا له من فتى وسيم. هل طلب منك الخروج في موعد؟ لطالما تمنيت أن تتزوجا».

«لا ماموشا. لا شيء من هذا القبيل». تبادلت إيڤا النّظرات مع والدها. يشغل ارتباط إيڤا بالرّجل المناسب مساحة غير معقولة من أفكار ماموشا، وكأنّهم ليسوا في خضم حرب. «في الواقع، لحق بي ليخبرني أمرًا ما. سمع إشاعة عن اعتقال عشرين ألف يهودي مولودين في الخارج خلال الأيام القادمة».

عبست والدة إيڤا، وقالت: «هذا سخفٌ. ماذا سيفعلون بعشرين ألفًا منّا؟»

«هذا ما قلته». لمحت إيڤا والدها الذي لم ينطق بكلمة بعد. «تاتوش؟»

«من المفزع سماع هذا» قال بعد توقف طويل، بكلمات بطيئة ومدروسة. «رغم أنّ جوزِف يبدو من النّوع الذي يُغالي في الكلام».

«بالطّبع لا. إنّه شاب لطيف». قالت والدة إيڤا على الفور.

«فايغا، لقد أزعج إيڤا، ولماذا؟ حتّى يتباهى بعلاقاته ومعارفه أمامها؟ الشخص النّزيه لن يشعر بالحاجة إلى فعل ذلك». نظرت تاتوش إلى إيڤا. أيتها الشّمس الصّغيرة، لا أريد تجاهل ما قاله

جوزِف. وأؤيّد وجود أمر يُدبّر. لكنّي سمعت عشرات الإشاعات هذا الشّهر، وهذه الإشاعة هي الأشنع. عشرون ألفًا؟ مستحيل».

«ومع بشاعتها، ماذا لو كانت صحيحة يا تاتوش؟»

قام من الطّاولة وعاد بعد لحظات حاملًا ورقة مطبوعة. سلّمها إلى إيڤا التي قرأتها بسرعة. اعمل كل ما يلزم لتختبئ ... قاوم الشّرطة ... اهرب. «ما هذا؟» همست وهي تناولها لوالدتها.

«دسّها أحدهم تحت بابنا البارحة» قال والد إيڤا.

«لماذا لم تخبرنا؟ إنّها تحذير، كتحذير جوزِف».

هزّ رأسه ببطء. «هذا ليس التّحذير الأوّل يا إيڤا. الألمانيّون يحكمون بخوف كما يحكمون بأسلحتهم. إذا هلعنا من كل إنذار زائف، ستكون الغلبة لهم، أليس كذلك؟ سيسلبون شعورنا بالاطمئنان، شعورنا بهناء العيش. لن أسمح بهذا».

تدخّلت الأم: «على أي حال، لم نفعل شيئًا. نحن مواطنون منتجون».

«لا أعتقد أنّ هذا مهمًّا في نهاية المطاف». انحنى والد إيڤا وربّت على رأسها، ثمّ لمس وجنة زوجته.

«لكنّنا بخير في الوقت الحالي. لنشرب الحساء قبل أنْ يبرد».

فقدت إيڤا شهيتها، ومع ذلك، في أثناء تقليب الحساء، آلمها بطنها، آلمها بطنها وتوجّست خيفة حيث لم تُذهب كلمات والدها عنها القلق.

لاحقًا في تلك الليلة، بعد نوم ماموشا، وجد تاتوش ابنته إيڤا في مكتبة غرفة الاستقبال الصّغيرة التي تضم رفوفها كتبًا كثيرة تقدّرها هي ووالدتها جدًّا. علّمها والدها حبَّ القراءة، أحد

أعظم الهدايا التي يمكن للأب تقديمها لابنه، وبهذا الفعل، يفتح أبواب العالم له. معظم الليالي، جلست مع أبيها بصمت وألفة في هذا المكان لقراءة الكتب، لكنّها الآن مشتّتة الذّهن. جلست على الأريكة، ترسم في دفتر، عادة عصبيّة اكتسبتها في طفولتها، حين كان رسم الناس والأشياء المحيطة بها يُشعرها براحة أكبر.

«يا شمسي الصّغيرة» ناداها بلطف.

رفعت نظرها إلى الأعلى، توقّف قلمها في منتصف رسمها للثّريّا بتفصيل دقيق. «اعتقدت أنّك في سريرك يا تاتوش».

«لم يغمض لي جفن». جلس إلى جوارها. «أحتاج إلى إخبارك بأمرٍ ما. إذا جاء الألمانيّون لإلقاء القبض على والدتك وعلي، أريدك أن تذهبي إلى السّيد كوجون على الفور».

حدّقت إيڤا إليه. «قلت إنّك لا تُصدّق جوزِف».

«لا أصدّقه، لكن أشياء مريعة تحدث هنا طوال الوقت. سأكون أحمقَ لو ادّعيت عدم إمكانية تعرضنا لها. لكن أنتِ، يا شمسي، ستكونين بأمان. أنتِ فرنسيّة. اهربي إذا أخذونا قبل أن تزداد الأمور سوءًا»

«تاتوش...»

«اذهبي إلى المنطقة الحرّة، وإذا استطعتِ فإلى الأمان في سويسرا. انتظري انتهاء الحرب هناك. سنعود لأجلك».

شعرت بخدر وحزن فجأة. المنطقة الحرّة؟ الحدود على مسافة كيلومترات كثيرة من باريس، تقسم نصف البلد الذي وافق النّازيّون على تركه للفرنسيين. تبدو سويسرا شديدة البُعد. «لماذا لا نستطيع العيش جميعنا معًا؟ الآن؟»

«لأنّنا سنلفت الأنظار بشدّة يا إيڤا. كل ما هنالك أنّي أريدك أنْ تستعدي لذلك اليوم. ستحتاجين إلى مستندات تثبت أنّك لست يهوديّة. سيساعدك السّيّد كوجون».

شعرت بانقطاع أنفاسها. «أكلّمته بالفعل؟»

«أجل، وقد دفعت له يا إيڤا. كل المدخرات. وعدني. لديه كل ما يلزم لصنع مجموعة وثائق مزيّفة. ستكون كافية لإخراجك من باريس».

كفكفت دموعها. «لن أذهب دونك، تاتوش».

أمسك يديْها. «يجب أن تغادري، إيڤا! عديني أنّك ستفعلين، إذا حدث ما نخشاه».

«لكن...»

«أريدكِ أن تعديني. لا يمكن أنْ أعيش إذا لم أومن بأنّك ستفعلين كل ما يلزم للنجاة أيضًا».

نظرت إلى عينيْه. «أعدك. لكن، تاتوش، ما زلنا نملك الوقت، أليس كذلك؟ وقت لنجد خطّة بديلة تسمح لنا بالمغادرة إلى المنطقة الحرّة معًا؟»

«طبعًا يا شمسي، طبعًا»، لكنّه أخفى نظراته عنها، وحين شاهدها مرّة أخرى، كانت عيناه متوشّحتيْن بالحزن، وإيڤا عرَفت أنّه لا يَصْدقها القول.

في الرّابعة فجرًا بعد يومين طُرق الباب لأوّل مرّة. نامت إيڤا نومًا متقطّعًا. حلمت بوحوش ضارية تحيط بقلعة، وحين انتقلت إلى مرحلة الوعي، كان الذّعر قد تمكّن منها. جوزِف على حق. إنّهم هنا.

تمكّنت من سماع خطوات والدها وهو يتحرّك في الشّقة،

خطواتـه بطيئـة وهادئـة. «تاتـوش!» نادتـه وهـي تسـحب الـرّداء، وأدخلـت رجليْها فـي حذاءيْـن جلديّـن باليـن وضعتهـا إلـى جانـب سـريرها منـذ العـام الماضـي فـي حـال حاجتهـا إلـى الهـروب. مـا الـذي سـتحتاج إليّـه أيضًـا إذا جاءهـم الألمانيـون؟ أعليهـا حـزم حقيبـة؟ هـل سـيكون هنـاك وقـت؟ لمـاذا لـم تصـدّق جـوزِف؟

«تاتـوش، رجـاء!» صاحـت مـع توقّـف خطـوات والدهـا. أرادت أن تطلـب منـه الانتظـار، أن توقـف الوقـت، أنْ تتجمّـد للحظـة واحـدة فـي الزّمـن الماضـي، لكنّهـا لـم تجـد الكلمـات المناسـبة، ولهـذا خرجـت مـن غرفتهـا إلـى الـرّواق. وصلـت فـي لحظـة فتـح البـاب.

دثّـرت نفسـها بالكسـاء، وهـي تنتظـر الأمـر الحاسـم للألمانييـن الذيـن كانـوا علـى الجانـب الآخـر مـن البـاب حتمًـا. عوضًـا عـن ذلـك، سـمعت صوتًـا أنثويًّـا ورأت ملامـح والدهـا تصبـح أرق وهـو يرجـع خطـوة إلـى الـوراء. بعـد ثانيـة واحـدة، مـدام فونتـان، جارتهـم التـي تقطـن فـي آخـر الـرّواق، تبعتـه إلـى داخـل الشّـقة، ووجههـا حزيـن.

«تاتوش؟» سـألت إيڤا، ثمّ التفت إليها. «أجاء الألمانيّون؟»

«لا يـا شمسـي». تقاسـيم وجهـه لـم تسـترخ بعـد، فعرفـت أنّـه خائـف مثلهـا تمامًـا. «والـدة مـدام فونتـان مريضـة. وكانـت تتسـاءل إذا كان بمقـدورك أنـت أو والدتـكِ مجالسـة ابنتيْهـا خـلال ذهابهمـا إلـى عيـادة الطّبيـب باتينـاود».

«سـيمون وكوليـت نائمتـان، ولهـذا لـن تكـون هنـاك أي مشـكلة» قالـت مـدام فونتـان، بـلا تواصـل بعينيْهـا.

«إنّهما في الثّانية والرّابعة فقط».

«أجل أعرف عمريْهما» قالت إيڤا بتصنّع، ذلك لأنّها قابلت الفتاتيْن في الفناء في اليوم السّابق. مالت لتلقي التّحيّة عليهما، فبدأت الفتاة الكبرى الحديث عن الفراشات والتّفاحات، ظهرت بعدها مدام فونتان من العدم وسحبت الفتاتيْن بعيدًا. في أثناء انعطافها عند زاوية المبنى، سمعتها إيڤا وهي تنهرهما عن مخالطة اليهود.

«طرقت أبوابًا أخرى، لكن لم يُفتح أي باب. أرجوكم. لم أكن لأطلب لو لم يكن الأمر ضروريًا»

«سنهتم بابنتيْك بلا شك». ظهرت والدة إيڤا من غرفة نومها، وكانت قد غيّرت ثياب النّوم وارتدت فستانًا قطنيًا بسيطًا وسترة. «لهذا وُجد الجيران. ستأتي إيڤا معي. أليس كذلك يا عزيزتي؟»

«نعم ماموشا بالطّبع. ذهب والد الفتاتيْن إلى الجبهة العسكريّة، وربما مات، ولم يكن لديهم أحد غيره»

«إيڤا، غيّري ثيابك بسرعة» قالت الأم لابنتها، ثمّ التفتت إلى مدام فونتان. «اذهبي. لا تقلقي. ستكون ابنتاك بخير».

«شكرًا» قالت مدام فونتان، لكنّها ما زالت تتجنّب تلاقي الأنظار. «سأعود في أقرب وقت ممكن». وضعت مفتاحًا في يد ماموشا وغادرت قبل أنْ يقولوا أي كلمة أخرى.

ارتدت إيڤا الفستان الذي ارتدته البارحة، ومشّطت شعرها قبل أنْ تذهب إلى والديْها في رواق المنزل. «أنتما تعرفان مشاعر مدام فونتان نحو اليهود، أليس كذلك؟» لم تقاوم إيڤا طرح السّؤال.

«نصف سكّان باريس يشعرون بالأمر ذاته» قالت والدتها بتبرّم. «لكن إذا اعتزلناهم، فسنخسر أصالتنا، وسنسمح لهم بتغييبنا. يستحيل أنْ نفعل هذا يا إيڤا. يستحيل».

«أعرف» تنهّدَت ثمّ قبّلت والدها وودّعته. «عد إلى سريرك تاتوش. أنا وماموشا سنكون بخير».

«فتاة صالحة» قال لها وهو يقبّل وجنتها. «اعتني بوالدتك». قبّل زوجته بلطف، وفور خروجهما من الشّقة أغلق الباب بطقطقة خفيفة.

بعد ساعتَين، خلال نوم كوليت وسيمون في سريرَيْهما وشخير ماموشا الخفيف إلى جانبها على الأريكة في شقّة مدام فونتان، استيقظت إيڤا من نومها عند سماعها صوتًا. نور الفجر الخافت يلوح في الأفق ويتسلّل بيْن السّتائر. لعلّ مدام فونتان ووالدتها قد عادتا.

نهضت إيڤا عن الأريكة، بحذر لئلّا توقظ ماموشا. توجّهت إلى الباب ونظرت في ثقب الباب، وهي تتوقّع مشاهدة مدام فونتان تتحسّس مفاتيحها. غير أنّها شاهدت أمرًا قذف الرّعب في قلبها. بارتجاف، أجبرت نفسها على النّظر من جديد.

في الرّواق، وقف ثلاثة رجال شرطة أمام شقّة إيڤا، على بُعد أبواب قليلة منها. صدر الصّوت ذاته الذي أيقظها مرّة أخرى؛ ضابط لا يرتدي الزّي الرّسمي قد اتّكأ على بابها. لا يا تاتوش، صرخت إيڤا بصمت. لا تفتح الباب!

لكنّ والدها فتح الباب، وخرج مرتديًا أفضل بدلة لديه، نجمته الصّفراء مثبّتة جيّدًا على النّاحية اليسرى. أحد الضّباط، ذلك

الـذي يحمـل مجموعـة أوراق مرتّبـة، قـال لـه أمـرًا، لكـنّ إيڤـا لـم تتمكّـن مـن معرفـة مـا هـو. عضّـت شـفتيْها حتّـى ذاقـت الـدّم، قرّبـت أذنيْهـا مـن البـاب.

- «أيْـن زوجتـك؟» سـمعت إيڤـا صوتًـا غليظًـا يسـأل. دخـل ضابـط آخـر الشّـقة بعـد أنْ دفـع تاتـوش جانبًـا.

- «زوجتي؟» تسـاءل تاتـوش بهـدوء غريـب.

- «فايفـا تـروب، فـي الثّامنـة والأربعيـن مـن عمرهـا، وُلـدت عـام 1894 فـي كراكـو، بولنـدا». صـوت ذلـك الرّجـل متوتّـر فاقـد للصّبـر.

-«أجـل طبعًـا. فـي الواقـع لقـد خرجـت للاعتنـاء بأبنـاء صديقـة مريضـة».

- «أين؟ ما العنوان؟»

- «مع الأسف لا أعرفه»

- «وهل ستعود؟»

- «لستُ متأكّدًا من هذا أيضًا»

تمكّنـت إيڤـا مـن سـماع تمتمـة رجـال الشّـرطة مـع بعضهـم. الضّابـط الـذي دخـل الشّـقة، خـرج وهـو يهـز رأسـه بنفـي.

«مـاذا عـن ابنتـك؟» تكلّـم الضّابـط مـن جديـد، بنبـرة أكثـر غضبًـا.

«إيڤـا تـروب؟ فـي الثّالثـة والعشـرين مـن عمرهـا؟»

«مع أمّها» أجاب والدها بنبرة خالية من المشاعر فجأة.

«لكنّها ولدت هنا في فرنسا. ما من داع لإزعاجها»

«اسمها في قائمتنا»

«قائمتكم خطأ»

«نحن لا نخطئ البتّة»

«أتعتقدون أنّ ما تفعلونه صائب؟» أجاب والدها بصوت مرتفع، وسمعت إيڤا صوت ضربة وشهيقًا عميقًا. تجرّأت على النّظر في ثقب الباب مرّة أخرى، وشاهدت والدها ممسكًا أنفه. لكمه أحد الضّباط. قبضت إيڤا كفّيْها، وترقرقت عيناها حين قرّبت أذنيْها من الباب من جديد.

قال الشّرطي: «لا تتجاسر. ستأتي معنا الآن أو إذا أردت، يسعدنا إطلاق النّار عليك هنا. اختفاء يهودي من القطارات، لا يشكل فرقًا بالنّسبة إليّ».

كتمت إيڤا أنفاسها.

«دعوني أحزم حقيبة واحدة» قال والدها.

«أوه، سنرجع لأخذ ممتلكاتك الثّمينة. لا تخف»

حين سكت تاتوش، نظرت إيڤا في ثقب الباب، في اللحظة التي أغلق فيها الباب خلفه. التفت إلى كتفه، باتّجاه شقّة فونتان. أكان يعلم أنّ ابنته تشاهده؟ أنّها سمعت كل شيء؟

لكن لا يهم. رحل تاتوش قبل أنْ يرتد إليها طرفها، وخلال دقيقة، أغلق باب المبنى الرّئيس إغلاقًا نهائيًا عاليًا. هرعت إيڤا إلى النّافذة، أزاحت السّتائر السّوداء جانبًا، وحدّقت إلى أسفل الشّارع الذي كان مدجّجًا بالشّرطة وعربات تحمل رجالًا ونساءً وأطفالًا -منهم من هو مشدوه، ومنهم من هو غاضب، ومنهم من يبكي- بعيدًا عن منازلهم. ميّزت إيڤا آل بيبروسكاس –الأم، وآنا، والأب، وماكس، والطّفلين الرّضيعيْن: هنري وألين. كما شاهدت آل كروسبيرغ، وهما زوجان عجوزان اعتادا التّلويح لها بترحاب حين تغادر إلى الجامعة في الصّباح.

راقبت إيفا الموقف، ويدها على فمها لكبح الشّهقات والعبرات حين اقتادوا والدها إلى الحافلة. سحبته يدٌ في مؤخّرة الحافلة إلى الدّاخل. وقبل أنْ يختفي تمامًا نظر إلى المبنى، فضغطت إيڤا راحة يدها على الزّجاج البارد. أومأ لها، فتأكّدت من أنّه شاهدها، وعرف أنّ تلويحها بصمت وعدٌ يعني أنّها ستعتني بماموشا حتّى عودته.

«إيڤا؟» بدا صوت والدتها غليظًا وناعسًا خلفها في الغرفة المعتمة. «ماذا يحدث؟»

شاهدت إيڤا الحافلات وهي تبتعد قبل أنْ تلتفت إلى والدتها. همست وقالت: «رحل تاتوش. أخذه رجال الشّرطة...» لم تتمكن من استكمال جملتها.

«ماذا؟» قفزت أمّها عن الأريكة واقتربت من النّافذة. «إلى أيْن؟ يجب أنْ نلحقه! لماذا لم توقظيني يا إيڤا؟ اختنقت كلماتها بدموعها وهي تقبض على الباب. لكنّ يديْها ارتعشتا، فتأهّبت إيڤا لإمساكها قبل أنْ تنهار على الأرض ودموعها تبلّل جسدها. «لماذا يا إيڤا؟ لماذا لم توقفيهم؟ ما الذي فعلته؟»

شعرت إيڤا بتأنيب الضّمير. «ماموشا» قالت بلطف ووالدتها بيْن ذراعيْها: «سيأخذونكِ أيضًا، وسيأخذونني».

شهَقَت ماموشا. «لا يُعقل! أنت فرنسيّة»

«أنا يهوديّة. هذا كل ما يرونه».

حينها فقط، سمعوا بكاء من غرفة الفتاتيْن. «ماما؟ أين أنتِ يا ماما؟» إنّها الابنة الكبرى، كوليت، صوتها عالٍ مفزوع.

نظـرت ماموشـا إلـى إيڤـا بألـم، وقالـت بهمـس: «يجـب أنْ نلحـقَ بأبيـك». احتضنَـت راحتـي يـد ابنتهـا وهـي تقـول: «يجـب أنْ ننقـذه».

«ليـس الآن» أجابـت إيڤـا بحـزم وكوليـت تنـادي والدتهـا مـرّة أخـرى. «يجـب أنْ نعثـر علـى طريقـة لإنقـاذ أنفسـنا أوّلًا».

الفصل الثّالث

انبلج الفجر بعد ساعة واحدة، وعمّت فوضى ساكنة. الشّارع أسفل شقّة مدام فونتان مزدحم بالنّاس، لكن بالكاد سُمع صوت منهم. احتشد الجيران معًا، يتهامسون، لا يوجد أي شخص يرتدي النّجمة الصّفراء. يهود قطاع مارايس اختفوا البارحة.

«علينا البحث عن والدك» قالت أم إيڤا، وهي تحتضن نفسها وتُحرّك نفسها إلى الأمام والخلف على الأريكة.

الفتاتان الصّغيرتان، لا تزالان ترتديان ثياب النّوم، تجلسان على الأرض، وتحدّقان إلى إيڤا بعينيْن مُتعجبتيْن. أخذت إيڤا نفسًا عميقًا، أدارت ظهرها للنّافذة، ومشت في الغرفة لتجلس بينهما. وضعت ذراعًا على كوليت، والأخرى على سيمون. «لن نذهب إلى أي مكان» قالت وهي تدعي الفرح، وتقرص كتفي الفتاتيْن. «حتّى تعود مدام فونتان».

«حسنًا، متى ستعود ماما؟» تنهّدت كوليت. كان من الواضح قدرتها على ملاحظة الخوف في الغرفة، رغم عدم فهمها له.

«قريبًا عزيزتي» أجبرت إيڤا نفسها على الابتسام. «لا داعي للقلق».

«إذن، ما سبب خوف مدام تروب؟»

لمحت إيڤا والدتها الشّاحبة كأنّها رغيف فرنسي لم يطبخ. «ليست شاحبة» قالت بنبرة حازمة كفيلة بجذب انتباه والدتها. رفعت ماموشا ناظريْها، دون تركيز. أضافت إيڤا: «إنّها متوعكة بعض الشّيء. أليس كذلك ماموشا؟» لم تجب والدتها.

أمعنت كوليت في عيني إيڤا لدقيقة، ثمّ استرخت. «هل أُحضر لها شيئًا ليساعدها على التّحسن؟»

«هذه فكرة رائعة يا كوليت. لمَ لا تصطحبين سيمون معكِ؟»

«أومأت كوليت بالإيجاب قبل أنْ تسحب يد أختها باتّجاه غرفتهما المشتركة.

استدارت إيڤا باتّجاه أمّها فور ذهاب الطّفلتيْن. «يجب أنْ تتمالكي نفسك».

«لكن والدك...»

«ما عاد موجودًا» قالت إيڤا بحزم، رغم أنّها لم تتمكن من إخفاء الهلع الذي في صوتها. يجد الفزع طريقه بين صدوع النّفس دائمًا. «سنعثر على طريقة تضمن إطلاق سراحه. أعدك. لن نتمكّن من فعل شيء إذا اعتقلنا أيضًا».

«لكن...»

«من فضلك. أحتاج فقط إلى معرفة كيفيّة...»

«مدام تروب؟» قاطع صوت كوليت حوارهما الخافت، فالتفتتا لتشاهدا الطّفلة التي في الرّابعة من عمرها، ترتدي تاجًا ورقيًا تقف في المدخل، وتمسك تاجًا معدنيًا بيدها. رفعت التّاج إلى الأعلى. «حين أشعر بالحزن، ألعب لعبة التّأنّق. إذا أردت، فيمكنك أنْ تكوني الأميرة وأنا الملكة».

«التّأنّق؟» نظرت ماموشا بدهشة.

«إنّها لعبة تتظاهرين فيها بأنّك شخص آخر». عبست كوليت.

«ألا تعرفين ما هو التّأنّق مدام تروب؟»

لم تجبها ماموشا، لكن التمعت فكرة في ذهن إيفا. «أعرفها بلا شك» تمتمت وتسارعت نبضات قلبها فجأة. تذكَّرت حديث والدها عن السّيد كوجون. إذا دفع والدها أجرًا لرب عمله مقابل خدمة، فبالتّأكيد سيتمكّن من فعل شيء لماموشا أيضًا. كل المطلوب هو أنْ تدعي هي وماموشا أنّهما امرأتان أخريان، على الورق على الأقل؛ لعبة تأنّق تنطوي على أعلى المخاطر.

«آنسة تروب؟ أتريدين اللعب أيضًا؟»

مالت إيفا إلى جانب الفتاة الصّغيرة. «لا يا كوليت، لكنّك جعلتني أفكر في فكرة رائعة. أيمكنك الاعتناء بمدام تروب؟» انتقلت إيفا بحديثها إلى أمّها، وقالت: «إذا عادت مدام فونتان يا ماموشا، فابقي في شقتها، مهما قالت. سأعود في أقرب وقت ممكن».

«لكن أين ستذهبين؟»

«لأقابل شخصًا بإمكانه مد يد العون لنا»

* * *

في شقّتها، شقّت إيفا طريقها في الظّلام، بفضل بصيص نور النّهار المتسلّل الذي كان كافيًا لتمييز الأثاث. إنّها تعرف الغرف تمام المعرفة أنّها تستطيع السّير فيها حتّى في الظّلام الدّامس في الظّروف العاديّة، لكنّها تشعر بالدّوار فلم تثق بنفسها، كما لم تثق بالجيران الذين سيخونونها لو سمعوا ضجيجًا مصدره شقّة يفترض أنّها خاوية.

هل أبلغ أيّ منهم عن أسرتها؟ وجودُ اسمَي والديْها المهاجرَين من بولندا حين كانا في العقد الثّاني من عمرهما في قائمة المُرَحّلين إلى مخيمات العمل منطقيٌّ. تحذير جوزِف خاص باليهود المولودين خارج فرنسا. لكن من ذا الذي أضاف اسمها إلى القائمة؟ هل أراد رحيلها أيضًا ليأخذ الشّقة؟ عاش آل تروب هنا لما يزيد على عقديْن، ولا شكّ في أنّ شقتهم هي إحدى أجمل الشّقق في المبنى، وضعف مساحة باقي الشّقق. أيحوّل الحسد والجشع الجار إلى خائن؟

أبعدت إيڤا تلك الأفكار السّوداء عن ذهنها. لا وقت للغضب، إذْ إنّ مهمّتها الوحيدة الآن هي إخراج أمّها بأمان من باريس. بعد الاعتقالات، لا يمكنهم التّجول والنّجمة الصّفراء معلّقة على صدورهم بلا شك، غير أنّ خلعها أخطر. في لحظة خروجهما، ستتعرضان لخطر مقابلة شرطي فرنسي أو جندي ألماني، وإذا طلب أوراقهما الثّبوتيّة، فستُعتقلان على الفور بتهمة ترك النّجمة في المنزل. لا، بل يجب أنْ تكونا امرأتيْن أخريين كليًّا، والطّريق إلى هذا يكمن في الآلات الكاتبة، الصّامتة والثّقيلة في غرفة المعيشة.

عليها أخذ إحداها إلى السّيد كوجون، استخدامها تذكرة إلى مقاطعة ذاتيّة الحكم. قال تاتوش إنّ رب عمله العجوز قد وعده بتزوير الوثائق لها، ستحتاج إلى إقناعه بتزوير وثائق ماموشا أيضًا. هذا أملهما الوحيد.

توجّهت إيڤا بهدوء إلى حجرة نوم والديْها، حيث أخذت ثلاثة من أفضل فساتين والدتها، وبضع سترات وتنّورات، وزوجي حذاء

إضافي، ومعطفًا ثقيلًا، رغم أنّ نهار شهر يوليو قائظ، لكن لا أحد يعرف إلى أين ستذهبان. وضعت جميع الحاجات بحذر في حقيبة سفر جلديّة.

في غرفة نومها، أضافت في الحقيبة: ثلاثة فساتين، بنطالًا، وتنورة، بضع سترات، معطفًا، حذاء مطر، ثمّ أخذت بطاقة هويّتها المكتوب فيها يهوديّة بخط عريض. هُويّة والدتها أسوأ، ذلك لأنّها تبرز مباشرة أنّها يهوديّة مولودة خارج فرنسا، وممنوعة من السّفر.

أغلقت الحقيبة وعادت إلى غرفة المعيشة حيث وضعت إحدى آلات الكتابة في حقيبة أخرى تحملها، إضافة إلى هُويّتها وتحتها هُويّة والدتها. قد يحتاج إليهما السّيد كوجون في تزويره الوثائق.

تركت حقيبة السّفر عند الباب مؤقتًا، وأغلقَت باب الشّقة، ثمّ نزلت عبر السّلالم، وهي تمسك بحقيبة الآلة الكاتبة ذات المقبض الأبيض، مطأطأة الرّأس. تجرّأت على الخروج دون نجمتها، لكنّها كانت تتّكل على حقيقة أنّ رجال الشّرطة منشغلون جدًّا في اعتقال يهود آخرين، خاصّة إذا تظاهرت بالثّقة وهي تمشي إلى مقصدها. وهل هناك يهوديّة تذهب إلى قلب باريس حاملة آلة كاتبة وهي تبتسم؟

احتاجت إيفا إلى عشرين دقيقة من المشي إلى شرطة المدينة وإدارة القطاعات، الواقع في نهر السّين على جزيرة (إيل دو لا سيتي). عمل والدها هنا قبل صدور القوانين المعادية لليهوديّة، وحتمًا حيث نُظّمت حملات اعتقالات أمس. كانت تمشي إلى معقل الوحش، ولا سبيل غير هذا.

رفعت رأسها عاليًا، ونظرت خلفها إلى برجي كاتدرائية نوتردام شاهقي الارتفاع. بينما كانت تفتح باب المركز بثقة، وتمشي داخله، تساءلت كيف يعمل قادة الشّرطة هنا يوميًا، أولئك الذين اعتقلوا اليهود كما لو أنهّم قمامة، كيف يمكنهم ارتكاب تلك الأفعال الشّريرة في بيت العدل.

«مدموزيل؟» فاجأها صوت عن يسارها مع إغلاق الباب. ابتلعت ريقها بصعوبة حين أدركت أنّ جنديًا ألمانيًا يقف هناك ويحدّق إليها.

قالت بالفرنسيّة وهي ترتجف وتتعرّق: «نعم يا سيّدي».

مجرّد جندي منهك، لم يشتبه فيها. «إلى أين تذهبين؟» سألها بلكنة ألمانيّة ثقيلة. في أثناء ترددها، أمعن فيها، وعيناه على ثدييها. حين أعاد ناظريْه إلى وجهها، عرفت كيف تلعب اللعبة.

بنفَس عميق، ابتسمت له ابتسامة تدلّل مع رمشٍ متسارع. «لم أكن أدرك مدى أناقة ثياب الشّرطة، كل هذه الطّيات مثاليّة». احمرّ وجهه فأضافت على عجل: «كما ترى، يجب أنْ أوصل هذه الآلة الكاتبة نيابة عن والدي. إنّه يصلحها، لكنّه مريض، وقد أخبروني أنّهم بحاجة إليها اليوم».

حبست أنفاسها خلال إمعان الألماني الذي لم يتجاوز الثّامنة عشرة أو التّاسعة عشرة فيها. إذا طلب منها أوراقها الثّبوتيّة، أو فتّش حقيبة الآلة الكاتبة، سيُقضى عليها.

«من ستقابلين؟»

«السّيد كوجون، في الطّابق الثّاني»

«أتعرفين مكان مكتبه؟»

«أوه نعم. أتيت إلى هنا مرّات عدّة من قبل». هذا صحيح. جاءت إلى هنا حين كانت مراهقة، قبل مجيء الألمان بزمن طويل. أحبّت إيڤا مرافقة والدها إلى عمله أيام الإجازات المدرسيّة. فتنتها كل الأختام والأقلام والآلات، وقد أعطاها السّيد كوجون مرارًا حزم أوراق وأقلام رصاص لتنشغل بها في أثناء إصلاح والدها آلات الكتابة. أحبّت الرّسم وأتقنته، لدرجة أنّ السّيد كوجون قد نصح والدها بأن تشتغل في مجال فنّي. لكنّ الرّسم لم يستهوها بتاتًا كما استهوتها الكلمات. قالت لأبيها يومًا أنّ إتقان المرء حرفة لا يعني مزاولتها بقيّة حياته، فضحك الأب وأخبرها أنّها محظوظة لتمتعها بهذه الموهبة. ستقدرين ذات يوم عطايا الرّب.

«اذهبي إذن» قال الألماني الشّاب لها، وقد ارتخت كتفاه مرّة أخرى.

مشت إيڤا بالفعل باتّجاه السّلالم وهي تشكره بالفرنسيّة «Merci!».

ظلّ قلبها ينبض بقوّة حتّى بعد صعودها إلى الطّابق الثّاني، وفتحها باب مكتب السّيد كوجون دون طرقه. كان وحيدًا، جالسًا إلى مكتبه، فرفع ناظريْه، بعينيْه الذّاهلتين وحاجبيْه الرّماديّيْن الكثيفيْن، خلال إغلاقها الباب خلفها.

«إيڤا تروب؟» سألها بلا تصديق. غزا الشّيب مفرق رأسه أكثر منذ آخر مرّة رأته فيها، فبدا أكبر بعقد كامل من والدها، رغم عمرهما المتقارب. هالتا عينيه واضحتان، وقد ارتخى فكّاه كما لو أنّهما انفصلا عن وجهه. «ما السّبب؟ لم أرك منذ سنوات».

«سامحني يا سيّد كوجون على التّطفل».

وقف وعانقها. «سمعت عن الاعتقالات، واعتقدت أنّ...»

قاطعته وقالت: «اعتقلوا والدي. اسمي واسم أمّي في قوائمهم أيضًا، لكنّنا كنّا محظوظتيْن بما يكفي لكوننا خارج الشّقة».

شحب لون السّيد كوجون وتراجع خطوة. «يا إلهي».

«لا نملك الوقت يا سيدي. رجاء. أحتاج إلى مساعدتك. أخبرني والدي بأنّه قد تكلّم معك، ورتّب المسألة. قال إنّك ستزوّر الإثباتات. نحتاج إلى مغادرة باريس في أقرب وقت ممكن»

نظر السّيد كوجون إلى حقيبة الآلة الكاتبة أوّلًا، ثمّ إلى الباب خلفها، واستقرّ نظره عليها في نهاية المطاف. عضّ شفتيْه، وقال: «لكن ما عساي أنْ أفعل؟ وعدت والدك بمساعدتك، لا مساعدة والدتك».

«لا يمكنني تركها. لن أفعل».

«في كلامها نبرة بولنديّة يا إيڤا، وبصراحة تبدو يهوديّة المظهر. في مساعدتها خطورة كبيرة. ستُعتقل بلا شك، حينها ستُبلغ عنّي...»

«أنت لا ترفض مساعدتي بالتأكيد». غدا ذعر إيڤا غضبًا. «خدَمك أبي سنوات طويلة، أليس كذلك؟ كان عند حسن ظنك، ووفيًّا».

تجعّد جبين السّيد كوجون، ولثانية أو ثانيتيْن بدا أنّه سيبكي. «إيڤا، أود مساعدتك، لكن لو قبضوا عليّ وأنا أزوّر الوثائق، خاصّة ليهوديّة بولنديّة المولد...»

«ستُعتقل، وربما تُعدم. أعلم». تقدّمت إيڤا خطوة واحدة، وأخفضت صوتها. «سيّد كوجون، أعرف ما أطلبه منك تمام المعرفة. فرصتنا الوحيدة هي الهرب إلى المنطقة الحرّة، بعدها سأعثر على طريقة تعيدني لأنقذ والدي».

«أنا... أنا لا أستطيع تنفيذ طلبك» أشاح بنظره، ثمّ قال: «لدي زوجة وطفل وعلي التّفكير فيهما، و...»

«وثق والدي بك. دفع لك آخر مدّخراته». أخذ نفسًا عميقًا، لكنّه لم يقل شيئًا.

«أرجوك يا سيّدي». انتظرَت حتّى نظر إليها من جديد. «أتوسّل إليك».

تنهّد أخيرًا. «سأعطيك بطاقات هُويّة خالية يا إيڤا، بعض أوراق السّماح بالسّفر الخالية. هذا كل ما بوسعي فعله. أنت فنّانة ماهرة منذ نعومة أظفارك، أتذكّر هذا».

«أنت... تريدني أنْ أزوّر؟» من السهل على إيڤا تعبئة مساحات المعلومات الشّخصيّة: الاسم، مكان الميلاد، تاريخ الميلاد، لكن كيف ستزوّر باقي الأمور؟ فاستدركت: «لكنّك وعدت والدي يا سيّد كوجون!»

تجاهل اعتراضاتها، وأكمل بصوت خفيض. سأحاول العثور على أقلام رسم بلون الأختام. لا بدّ من وجود مخزون في الخزانة. لكن لا يمكنك البقاء هنا، وإذا اكتشف أي شخص ما تفعلين، سأنكر معرفتي بك. سأقول إنّك سرقتِ الوثائق».

«لكن...» استدركت في الوقت الذي مرّ فيه بجانبها وخرج من المكتب. وقفت في مكانها، تتنفّس بصعوبة، وهي تفكّر في

خياراتها. هل تصر على موقفها، وتتوسّل للمساعدة؟ لم تحاول قط فعل شيء ممّا اقترحه.

ظهر من جديد بعد دقائق وناولها ظرفًا صغيرًا. «ستجدين كل ما تحتاجين إليه هنا. استعيني بالوثائق الأصليّة، وحاولي قص صورة قديمة لك لتضعيها في بطاقات الإثبات؛ بطاقاتك الحاليّة مختومة على الأرجح بلون أحمر لا يُمحى. كما وضعت تصريح سفر ملغى لتعرفي شكله. ستحتاجين أنت وأمّك [إلى مثل هذا التصريح] للمغادرة إلى المنطقة الحرّة. أضفت إثبات جنسيّة خاليًا لوالدتك، لتوضيح سبب اللكنة البولندية في كلامها، كما أضفت شهادة ميلاد خالية لك. من السّهل تعبئتها...»

«لكنّي أجهل كيفيّة...»

«أخفيها تحت الآلة الكاتبة» أكمل حديثه متجاهلًا اعتراضاتها وهو يضع حقيبة الآلة الكاتبة على مكتبه ويفتحها. رفع الآلة بحذر، ثمّ وضع الظّرف أسفلها، وأضاف دبّاسة، فأعاد الآلة إلى مكانها، ثمّ أغلق الحقيبة من جديد، وناولها إيّاها. «اخرجي كأنّك واثقة ممّا تفعلين. لن يوقفوكِ، وإذا فعلوا، تصرفي كأنّ فعلهم قد أهانك. معظم الجنود هنا محض شباب يدّعون القوّة».

أحكَمت قبضة يدها اليمنى على المقبض. «سيّد كوجون، أنا لست مُزوّرة! هذا مستحيل!».

«هذا كل ما يمكنني فعله. ما الذي اعتاد والدك قوله؟ أنّ الرّب قد منحك موهبة فنيّة؟ حسنًا، حان الآن وقت استخدامها».

شعرت بالدوران وفي رأسها آلاف الأسئلة. هرب أحدها من بين شفتيْها أخيرًا: «لكن... إلى أين سأذهب؟»

حدّق إليها وقتًا طويلًا، ثمّ قال سريعًا: «سمعت من ابنة خالة زوجتي عن قرية اسمها أورينيون، على بُعد ثمانين كيلومترًا تقريبًا من فيتشي. سمعت أنّهم يؤوون الأطفال هناك، ويساعدونهم للوصول إلى سويسرا. قد يفعلون الأمر ذاته معك ومع أمّك».

«أورينيون؟» لم تسمع بها من قبل. «وليست بعيدة عن فيتشي؟» فيتشي قرية الينابيع الطّبيعيّة التي يُعرف أنّ حكومتها من تشكيل رئيس الوزراء فيليب بيتان. تعج بالنّازيين حتمًا».

«أورينيون» قرية صغيرة، تقع على التّلال عند بعض البراكين القديمة، موقعها ليس استراتيجيًا. لا سبب يدعو الألمان للاهتمام بها، ما يجعلها مكانًا آمنًا للاختباء. غادري الآن يا إيڤا، ولا تنظري وراءك. رحلة موفّقة. فعلت كل ما بوسعي». استدار بسرعة لدرجة أنّها تساءلت إن حدث الحوار فعلًا.

«شكرًا سيّد كوجون». أنهَت حديثها، وغادرت مكتبه، ثمّ نزلت السّلالم بثقة، كل عضلة في جسمها مشدودة، وعلى وجهها ابتسامة جامدة. الضّابط لا يزال في الطّابق السّفلي. ضاقت عيناه عند مرورها.

«اعتقدت أنّك ستُسلمين الآلة الكاتبة» قال لها وهو يسد طريقها.

«هذه آلة مختلفة تحتاج إلى من يصلحها» قالت له بثقة. ورمشت عينيها بسرعة ودلال. «يجب أنْ أذهب».

«لم العجلة؟» عيناه على ثدييها مرّة أخرى، دون حياء، كما لو أنّها شيء يمكنه الحصول عليه، له الحق في امتلاكه.

أجبَرت نفسها على التّحلي بالهدوء وتعريض ابتسامتها. «مهام

كثيرة عليّ إنجازها، كما تعلم. المركز مزدحم بمعتقلي البارحة كما أعتقد».

أومأ الألماني رأسه بالإيجاب، لكنّه كان لا يزال عابسًا. يستحقون هذا، كما تعلمين».

انزعجت فجأة «عفوًا؟»

«اليهود. أعرف أنّ الاعتقالات بدت عنيفة، لكنّ هؤلاء الأشخاص يشكلون خطرًا».

«صحيح» قالت وهي تبتعد. «أتمنى أن ينال كل الهوام الذي عاثوا بأرضنا فسادًا العقاب قريبًا».

أومأ الألماني رأسه بالإيجاب. «معك حق يا آنسة. اسمعي، إذا كنت مهتمة، هناك مجموعة منّا نجتمع معظم الأيّام عند الخامسة في مقهى في الربع اللاتيني اسمه (لا بتيت پونت). يمكنني شراء شراب لك...»

«يا لها من دعوة كريمة. قد أنضم إليك».

ابتسم لها. «رائع»

ودّعته بتلويح يدها وابتسامة صادقة، ذلك لأنّها تعلم أنّها ستكون مع أمّها على متن قطار ذاهب إلى الجنوب حين يجلس الألماني لشرب البيرة الأولى.

الفصل الرّابع

بعد عشرين دقيقة، سمحت إيڤا لنفسها بالدّخول إلى شقّة أسرتها من جديد. عليها التّحرّك بسرعة، قبل مجيء الجيران لجمع الغنائم.

على خزانة الأطباق صورة رسميّة مؤطّرة لوالديْها في ذكرى زواجهما الخامسة والعشرين قبل ثلاثة أعوام، وصورة يحمل فيها والدها حقيبتي آلتي كتابة ويبتسم، وأخرى لوالدتها في (كابورج) خلال إجازة في أواخر الثّلاثينيّات. كما كان هناك صورة لإيڤا في الإجازة ذاتها في (كوت فلوغي)، وأخرى التقطت بعد تخرجها من الثّانويّة. أخرجت جميع الصّور من براويزها.

وجدَت مقصًّا في صالة الاستقبال، إلى جانب إحدى آلات الكتابة، فالتقطته بسرعة إلى المطبخ. باستخدام الصّورة الموجودة على بطاقة والدتها لتعرف القياس الصّحيح، قصّت وجه أمّها وكتفيْها بحذر من صورة ذكرى زواجهما، وفعلت الأمر ذاته مع صورها الشّخصيّة، وأمّها ووالدها من الصّور الفوتوغرافيّة الأخرى أيضًا.

جمَعت الهُويّات والصّور السّتة البديلة في حقيبة الآلة الكاتبة وأغلقتها من جديد.

ألقت نظرة أخيرة إلى الرّفوف الخشبيّة المستندة إلى الجدران، المملوءة من الأرض إلى السّقف بكتب جميلة، صفحاتها تنضح بمعرفة تشرّبت من روافدها مع مضي الأعوام. يعود معظمها إلى والدها قبلها: نصوص عن تقنيات إصلاح الآلة الكاتبة، كتب

مرجعيّة عن الطّب، النّظام الشّمسي، الكيمياء، وحتّى نسخة من الطّبعة الأولى من مغامرات توم سوير (إحدى أوائل الرّوايات التي كتبت بالآلة الكاتبة)، وإحدى ممتلكات والدها الثّمينة. قرأتها كلّها، وادّخرت المال لشراء المزيد. كانت الكتب مهربها، ملاذها، وستصبح الآن جزءًا من شّقة قد لا تعود إليْها. «الوداع» همسَت وهي تمسح دمعة.

ألقت نظرة أخيرة إلى المنزل الوحيد الذي عرفته، غادرت، أمسكت حقيبة السّفر وحقيبة الآلة الكاتبة ثمّ أغلقت الباب.

طرقت إيڤا باب منزل مدام فونتان بعد لحظات. كوليت هي التي فتحت الباب، فسألت بتعجّب: «أين أمّي؟ لم تعد بعد، أخبرتِني أنّها ستعود يا آنسة تروب».

«وستعود يا كوليت»، قالت إيڤا بتأكيد، وهي تتقدّم خطوة إلى جانب الفتاة وتغلق الباب وراءهما. «لا تقلقي». في نهاية المطاف، مدام فونتان مسيحيّة. إذا حاول ضابط أن يدسّها مع اليهود، فدون أدنى شك ستصلّي بصوت عالٍ بغضب لإقناعه بإخلاصها ليسوع قبل أنْ تعطيه أوراقها.

المشكلة أنّ إيڤا لا تستطيع ترك الفتاتيْن وحدهما. عليها هي وأمّها انتظار مدام فونتان قبل الهرب.

ماموشا في المكان ذاته الذي جلست فيه قبل مغادرة إيڤا قبل ساعتيْن، متقوقعة على أريكة، وتحدّق بشرود إلى ما حولها. «ماموشا؟» سألت إيڤا وهي تتّجه نحو والدتها وتضع يدها على كتفها. كانت ترتجف: «أأنت بخير؟»

«لم تزل غير راغبة في لعب لعبة التأنّق» قالت كوليت حين سكتت ماموشا.

«أنتِ تعرفين يا كوليت، أعتقد أنها مريضة. هلّا أرجعت ثياب التأنّق إلى مكانها قبل عودة والدتك يا عزيزتي؟ حتمًا لا تريدين إغضابها».

«حاضر يا آنسة». جمعت كوليت الشّرائط والفساتين التي بعثَرتها وأشارت لأختها، ثمّ ركضتا إلى غرفتيْهما.

مالت إيڤا بسرعة إلى أمّها. «لدي خطّة يا ماموشا، لكن يجب أنْ تخرجي من حالة الاكتئاب بسرعة. يجب أنْ نغادر باريس في أقرب وقتٍ ممكن. يجب أنْ تُبقي الفتاتيْن مُنشغلتيْن حتّى أعود. وإذا عادت مدام فونتان، حاولي إلهاءها حتّى أنتهي».

رمشت ماموشا عدّة مرّات، ثمّ قالت: «ماذا ستفعلين؟»

مالت إيڤا. «سأصنع مستندات زائفة لنا».

«تزوير؟ أنت لا تعرفين طريقة فعل أمور كهذه!»

بلعت إيڤا ريقها بصعوبة وحاولت ادّعاء الثّقة بالنّفس. «سأحاول، لكن لا يوجد متّسع من الوقت، لذا اسمعي. سيكون اسمك: سابين فونتان».

شهقت ماموشا. «ستُسمّينني باسم مدام فونتان؟»

فكّرت إيڤا في هذا الأمر مذ غادرت مكتب السّيد كوجون. إنّهما بحاجة إلى اسميّ امرأتين حقيقيّتيْن، في حال الاشتباه وقرّر الضابط مقارنة بطاقتي الهُويّة بالسّجلات الرّسميّة. «أعتقد أنّ هذا أسلم» قالت إيڤا. «اسم سابين قد يكون روسيًّا أيضًا، وأجد هذا ضروريًّا. سيفسّر اللكنة في كلامك. إذا استفسر

عنها أي شخص، فستقولين إنّك قد هاجرتِ من روسيا عقب ثورة 1917. وحتمًا، تزوّجتِ زوج مدام فونتان الحقيقي. جان-لوي فونتان، جندي فرنسي فقد في الجبهة الأماميّة».

غضّت والدتها الطّرف عنها. «وماذا عنك؟»

«سأكون كوليت فونتان»

«لكنّ كوليت الحقيقيّة مجرّد طفلة»

«خلال الوقت الذي سيفكّر فيه أي شخص بمطابقة تاريخ الميلاد. سنكون قد غادرنا بوقت طويل»

«لكن كيف ستنجزين هذه المستندات؟» ألحّت ماموشا.

شرحت إيڤا باختصار ما حدث عند زيارتها السيّد كوجون والوثائق الخالية والأدوات التي أعطاها إيّاها. ختمت حديثها وقالت: «سأفعل أفضل ما في وسعي».

«يستحيل أنْ ينجح الأمر» قالت ماموشا.

«يجب أنْ ينجح يا ماموشا».

في المطبخ، فتحت إيڤا حقيبة الآلة الكاتبة، رفعت الآلة، وسحبت ظرف السّيد كوجون من أسفل المفاتيح. داخله، ثلاث بطاقات هُويّة خالية، وثلاثة تصريحات للسّفر خالية، وشهادة تجنّس، وشهادة ميلاد، وأربعة أقلام؛ أزرق غامق، وأزرق فاتح، وأحمر، وأسود. وجدت أخيرًا أفضل ما في هذا الظّرف: طوابع لاصقة عليها صور عملات. يستحيل إتمام عملية تزوير المستندات بأدوات بسيطة دون هذه الطّوابع، ولا يمكن أنْ تشتريها دون... إثارة الشّبهات.

أغلقت عينيْها، وشكرت السّيد كوجون في قلبها على مساعدته البسيطة في توفير كل الأدوات التي على الطّاولة إلى جانب بطاقات هُويّة حقيقيّة لها ولوالدتها. أخذت نفسًا عميقًا. سمعت صوت والدها في رأسها: ستقدرين يومًا ما عطايا الرّب.

بدأت ببطاقة هُويّة أمّها. أوّلًا، عليها تزييف خط يد كاتب مشغول ومحترف، بإتقان وبطريقة مقنعة. أمعنت في بطاقة والدتها الحقيقيّة، وذكّرت نفسها بأنّ لا محل للعبث هنا، وبدأت العمل. بالقلم الأسود الذي أعطاه إيّاه السّيد كوجون، ملأت الفراغات بحروف مرتبة قصيرة:

الاسم الأخير: فونتان نيي بيتروف

الاسم الأوّل: سابين إرينا

الميلاد: 7 أغسطس 1894

محل الميلاد: موسكو

واصلت العمل. كتبت لون شعر أمّها الحقيقي، ولون عينيْها، وطولها، وتفاصيل أخرى. صكّت على أسنانها عند خانة «الأنف» التي كُتبت لتساعد السلطات على تتبّع اليهود. كتبت: متوسّط، ثمّ تابعت وكتبت عنوانًا ورقم تسجيل زائفيْن، وانتهت بمحاكاة إمضاء شخص أمضى يومه بربط اسمه بحيوات الآخرين.

استراحت لحظة وتأمّلت صنيع يديْها. بدا خط اليد الذي على وثائق أمّها الأصليّة رسميًا بما يكفي ليقنع الغريب. أخرجت إيڤا الصّورة التي قصّتها من إطار ذكرى زواج والديْها، ووضعتها في المكان المخصّص لها على البطاقة. بحذر وباستخدام دبّاسة وضعها السّيد كوجون في حقيبة الآلة الكاتبة، ثبّتت الصّورة، ثمّ رجعت إلى الوراء لتتأكّد من أنّ الوثيقة تبدو أصليّة.

لم تكن مثاليّة، لكنّها ستفي بالغرض. ثبّتت صورتها على بطاقة الهُويّة الثّانية، وأضافت الطّوابع اللاصقة إلى كلا البطاقتَين، وملأت الفراغات بسرعة بالبيانات الآتية: كوليت فونتان، ولدت عام 1920 في باريس، وشعرها بني اللون، وأنفها بلا شك متوسّط الحجم. مع انتهائها من تزوير توقيع كاتب مُتخيّل، كان الحبر جافًا بما يكفي لبدء تزييف أختام الوثائق الرّسميّة؛ هاجس إيڤا الأكبر في هذه العمليّة. لهذا الأمر احتاجت إلى أنْ تكون يدها واثقة وخفيفة دون أي خطأ بتاتًا. يجب ألا تكون الآثار من فعل خط اليد، ويجب أنْ تُطابق تمامًا الدّمغات المصنوعة بالجملة التي شاهدها رجال الشّرطة الفرنسيّة والجنود الألمان آلاف المرّات.

بدأت ببطاقة هُويّتها، وهي تعي أنّها لو ارتكبت خطأ فستكون أقلّ إثارة للاشتباه من والدتها المولودة خارج فرنسا. الدّمغة التي على المستند الحقيقي أشبه بلطخة وغير مستوية، ما يدل على أنّ الخَتّامة في طريقها إلى الجفاف. يستحيل تزييف ذلك النّوع من التّلاشي، فكّرت إيڤا، لكنّها لو تمكّنت من محاكاة خطوط الختم بدقّة، فستبدو حقيقيّة، حتّى لو كانت فاتحة اللون بعض الشّيء.

بدأت برسم دوائر زرقاء التي على البطاقة من الجهة العليا أو السّفلى، وحرصت على أنْ تتداخل الدّوائر العُليا مع الصّورة بعض الشّيء، ثمّ رسمت بحذر شعار الشّرطة الرّسمي. أصعب جزء في الدّمغة هو كتابة الحروف، لكنّ إيڤا هدّأت نفسها وكتبتها بحذر، ثمّ سمحت لنفسها بتأمل عملها اليدوي بإعجاب بعد انتهائها منه. زيّفت كذلك الأختام على بطاقة والدتها، ثمّ استخدمت القلم الأزرق القاتم لتزييف التّاريخ. نشّفت الحبر على كلا البطاقتَين

بفوطة من فوط مدام فونتان، ثمّ شهقت بارتياح بعدما أصبحت الخطوط الحادّة ناعمة وماعت بعض الشّيء، كما لو أنّها من فعل ختم مطاطي حقيقي.

كانت تتنفّس بصعوبة في أثناء رجوعها إلى الخلف للتّحديق في البطاقتيْن، لكنّ الرّعب الذي أثقل صدرها مذ شاهدت اعتقال والدها بعيدًا قد سكن بقليل من البهجة، بشيء ما يشبه بصيص أمل. أنجزَت المهمّة. لم يكن العمل مثاليًا، لكنّ البطاقتيْن ستؤدّيان الغرض منهما إذا لم يمعن فيهما أحد.

تزوير وثائق السّفر أسهل؛ كل ما على إيڤا فعله هو ملء الفراغات (بالاسم، ومكان الميلاد، والوظيفة، والعنوان، والجنسيّة، إلخ) باستخدام الآلة الكاتبة، فتجهّزت لهذا بسرعة وبدأت المهمّة. العمل الفنّي الوحيد على هذه الوثائق هو تزوير دمغة شعار العقاب النّازي الأسود. نَسَخَت إيڤا جناحيّ الطّائر المفروديْن اللذين يعلوان الصّليب المعقوف، والحروف الألمانية المكتوبة بشكل قوس حول الصّورة. فوق جسد العقاب، كتبت بحذر:

Cachet :Dientstempel وتمنّت أن يطابق خطّها الأصل. لكنّها تردّدت عند كتابة مكان الولادة ثمّ كتبت اسم القرية التي ذكرها السّيد كوجون: أورينيون. يا إلهي، لن تتمكّن من تحديد موقعها على الخريطة إذا طلبوا منها؛ إنّها لا تعرف شيئًا عنها. أخمدت إيڤا مخاوفها وذكّرت نفسها بأنّ السّيد كوجون لن يغامر بمساعدتها ببطاقات ثمّ يقودها إلى مسلك خاطئ.

شهادتا الجنسيّة والميلاد هما الأسهل تزويرًا؛ كل ما عليها فعله هو تغيير خط الكتابة، لتجعل الحروف أطول ومتلاصقة، وتملأ

الفراغات بتفاصيل وهميّة. الختمان المطلوبان أحدهما أزرق والآخر أسود، شعرت بأنّهما لعبتا أطفال خاصّة بعد التعقيدات التي فعلتها على الأوراق السابقة. انتهت بعد وقت قصير.

كانت على وشك البدء بتزييف وثائق أبيها التي أبقتها حتّى النّهاية في حال لم يعد لديها وقت، وهو ما حدث عندما سمعت صوت مفاتيح أمام باب الشّقّة. وقفت، وجمعت كلّ الأغراض والبطاقتيْن، عندها لطّخت قميصها بالحبر الأزرق.

«يا فتيات؟؟» نادت مدام فونتان بعد إغلاق الباب.

«ماما!» ركضت الفتاتان عبر ردهة الشّقة وارتمتا بين ذراعيْ والدتِهما مع دخول إيڤا إلى غرفة الاستقبال.

حدّقت مدام فونتان إلى إيڤا حتّى عندما مالت لتحتضن الصّغيرتيْن.

«أما زلتِ هنا يا آنسة تروب؟» سألت بعدما استقام ظهرها، وهي تبعد الطّفلتيْن.

«أجل بالطّبع» أجابت إيڤا.

لكن عوضًا عن شكرها، عبست مدام فونتان. «حتّى أمّك؟»

«أنا هنا أيضًا» ظهرت ماموشا من آخر الصّالة، والشّرود لم يبرح عينيْها. تطايرت خصلتان من شعرها، على ما يبدو أنّ الفتاتيْن كانتا تجدلانهما. «هل والدتك بخير مدام فونتان؟»

أجابت مدام فونتان بازدراء: «أمّي ليست من شأنك. وسأشكرك إذا غادرتِ شقّتي فورًا»

رَمَشت ماموشا بضع مرات. «كنت أحاول أنْ أكون لطيفة!»
«لستُ بحاجةٍ إلى لطف يهوديّة»

كانت سيمون ترقص في حركات دائرية، وهي تحدث نفسها باندفاع وطلاقة، لكنّ كوليت حدقت إليها بعينين فاغرتيْن، ثمّ نقلت ناظريْها إلى الكبار، كأنّها تتابع مباراة في أستاد رولاند جاروس.

«لم يؤنّبكِ ضميرك حين طلبتِ لطفنا أمس» قالت ماموشا بصوت حازم. اختفت نظرتها الشّاردة، وحلّ مكانها نظرة عديمة المشاعر.

«صحيح، أنتما تضعانني الآن في موقف التّستّر على هاربتيْن». قالت مدام فونتان بتهكّم.

فتحت ماموشا فمها لتجيب، لكنّ إيڤا قبضت على ذراع والدتها وقالت: «كنّا على وشك المغادرة، أليس كذلك ماموشا؟»

«كيف لها أنْ تتصرّف هكذا؛ كأنّ وجودنا غير مرحّب به بعد مساعدتها بدافع اللطف؟» سألت ماموشا ابنتها. «بعد أنْ شاهدنا اعتقال الشّرطة والدك؟»

«إذن، فقد أخذوا أحدكم، على الأقل». لوّحت مدام فونتان بيدها بازدراء.

«كيف تجرئين...» بدأت ماموشا، لكنّ إيڤا سحبتها نحو الباب.

«مدام تروب؟ آنسة تروب؟» نادتهما كوليت بصوتها الطّفولي. «ستغادران؟»

«أخشى أنّ علينا المغادرة يا عزيزتي». حدّقت إيڤا إلى مدام فونتان. «يبدو أنّنا أطلنا البقاء».

«هلّا عدتما لنلعب في وقت لاحق؟» سألت الطّفلة حين مرّت إيڤا إلى جانبها، وهي تسحب والدتها. أمسكت حقيبة السّفر، وتركت الآلة الكاتبة لأنّها شديدة الثّقل وتثير الشّبهات.

«أوه، لا أعتقد ذلك» أجابت مدام فونتان، وهي تبتسم لإيڤا بتعجرف. «في الحقيقية، يبدو أنّ آل تروب سيغادرون إلى الأبد».

ثمّ أغلق الباب وراءهما، تاركة إيڤا ووالدتها وحدهما في الرّواق البارد والمعتم.

«ماذا سنفعل الآن؟» سألت ماموشا.

«سنذهب إلى محطّة القطار»

«لكن...»

«وثائقنا ليست مثاليّة، لكنّها ستخرجنا من باريس على أقل تقدير، إذا شاء الرّب»

«وماذا إذا لم يحدث ذلك؟»

«يجب أنْ نؤمن بذلك» قالت إيڤا، وهي تمشي باتّجاه السّلالم. لأنّ كل ما تعلمه هو أنّ مدام فونتان قد هاتفت الشّرطة بالفعل للتبليغ عن يهوديتيّن تمكنتا من الإفلات من الاعتقال. «الأمل هو كل ما نملك، الآن».

الفصل الخامس

«أين سنذهب؟» سألت والدتها بصوت خفيض بعد عشر دقائق وهما تخطوان بسرعة، مطأطأتي الرّأس، إيڤا ممسكة حقيبة بيد، وماموشا التي ترتجف بيدها الأخرى. كان يومًا قائظًا خانقًا، وشعرت إيڤا بتعرقها.

«إلى محطّة غار دو ليون» قالت إيڤا عند مرورهما بميدان (بلاس دي فوج)، حيث علّمها تاتوش ركوب الدّرّاجة في أحد الأيّام، وحيث حملها مرّات عدّة بعد جرحها ركبتيْها. آلمها قلبها غير أنّها أبعدت ذكراه عن ذهنها.

«غار دو ليون؟» كرّرت والدتها، وهي تتنفس بصعوبة بسبب الإرهاق. لقد فكّت الضّفيرتين، وشعرها الآن يتطاير في تموّجات تعلّقت برقبتها.

كانت إيڤا لتمشي على مهل في الظّروف العاديّة، مشفقة على إنهاك أمّها بسبب الحرارة والرّطوبة. لكن، كلّما طال مكوثهما في الشّارع، زادت خطورة انكشافهما. باريس مهجورة اليوم، وهذا يجعل إيڤا ووالدتها أكثر عرضة للاشتباه فيهما. «سنذهب إلى الجنوب».

«الجنوب؟» قالت ماموشا وهي تلهث.

أومأت إيڤا برأسها مع انعطافهما إلى الشّارع الثّالث من بوليڤارد بومارشيه؛ شارعٌ لطالما اعتبرته جميلًا. لكن اليوم، المباني العالية على جانبي الطّريق جعلتها تفكّر في الجدران المكوّنة لها، وتقمعهما نحو مصير غير معلوم. «إلى قرية اسمها أورينيون».

«عمَّ تتحدثين بحق الجحيم؟ والدك هنا يا إيڤا. كيف تقترحين السّفر إلى مكان لم أسمع به قط؟»

«لأنّ أبي بلا حول الآن يا ماموشا!» قالت إيڤا، والإحباط يُعجّل من خطاها. «والطّريقة الوحيدة لإنقاذه هي إنقاذ أنفسنا أولًا».

«بالهروب؟» جَذَبت ماموشا ذراع ابنتها بقوّة واستدارت لتواجهها. «كالجبناء؟»

نظرت إيڤا حولها بسرعة. شاهدت رجلًا يحدّق إليهما من نافذة متجر. «ماموشا، لا تفعلي هذا هنا. تُثيرين الاشتباه فينا».

«لا يا إيڤا، أنتِ من تجعليننا مريبتيْن!» جَذَبت ماموشا معصم ابنتها، وغرزت أظافرها. «أنتِ وأحلامك بالهروب، كأنّنا جاسوستان خارجتان من أحد كتبك. لا يمكنك أن تقترحي هجر والدك بكل بساطة».

«ما عاد موجودًا يا ماموشا».

«لا، إنّه ...»

«لقد رحل!» شعرت إيڤا بغصّة في حلقها، واختنقت وهي تحاول جرّ أمّها ومعاودة المشي مرّة أخرى. بعد بضع ثوان، تبعتها أمّها. «أعدكِ بأنّي سأعود من أجله. لكن يجب أنْ نغادر الآن».

«إيڤا ...»

«ثقي بي، ماموشا. أرجوكِ»

سكتت أمّها، لكنّها واصلت المسير، وهو كل ما أرادته إيڤا.

بعد خمس عشرة دقيقة، شاهدتَا المحطّة. «تصرّفي بشكل طبيعي قدر المستطاع» همست إيڤا لوالدتها. «نحن مواطنتان

فرنسيّتان من الطّبقة المتوسّطة، ولا يهمنا ما حدث أمس إطلاقًا».

«من السّهل أنْ تديري ظهرك لبني شعبك» تمتمت والدتها.

حاولت إيڤا تجاهل هذه الكلمات، لكنّها دُمغت في قلبها دمغًا.

«نعمل في مجال السّكرتارية. أنتِ مهاجرة روسيّة، وأنا ابنتكِ. والدي الشّهم -زوجكِ- لم يعد من الجبهة، ونعتقد أنّه قُتل».

«أجل يا إيڤا، لندعي أنّ والدكِ قتل». قالت ماموشا بغضب.

أصغي إليّ فقط ماموشا! حياتنا تعتمد على ما أقوله لكِ. سنشتري تذكرتي قطار إلى كليرمونت-فيراند، فيتشي».

«فيتشي؟»

«بحثت عنها. إنّها قريبة من أورينيون».

«ما هذا المكان؟»

«أختكِ، أولغا، تعيش هنا». قالت إيڤا بتأكيد. «إنّها مريضة، وتوسّلت إلينا لرعاية أبنائها الثّلاثة».

حرّكت ماموشا بؤبؤيْ عينيْها عند سماع هذه الجملة.

«ماموشا، المسألة جديّة. لا تنسي شيئًا ممّا قلته».

«لكن، لماذا أورينيون؟ لم أسمع بها قط».

«فيها أشخاص يساعدون اليهود على الهروب إلى سويسرا»

«سويسرا؟ هذا سخف. إذا كانت بالقرب من فيتشي، إذن فهي على بُعد 300 كم من الحدود».

أزعجت هذه الفكرة إيڤا، لكنّها تجاهلتها. لعلّها المكان الأمثل للاختباء لهذا السّبب تحديدًا. «إنّها فرصتنا الوحيدة للهرب ماموشا».

«إذن، فأنتِ ترغبين الآن في أنْ نغادر دون والدك؟» قالت بصوت مرتفع متألّم.

«لا» أجابتها إيڤا. «أريد أنْ نعثر على أشخاص هناك بوسعهم مساعدتنا على إخراجه».

عند السّاعة 2:05 تحرّك القطار مبتعدًا عن المحطّة، باتّجاه الجنوب، مارًّا بمارني عند مفترق نهر السّين، تنفّست إيڤا بسهولة بعض الشّيء. شراء التّذكرتيْن كان أسهل ممّا توقّعت؛ بالكاد نظر البائع إلى وثائقها، وأعادها إليها وهو يتثاءب. اعتقدت إيڤا أنّه ليس من مسؤوليته تعقّب الهاربين. لكنّ الجندي الألماني الذي أقبل باتّجاه إيڤا ووالدتها بمجرّد صعود إيڤا ووالدتها قد لمح الأوراق بلا اكتراث، أيضًا، وسلّمهما الوثائق دون أنْ ينبس ببنت شفة. سمحت إيڤا لنفسها بالتّفاؤل بمقدار بسيط -وقليل من الفخر بعملها اليدوي- مع تزايد سرعة القطار، واتّجاهه إلى الأرياف متجاوزًا الضّواحي.

لاحظت بعدها أنّ أمّها تبكي إلى جانبها؛ كتفاها تهتزّان ببكاء بلا صوت حين أمالت جبينها إلى النّافذة. توتّرت من جديد. «ماموشا» تمتمت بصوت خفيض. كانت عربة القطار نصف ممتلئة، ومعظم المسافرين منشغلين في قراءة الكتب أو الصّحف، لكنّها كانت مسألة وقت حتّى لاحظهما شخص. «رجاء. يجب أنْ تتوقّفي. ستجذبين الأنظار إلينا».

«وما المهم في هذا؟» قالت ماموشا وهي تلتفت باتّجاه ابنتها، بعينيْن لامعتيْن. «إنّنا نخدع نفسيْنا يا إيڤا. لن نذهب إلى أي مكان».

«يجب أنْ نذهب. انظري. نحن خارج باريس بالفعل»

«سيعثرون علينا أينما ذهبنا. لا يعقل أنْ نختفي بلمح البصر. كيف سنأكل؟ أين سنقيم؟ كيف سنحصل على بطاقة التّموين؟

هـذا جنـون. كان علينـا ألّا نغـادر. علـى الأقـل نحـن نعـرف أشـخاصًا فيهـا».

«لكـنّ النّـاس هنـاك يعرفوننـا أيضًـا» ذكّرتهـا إيڤـا. «ويسـتحيل تخميـن مـن فيهـم يسـتحق الثّقـة».

هـزّت ماموشـا رأسـها. «هـذا خطـأ. اسـتغللت حزنـي علـى والـدكِ لتقنعينـي»

«ماموشـا، لـم أقصـد...» انسـحبت إيڤـا مـن النّقـاش وهـي تشـعر بوخـز الضّميـر. كانـت علـى عجلـة مـن أمرهـا لتهـرب، لتجـد مخرجًـا، لدرجـة أنّهـا لـم تفكّـر فـي أنّ البقـاء قـد يكون آمنًـا. هـل أمّهـا علـى حق؟

مـع اسـتمرار اندفـاع القطـار إلـى الجنـوب، مـارًّا بجسـور فـوق الأنهـار الجاريـة ومزرعـة مهجـورة، غفـت ماموشـا أخيـرًا، وشـخرت شـخيرًا خفيفًـا، لكـنّ قلـق إيڤـا الشّـديد منعهـا مـن النّـوم. هـي مـن اتّخـذت هـذا القـرار الـذي يخصّهمـا، وسـتكون هـي المُلامـة لـو أُلقـي القبـض عليهمـا. أكان عليهمـا البقـاء فـي مكان مـع أصدقـاء؟ لكـن من سيؤوي فارّتيـن مـن الاعتقـال ويُعـرّض نفسـه للتّهلكة؟ إنّهمـا هاربتـان الآن، سـواء أأعجبهمـا هـذا أم لا. حتّـى السّـيد كوجـون، الـذي اتّسـم بالنّزاهـة، كان علـى عجـل ليتخلّـص منهـا.

توقّـف القطـار فـي مولان نصـف سـاعة، فصعد سـتّة رجال شـرطة ألمـان لتفتيـش الأوراق، لكنّهـم جميعًـا متعبـون. دقّـق شـاب ألمانـي، داكـن الشّـعر ومحمـر الوجنتيْـن فـي تصريحـيْ سـفر إيڤـا ووالدتهـا علـى عجـل، وعينـاه علـى صـف المسـافرين الـذي يليهمـا. تنفّسـت إيڤـا الصّعـداء، لكنّهـا لـم تسـترخ تمامًـا، إلّا بعـد خـروج الألمـان مـن القطـار وتحرّكـه مجـدّدًا.

«إذن هذه فرنسا الحرّة» تمتمت ماموشا مع تخفيف القطار سرعته بعد ساعة ليتوقّف في فيتشي التي كانت جميلة حتّى مع نور المساء. نوافذ المنازل ممتلئة بالزّهور، وبنايات القرن التّاسع عشر شاهقة الارتفاع. توقّفوا في منتصف السّكة الحديديّة، وظلّت إيڤا تبحث بعينيْها عن الألمان، لكن لا أثر لهم خارج النّافذة، مجرّد ضبّاط فرنسيين يتجوّلون. ثمّ تذكّرت أنّ من أخذوا تاتوش هم من الشّرطة الفرنسيّة؛ لا يمكنهما الوثوق بأحد.

حين تحرّك القطار مرّة أخرى، حدّقت إيڤا خارج النّافذة، على أمل أن تشاهد قصر بيتان الذي اتّخذه الوزراء مقرًّا لهم بعد نزوحهم عن باريس، لكنّها لم تشاهد إلّا الحدائق والشّقق والمقاهي. جنّ الليل مع وصول القطار إلى نهر آليير الذي يمر ببستان، وخيّم الظّلام تمامًا عند توقّف القطار لوقت قصير في ريوم، ثمّ تحرّك القطار. قبل التّاسعة، اصطكّت فرامل القطار أخيرًا في جاري دي كليرمونت-فيراند.

«ماذا الآن؟» سألت ماموشا في أثناء نزولهما من القطار مع مسافرين آخرين. لا يوجد حتمًا حافلات تغادر في هذه السّاعة المتأخرة إلى أي مكان».

أخذت إيڤا نفسًا عميقًا. حتّى مع الوصول إلى فرنسا الحرّة بمستندات مزوّرة، شعرت بأنّ هذا أخطر جزء من الرّحلة. «الآن ننتظر».

«ننتظر ماذا؟»

«حلول الصّباح». كانت المحطّة هادئة، لكنّ إيڤا ووالدتها لم تكونا الوحيدتيْن اللتيْن بحاجة إلى قضاء الليل على المقاعد الخشبيّة القاسية. معظم المسافرين الواصلين في القطار اتّخذوا

لأنفسهم زوايا من الرّصيف، وأسندوا رؤوسهم إلى الحقائب واستخدام المعاطف للتدثّر، رغم دفء الطّقس. «ماموشا حاولي النّوم. سأراقب المكان».

* * *

في وقت متأخر من مساء اليوم التّالي، ركبت إيڤا ووالدتها حافلة مُتّجهة إلى أورينيون. استغرقت الحافلة ساعة ونصف السّاعة في شوارع على جانبيْها منازل حجريّة عتيقة استسلمت للغابات الخضراء والأراضي الزراعيّة.

تحيط بأورينيون أشجار صنوبر كثيفة على قمّة تل، خلال قرقعة الحافلة وهي في طريقها إلى القرية، ومقاومة المحرّك للصّعود، لاحظت إيڤا ظلال الجبال المهيبة إلى الغرب. ضغطت جبينها في الزّجاج وحدّقت إلى المنحدرات المكسوّة بالضّباب حتّى استدارت الحافلة في زاوية ووصلت إلى نقطة توقف ببطء وصرير في ميدان صغير المساحة تحيط به مبان حجريّة قصيرة مكعّبة الشّكل.

«أورينيون!» أعلن السّائق لستة أشخاص على متن الحافلة. «نهاية الرّحلة!»

على مهل، وقف المسافرون، جمعوا حقائبهم، واتّجهوا إلى الباب. إيڤا ووالدتها آخر النّازلين. فور تحرّك الحافلة، ارتاحت إيڤا كثيرًا لدرجة إمعانها في النّظر إلى ما يحيط بها. نجحت الخطّة!

أورينيون تشبه باريس، في الواقع كأي مكان آخر ذهبت إيڤا إليه. في صغرها، اصطحبها والداها إلى الشّمال بضع مرّات إلى

ساحل بريتون، حيث يلامس هواء البحر أسطح المنازل الحجريّة، ويحوّلها إلى لون رمادي يشبه لون أجنحة اليمام. خرجوا من باريس بضع مرّات مدّة ساعة تقريبًا، حيث المنازل الصّغيرة التي تخلّلتها جداول تعد ولا تحصى، والقرى ذاتها كانت صغيرة، وغير مألوفة، ومتساوية.

في هذه القرية منازل لها نوافذ ضيّقة متلاصقة بطريقة تجعلها تبدو -نتيجة المصادفة- كأنّها بدأت بصفوف متساوية، لكنّ الأرض قد هزّتها خلال ارتفاعها عن الأرض. الدّروب الحجريّة متعرجة فوق التّل، وبعض الطّرق المتفرّقة من الميدان ضيقة ولا تكفي حتّى سيّارة واحدة. على رأس التّل كنيسة حجريّة صغيرة، نوافذها زجاجيّة متّسخة، وعلى بابها صليب خشبي بسيط.

أكثر ما لفت انتباه إيڤا هو مدى حيويّة القرية، رغم توافد عدد قليل من النّاس إلى الميدان. في باريس، منذ مجيء الألمان، تجوّل النّاس مرتدين اللونيْن الرّمادي والأسود، برؤوس متخاذلة، كأنّهم كانوا يحاولون التّماهي مع المباني المحيطة بهم. تلاشت ألوان المشهد؛ في أماكن كثيرة، النّباتات والأزهار التي بعثت الحياة في المدينة يومًا ما قد ذوت واختفت.

لكن هنا، النّوافذ ممتلئة بالنّعناع الفلفلي، والبقدونس، وأزهار الغرنوقي الورديّة والليلكيّة والبيضاء، في حين أنّ اللبلاب يتسلّق الجدران الحجريّة كأنّه موجود هنا قبل الثّورة الفرنسيّة. الملابس الجافّة معلّقة في الشّرفات، وحتّى الكنيسة المطلّة على القرية الصّغيرة بدا أنّها مضيئة، أنوارها الدّاخليّة منعكسة على النّوافذ الملوّنة. تتوسّط ميدان القريّة نافورة حجريّة عليها تمثال رجل

ملتحٍ يحمل صليبًا في يد، وكوز ماء في اليد الأخرى. يخر الماء بانسياب حول قدميْه. هذه مدينة لم تعصف بقلبها نازلة بعد، ولبضع ثوانٍ لم تعرف إيڤا ما تفعل فيها.

«ما هذا المكان؟» همست ماموشا. ابتسمت إيڤا لها لأوّل مرة منذ اعتقال والدها. اغرورقت عيناها بدموع امتنان؛ لحظات معدودات أشعرتهما أنّ حياتهما شبه طبيعيّة.

ابتلعت إيڤا ريقها. «إنّها جميلة، أليس كذلك؟»

«إنّها تذكرني بالقرية التي نشأت فيها». تنفّست ماموشا بصعوبة وأغلقت عينيْها. «نسمات الرّيف العليلة. كدت أنساها».

تنفّست إيڤا تنفسًا عميقًا أيضًا، شذا زهر الرّبيع والياسمين والصّنوبر المنتشر. فتحت عينيْها فشاهدت طفلتيْن تحدقان إليها، تمسكان بيدي أمّهما. استجمعت رباطة جأشها بسرعة. خرجتا من باريس، لكنّهما لم تنجوا بعد؛ لا تزالان تسافران بإثباتات مزوّرة، وتحتاجان إلى العثور على سكن قبل أنْ يزيد الاشتباه فيهما. «تَعالي» قالت لأمّها.

حملت إيڤا حقيبة السّفر وتقدّمت أمّها بخطوة. ابتعدتا عن الميدان كأنّهما تعرفان إلى أين ستذهبان. في الحقيقة، شعرت إيڤا بتيه أكبر من ذي قبل، وخلال تعمدها المشي بشكل طبيعي، تفحّصت الأزقّة بحثًا عن نُزل. لا بد من وجود نُزل قريب من مركز القرية الصّغيرة.

لكن استلزمهما أربع دورات في القرية قبل العثور على لوحة معلّقة كُتب عليها بالفرنسيّة: نُزل. تنهّدت إيڤا ومضت باتّجاهه، وتبعتها أمها.

كان البـاب مغلقًـا ومقفـلًا، والسّـتائر منسـدلة علـى النّوافـذ بإحـكام حيـن وصلتـا أمـام مبنـى حجـري علـى بعـد مربّـع سـكني ونصـف مـن الميـدان، لكـنّ إيڤـا طرقـت البـاب علـى أي حـال، ثـمّ طرقتـه مـرّة أخرى بإصـرار أكبـر حيـن لـم يفتحـه أحـد. طرقتـه للمـرّة الثّالثـة وكانـت علـى وشـك الاستسـلام حيـن فُتـح بتـردّد، وظهـرت امـرأة قصيـرة بدينـة، ترتـدي فسـتانًا منقّطًـا، تحـدّق إليهمـا. شـعرها الرّمـادي أشـعث، ووجنتاهـا حمـراوان ومسـتديرتان كالطماطـم.

«مـا الأمـر؟» سـألت المـرأة بـدل التّحيـة. تطايـر الشّـرر مـن عينيْها ونقلـت نظراتهـا بيـن إيڤـا وماموشـا. «مـن منكمـا سـبب تلـك الجلبة؟»

«امـم، مـدام، مرحبًـا» قالـت إيڤـا بتـردّد، وهـي تتصنّـع الابتسـام حيـن ناظرتهـا المـرأة، بفتحتـي أنـف تـدلان علـى غضبهـا. بـدت كـدب وحشـي فـي تلـك اللحظـة. «نحـن... نحـن نبحـث عـن فنـدق نقيـم فيـه».

الغضـب علـى محيّاهـا، لكنّهـا لـم تفسـح لهمـا المجـال للدّخـول، وقالـت: «وتعتقـدان أنّ بإمكانكمـا الظّهـور فجـأة وطلـب غرفـة؟»

نظـرت إيڤـا إلـى اللوحـة المُعلّقـة، ثـمّ إلـى المـرأة، فقالـت: «فـي الحقيقـة، هـذا نُـزل، إذن...»

زمّـت المـرأة شـفتيها قليـلًا، ولـم تعـرف إيڤـا إن كانـت المـرأة تهاجمهُمـا، أو تضحـك، أو تدمـدم. «فـي هـذه السّـاعة؟ مـا نـوع الأشـخاص الذيـن يصلـون فـي وقـت متأخّـر؟ أوشـكت الشّـمس أن تغيـب!»

«نزلنا للتّو من الحافلة بعد رحلة طويلة جدًا»

«رحلة؟ من أيْن؟»

«باريس»

ضاقت عينا المرأة. كتّفت يديْها وسألت: «ماذا تفعلان في أورينيون؟»

«اممم...» تردّدت إيڤا. فاجأتها الأسئلة المتلاحقة. لم تتوقّع تحقيقًا معهما.

«نعمل في مجلة السّكرتارية، ونحن هنا لزيارة أختي التي تعيش بالقرب من هنا» قالت ماموشا بهدوء شديد. «لكن لديها ثلاثة أطفال وتعيش في شقّة صغيرة، والمكان لا يسعنا جميعًا». غمزت إيڤا لها وحاولت إخفاء تعجبها. هذا تمامًا ما أوصتها بحفظه، لكنّها اعتقدت أنّ أمّها لم تكن تسمعها. «الآن إذا لم تتوافر غرفة شاغرة، فيسعدنا الذّهاب إلى نُزل آخر».

حدّقت المرأة إلى ماموشا قبل أنْ تبتسم، لكن ظلّ في عينيها ارتياب. «أسمع لكنة في حديثك مدام. لستِ فرنسيّة».

لم تقل أم إيڤا شيئًا لبضع لحظات، وخلال الصّمت، تمنّت إيڤا ألا تنسى تلك المعلومة، أي زلّة لسان ستجعل المرأة تهاتف السّلطات، حينها ستنتهي اللعبة. «أمّي...» بدأت حديثها.

«روسيّة» قالت ماموشا بتأكيد، فتنفّست إيڤا الصّعداء. «غادرت روسيا عام 1917 مع اندلاع الثّورة الرّوسيّة، وتزوّجت هنا في فرنسا. ابنتي إيڤا...» تردّدت ووضّحَت بثقة. «... كوليت ولدت هنا في فرنسا بعد سنوات».

«روسيّة» كرّرت المرأة.

«مهاجرة بيضاء» أوضحت ماموشا بثقة.

«أنتِ وابنتكِ إيف-كوليت». ابتسمت المرأة بتكلّف، لكن ما عاد الغضب ظاهرًا في عينيْها.

«كوليت فقط» قالت إيڤا بتوتّر.

«فهمت» قالت المرأة. حدّقت فيهما، لكن لم تتحرك، ثمّ قالت: «Prekrasnyy vecher, ne pravda li?” [أمسية جميلة، أليس كذلك؟] وهي تبتسم بعذوبة لماموشا.

تجمّد الدّم في أوصال إيڤا. أتحدّثت المرأة بالرّوسيّة؟ ما نسبة حدوث هذا؟

لكنّ ماموشا لم تضطرب. «Da» [أجل] أجابت بثقة.

ضاقت عينا المرأة، وسألت: ?Vy priexali suda so svoyey docher’yu [هل أتيت إلى هنا مع ابنتك؟]

أجبرت إيڤا نفسها على الابتسام بتهذيب وهي تراقب أمّها بطرف عينيْها.

«Da» أجابت ماموشا بتأكيد أقل بعض الشّيء.

«امممم» قالت المرأة. ?Vy na samom dele ne russkaya, ne tak li ?Vy moshennitsa [أنتِ لست روسيّة حقًّا، أليس كذلك؟ أنتِ محتالة]

بدت ماموشا تائهة كُليًّا هذه المرة، فسألت: «?Da» [أجل] بتردّد.

حبست إيڤا نفسها حين حدّقت المرأة إلى ماموشا زمنًا طويلًا. «جيّد جدًّا مدام. أنت وابنتك «كوليت فقط»، ادخلا قبل أنْ يحل الظّلام الدّامس. نحن في فرنسا الحرة، لكن الاعتقاد بأنّنا أحرار خطأ». بعد جملتها هذه، استدارت ودخلت النّزل بثقل على كعبها.

«ما الذي سألتك إيّاه؟» همست إيڤا لوالدتها.

«لا أملك أدنى فكرة» أجابت ماموشا بصوت خفيض. تبادلتا النّظرات باستغراب، وتبعتا المرأة إلى الدّاخل، بعد أنْ أغلقتا الباب خلفهما.

في البهو، كانت المرأة تفتّش عن شيء ما في الجهة الأخرى من مكتب صغير، ثمّ جاءتهما حاملة سجلًّا بتجليد عنّابي اللون، وقالت: «ها هو. سجل الضّيوف». فتحته وأشارت لإيڤا براحة يدها. «اقتربي. دعيني أرى وثائقكما. لا أملك الكثير من الوقت».

سلّمت كلٌّ من إيڤا ووالدتها بطاقتي الهُويّة والتزمتا الصّمت حين تفحّصتهما المرأة وضاقت عيناها، وأومأت برأسها، ثمّ ملأت البيانات في سجل الضّيوف. لم تسمح إيڤا لنفسها بالزّفير إلّا عندما أعادت المرأة البطاقتيْن.

«جيّد جدًّا» قالت المرأة، وهي تحمل القلم وتدير السّجل لهما لتوقّعا. «مدام فونتان. آنسة فونتان. أنا مدام باربيير مالكة المكان. وسائل التّرف محدودة هنا، لكنّ المكان آمن للبقاء، ما دام بإمكانكما الدّفع. بالمناسبة، هل معكما نقود؟»

أومأت إيڤا بالإيجاب.

«حسنًا. ستكونان في الغرفة رقم 2، مع الأسف لا يوجد إلّا سرير واحد. هناك مفتاح للباب الرئيس في الباب الأمامي للخزانة. كم ستبقيان معنا؟»

«لا نعرف بعد». تردّدت إيڤا. «أيوجد نُزلاء آخرون غيرنا؟»

رفعت مدام باربيير حاجبيْها. «أنتما الاثنتان فقط الحمقاوان لدرجة قضاء إجازة في جبل بعيدًا عن باريس، في خضم الحرب».

ابتسمت إيڤا ابتسامة زائفة. «حسنًا. شكرًا لكِ مدام باربيير. طابت ليلتك».

«طابت ليلتكما». التفتت مدام باربيير إلى ماموشا وقالت: Spokoynoy nochi

Spokoynoy nochi أجابت ماموشا بتهذيب، لكنّها لم تهدر وقتًا وأسرعت الخطى باتّجاه غرفة رقم اثنين. لاحظت إيڤا نظرة مدام المحتدمة في ظهر أمّها.

بمجرد أن أصبحتا وحيدتيْن في غرفتهما، غيّرت إيڤا ثيابها وارتدت رداء النّوم ونامت على فراشها بإنهاك ظاهر. تغلّب النّوم عليها فنامت بهدوء تلك الليلة، ملاصقة أمّها.

***

«أتعتقدين أنّها صدّقتنا؟» سألت إيڤا أمّها حين استيقظت في اليوم التّالي، وهي تنظر في غرفة أنارتها أشعّة الشّمس. النّور ساطعٌ هنا، أسطع من نور باريس.

«مدام باربيير؟» تثاءبت إيڤا ونهضت من السّرير بعيدًا عن أمّها، واسترخت أخيرًا.

«صدّقتنا حتمًا. أخذت بياناتنا وسمحت لنا بالبقاء».

أومأت ماموشا بالإيجاب. «أخبرتها أنّنا نملك المال يا إيڤا. ماذا سنفعل حين تدرك أنّنا لا نملكه؟»

هزّت إيڤا كتفيها باستهجان. «نملكه»

«ماذا؟»

«أخذت فرنكات قليلة من درج مطبخ مدام فونتان»

«أخذتِ ماذا؟»

«كنت أبحث عن أقلام، وصادفت القليل من المال أيضًا"

«إيڤا تروب! لم أربك لتكوني سارقة!»

غضبت ماموشا غضبًا شديدًا لدرجة أنّ إيڤا كتمت ضحكتها.

«أعرف ماموشا، ولم أسرق شيئًا البتّة في حياتي. لكنّنا نحتاج إليه، ولنكن صادقتيْن، كانت ستُسلمنا للسّلطات من فورها لو لم تكن مشغولة مع أمّها».

رقّت ملامح وجه ماموشا بعض الشّيء. «إيڤا، إذا هاتفت الشّرطة لأنّها اكتشفت سرقتنا لها...»

«ماموشا، لقد غادرنا قبل زمن طويل. وما الذي سيفعله رجال الشّرطة؟ سيضيفوننا إلى قائمتهم مرّة أخرى؟»

عند خروجهما من غرفتهما بعد ثلاثين دقيقة، كانت مدام باربيير تنتظرهما في البهو، وأمامها طبق فيه فراولات حمراء كبيرة الحجم. أشارت لهما لتجلسا أمامها، وبعد تبادل النّظرات بقلق، جلست إيڤا ووالدتها. يا إلهي، آخر مرّة رأت فيها إيڤا فيها الفراولة كانت قبل الحرب.

«كلي» قالت ببساطة. أصدرت معدة إيڤا صوتًا مرتفعًا لدرجة أنّ مدام باربيير رفعت حاجبًا متعجّبة.

قالت إيڤا: «لا نستطيع الأكل مع الأسف لأننا لا نملك بطاقتيْ تموين، و...»

قاطعتها مدام باربيير، وقالت: «أزرعها في حديقتي»

"مظهركما وصوتكما يدلّان على أنّكما تتضوّران جوعًا. لن أكرّر الطّلب».

تـردّدت إيڤـا قبـل أن تومـئ وتمسـك بفراولـة. أكلـت لقمـة، وكان عليهـا أن تكبـح رغبتهـا فـي التـأوّه لطعمهـا اللذيـذ. «شـكرًا لـكِ» قالـت بعـد بلـع لقمتهـا. أمسـكت فراولـة أخـرى وهـي تتسـاءل عـن سـعرها.

بعد أنّ قضت إيڤـا وأمّهـا علـى كل مـا فـي الوعـاء، أومـأت مـدام باربييـر. «جيّـد» قالـت وهـي واقفـة. «سـتكون هنـاك شـوربة بطاطس علـى العشـاء عنـد السّـابعة تمامًـا».

«لكـن لا يمكننـا...» بـدأت إيڤـا حديثهـا، غيـر أنّ مـدام باربييـر رفعـت يدهـا لتمنعهـا مـن إكمـال حديثهـا.

«لا يمكـن أنْ نسـمح لكمـا بالجـوع. ألـن يؤثّـر هـذا فـي عملـي؟» ثـمّ غـادرت بخطـوات سـريعة والألـواح الخشـبيّة تهتـز تحـت قدميْهـا.

«حسنًـا. كان هذا لطفًـا» قالت ماموشا بعد صمت طويل.

أومـأت إيڤـا، لكنّهـا قلقـت، إذْ إنّ مـدام باربييـر كانـت تنظـر إليْهما كأنّهمـا مخلوقتيْـن فـي قـارورة فـي أثنـاء تناولهمـا الفراولـة، وانتابهـا شـعور بـأنّ محاولـة أمّهـا للتّكلّـم بالرّوسـيّة فـي الليلـة السّـابقة قـد فشـلت بشـكل تـام. إذن مـا الـذي تخطّـط لـه مضيفتهمـا؟ ومـع هـذا، لـن ترفضـا الطعـام المجّانـي. «أعتقـد أنّـك يجـب أنْ تبقـي فـي غرفتـك اليـوم ماموشـا» قالـت بهـدوء. «دعينـي أخـرج وحـدي. لا لكنـة فـي كلامـي، ولهـذا لـن أثيـر كثيـرًا مـن التّسـاؤلات».

«لكنتي ليست واضحة» قالت ماموشا باندفاع.

«ماموشا، كلامك يبدو مثل فلاديسلاف سيكورسكي»

لوت ماموشـا قسـمات وجهها بشـكل مضحك. Gdy słoneczko wyżej, to Sikorski bliżej

أدهش إيڤا المثل البولندي الشّائع الذي قاله رئيس وزراء [الحكومة البولنديّة] في المنفى: «حين تكون الشّمس في العلياء، فإنّ سيكورسكي قريب».

«ابقي داخل النّزل ماموشا. ولا تقفلي النّافذة، فقد تحتاجين إليها للهرب السّريع»

«أتريدينني الآن أنْ أقفز من النّافذة؟»

«كل ما أقصده هو أنْ تكوني حذرة يا أمّي. يجب أنْ تسبقي تفكير العدو بخطوتيْن»

«تتحدثين كأنّي ماتا هاري[1] أخرى، لكنْ انظري إلى ما حدث لها» تمتمت ماموشا، رغم أنّها وقفت وتوجّهت إلى غرفتهما على كل حال. انتظرت إيڤا حتّى سمعت صوت إغلاق الباب قبل أنْ تتوجّه إلى باب النّزل الرّئيس.

---

(1) Mata Hari: مارغريتا جيرترود. اشتُهرت باسمها الحركي ماتا هاري، وهي راقصة هولندية وقعت في غرام طيار روسي في الحرب العالميّة الأولى، لكنّه جرح في الجبهة. طلبت تصريحًا لزيارته، لكن أحد رجال الاستخبارات قد ساومها وأقنعها بالتّجسس لصالح فرنسا. في ما بعد، شاركت أسرار فرنسا مع ألمانيا باعتبارها عميلة مزدوجة. أعدمت سنة 1917 احتفظوا برأسها في متحف في باريس، لكنّه سرق سنة 2000.

الفصل السّادس

فـي نـور الشّـمس السّـاطع، بـدت أورينيـون أكثـر بهـاء، أرخـى الصّبـاح قلوعـه علـى الطّرقـات الضّيقـة والمبانـي، وغمـر الأحجـار بأشـعّة دافئـة. الأزهـار التـي لوّنـت النّوافـذ عصـر أمـس أكثـر تألّقًـا الآن تحـت نـور الشّـمس، تلـوّن القريـة بألـوان ورديّـة وبنفسـجيّة وحمـراء زاهيـة. الهـواء العليـل هنـا، أكثـر مـن مئـة كيلومتـرٍ جنـوب المنطقـة المحتلـة، أشـعر إيڤـا بالحريّـة.

لكنّهـا وأمّهـا يسـتحيل أنْ تغـادرا دون تاتـوش. أرادَهـا أن تفـر، لكنّهـا لا تسـتطيع؛ حتّـى تمتلـك سـبل تخليصـه مـن براثـن العـدو. امتلكتهـا؛ كانـت أكيـدة مـن ذلـك. مـا تـزال المسـتندات الخاليـة التي أعطاهـا السّـيد كوجـون إياهـا فـي حوزتهـا، إضافـة إلـى صـور والدهـا التـي أخفتهـا فـي بطانـة المعطـف الـذي حشـرته فـي الحقيبـة؛ أغلـب الأدوات اللازمـة لتزويـر هُويّـة جديـدة لوالدهـا لتثبـت للسّـلطات أنّ اعتقالـه خطـأ. ومـع ذلـك، تركـت أقـلام الرّسـم فـي باريـس – الاحتفـاظ بهـا فـي الحقيبـة يعنـي أنّ أوراقهـا مزيّفـة بالنّسـبة إلـى أي مُحقّـق. لـم تغامـر فـي أخذهـا علـى متـن القطـار.

الآن، إيڤـا عاجـزة عـن تقليـد النّـوع ذاتـه مـن المسـتندات التـي زوّرتهـا لنفسـها ووالدتهـا دون اسـتخدام الحبـر الصّحيـح، الأقـلام العاديّـة المسـتخدمة للكتابـة لـن تـؤدي الغـرض. تحتـاج إلـى أقـلام بالأحمـر والأزرق والأسـود. لكـنّ مـدام باربييـر تشـتبه فـي إيڤـا وأمّهـا بالفعـل؛ لا يمكـن لأي كميّـة مـن الفراولـة أنْ تقنـع إيڤـا بمـا هـو عكـس،

ولهذا فإنّ سؤالها عن مكان متجر يبيع هذه الأشياء فيه خطورة. على إيڤا أن تجد المتجر بنفسها.

في أثناء مشيها بحيويّة هنا وهناك في الأزقّة الضّيقة التي تبتعد عن ميدان القرية الرّئيس، كأنّها برمق عجلة درّاجة معقوف، على أمل العثور على متجر يوفّر الأدوات الفنيّة. هدوء القرية الشّديد أشعرها بأنّها الإنسانة الوحيدة في المكان؛ شعور لن تختبره في ضوضاء باريس. بعيدًا عن الميدان، كانت القرية أكثر جمالًا، ببعض التّكوينات الصّخريّة التي أفسحت المجال لمبان مشيّدة بالخشب والطّوب ذكّرت إيڤا بحكايات خرافيّة قرأتها في طفولتها. مع دخولها إلى الشّارع الرّابع، شعرت بالطّمأنينة، بسلام منبعه أنّ البلدة الشّاعريّة لا تعرف أنّ الحرب تحيط بها. كانت منشرحة الخاطر لدرجة أنّها لم تنتبه لرجل هزيل وطويل في نهاية الزّقاق، ويرتدي معطف مطر بياقتيّن مرفوعتيْن لا يلائم يومًا صيفيًّا. في مشيه عرجٌ خفيف، رجله اليمنى مُتيبّسة.

كانت قد شاهدته قبل شارعيْن، والآن بعد أنْ توجّهت إلى زاوية أخرى، أسرعت إلى باب، وحبست أنفاسها، وتساءلت إن كان يتبعها. لحاقه بها قد يكون محض مصادفة، لكن ما الذي يدفع أحد سكّان أورينيون إلى تتبعها في أرجاء أزقة نمطها عنكبوتي، أليس كذلك؟ عليها أنْ تكبح عنان تخيّلاتها إذا لم يتبعها.

مرّت ثوان. الرّجل الذي يرتدي معطف المطر ليس موجودًا. حدّثت نفسها: توقّفي عن تصوير الجميع على أنّهم بُعبع ألماني يا إيڤا. مع ابتعادها عن الباب وانعطافها في زاوية المبنى، شاهدته وكادت تصطدم به، فشهقت، ثمّ تراجعت إلى الوراء.

«أوه، اعذريني» قال لها بسرعة بصوت عميق وهمس مع تغطية وجهه بياقة المعطف.

تسارعت دقّات قلب إيڤا. لا يبدو ألمانيًّا على الأقل. لعلّه في منتصف الأربعينيّات، ذو شعر أشقر، وأنف رفيع مدبّب وحاجبيْن كثيفيْن. أكان شرطيًّا فرنسيًّا يلحق بها لأنّ مدام باربيير أوشت بها؟ لكنّه لو كان كذلك، ألن يطلب منها أوراقها بكل بساطة؟ أسئلة كثيرة دارت في خلدها، فقرّرت أنّ الحل الأمثل هو مواجهته. عرجه سيبطئ خطوات لو احتاجت إلى الهرب حتمًا. «أتتبعني؟» سألته. تمنّت أن يبدو صوتها قويًّا، لكنّها شعرت برعشة فيه.

«ماذا؟» تراجع الرّجل خطوة. ما زالت الياقة تخفي النّصف السّفلي من وجهه. «لا، طبعًا لا. المعذرة يا آنسة. طاب يومك». ابتعد بسرعة وهو يعرج. تساءلت إذا كان سيلتفت إليها في أثناء مشيه. لم يفعل، وحين اختفى عند زاوية الطّريق، هدأت بعض الشّيء. لعلّها مخطئة.

ومع ذلك، أقلقها ذلك اللقاء، فمشت بخطوات أسرع مع استكشافها نوافذ المحلّات. تلاشى شعورها بالسّلام، وبدت أورينيون مصدر قلق كأي مكان آخر.

احتاجت إلى ربع ساعة للعثور على مكتبة ومتجر قرطاسيّة صغيرة عرضت أقلام حبر قرب النّافذة.

دخلت على أمل توفّر أقلام رسم أيضًا. في الدّاخل، أغمضت عينيْها ثانية واحدة وتنفّست بعمق، الرّائحة المعهودة للورق والجلد والصّمغ قد نقلتها إلى مكتبة السوربون العزيزة على قلبها في باريس. هل ستتمكّن من المشي مرّة أخرى بين كتبها، والتّمتّع

بصمتها حيث تحيط بها الكلمات والمعارف؟ هل ستعود باريس ملكًا لها؟

«آنسة؟ هل أساعدك؟» قالت المرأة العجوز التي كانت خلف الحاسبة بمزيج من الاهتمام والارتياب عندما فتحت إيڤا عينيها.

«أنا آسفة». بوسع إيڤا أن تشعر بحرارة وجنتيها. «أنا... أنا كنت أفكر في عشقي لأن أكون مُحاطة بالكتب». بدت كلماتها غريبة، فخجلت.

لكنّ المرأة لم تشح بنظرها. ابتسمت وزال شكّها. «آه. كان عليّ أنْ أعرف؛ أنتِ بضعة منّا».

«عفوًا؟»

«أنتِ ممّن يجدون ذاتهم بين طيّات الكتب» أوضحت المرأة وهي تشير إلى الرّفوف المحيطة. رفوف مرتفعة ومملوءة بالكتب، ذكّرت إيڤا بطراز القرية ذاتها، فوضويّة وبهيّة في آن واحد. «تجدين انعكاسك في الكلمات».

«أوه، فعلًا، أعتقد أنّي منهم» قالت إيڤا، وشعرت باطمئنان مفاجئ. أرادت أنْ تبقى هنا طوال اليوم، لكن هناك عمل عليها إنجازه.

«هل أساعدك في العثور على شيء؟» سألت المرأة، وهي تتبع نظرات إيڤا على الرّفوف. «إذا احتجت إلى أي إرشاد، فأنا أعرف كل كتاب في هذا المكان».

قالت إيڤا: «أتمنى لو أنّ بمقدوري شراء أحدها. أملك مالًا قليلًا، وأحتاج إلى شراء مجموعة أقلام»

«أقلام؟»

أومأت إيڤا بالإيجاب، ورغم الإحباط الظّاهر على وجه المرأة لعدم رغبة إيڤا في مناقشة الكتب، توجّهت إلى آخر المتجر، وعادت حاملة أقلامًا بالأسود والأحمر والأزرق، ثمّ سألت: «أهذا ما تبحثين عنه؟»

«أوه أجل». مدّت إيڤا لتمسك بها، لكنّ المرأة تراجعت، وغدت تقاسيم وجهها أكثر حذرًا.

«ما سبب حاجتك إليها؟ هل أنت رسّامة؟»

«أجل»

«وعاشقة للكتب؟»

«كنت عاشقة للكتب. أعني ما زلت». شمّت إيڤا الرّائحة المألوفة مرّة أخرى وتنهّدت، ثمّ أضافت: «عملت مدّة معيّنة في مكتبة في باريس»

«باريس؟»

أدركت إيڤا خطأها فورًا. عاتبت نفسها: لماذا أخبرت غريبة بتفاصيل شخصيّة؟ «حسنًا، أردت فقط...» بدأت إيڤا حديثها في أثناء استدارة المرأة حول أحد الرّفوف خلفها.

«لا بدّ أنّك تفتقدين باريس. عاش ابني فيها أيضًا؛ قبل مقتله. كانت باريس أرضًا ساحرة فعلًا؛ قبل وصول الألمان»

قالت إيڤا بلطف: «أجل، كانت جميلة. يحزنني فقدانك ابنك»

«شكرًا لمشاعرك. كان رجلًا صالحًا». التفتت المرأة وأمسكت كتابًا أمام إيڤا قبل أن تطرح إيڤا أي سؤال، وبعد لحظة تردّد، أمسكته إيڤا ونظرت إلى غلافه. إنّها رواية الصّديق الوسيم لغي دي موباسان. قالت المرأة: «وقعت أحداثها في باريس».

«أجل، قرأتها» قالت إيڤا بحيرة. إنّها عن رجل يغوي عمليًا كل شخص في المدينة». ضحكت المرأة وأجابت: «في الواقع. في ما يتعلّق بالكتب، كلّما كانت أكثر تشويقًا، أصبحت أفضل، ألا تعتقدين ذلك؟ التمعت عيناها. «على أي حال، افترضت أنّك مشتاقة إلى باريس».

«لا يوجد كثير من الأمور لأشتاق إليها في باريس هذه الأيّام» من جديد، خشيت إيڤا أنّها قالت أكثر ممّا يجب.

أومأت المرأة تأييدًا. «أعتقد أنّ هذه هي القضيّة، لكنّ هذا الكتاب يحكي عن باريس قبل مجيء الألمان يا عزيزتي. من فضلك، خذيه. اعتبريه هدية مع الأقلام المُشتراة».

«لكن...» فاجأ كرم هذه الغريبة إيڤا. «لماذا؟»

«لأنّ الكتب تأخذنا إلى مكان وزمن آخريْن» قالت المرأة وهي تأخذ الفرنكات من إيڤا وتناولها الأقلام، ثمّ أضافت: «ويبدو أنّك بحاجة إليها».

ابتسمت إيڤا. «لا أعرف كيف أشكرك، مدام».

«بإمكانك أنْ تشكريني بحفاظك على سلامتك عزيزتي»

مع خروج إيڤا من المتجر وعودتها إلى النّزل، تفحّصت الشّوارع بحثًا عن الرّجل الأعرج، وتساءلت كيف عرفت البائعة في المتجر أنّ إيڤا بحاجة إلى كل الأمنيات لتكون سالمة.

* * *

أمضت إيفا بقيّة اليوم والمساء وهي تزوّر أوراق أبيها، وتمرّن يدها على رسم الدّمغات على صفحات الصّحيفة التي وجدتها في البهو. ستحرقها صباحًا. حين طرقت مدام باربيير الباب

وأخبرت إيڤا ووالدتها بفظاظة أنّ العشاء جاهز في حال أراد أكل شيء. أخذت إيڤا وأمّها وقتًا مستقطعًا قضتاه في تناول حساء البطاطس في غرفة الطّعام. نامت إيڤا على المكتب في غرفتها لاحقًا بعد منتصف الليل، والقلم الأزرق بيدها.

أفزعها شيء ما من غفوتها بعد الفجر، ثمّ رفعت رأسها بذهول، فتأمّلت الغرفة التي ظهرت فيها أشعة الشّمس. في السّرير خلفها، تغط والدتها في نوم عميق. على المكتب صحيفة رسمت عليها دمغات مزيّفة، تبلّلت بلعاب إيڤا.

بمجرد تفكيرها في ما أيقظها، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، ففزعت إيڤا فزعًا عظيمًا. من قد يكون خارج غرفتها في هذا الوقت الباكر من الصّباح؟ أجاءت مدام باربيير لأخذ رسوم إقامتهما؟

جمعت أوراق الصّحيفة بسرعة، وأخفت الأقلام وأوراق والدها تحت مرتبة السّرير. لم تشعر أمّها بشيء. عرفت إيڤا أنّ عليها فتح الباب، فلو كان الطّارق مدام باربيير فسيكون عدم فتح الباب مثيرًا للارتياب. وهل هناك شخص آخر سيطرق الباب؟ السّلطات لن تطرق الباب بتهذيب في كل الأحوال؛ سيكسرون الباب وسيقتحمون المكان لو لم يُفتح لهم الباب على الفور. اطمأنّت لعدم وجود خطر مُحدق عند الجانب الآخر من الباب، فتحته قليلًا ونظرت في الرّدهة المعتمة.

احتاجت عيناها إلى نصف ثانية لتعتاد الضّوء الخافت، ونصف ثانية أخرى لتفزع لأنّ من طرق الباب ليس مدام باربيير بتاتًا. الطّارق هو ذلك الرّجل الطّويل الهزيل الذي يرتدي معطف مطر ويعرج.

شهقت، ثمّ صرخت، فحاولت إغلاق الباب، لكنّه أدخل قدمه بلمح البصر.

قال بسرعة: «أرجوك يا آنسة فونتان. لن أوذيك».

أغلقت إيڤا الباب عبثًا. تسارعت دقّات قلبها. ناداها مدام فونتان، ما يعني أنّ مدام باربيير قد خانتها، ومن عساه أنْ يعطيه اسمها المزيّف؟

«ماذا تريد؟» سألته. بدأ يتكلّم، لكنّها قاطعته. «إذا اقتربت خطوة واحدة، سأصرخ».

أدركت فجأة أنّ والدتها تنام نومًا ثقيلًا خلفها.

«يا آنسة، من فضلك. لا داعي للصّراخ. أعدك. أنا صديق»

«الأصدقاء لا يلحقون بي في القرية ويظهرون فجأة وقت الفجر» زجرته إيڤا.

«في الواقع، إذا انتظرت حتّى بعد الفجر، ستلاحظين». كانت هناك ضحكة في عينيْه، وقد فاجأ إيڤا مظهره اللطيف، غير المتوقّع. دون ياقتيْه المرفوعتيْن، كان بإمكانها أنْ ترى باقي تقاسيم وجهه: وجه حليق، وفم عريض، وغمّازة بسيطة في وجنته اليمنى. بدا أصغر عمرًا من البارحة، ومسالمًا. صليب ذهبي التمع في عنقه، فوق ياقة قميصه تمامًا.

«من أنت؟» سألته.

«أنا الأب كليمنت. راهب كنيسة القدّيس ألبان التي على رأس التّل».

«راهب!» سألته بلا تصديق. «لماذا يتبعني راهب كاثوليكي في أرجاء القرية؟»

قال بخجل: «أعتذر، حقيقة. اعتقدت أنّي سأكون أكثر حذرًا. هذه هي المرّة الأولى التي أفعل فيها شيئًا كهذا».

«تفعل ماذا؟»

حكّ مؤخّرة رأسه، وقال: «كل ما هنالك أنّ الآنسة باربيير قد أخبرتني بشأن الوثائق»

توتّر جسدها مرّة أخرى: «ما مشكلتها؟ إنّها رسميّة»

«صحيح، في الواقع هذا ما قالت أيضًا»، ثمّ أكمل بتردّد: «وقالت إنّ وثائق أمّك تؤكّد أنّها مهاجرة روسيّة، وأنّها بالتأكيد ليست كذلك».

«روسية حتمًا» أجابته إيڤا باعتراض وغضب.

انزعج بيير كليمنت. «مدام باربيير روسيّة المولد، وهي مهاجرة بيضاء بعد الثّورة، وهي شبه متأكّدة من أنّ أمّك بولنديّة، ما يعني أنّها تسافر بأوراق مزوّرة»

«لا بدّ أنّك مخطئ». تفادت إيڤا نظراته، ثمّ قالت: «وما الذي سيحدث؟ هل ستشي بنا الآن؟»

«لا، لا، لا شيء من هذا القبيل»

«ماذا إذن؟»

«كنت آمل أنْ تطلعيني على مصدر الوثائق، لكنّي عرفت الجواب»

«ماذا تقصد؟»

قال لها بصوتٍ أرق: «يداكِ»

نظرت إيڤا إلى يديها ففزعت من أصابعها المغطاة بالحبر. «الأمر ليس ما تعتقد».

تراجَع خطوة. «سأتفهم عدم رغبتك في تدخّلي في شؤونك يا آنسة، لكن يجب أنْ تعلمي، أنّ لدي أصدقاء أياديهم ملطّخة بالحبر أيضًا. أوراقك أدهشت مدام باربيير وأعتقد أنّ بإمكاننا التّعاون».

«لا أفهم قصدك»

«ستجدينني في الكنيسة في أي وقت اليوم. سأوفّر لكِ أدوات أفضل من التي وجدتها في المتجر»

«لكن أنا...»

«لا يبحث الألمان عن الوثائق الرّسميّة فقط، كما تعلمين. ستحتاجين إلى ما يفوق مهاراتك في الرّسم، إذا أردت الحفاظ على سلامتك». ابتسم حين وجدها لم تنطق بكلمة. «بإمكاني مساعدتك. أرجوك، فكّري في الموضوع». أومأ، ثمّ استدار بسرعة. شاهدته وهو يتوجّه نحو الرّواق ويختفي عند الزّاوية. بعد لحظة، سمعت باب المدخل الأمامي يفتح ثمّ يغلق. عندئذ تنفّست الصّعداء. كان عليها إخبار أمّها بما حدث على الفور؛ سواء أقصد الأب كليمنت ما قاله أم لا. هناك حقيقة واحدة فقط: اكتُشف أمرهم، وإيڤا هي السّبب.

الفصل السّابع

«استيقظي!» قالت وهي تدفع أمّها. وحين فتحت عينيّها بنصف إغماضة، دفعتها إيڤا مرّة أخرى وكادت تسقطها على الأرض. «تعالي ماموشا. افتضح أمرنا. لا وقت لهدره».

«ماذا تقصدين؟» فزعت ماموشا على الفور، وهي تبحث عن التّنورة والقميص اللذين ارتدتهما في اليوم السّابق، واللذين كانا على الكرسي قرب النّافذة.

«ماذا حدث؟»

«مدام باربيير تعرف أنّ أوراقنا مزوّرة. جاء رجل هذا الصّباح يسأل عنها».

«ماذا؟!» شحب وجه أمّها، وارتجفت أصابعها، فاهتزت تنّورتها. «هل هو شرطي؟» بدأت تجمع الحاجات من أرض الغرفة، وتقذفها في الحقيبة.

قالت إيڤا بتردّد: «لا. إنّه راهب».

توقّفت أمّها عن جمع الأشياء، وقالت بتعجّب: «راهب!»

«هذا ما قاله»

«لكن ما سبب مجيئه؟ أيعمل مع السّلطات؟»

«لا أعتقد هذا». ما زالت إيڤا تفكّر إن كان صديقًا أم عدوًّا. مغادرته بعد الدّعوة إشارة جيّدة، أليس كذلك؟ «لعلّي مخطئة، لكنّي أعتقد أنّه كان يشير إلى أنّه يعمل مع مزوّرين آخرين. أعتقد أنّه كان يدعوني إلى العمل معهم». بمجرّد خروج الكلمات

مـن فـم إيڤـا، تسـاءلت إن كانـت قـد أسـاءت فهـم المحادثـة تمامًـا. راهـب يقـود جماعـة مزوّريـن؟ الأمـر أغـرب مـن الخيـال.

«ماذا قال؟»

«أخبرنـي أنّ بوسـعه أنْ يمـد لـي يـد العـون. لا أعـرف قصـده تحديـدًا»

حدّقت أمّها إليها بعينيـن فاغرتيْـن. «إيڤا، قـد يكـون قـادرًا علـى تحديـد مـكان والـدك، ويتمكّـن مـن إطـلاق سـراحه»

«قد يكون كمينًا»

«من فعل راهب؟»

«لا يوجد قانون يجبر كل الرّهبان على التزام النّزاهة"

«لا أعـرف الكثيـر عـن الكاثوليكيّـة، لكنّـي متيقنـة مـن أنّ هـذا جـزءٌ مـن الوصـف الوظيفـي لعمله»

«استهجنت إيڤـا. والدتهـا محقّـة بخصـوص أمـر واحـد؛ قـد يحمـل الرّاهـب مفتـاح إخـراج والدهـا مـن المعتقـل، والوقـت يمضـي سـريعًا بـلا شـك. بمـا أنّهـا نبّهـت والدتهـا، لعـل مـن الأفضـل المخاطـرة بالتّوجّـه إلـى الكنيسـة لتتأكـد مـن العـرض. «حسـنًا» قالـت أخيـرًا. «سـأذهب لرؤيتـه، لكـن فقـط إذا أخذتـك إلـى مـكان آمـن».

«وأين سأذهب؟»

«لا أعـرف، لكـن لا يمكنـك البقـاء هنـا. يجـب أنْ نعـرف إن كانـت مـدام باربييـر إلـى جانبنـا أم لا». تفكّـرت إيڤـا فـي المسـألة. فكرة تتكوّن فـي ذهنهـا. «سـآخذك إلـى متجـر كتـب أعرفـه». المـكان الوحيـد الـذي يمكنهـا التّفكيـر فيـه. البائعـة هنـاك لطيفـة، وإيڤـا رفضـت التّفكيـر فـي أنّ مـن يكسـب أجـره مـن الكتـب قـد يحمـل شـرًّا فـي قلبـه.

***

بعد إحضار والدتها إلى المكتبة وإخبار المرأة بقصّة غير مقنعة عن اشتياق ماموشا إلى قضاء الوقت في استعراض الكتب، أسرعت إيڤا نحو الكنيسة، وهي مطمئنّة إلى أنّ المرأة قد فهمت أنّ ماموشا بحاجة إلى مكان تتوارى فيه مدة وجيزة، «بإمكانك أنْ تشكريني بحفاظك على سلامتك»، قالت لها المرأة البارحة. ليس بوسع إيڤا إلّا أنْ تتمنّى أنّ هذه الأمنية ستحمي أمّها أيضًا.

دبّت الحيويّة في القرية عند منتصف النّهار، رغم أنّها ما زالت أهدأ مكان شاهدته إيڤا على الإطلاق. بإمكانها أنْ تعد على أصابعها عدد الأشخاص الذين شاهدتهم وهي في الطّريق: اللحام في حي باسكال في الخارج مرتديًا مريلته المُلطّخة بالدّم، يغسل نافذته الأماميّة؛ ستّ نساء في طابور عند المخبز في حي لافانت، وممسكات ببطاقات تموين، منهن من يثرثرن ورؤوسهن مائلة، ومنهن من يرفعن رؤوسهن لرؤية المتبقي في داخل المتجر. تبادلت إيڤا تحيّات الصّباح مع بائعة زهور ممتلئة القوام، في منتصف عمرها ترتّب نباتات الفاونيا الورديّة في سلّة خارج زاوية متجر، لكنّها كانت قلقة ومحترزة.

كنيسة القدّيس ألبان على بُعد مربعيْن سكنيّيْن من متجر الكتب والقرطاسيّة، ولهذا وصلت إيڤا إليه قبل ترتيب أفكارها تمامًا – أو معرفة ما الذي ستفعله. تردّدت أمام الباب الرّئيس، ووضعت يدها على المقبض الحديدي، لكنّها لم تدخل. ادخلي يا إيڤا. يجب أنْ تنتهزي الفرصة. تحتاجين إلى شيء يقنع السّلطات بإطلاق سراح تاتوش.

استجمعت شجاعتها، دفعت الباب ودخلت. في الدّاخل، الكنيسة مُضاءة بنور خافت، واثنا عشر مقعدًا خشبيًا باتّجاه مذبح. منضدة الخطابة على منصّة مرتفعة؛ خلفها جرّة ذهبيّة صغيرة. فوق المذبح الأسود تمثال ذهبي ليسوع، وجهه متألّم وينظر باتّجاه السّماء، جسده مثبّت إلى صليب. شموع تتلألأ على أعمدة صغيرة على المذبح. الأب كليمنت ليس موجودًا. ارتجفت إيڤا وجلست على أحد المقاعد. لم تذهب إلى كنيسة من قبل، ولهذا لم تكن متأكّدة ممّا عليها فعله. مرّت دقائق ولم يظهر الأب كليمنت، وبدأت تقلق على أمّها. ماذا لو أنّها خدعة؟ ماذا لو أنّ الأب كليمنت قد تبعها إلى المتجر، وأبلغ الشّرطة فور مغادرة إيڤا؟ لكن مرّة أخرى، لماذا يفعل هذا، وقد كان بوسعه أن يأتي بالشّرطة إلى باب غرفتها هذا الصّباح؟

فُتح باب الكنيسة، فالتفتت إيڤا، وهي تتوقع مشاهدة الأب كليمنت وهو يتوجّه إليها عبر الممر. وعوضًا عن ذلك، شاهدت زوجيْن شابيْن مقاربين لها في العمر. قبّعة الرّجل تظلّل وجهه، أمّا المرأة التي غطّت رأسها بحجاب خفيف، فبدت متوجّسة. عيناها تتحركان من اتّجاه إلى آخر، وبعد أنْ لمحت إيڤا، أدّت علامة الصّليب بسرعة. تأبط الرّجل ذراعها ودخلا بابًا آخر للكنيسة كُتب عليه: الاعتراف.

التفتت إيڤا لتنظر إلى الصّليب من جديد، لكن أزعجها أمرٌ ما. ألا يدخل الكاثوليكيون إلى غرفة الاعتراف فرادى؟ هذا ما قرأته في الكتب. كما أزعجها أمرٌ آخر، إنّها متيقنة من أنّ المرأة أدّت إشارة الصّليب بشكل خاطئ. لقد شاهدت بأم عينيْها جون غابان

وهو يُصلّي في أحد أفلامه -لم تتمكّن من تذكّر اسم الفيلم، أكان الوهم العظيم أم الإنسان الوحش أم ميناء الظّلال- وكانت متأكّدة من أنّه لمس جبينه وصدره وكتفه اليسرى ثمّ اليمنى. لكنّ المرأة المتوجّسة قد بدأت بجبينها ثمّ انتقلت إلى كتفها اليمنى، فصدرها، ومن ثمّ كتفها اليسرى، شكل مُعيّن لا شكل صليب.

ادّعت إيڤا أنّها تصلّي في أثناء انتظارها خروج الزّوجيْن من الاعتراف. إذا لم يكونا كاثوليكيين، فما دينهما؟ مضت ثوان، ثمّ رفعت إيڤا ناظريْها إلى تمثال يسوع الذي نُحت بتفصيل شديد، كأنّه رجلٌ حقيقي، قسمات وجهه توحي بالحنان والإيلام، فتذكرت طريقة اضطهاده. لم تقض وقتًا طويلًا في تأمّل حياة يسوع، لكن على الرّغم من إيمانها بأنّه المسيح، تيقّنت من أنّه كان رجلًا صالحًا وقد قُتل ظلمًا. بدا لها أنّ قَتْل الأفراد المختلفين عن العامّة قديم بقدم الزّمان.

توغّل عندئذٍ صرير مفاصل الباب في الصّمت، فشاهدت إيڤا الزّوجيْن وهما يخرجان بسرعة. حمل الرّجل حزمة أوراق، خبّأها تحت قميصه قبل أنْ يفتح الباب. دخلت أشعّة الشّمس واختفت بسرعة مع الزّوجيْن.

عبَسَت إيڤا، ثمّ نظرت إلى التّمثال من جديد. «أراهن أنّك تعرف ما يجري هنا» قالت بصوت خفيض وهي تخاطب التّمثال: «أنت ترى كل شيء، أليس كذلك؟»

«إنّه يشاهد بالفعل، أو هذا ما أحب تصديقه»

دبّ الرّعب في أوصال إيڤا، فالتفتت. شاهدت الأب كليمنت جالسًا على بُعد متريْن تقريبًا من مقعدها.

«من أين جئت؟» قالت ودقّات قلبها متسارعة.

«أوه، دخلت وأنتِ تشاهدين ضيفي يغادران. انتبهي دائمًا لما يُحيط بكِ. هذا أحد دروسنا الأولى».

"دروس؟»

استكمل كلامه وقال: «رغم شكّي في مجيئك لتعليمنا أيضًا. وللإجابة عن سؤالك أحب تصديق أنّ الرّب يرعانا من السّماء. يُشعرني هذا بطمأنينة أكبر بعض الشّيء وسط كل هذه الفوضى والحيرة. أتمنّى أنْ تعثري على الرّاحة في هذا أيضًا». ودون أن ينطق بأي كلمة أخرى، وقف. وبدأ يمشي مبتعدًا. حدّقت إيڤا إليه. أكان على وشك المغادرة؟ هل هذا كل ما في الأمر؟ التفت إليها وابتسم. «ماذا يا عزيزتي؟ ألن ترافقيني؟»

«أرافقك إلى أين؟»

«سترَين». لم ينتظر إجابة منها وهو يعرج مبتعدًا. تردّدت إيڤا، لكنّها ما لبثت أنْ لحقت به. فتح بابًا إلى يمين المذبح ودخله دون أي التفات إلى الخلف. بعد أنْ حدّقت إلى تمثال المسيح بنظرة قلقة، دخلت بعده.

«مرحبًا بكِ في مكتبتنا» قال لها، والباب يُغلق خلفها، وهي تنظر بدهشة إلى المساحة التي أمامها.

المكان أشبه بحلم، غرفة مملوءة بالكتب، جدار زجاجي ملوّن ارتفاعه متر واحد خلف الرّفوف، يُلقي ظلالًا ملوّنة على كتب كثيرة أغلفتها جلديّة في كل مكان. طاولة خشبيّة تتوسّط الغرفة وكرسيّان خشبيّان.

بافتتـان، اقتربـت إيڤـا مـن رف إلـى يسـارها، سـحبت كتابًـا بعشـوائيّة. تغليفـه جلـدي، وأطرافـه مهترئـة، علـى كعبـه أزهـار ذهبيّـة متلاشـية، وملتفّـة حـول العنـوان: الرّسـائل والأناجيل. مـرّرت أصابعها علـى الغـلاف بإجـلال. لا بـدّ أنّ عمـره مئتـا عـام.

«أعتقـد أنّـه نُشـر عـام 1732» قـال وكأنّـه يقـرأ أفكارهـا. نظـرت إلـى الأعلـى، ومـا زالـت تحمـل الكتـاب، فابتسـم إليهـا ثـمّ أشـار إلـى مـا فـي الغرفـة: «أغلـب كتبنـا تسـبق الثّـورة الفرنسـيّة. هـذه الكنيسـة موجـودة منـذ زمـن طويـل، ومكتبتنـا هـي أحـد الأماكـن القيّمـة. هـذا مكانـي المفضّـل فـي العالـم، حقيقـةً، مـكان آتـي إليـه حيـن أحتـاج إلـى السّـلوان، وأظنّـك ستسـتمتعين فيـه أيضًـا».

«مذهـل» تمتمـت، وقـد نسـيت حذرهـا. الكتـب أينما كانـت فـي هـذا العالـم وطـنٌ بالنّسـبة إليهـا. «أتدخلهـا متـى شـئت؟ سـألته. وضعـت الكتـاب علـى الطّاولـة بتـردّد، وفـي أصابعهـا رغبـة فـي استكشـاف باقـي الكتـب علـى الرّفـوف.

ضحك الأب كليمنت، وقال: «أفترض أنّ بإمكاني»

نظـرت إليـه، وابتسـمت. كان مسـترخيًا مسـرورًا، وتسـاءلت إن كان مبتهجًـا فـي هـذا المكان كمـا تشـعر هـي. «لمـاذا أحضرتنـي إلـى هنـا؟»

«أعتقـد أنّ بإمكاننـا مسـاعدة بعضنـا»

توقّـد حذرهـا، وقالـت: «مسـاعدة بعضنـا؟»

اختفـت ابتسـامته، ورغـم أنّ اللطـف فـي عينيْـه، فبإمكانهـا رؤيـة عـدم الثّقـة أيضًـا. بـدا أنّـه ينتقـي كلماتـه بدقّـة. «هـل مسـتنداتك معـكِ؟ أريـد الاطّـلاع عليهـا».

«لمـاذا؟» تراجعـت إيڤـا خطـوة إلـى الـوراء نحـو البـاب المغلـق. أهـذه المكتبـة جـزء مـن الخدعـة؟ لمحـة كمـال قبـل الوقـوع فـي كميـن أبـدي؟

«رجـاء، كمـا أخبرتـك مـن قبـل يـا آنسـة. لا أنـوي إيـذاءك». خـدش قفـاه، وبـدا أنّـه يحـاول العثـور علـى كلمـات. «حسـنًا، سـأخبرك بمـا أخفيـه. نحـن بحاجـة إلـى شـخص موهـوب، يملـك قـدرات فنيّـة».

"قـدرات فنيّـة يمكـن أنْ تخـدع أكثـر الضّبـاط تمرّسًـا فـي القانـون. قـدرات فنيّـة سـتتيح لمـن ارتكبـوا إثمًـا بالمضـي قدمًـا نحـو حيـاة حـرّة».

«لا أفهم قصدك»

انزعـج. «آه، حسـنًا، كمـا تعلميـن، أنـا ورفاقـي جمعنـا بعـض الأدوات، لكـن يبـدو أنّهـا تحتـاج إلـى شـخص أسـرع منّـا. مـدام باربيير تعمـل معـي، وأخبرتنـي بـأنّ مهاراتـك قـد تكـون مفيـدة».

تنفّسـت بعمـق. شـعرت بأنّهـا علـى وشـك القفـز مـن منحـدر؛ لا مجـال للتّراجـع. «أتقصـد تزويـر المسـتندات؟»

سـكتت وظـلّ يحـدّق إليهـا. «أجـل، أجـل، هـذا مـا أقصـده يا آنسـة. مـن فضلـك، سـأطلب مـن جديـد: هـلّا أريتنـي الأوراق؟»

تـردّدت قبـل أنْ تسـحبها مـن جيبهـا وتسـلّمها إليـه بصمـت. تفحّصـت لغـة جسـد الرّاهـب؛ تجعّـد جبينـه، تسـاءلت إن كانـت قـد ارتكبـت خطـأ فـي منحـه الثّقـة.

وأخيرًا، رفع عينيّه. «هذا ممتاز يا آنسة فونتان، أليس كذلك؟»

«طبعًا. هذا ما تذكره بطاقة الهُويّة».

«صحيح. هذا مكتوب». ابتسم، ثمّ قال: «أنا في غاية الانبهار يا آنسة فونتان. والآن، يجب أنْ أعترف أنّي بحاجة ماسّة إلى مساعدتك».

ماذا لو أنّ بوسعها مساعدة الآخرين على الهرب كما هربت هي وأمّها؟ لكن لا يمكنها التّفكير في ذلك بعد، ووالدها في خطر. تنحنحت. «كنت لأساعدك، لكن لدي مهمّة أخرى في الوقت الحالي. سجن والدي غير قانوني». نظرت إلى عينيه. «في باريس. كانت هناك حملة اعتقال قبل أيّام. قبضوا على اليهود».

«صحيح. هذه مأساة كبرى. بحدود ثلاثة آلاف شخص»

إذن، فتخمين جوزِف لم يكن غريبًا. «كيف عرفت؟»

«كما أخبرتك. لدي أصدقاء. اعتقل أغلبهم في درانسي، شمال باريس، في معسكر سجن ضخم. تقول إنّ والدك من ضمنهم. آسف لذلك».

«أجل». لم تتأكّد إيڤا بعد إن كان الرّاهب يستحق ثقتها أم لا. هذه هي المرّة الأولى التي تسمع فيها عن معسكر اعتقال. «أريد تصويب الخطأ، لكن لا أملك المستندات المناسبة».

«آه. فهمت. حسنًا يا آنسة فونتان. قد أكون قادرًا على المساعدة»

«فعلًا؟» قالت بدهشة.

«بالطّبع، إذا ذهبتِ إلى درانسي ومعك ورقة من القنصل الأرجنتيني توضّح أنّ والدك أرجنتيني، فإنّ السّلطات ستطلق سراحه. اتّفق الألمان مع الحكومة الأرجنتينيّة -كما تعرفين- على عدم سجن مواطنيهم، حتّى لو كانوا من اليهود».

فتحت إيڤا فمها وأغلقته باستغراب. لم يخطر في بالها أنّها ستحتاج إلى أوراق من هذا القبيل. لكن حتمًا لن يكفي الظّهور فجأة عند بوابة السّجن وتسليم مستندات تُثبت هُويّته، مهما كان تزويرها دقيقًا. «وهل لديك أصدقاء في السّفارة الأرجنتينيّة؟» سألت بانتباه.

«لا» لاحظ الأب كليمنت تحديقها إليه. لكنّي أعرف شكل مستنداتهم، ولدي مواد كثيرة في حوزتي. أود مساعدتك يا آنسة، لكنّي سأحتاج إلى مساعدتك بالمقابل. نحن في أمس الحاجة إلى تزوير مستندات أخرى».

«فهمت»

«لم لا تفكّرين في الأمر؟» قادها باتّجاه الباب، ومع فتحه وهو يقودها إلى قلب الكنيسة، شعرت بالتّيه. للحظة، تخيّلت نفسها بين أكوام الكتب في باريس، بلا هموم تقلقها أكثر من استكمال دراستها للأدب الإنجليزي، والآن يتدخّل العالم الحقيقي عنوة في حياتها. «إذا أردتِ مساعدتنا، فتعالي إلى الكنيسة مساء اليوم بعد منتصف الليل، وحدك. وأقسم بحياتي يا آنسة فونتان، لكِ ولوالدتك أنّك بإمكانك الثّقة بمدام بارببير».

«رغم وشايتها بنا؟»

مشى الأب كليمنت معها نحو المدخل المزخرف، ومدّ يده نحو المقبض الحديدي المزخرف أيضًا. «خيانة أم مساعدة للطّرفيْن؟»

فتح الباب وهذا السؤال الذي يجهل إجابته في ذهنه. دخلت أشعّة الشّمس فأعمت بصر إيڤا للحظة، ومع التفاتها لتوديع الرّاهب، كان قد دخل الكنيسة، وتركها وحيدة تصارع هواجسها.

الفصل الثّامن

مايو 2005

وصل ابني بِنْ إلى باب شقّتي بعد خمس وثلاثين دقيقة من مكالمته وإخباره عن سفري إلى برلين خلال أقل من تسع ساعات، وحاجتي إلى من يقلّني إلى المطار.

«أمّي، هل جننتِ؟» سأل دون تمهيد حين فتحت الباب لأجده واقفًا عند عتبة باب شقّتي، والعرق يتقطّر من جبينه في صيف فلوريدا اللاهب. «تريدين السّفر إلى ألمانيا، ويُفترض أنْ أتصرّف بشكل طبيعي؟»

«لا تهمّني طريقة تصرّفك» أجبته باستنكار. «كل ما أريده هو أنْ توصلني إلى المطار. أبكرتَ في المجيء يا عزيزي»

«أمّي، أنتِ تتصرّفين بسخافة». دخل وأغلق الباب وراءه، وأنا أستعد لجدال. كلّما كبر، كبرت، وكلّما اعتقد أنّه يعرف ما هو الأفضل لي. معركتنا الأخيرة هي لفرض الإرادة، وما زالت مشتعلة، وهي التي حاول فيها إقناعي للانتقال إلى دار عجَزة لمصلحتي. لكن لماذا أفعل هذا؟ ما زلت بكامل قواي العقليّة؛ بصري وسمعي تقريبًا كما كانا حين كنت في منتصف عمري. أمشي إلى عملي وأنا قادرة تمامًا على الذّهاب إلى المتجر ومواعيد الطّبيب. حتمًا كان عليّ التّخلي عن جز الحشيش قبل ثلاثة أعوام حين عانيْت ضربة شمس مُحرجة، لكنّ هنالك مزارعًا يتولّى هذا الأمر الآن، وأجره ستّون دولارًا في الشّهر.

«لا أعرف أين المشكلة» قلت له، وأنا أدير ظهري نحو غرفة نومي، حيث حقيبة السّفر مفتوحة على سريري. «أحتاج إلى حزم حاجاتي يا عزيزي».

غرفتي مزحومة بالكتب، أغلبها مصفوف على رفوف بشكل غير مستقر على رفوف متهالكة جمعها لويس قبل سنوات. كتب تعج بقصص الآخرين، كنت قد قضيت معظم حياتي في الاختفاء داخلها. أحيانًا، في الليالي الدّهماء السّاكنة وأنا وحيدة، أتساءل إن كنتُ سأنجو من الواقع إنْ لم أهرب إلى صفحاتها، ثمّ أفكّر من جديد بإمكانية منحها المبرّر لي للتّهرب من حياتي الشّخصيّة فقط.

«أمّي» يناديني بِنْ وهو يتبعني إلى غرفة النّوم. «ساعديني على فهم ما تفعلين. لماذا ألمانيا؟ لماذا الآن؟ لم تذكريها في حياتك على الإطلاق!» يبدو غاضبًا، منزعجًا منّي ومتعكّرًا من إفساد يومه.

أسحب سترة رماديّة صوفيّة رماديّة من قعر جارور في طاولتي. هل الطّقس بارد في برلين من هذا العام؟ أطويها بعناية وأضعها في حقيبة السّفر. «هنالك أمور كثيرة لم أذكرها لك عن ماضيَّ يا بِنْ».

بِنْ الذي يبلغ الثّانية والخمسين من عمره الآن، كان قد ولد بعد أنْ طويت صفحة حياة عشتها سابقًا. يعجز معظم الأبناء عن إدراك أنّ والديْهم مخلوقات مستقلّة لها أحلامها ورغباتها، ومثلهم لم يعرفني ابني. عرف جزئيّات بسيطة اخترت إخباره بها: الجسد الذي حمَله، والصّوت الذي وبّخه، واليدان اللتان

طمأنتاه. لكن هناك جوانب أخرى كثيرة أبقيتها لنفسي، جوانب لم أسمح له برؤيتها نهائيًا.

«حسنًا» يقول بِنْ، وهو يمرّر أصابعه بين خصلات شعره الكثيف الدّاكن المختلف عن شعر أبيه. كان لويس أصلعَ تقريبًا وهو في منتصف الأربعينيّات تقريبًا، رغم أنّه قاوم مقاومة باسلة لتغطية أغلب رأسه بالشّعر المتبقّي في مؤخّرة رأسه. لم أمتلك الشّجاعة لأخبره عن سخافة فعله. «إذن لنفعل هذا يا أمّي، لم لا تنتظرين بضع أسابيع، وسأسافر معك، حسنًا؟ سأنجز بعض المهام. تنفيذ ما تريدين صعب، لكن لو كان الأمر مهمًّا بالنّسبة إليكِ...»

«أعتقد أنّنا نعرف مسبقًا مدى انشغالك ومكانتك» أقول له بهدوء. في هذا، أعرف أنّي خذلته. أحبّه أكثر من أي شخص آخر على وجه الأرض، لكنّ الزّمن قد برهن لي أنّي ارتكبتُ خطأ فادحًا في السّماح له بتعلّم تحديد أولويّاته من أبيه، فيما فقدت نفسي في الكتب. أين كنت حين احتاج إلى تعلّم الشّجاعة والإيمان والجرأة؟ إنّه رجل، وأعرف هذا، لكنّه يولي النّجاح في حياته الوظيفيّة أهميّة كبرى، ويولي أهميّة صغرى للمشاعر، وأنا لست مثله».

يقول بصوت مجهد: «أمّي، لا تتكلّمي عن هذا الموضوع مرّة أخرى. أعلم أنّك تعتقدين أنّ الاهتمام بعملي خطأ، لكنّي أجد متعتي فيه، ولا إثم في ذلك».

أتجاهله وأنا أطوي فستاني الرّمادي الفاحم وأضعه في الحقيبة، ثمّ فستاني البنفسجي. فستانان اشتريتهما قبل سنوات

لأنّهما يذكرانني بالماضي، ولهذا يبدو من الملائم جلبهما معي بما أنّي سأعود إلى الماضي هذه الليلة. «بِنْ، هل حدّثتكَ عن والدتي؟»

مرّرَ الآن كلتا يديّه في شعره، فذكّرني بأحد العلماء. «ما علاقة هذه بما يحدث؟» وعندما لم أجب سؤاله تنهّد، وأنزل يديّه في استسلام ظاهر. «لا يا أمّي. أعني، أعرف أنّها كانت فرنسيّة...»

«بل كانت بولنديّة الجنسيّة، مثل أبي"

بدا متحيّرًا لثانية. «صحيح. لكنّهما هاجرا إلى فرنسا في شبابهما، صحيح؟»

أومِئ بالإيجاب. «أجل. لكنّي لا أقصد هذا. لم أحدثك عنها، صحيح؟ طريقة رقصها في مطبخنا حين تعتقد أنّ لا أحد يراها، صوت ضحكتها؟ لم أحدثك عن لون عينيْها؛ لونهما بني داكن كشوكولاتة داكنة، أو عن رائحتها التي تشبه رائحة الفانيليا والزّهور». أشعر بتحديقه حين توقّفت لألتقط أنفاسي. «كانت تخشى اختفاء ذكراها، كأنّ اختفاء الذّكرى هو أسوأ مصير في العالم. وما الذي فعلته أنا بعدم مشاركة ذكراها معك؟ محوتها طوال تلك السّنوات، ألم أفعل؟ أتعرف اسمها؟»

«أمّي» صوته هادئ. «أنت تخيفينني. ما الهدف من الحديث عن والدتك؟»

«فايغا. كان اسمها فايغا». لا بدّ أنّه يعتقد أنّي في حالة انهيار. أحدّق إليه لوهلة، وإلى جانب التّعاطف والاهتمام في عينيه، أرى شروده؛ إنّه يفكّر في كل مسؤولياته الواجب عليه إنجازها. ولهذا أُدرك أنّ الخيار الوحيد هو التزام الصّدق معه؛ بطريقة ما. «بِنْ

يا عزيزي، سأغيّر موعد رحلتي حتى تشعر بتحسّن».

«أجل يا أمّي، سيكون الأمر رائعًا. يمكننا أنْ نتكلّم عمّا تريدين مساء اليوم. اتفقنا؟ ويمكنك أنْ تحدثيني عن سبب عزمك المفاجئ على السّفر إلى بلد لا تربطك به علاقة». عادت نبرة صوته المتسلّطة؛ فزاد شعوري بالذّنب.

«كما تشاء يا عزيزي» أقول له. أقترب منه وأسحبه لأعانقه. إنّه يطمسني كما طمست أمّي، من خلال منح نفسه الحق ليراني على غير حقيقتي. إنّه ينظر إلي ويعتقد أنّي غير قادرة على الاعتناء بنفسي. مخطئ. «أحبك يا بِنْ» أضيف في أثناء توجهه إلى الباب.

«أحبك أيضًا ماما» يبتسم لي. «لا ترتكبي فعلًا جنونيًا في أثناء غيابي، اتفقنا؟»

«أكيد يا عزيزي» قلت له. فور إغلاق الباب خلفه، أمسك الهاتف وأهاتف الخط المباشر لشركة دلتا. بعد عشر دقائق، حجزت مرّة أخرى على رحلة الساعة 3:11 اليوم، سأغادر قبل ست ساعات من الموعد السّابق، وسأصل إلى برلين في السّاعة 10:50 صباح الغد بعد استكمال الرّحلة على طائرة في نيويورك. لم أكذب على بِن كذبًا بيّنًا، أطمئن نفسي. سأغيّر رحلة الطّيران، كما قلت.

وكما تعلّمت قبل زمن طويل، تكمن الحقيقة في المعنى. أهاتف سائق أجرة، وأضع بعض أدوات النّظافة في حقيبتي في أثناء انتظاري بدء مستقبلي.

الفصل التّاسع

يوليو 1942

«نفّذي طلب الرّاهب» قالت ماموشا بعد أنْ أخذتها إيڤا من المتجر وحكت لها قصّة لقاء الكنيسة وهما في طريقهما إلى النّزل. «هذا من أجل والدك». في طريق العودة، شمس منتصف النّهار جعلت الشّمس تتلألأ، بلاط الأسقف الطّيني يلمع كأنّه نارٌ مشتعلة.

"أعتقد أنّ الأمر لا يتعلّق بتاتوش فقط. سيتوقّع الأب كليمنت مساعدة بالمقابل»

«إذن فستساعدينه في تزوير مستندات أخرى» قالت ماموشا بعد صمت. «كم من الوقت سيستغرق هذا؟ يومًا، يومين؟ بعدها، سنغادر، سنتوجّه إلى سويسرا معًا»

أومأت إيڤا بالإيجاب، لكنّها لم تكن أكيدة من سهولة الأمر.

عند السّابعة، طُرق باب الغرفة، وحين أجابت إيڤا بحذر، وجدت أنّ مدام باربيير عند الباب.

«جهّزتُ العشاء في غرفة الطّعام» قالت المرأة الأكبر عمرًا [من أمّها].

«يجب أنْ تعرفي أنّنا لا نملك بطاقتيّ تموين» أجابت إيڤا.

«نحن نعتني ببعضنا في أورينيون»

أخذت إيڤا نفسًا عميقًا. «أهذا ما فعلته حين أخبرتِ الأب كليمنت عنّا؟»

أشاحت مدام باربيير بنظرها. «كنت أنقذ حياتك يا آنسة، وحياة أمّك. مستنداتك جيّدة، لكنّك لم تأخذي كل شيء في اعتبارك، حتّى الآن». استدارت قبل أنْ تنطق إيڤا بأي كلمة.

حين جلست إيڤا مع والدتها وحدهما في غرفة الطّعام بعد دقائق من هذه المحادثة، وجدتا وليمة متنوّعة الأصناف تنتظرهما. وسط المائدة المُجهّزة لثلاثة أشخاص دجاجة مشويّة على طبق فيه بصل أخضر، وإلى جانبه بطاطس محمّصة مقرمشة، وزجاجة نبيذ أحمر، ودوْرَقُ ماء. تبادلت إيڤا ووالدتها نظرات الشّك. يبدو الطّعام شهيًّا لدرجة عدم تصديقه؛ لم تشاهد إيڤا طعامًا كهذا بعد الحرب. نظرت حولها، همست ماموشا بصلاة الخبز (هاموتزي) للبركة، وأخرى للنبيذ، تمامًا عند دخول مدام باربيير إلى الغرفة.

«أتمنّى ألّا تمانعي انضمامي إليكما» قالت مدام باربيير، ثمّ جلست على كرسي قبل انتظار الإجابة. «هنالك مزارع يقيم على حدود القرية، وكنت قد أسديت له خدمة. بالمقابل، يقدّم لي الطّعام بين الفينة والأخرى، لكنّي لا أستطيع أكل كل هذا وحدي».

«لماذا تساعديننا؟» سألت إيڤا في أثناء تقطيع مدام باربيير الدّجاج. تصاعد البخار من الطّائر، فأغلقت إيڤا عينيها لثانية، تنهّدَت ببهجة بسبب الرّائحة الشّهيّة.

«لأنّكما مررتما بصعاب كثيرة». وضعت مدام باربيير صدر دجاجة كبير على طبق ماموشا وفخذًا مقرمشًا على طبق إيڤا. «ولأنّي أتمنى أنْ تبقيا في أورينيون مدة من الزّمن. الغرفة هنا ملككما طوال مدة إقامتكما. أخبروني بأنّ الأب كليمنت يقدّم لكما راتبًا بسيطًا، سيفي بقيمة سكنكما».

«شكرًا» قالت ماموشا وهي ترتّب المنديل على حجرها، «لكنّنا لا نستطيع البقاء زمنًا طويلًا».

«فهمت» لم تنظر مدام باربيير إلى أي منهما وهي تضع البطاطس والخضراوات في الأطباق. صبّت كوب نبيذ للجميع. «أعتقد أنّ ابنتك قد كلّمت الأب كليمنت».

تألّمت إيڤا حين صلّت السّيدة باربيير صلاة قصيرة، أعقبها أداء إشارة الصّليب، وتناولت فخذ الدّجاجة. «لم نتّخذ أي قرار بعد».

نظرت ماموشا نظرة حادّة. «اتّخذنا القرار حتمًا. ستستعيدين والدك، ثمّ سنغادر».

التفتت مدام باربيير إلى إيڤا، وفي عينيها تفاؤل. «أهذا شعورك أيضًا؟ ستهجريننا بعد مساعدتنا لك؟»

فقدت إيڤا شهيّتها فجأة. «أنا... أنا لا أعرف».

«لكنّ والدك...» قالت ماموشا بصوت مرتفع.

على الجانب الآخر من المائدة تنحنحت مدام باربيير. «الأب كليمنت رجلٌ صالح. يمكنكِ الوثوق به. يعمل بجد».

حدّقت ماموشا إلى مدام باربيير. «أنا أكيدة من أنّه يفعل هذا، لكن لا علاقة له بنا».

«على العكس. أعتقد أنّ له علاقة وطيدة بكما إذا أردتِ رؤية زوجك من جديد» أجابت مدام باربيير بهدوء.

استاءت ماموشا ودفعت كرسيّها إلى الخلف. لثانية واحدة، كانت إيڤا واثقة بأنّ أمّها كانت على وشك صب جام غضبها على صاحبة النّزل، لكن يبدو أنّها توانت عن فعل ذلك، لربما أغواها

الطّبق الممتلئ أمامها. وبدلًا من ذلك، أعادت كرسيّها إلى مكانه، وتمتمت شيئًا ما بغضب، بينما قطّعت مدام باربيير الدّجاج وعلى وجهها أمارات السّرور.

«إذن، تعيشين هنا وحدك؟» سألت إيڤا حين أصبح الهدوء مزعجًا.

«أجل يا عزيزتي. أدرنا أنا وزوجي النّزل معًا في أوقات أسعد من هذه. كانت قرية أورينيون مقصدًا سياحيًّا للمقيمين في ليون وديجون وحتّى باريس؛ أشخاص أرادوا الهروب إلى الرّيف خلال فصل الصّيف، توفّي بعدها زوجي عن عمر يناهز التّاسعة والثّلاثين، ثمّ قامت أوزار الحرب».

«تقبلي عزائي» قالت ماموشا بعد أنْ رفعت رأسها أخيرًا.

«ويؤسفني اعتقال زوجك، لكنّ لديك أمل على الأقل. وما زالت ابنتك لديك». أومأت مدام باربيير. «غادر ابني للدّفاع عن فرنسا بعد وفاة والده مباشرة. لم يعد».

«يحزنني سماع هذا أيضًا» قالت ماموشا وهي تنظر إلى إيڤا التي تمتمت بعبارة للتعزية.

تقبّلت مدام باربيير العزاء بإيماءة سريعة. «ويمكنك معرفة سبب كرهي الألمان حتّى لو تمنّى (بيتان) لعق أحذيتهم، ذلك الأحمق العجوز. فرنسا التي تخصّني هي التي قاتل زوجي من أجلها في الحرب العظمى، وفقد ابني حياته لأجلها». فجأة، طالعت إيڤا بنظرة حادّة. «أتمنى أنْ تختاري الدّفاع عنها أيضًا يا آنسة. الآن، إذا سمحتما لي، أظنني أنهيت طعامي». وقفت فجأة، ودفعت الكرسي إلى الخلف، وحرّكت طبقها بعيدًا، لكنّ إيڤا لاحظت دمعة على وجنتها.

«لا ندين لهم بشيء» تمتمت ماموشا بعد هنيهة، كاسرة الصّمت الذي تركته مدام باربيير.

تنهّدت إيڤا. «ندين لهم بلا شك. لم أكن لأفكّر بتاتًا في تزوير وثائق من السّفارة الأرجنتينيّة. وحتّى لو خطرت الفكرة بالنّسبة إلي، لم أكن لأعرف طريقة تنفيذها».

«زوّدك الرّاهب ببعض المعلومات، وأعدّت مدام باربيير بعض الطّعام. وماذا في ذلك؟»

«هذا أفضل ما أكلناه منذ عامين يا ماموشا»

أشاحت ماموشا بنظرها. «لن تفعلي شيئًا رغمًا عنك».

«وماذا لو أردت المساعدة؟»

«تجهلين ما تورّط الرّاهب فيه»

«أعرف إنّه يساعد النّاس. ربما عليّ مُساعدتهم أنا أيضًا»

صكّت ماموشا أسنانها. «ما يجب أن تفعليه يا قلبي هو الاعتناء بأسرتك. لا تنسي هذا. تخلّت فرنسا عنّا. عنكِ». عادت لتناول طعامها بنهم. شاهدتها إيڤا فتحيّرت.

لربما أدارت فرنسا ظهرها لمواطنيها، لكنْ أيعني هذا أنّ إيڤا ستفعل الأمر ذاته وهناك حيوات في خطر؟

بعد معاونة والدتها في تنظيف المائدة، وغسل الأطباق في المطبخ الخاوي، اغتسلت إيڤا في نور الغسق الخافت قُبيل مغادرتها لمقابلة الأب كليمنت.

كان باب الكنيسة الثّقيل مفتوحًا، لكن الفراغ الكهفي داخلها مظلم ساكن، أضاءه بضع شمعات فقط على وشك الانطفاء. فوق المذبح، كأنّ تمثال يسوع يشاهد إيڤا، ولم تعرف إذا كان عليها

الشّعور بالطّمأنينة أو القلق. هل من المفترض أنْ ينتظرها الأب كليمنت هنا ويفرح لرؤيتها لدرجة بسط سجّادة حمراء؟ تردّدت لحظة قبل التّوجه إلى الباب الذي عن يمين المنبر، الباب ذاته الذي يؤدي إلى المكتبة الصّغيرة. لم يكن مقفلًا.

لم يكن الأب كليمنت هناك أيضًا، لكن يبدو أنّ الغرفة الصّغيرة مهيأة لها. السّتائر منسدلة على الزّجاج الملوّن، كأنّها داخل كهف أنارته ثلاثة فوانيس؛ أحدها يتوسّط المنضدة. دخلت إيڤا بهدوء، وأغلقت الباب خلفها، تفاجأت ممّا انتظرها وسط مساحة العمل؛ خطاب رسمي من القنصل الأرجنتيني، وإلى جانبها، حزمة أوراق، وأقلام رسم حمراء وزرقاء وسوداء بنفسجيّة. آلة كاتبة قديمة -كتلك التي كان والدها سيميل على الفور إليها ليتفحصها بغبطة- تنتظرها إلى يسار الفانوس. الكتاب ذو التّغليف الجلدي والكعب المُذهّب الذي أخبرها الأب كليمنت بأنّه يعود إلى عام 1732 على زاوية المنضدة حيث تركته هذا الصّباح.

نادته بحذر: «الأب كليمنت؟». لم تسمع شيئًا. بعد لحظات، جلست بحذر على أحد الكرسيّين وأمسكت ورقة من القنصل الأرجنتيني. صيغة خطابه رسميّة، وتزوير الأختام في غاية السّهولة. انتظرت لحظة أخرى قبل إدخال إحدى الأوراق الخالية من البيانات في الآلة الكاتبة. ستنسخ متن الخطاب أولًا، ثمّ ستهتم برأس الورقة والأختام.

همهمت دون قصد وهي تطبع الكلمات التي توضّح أنّ ليو تروب المقيم في حي إلزيڤر في باريس قد ولد في الأرجنتين؛ ما يعني أنّه معفي من الاعتقال الألماني. يجب إطلاق سراحه

على الفور. حين انتهت من الطّباعة، نسخت إمضاء الدبلوماسي الحقيقي المنمّق، ثمّ عملت بحذر على نسخ رأس الورقة بالقلم الأسود.

حان بعدها دور الأختام، حمراء وزرقاء، وضعت مجلّد الرّسائل والأناجيل على الورقة لتثبيتها. اندمجت كثيرًا وهي تزوّر الأختام، كعادتها عندما ترسم. كان بإمكانها سماع إيقاع تنفسها مع كل خطّة قلم، ومع تجسّد الأختام على الورقة، امتلأت تفاؤلًا. عرفت أنّها قد أبلت بلاء حسنًا.

كانت على وشك الانتهاء من الختم الأخير -شمس مرسومة باللون الأزرق- حين أفزعها صوت فتح الباب. وقفت مرتعبة قابضة على المستند المزوّر. ظهر رجل بين ظلال الرّفوف، فأسرعت لأخذ الخطاب الأرجنتيني الأصلي أيضًا، وثبّتتهما معًا في حافّة تنورتها الضّيقة.

حدّق الرّجل إليها دون أنْ ينطق بأي كلمة. شعره أسود وعيناه خضراوان أو عسليّتان تحت ضوء الفانوس. حنطي البشرة، مربّع الفك، كتفاه عريضتان، وخصره نحيل، وملامح وجهه هادئة.

«مساء الخير يا سيّد»، حاولت إيڤا ادّعاء الهدوء وعدم التّوتر، غير أنّ صوتها خانها.

لم يتغيّر وجهه وهو يكتّف ذراعيْه، ويحدّق إليها بإمعان. «ماذا تفعلين هنا؟»

ابتسمت إيڤا ابتسامة مصطنعة قلقة، ودارت حول الطّاولة.

«أقرأ قليلًا فقط» قالت له وهي تمسك الكتاب المُجلّد.

«الرّسائل والأناجيل» قال لها وهو يدير رأسه ليقرأ كعب الكتاب. «آه. أجل. لا شيء سيلامس مشاعر النّاس في أثناء القدّاس الأسبوعي كمرشد عمرُه مئتا عام».

شعرت الآن باحمرار وجنتيْها. «في الواقع أنا شديدة التّدين. أخبرني الأب كليمنت أنّ لا مشكلة في وجودي هنا».

لم يتحرّك. «أجل إنّه داعم للباحثين المتديّنين أمثالك».

«جدًا»

حدّق إليها زمنًا طويلًا مرّة أخرى، ورغم أنّ إيڤا أرادت إشاحة ناظريها، لم تتمكّن من فعل ذلك. قال أخيرًا: «أفترض إذن، أنّك كوليت فونتان».

تسارعت دقّات قلبها. أخانها الأب كليمنت أم مدام باربيير؟

«يمكنك التّوقّف عن ادّعاء الذّعر يا آنسة» قال الرّجل دون أنْ ينتظر إجابتها. «أخبرني الأب كليمنت بكل شيء عنك».

رمشت إيڤا ثمّ نظرت إلى الأسفل. لا أعرف ما الذي تتحدّث عنه»

اقترب خطوة، ثمّ خطوة أخرى. أصبح شديد القرب منها لدرجة أنّها شعرت بدفء أنفاسه على جبينها فحدّقت إلى قدميْها. «أعتقد أنّك تعرفين». ثمّ طوّقها بذراعيْه، بعناق تقريبًا، فصرخت. أهذه النّهاية؟ جاء ليعتقلها؟ ثمّ تراجع، ولوهلة، شعرت براحة سرعان ما انتهت. شعرت ببرودة في جسدها كلّه حين أدركت أنّه أمسك الأوراق التي خبأتها في تنورتها.

«يمكنني... يمكنني توضيح المسألة» قالت له.

قال لها بهدوء وهو يتفحص الأوراق: «ما كان عليك أنْ تصرخي هكذا. سيسمعك من هم خارج الغرفة، كما تعلمين. أتريدين أنْ تكشفي غطاءنا؟»

«أكشف... ماذا؟»

رفع رأسه. «غطاءنا» أعاد ببطء، كأنّه يتحدّث مع طفلة صغيرة. «لا بدّ أنّك تعرفين أنّنا نحتاج إلى خصوصيّتنا هنا. قال الأب كليمنت إنّك ذكيّة، لكنْ إذا لم تفهمي هذا فقد بالغ في وصفك».

من هذا الرّجل؟ أيجب أنْ تحاول الهرب؟ شرعت في الابتعاد بهدوء باتّجاه الباب.

سأل بتحيّر: «إلى أين ستذهبين؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة وعادت إلى موقعها السّابق. «لن أغادر». لا بدّ من وجود طريقة أخرى. «كل ما هنالك أنّي وجدت هذه الأوراق على الطّاولة، كما تعلم. كانت هناك حين أتيت لقراءة الأناجيل."

«تقصدين الرّسائل الإنجيليّة"

«أجل، أجل بالطّبع»

نظر إلى المستندات مرّة أخرى. «في الواقع، لقد نسيتِ العلامة النّطقيّة فوق حرف e في إمضاء القنصل. عدا ذلك فإنّ عملك ممتاز. أنا منبهر». رفع نظره وسلّمها الرّسائل وهي فاغرة الفم. «هناك مشكلة واحدة. مذكور في وثائقك الرّسميّة أنّ اسمك هو كوليت فونتان؟ أعرف أنّها مزوّرة بإتقان، وأهنئك على ذلك، لكن من أين جئتِ بالاسم؟»

«إنّه ... إنّه اسمي، بلا شك يا سيّد»

تجاهـل كلماتهـا بـازدراء. «فـات الأوان يـا آنسـة. لسـت هنـا لأوذيـك. أنـا هنـا لأمـد يـد العـون. لا بـأس مـن اسـتخدام هُويّـات كهـذه فـي الأوقـات الطّارئـة بقصـد السّفر لا غيـر. لكـن إذا أردتِ فعـل أمـر يتجـاوز الانتقـال بقطـار؛ كالاقتـراب مـن بوّابـات معسـكر وطلـب إطـلاق سـراح سجين، فسـتحتاجين إلـى وثائـق أكثـر إقناعًـا».

«لا أعرف ما الذي...»

«السّـلطات تقـارن الهُويّـات بالسّـجلّات الرّسـميّة، كمـا تعلميـن» قـال لهـا متجاهـلًا إنكارهـا كأنّهـا لـم تتكلّـم. «الآن، هنـاك طرائـق عـدّة لانتحـال هُويّـات حقيقيّـة. تعبئـة المسـتندات هـو المفضّـل عنـدي لأنّ تزويرهـا سـهل جـدًّا، لكـنّ ذلـك ينجـح مـع رجـال فـي الخدمـة العسـكريّة، وأنـت امـرأة بـلا شـك. لا يوجـد وقـت للبحـث عـن امـرأة تنتحليـن هُويّتهـا، إضافـة إلـى أنّ القريـة صغيـرة المسـاحة، ولا أعتقـد أنّنـا سـنعثر علـى مـن تناسـبك علـى أي حـال. وشـخصيًّا، أكـره التّجـوّل بيـن القبـور بحثًـا عـن أسـماء وتواريـخ ميـلاد». تحـدّق إليـه كأنّـه يُكلّـم نفسـه. «لكنّ الجريـدة الرّسـميّة. الآن هـي تذكرتنـا يـا آنسـة. أنقذَتنـا أكثـر مـن مـرّة».

«الجريـدة الرّسـميّة؟» شـعرت بالـدّوار وهـي تتبـع تدفّـق أفـكاره. تعـرف إيڤـا الجريـدة التـي توثّـق فيهـا القوانيـن الرّسـميّة والمراسـيم والإعلانـات الرّسـميّة للدّولـة كلّهـا، لكـن مـا علاقـة الجريـدة بهـا؟

«أجـزم أنّـك لا تقرئيـن أقسـام المولوديـن، والوفيـات، والزّيجـات، والتّجنيـس، وأمـورًا مـن هـذا القبيـل. هـل أنـا علـى حـق؟» لـم ينتظـر إجابتهـا. «أنـا علـى حق قطعًـا. مـن يملـك وقتًـا لهـذا الضّجـر؟ حسـنًا،

سـأخبرك يـا آنسـة، سـأفعل. هـذه الجريـدة بمثابـة كنـز حقيقـي يحفـظ هُويّـات تنتظـر اسـتعارتها».

رمَشـت مـرّات متتاليـة حيـن فهمـت مقصـده. «تسـتعير أسـماء حقيقيّـة مـن الجريـدة الرّسـميّة للمسـتندات المـزوّرة».

«أنت ذكيّة"

حدّقت إليه، ثمّ قالت: «إذن، فأنت مُزوّر».

ابتسـم ابتسـامة عريضـة. «فـي الواقـع، أُفضّـل أنْ أعـدّ نفسـي فنّانًـا -أو نابغـة بـكل بسـاطة- لكـن لا مشـكلة فـي اسـتخدام كلمـة (مُـزوّر) إذا كانـت أسـهل للفهـم. الآن، أخبرونـي بأنّـك جيّـدة. هـلّا أريتنـي عملـك؟» توجّـه إلـى الـرّف عـن يسـارها وأخـرج مجموعـة كتـب. بعـد الـرّف، كان هنـاك جـدارٌ زائـف أخفـى صندوقًـا بحجـم سـلّة لحفـظ الخبـز. حدّقـت إليـه وهـو يُخـرج حزمـة أوراق فارغـة. وضعهـا علـى المنضـدة أمامهـا، ثـمّ أغلـق الغطـاء الخشـبي مـرّة أخـرى، وأعـاد الكتـب لتخفـي الصّنـدوق. «مسـتندات فارغـة مـن البيانـات» قـال لهـا وهـو يُشـير إلـى الأوراق.

نظـرت إلـى الأسـفل. فـي الواقـع، كانـت هنـاك بطاقـات هُويّـة وبعـض الأوراق. «لكـن مـاذا...؟»

قاطعهـا مـن جديـد بنبـرة فرحـة. «منحـت نفسـي حريّـة اختيـار هويّـة لـكِ. قـد يكـون الاطّـلاع علـى الجريـدة الرّسـميّة مضجـرًا، كمـا أنّـكِ منهكـة وأتمنـى ألّا تجـدِي فـي قولـي هـذا إهانـةً لـكِ»

هزّت رأسها نافية ببطء.

قال لها ببسـاطة: «ماري شاربنتيير».

«عفوًا؟»

«ماري شاربنتيير. يجب أنْ تدوّني التّفاصيل» انتظر بصبر بينما أمسكت قلمًا، وبانبهار، بدأت تكتب الاسم. «الاسم الأوسط: رينيه. ولدت في الحادي عشر من فبراير 1921، في باريس. أنت سكرتيرة، وتقيمين في باريس، في الثّامن عشر من حي ڤيسكونتي في الدّائرة السّادسة. أوه، وهناك حافلة إلى كليرمونت فيراند تغادر القرية عند العاشرة صباحًا. مفهوم؟»

رفعت عينيها. «لكن...»

«جيّد. يمكنك الآن إزالة الدّبابيس من صورتك الحاليّة، وإذا كنتِ جيّدة كما قال الأب كليمنت، فستتمكّنين من العمل مع جزئيّة الختم المطبوعة. الأختام صعبة، بلا شك؛ شائعة الاستخدام، ولم أتمكّن إلّا من حفر أشهرها، لكن ألاحظ نجاحك فيها. مذهل. على أي حال، سنحضر لك مستندات أفضل حين تعودين من باريس. سؤال آخر من فضلك يا آنسة شاربنتيير، وأتمنّى ألّا تمانعي أنْ أسألك إيّاه. أتملكين خبرة في تزوير مستندات أخرى؟»

«لم... لم أفعل شيئًا كهذا من قبل»

عبس. «مثير للاهتمام. حسنًا، لا تنسي إطفاء الفوانيس قبل خروجك. لا تريدين حرق الكنيسة».

«أنا...» كانت على وشك الكلام، لكنّه كان يتوجّه إلى الباب.

«استمتعي بقراءة الرّسائل الإنجيليّة!» قال بسرور وهو يبتسم ابتسامة بسيطة.

غادر قبل أنْ تتمكّن من الإجابة، أغلق الباب بلا صوت، وتركها وحدها مع أفكارها المتلاحقة. حدّقت إلى الباب ثمّ نقلت نظرها إلى خطاب السّفارة. نسيت بالفعل العلامة النُّطقيّة على حرف e كما أخبرها.

الفصل العاشر

لم تنم إيڤا بعد مغادرة الكنيسة نهائيًّا وظلّت ممسكة هُويّتها المزوّرة المكتوب فيها أنّها ماري شاربنتيير. قبل الشّروق، في أثناء نوم والدتها بهدوء، زوّرت بحذر تصريحيْ سفر لها ولوالدها، حتّى يتمكّنا من مغادرة أورينيون بعد تحريره من سجن درانسي. رغم توعّك معدتها وازدياد شكوكها، غادرت للقاء الأب كليمنت قبل استيقاظ أمّها. لكنّ الكنيسة كانت خالية بلا صوت، لم تعثر عليه في أي مكان. ولم تقابل مدام باربيير. رغم أنّ الرّجل ذو الشّعر الدّاكن قد ذكَر أنّ الحافلة تصل عند السّاعة العاشرة، إلّا أنّها قد قرأت في قائمة ميدان القرية أنّ الحافلة تصل عند السّاعة الثّامنة. بحماس غادرت إيڤا إلى باريس بعد أنْ أيقظت أمّها وأخبرتها بما حدث في الكنيسة قبل ليلة.

قالت أمّها: «هذا لا يعني أنّك تدينين لهم بشيء».

«ماموشا، إذا ساعدوني في إنقاذ تاتوش، فأنا أدين لهم بكل شيء»

تنهّدت ماموشا. «فقط أحضري والدك بأمان، يا قلبي. أنا أعتمد عليك»

بعد ساعات في كليرمونت-فيرّاند، ما زالت كلمات والدتها تدور في رأسها حين قدّمت مستنداتها لشرطي فرنسي مسؤول عن الحجوزات وركبت قطارًا متوجّهًا إلى باريس. فقط أحضريه سالمًا... أنا أعتمد عليكِ. ثقل تلك الكلمات قد أثقل كاهل إيڤا.

مـع انطـلاق القطـار ببـطء، نحـو الشّـمال، نحـو الأرض المشـبّعة بالألمـان. أغمضـت إيڤـا عينيْهـا ووضعـت جبينهـا علـى النّافـذة البـاردة. تمتمـت: «أرجـوك يـا إلهـي الطـف بوالدتـي».

أوّل جـزء مـن الرّحلـة كان هادئًـا، وكادت إيڤـا تغفـو لـولا اندفـاع الأدرينالـيـن فـي أوردتهـا. البسـاتين، والطّواحيـن، والقـرى الصّغيـرة فـي النّاحيـة الأخـرى مـن الزّجـاج. بذلـت إيڤـا جهـدًا جهيـدًا لتجاهـل المسـافرين الآخريـن والجنـود الألمـان الذيـن مشـوا بيـن الفينـة والأخـرى فـي ممـرّات القطـار.

بمرورهـم بسان-جرمان-دي-فوسـيه، شـمال فيتشـي، تنحنـح رجـل إلـى جانـب إيڤـا التـي تجاهلتـه، وكانـت تشـاهد التـواء جـدول صغيـر يمـر بيْـن المـزارع الصّغيـرة التـي فيهـا خـراف، قـال لهـا باللغـة الألمانيّـة: «أوراقـك؟»، أُجبِـرت علـى رفـع ناظريْهـا.

وجـدت شـابًا عابسًـا شـعره فاتـح اللـون، ارتـدي الـزّي الألمانـي. أصغـر منهـا بسـنوات، ووقـف بصرامـة كأنّـه يحـاول زيـادة طولـه ليبـدو أكثـر تهديـدًا. ودّت لـو تخبـره أنّ شـارة النّازيّـة التـي علـى صـدره مرعبـة بمـا يكفـي. عوضًـا عـن ذلـك، جاهـدت للحفـاظ علـى ملامحهـا بشـكل طبيعـي خـلال تسـليمها الهويّـة وتصريـح السّـفر اللذيْـن زوّرتهمـا هـذا الصّبـاح.

تفحّصهمـا الجنـدي، وضاقـت عينـاه. حيـن نظـر إلـى إيڤـا مـن جديـد، كانـت تقاسـيم وجهـه تـدل علـى الغـرور والتّعجـرف. سـألها بـازدراء: «آنسـة شـاربنتيير إلـى أيـن سـتذهبين اليـوم؟»

«باريس»

«وما السّبب؟»

ارتعد قلبها. لمَ اختار مضايقتها هي تحديدًا؟ تفحّص وثائقها آخرون من قبله. لمحت عربة القطار بسرعة، ووجدت مجموعة أشخاص يرمقونها بأنظارهم، منهم من تعاطف معها، ومنهم من ارتاب منها. أعادت اهتمامها إلى الألماني، وقالت: «أعود إلى الوطن».

«ومن أين تعودين؟» نظرة الجندي أصبحت أكثر ارتيابًا.

«أورينيون»

«وماذا فعلتِ هناك؟»

«زُرت عمّتي»

«أحتاج إلى رؤية مستندات أخرى»

«مستندات أخرى؟»

«لا بدّ أنّ لديك مستندات أخرى؟ لتثبت هويّتك؟»

حدّقت إيڤا إليه، وقلبها ينتفض رعبًا. «لكن كل ما أحتاج إليه للسّفر بشكل قانوني هو تصريح السّفر وبطاقة الهويّة»

التمعت عينا الجندي بفرح الآن، وشعرت إيڤا الآن بأنّها أرنبٌ جريحٌ يطوف ذئب جائعٌ حوله. «أغلب المواطنين المسافرين يحملون إثباتًا آخر يؤكّد شخصيّتهم». رفع حاجبًا، ثمّ أضاف: «ما لم يسافروا بأوراقٍ مزوّرة».

«ما المشكلة؟» قال صوت أجش باللغة الفرنسيّة خلف الجندي، ومع التفاته باستهزاء، فتحت إيڤا فمها بدهشة. الواقف على مسافة قريبة هو ذلك الرّجل ذو الشّعر الدّاكن الذي قابلته أمس، ذلك الذي قطع خلوتها في الكنيسة. ذعرت ذعرًا شديدًا.

سأل الألماني: «ومن أنت؟».

«زوجها». جلس بيسر على المقعد المجاور لإيڤا، ووضع يده بكل تملّك على ردفها، وقبّل وجنتها. «مرحبًا حبيبتي. أعتذر لغيابي زمنًا طويلًا. أعجبني المنظر كثيرًا لدرجة أنّي نسيت الوقت»

«مر.. حبًا» تلعثمت إيڤا.

«زوجها؟ أرني أوراقك إذن»

حبست إيڤا أنفاسها. كيف سيخرج من هذا المأزق؟

لكنّه جلس، وابتسم بلطف، وأخرج الوثائق من جيبه، وسلّمها إلى الألماني.

«رِمي شاربنتيير» قرأ الجندي، عندها شهقت إيڤا بصوت عال فشعرت بوخزٍ في أضلاعها.

«المعذرة يا حبيبتي» قال بسرور وابتسام. «انزلقت ذراعي»

مع نظر إيڤا إليه بفم فاغر، أخرج إثباتات أخرى وسلّمها إلى الجندي. «تَفضَّل. إثبات أنّ زوجتي طالبة؛ هُويّة المكتبة، ومخالفة تحصّلت عليها الأسبوع الماضي لأنّها قادت دراجتها دون أنوار أماميّة. تميل إلى فقدان أشيائها، ولهذا أحتفظ بها. أنت تعرف النّساء».

قلّب الجندي الأوراق دون عبوس، وأرجعها إليهما. «جيّد جدًّا. لكن يجب ألّا تسمح لها بالسّفر بمفردها، فسحنتها يهوديّة».

«بلا شك. أشكرك على نصيحتك». أومأ الرّجل ذو الشّعر الدّاكن بتهذيب مع مغادرة الجندي.

انتظرت إيڤا حتّى ابتعد الألماني عن مرمى السّمع ثمّ مالت وهمست: «هلّا أبعدت يدك عن ردفي؟»

«أهكذا تشكرينني على إنقاذ حياتك؟» ابتسم الرّجل ابتسامة عريضة، لكن بعد ثوان، حرّك يديْه. كان لا يزال ممسكًا وثائق إيڤا.

«ماذا تفعل هنا؟»

«لماذا أسافر معك يا حبيبتي؟» أجاب بصوت مرتفع، وهو يُشير إلى النّافذة. «انظري، أهذه فارين سوغ ألييغ التي نمر بها الآن؟ لماذا أعتقد أنّها هي. ألا تحبّين طريقة مرور النّهر بالقرية؟ يمكنك أنْ تشاهديه هناك، أسفل الحقل تمامًا».

«أتريدني أنْ أناقش المنظر الطّبيعي معك؟»

«لا» سكت فجأة، ثمّ همس في أذنها: «أريدك أنْ تهدئي بأننا حبيبيْن، أو على الأقل معتادة علي. أنقذت حياتك توًّا، وأقل ما يمكنك فعله هو أنْ تثقي بي في السّاعات القليلة القادمة. سأشرح كلّ شيء لكِ فور وصولنا إلى باريس. كثير من النّاس ينظرون إلينا الآن». ابتسم ابتسامة ساحرة لامرأة كبيرة في السّن حدّقت إليهما على بعد ممرّيْن. ضحكت المرأة ثمّ أكملت الحياكة.

«حسنًا» قالت إيڤا بتذمّر. «الآن، هلّا أعدت وثائقي؟»

سلّمها الوثائق التي زوّرتها مع الوثائق التي أقنعت الجندي الألماني بهُويّتها المنتحلة. نظرت إليها ثمّ عبست. «لكنّها سيئة جدًّا»

شعر الشّاب بالإهانة. «أعتقد أنّ ما تقصدينه هو «أشكرك جزيل الشّكر يا رِمي الوسيم على إنقاذك حياتي».

«أنا...»

«شخصيًّا، أعتقد أنّها ممتازة بالنّسبة إلى عمل أُنجز على عجل»

نظرت إليه.

«أوه، بحق السّماء، عاد ذاك الجندي مرّة أخرى». قلّب عينيه. «الآن، تمتّعي بروح رياضيّة وامسكي يدي. صديقك الجندي عائد».

رأت إيڤا الألماني مقبلًا نحوهما من الجهة الأخرى من القطار، وهو يرمقها بنظراته المتوعّدة. لكن، قبل أنْ ينطق الجندي بكلمة، مال رِمي إليها ولامست شفتاه شفتيْها وقبّلها قبلة عذبة. تردّدت إيڤا ونظرت إلى الجندي مرّة أخرى، ثمّ أغلقت عينيْها وقبّلت رِمي. شعرت بنقص الأوكسجين، فأصابها الدّوار. ابتعد رِمي، وبدا مستمتعًا. غادر الألماني، ودقّات قلبها متسارعة. أدركت أنّ القبلة محض إلهاء، لكنّ رقّتها أفقدتها التّوازن. همست في أذنه: «لا يمكنك تقبيلي بهذه الطّريقة».

ضحكَ وأومأ بالإيجاب. «عفوًا، أي طريقة؟ أوه. تقصدين: أشكرك جزيل الشّكر يا رِمي الوسيم على إنقاذ حياتي للمرّة الثّانية اليوم».

«أهذا كل ما في الأمر؟ أنقذت حياتي؟»

«بالطّبع» أجابها رِمي، وهو مسترخٍ على مقعده ويبتسم بتكلّف. «في نهاية المطاف، أنتِ زوجتي».

***

خيّم الظّلام، وشقّ القطار طريقه إلى باريس بعد تأخيرات كثيرة. فجأة، سمعا انفجارات في الخلف، وهناك إطلاق نار بالقرب من المدينة. هل مضت أربعة أيّام فقط على مغادرة إيڤا للعاصمة؟ لكن الأمور كانت تزداد سوءًا وقتامة.

أمسك رِمي بيد إيڤا وحمل حقيبتها الصّغيرة عند نزولهما من القطار. أومأ كلاهما بتهذيب للألماني الذي ضايقها من قبل. لوّح لهما، لكنّها شعرت بعينيْه وهما تنظران إلى ظهرها وهي تمشي مبتعدة.

فور مغادرتها المحطّة، ومشيهما في الشّمال في رو دو ليون، سحبت إيڤا يدها. «حسنًا، نحن الآن وحدنا. أخبرني بما تفعله هنا».

«لا أشعر بتقدير من زوجتي الحبيبة» قال مبتسمًا.

«أنا جادّة. أكنت تتبعني؟»

«إذا كنتِ مصرّة على معرفة الإجابة، فقد ذهبت صباح اليوم لتسليمك الأوراق في النّزل، لكنّك كنت قد غادرتِ. ركبت مع ساعي بريد إلى كليرمونت-فيراند على أمل أنْ أراكِ في محطّة القطار، لكنّك كنت على متنه، ولم أعثر عليكِ. ولهذا ابتعت تذكرة في آخر دقيقة. كنت أبحث عنكِ حين شاهدت الألماني وهو يزعجك»

«ماذا عن الوثائق التي تفيد أنّك زوجي؟»

ضحك. «زوّرتها في الوقت ذاته الذي كنت أزوّر فيه وثيقة دراستك».

«لكن لماذا؟»

«في حال احتجتُ إليها»

هزّت رأسها بإحباط، ومع مرورهما بمجموعة جنود يضحكون خارج حانة، أمسك بيدها مرّة أخرى وقبّل وجنتها وهما يمشيان. «ما سبب حاجتك إليها؟» سألته، وهي تبتعد عنه فور ابتعادهما عن مرأى الجنود.

«لـذات الموقـف الـذي مررنـا بـه اليـوم. يبـدو أنّـي وصلـت فـي الوقـت المناسـب».

كان حديثهمـا أشـبه بالـدّوران فـي حلقـة مُفرغـة، وبـدأت تشـعر بأنّـه يسـتمتع بتعذيبهـا. «حسـنًا، أشـكرك. واسـتمتعْ برحلـة عودتـك إلـى أورينيـون».

توقّـف فجـأة وبعـد خطـوات قليلـة، توقّفـت رغمًـا عـن أنفهـا أيضًـا، واسـتدارت. ظهـرت عليـه أمـارات التّيه.

«ماذا؟» سـألته بتنهّد.

«المسـألة جادّة يا كوليت. كنت في خطر حقيقي»

«كنت لأنجو»

«لم أكن لأغامر»

«لم لا؟»

تـردّد. «أكـره الاعتـراف بهـذا، لكنّـك بارعـة فـي مـا تفعليـن، ولا نسـتطيع خسـارة شـخص يتقـن عملـه مثلـك»

«نستطيع؟» أعادت الكلمة.

نظر حوله. «الأب كليمنت، وأمثاله».

«مُزوّرون»

«أششش» قال فورًا.

«اسـمع، أقـدّر إطـراءك، وممتنّـة لأنّـك قطعـت كل هـذا الطّريـق، لكنّـي هنـا لغايـة واحـدة، ألا وهـي إنقـاذ أبـي، ومـن ثـمّ سـأذهب مـع والـداي إلـى سويسـرا»

أومأ. «توقّعت أنْ تقولي هذا».

«إذن آسف لأنّي لم أقنعك. أعتقد أنّي سأراك عند عودتك إلى أورينيون». تردَّدَت. «أفهم إنّي أدين للأب كليمنت مساعدته إيّاي، حسنًا؟ سأبقى يومًا أو يوميْن قبل أنْ أتّجه إلى الشّرق، لكنّي لن أبقى هناك وقتًا طويلًا».

«أتريدين حقًّا أنْ أتركك وحدك في باريس؟»

«هذه مدينتي»

اكفهرّ وجهه. «أخشى أنّها لم تعد كذلك».

أَغضَبها الآن. «مدينتي دون أدنى شك. عشت فيها جل حياتي»

أشار ناحية الألمان خلفهم وعلم النّازيّة الذي يرفرف مع نسمات المساء أمامهما. «كوليت، لم تعد باريس لك. ولا لي. لم تعد ملك الفرنسيين. ليس الآن، على أي حال»

نظرت إلى العلم ثمّ نظرت بمشقّة حولها. (رو دي ليون) كان ليعج بنور المساء الجميل والمقاهي وحواف النّوافذ بأشخاص مستمتعين بهواء الصّيف، لكنّها شبه مهجورة، أغلب النّوافذ المحيطة بهما مغلقة مظلمة. تنهّدت وشعرت بالأسى على حالها. «إيڤا».

«عفوًا؟»

«اسمي إيڤا وليس كوليت. إيڤا تروب». لحظة خروج الكلمات من فمها تساءلت إذا قالت أكثر ممّا يجب. كان من المفترض ألّا تذكر اسمها الحقيقي، ليس هنا. لقد أنقذها على القطار؛ من الواضح أنّه لا ينوي إيذاءها.

أومأ وأمسك يدها، ومشيا مرّة أخرى. لم تسحب يدها هذه المرّة. «تشرفت بلقائك يا إيڤا».

«وأعتقد أنّ اسمك الحقيقي ليس رِمي»

«هو اسمي فعلًا»

نظرت إليه بتعجّب. «أتعتقد أنّني سأصدّق بأنّ تشارُكَنا اسم العائلة في أوراقي المزوّرة محض مصادفة؟»

ابتسم. «اسم عائلة شاربنتيير غير صحيح، بالطّبع، لكنّ اسمي الحقيقي هو رِمي».

«استخدمتَ اسمك الحقيقي على أوراقك المزيّفة؟»

هزّ كتفيْه بتعجّب.

«لماذا تعرض نفسك للخطر؟»

قبض على يدها. «لأنّي أومن أنّ الصّداقة يجب ألّا تبدأ بكذبة».

«لكنّك أمضيت النّهار وأنت تدّعي أنّك زوجي»

«حسنًا، في هذه الحال، أعتقد أنّ عليك أنْ تتزوجي بي يومًا ما»

ضحكت وأخفت وجهها بسرعة حتّى لا يرى احمرار خدّيْها.

«هل هذه خطبة؟»

«لا. ستعرفين حين أتقدّم لخطبتك». حدّق إليها زمنًا طويلًا ثمّ ابتسم. «ولعلمك اسمي رِمي دوشامب؛ لتعرفي فقط الاسم الذي ستأخذينه بعد زواجنا». ابتسم لها خلال دورانهما حول ميدان الباستيل. عمود يوليو مرتفع فوقهما، ويعلوه تمثال عبقرية الحريّة المذهّب المجنّح الذي يحدّق إلى المدينة بخيبة أمل.

«أين سنذهب الآن؟ سيحين موعد حظر التجوّل، ولا نريد إثارة الاشتباه».

«إلى شقّة أهلي»

«توقّف فجأة، وأجبرها على التّوقف لأنّه قبض على يدها بقوّة. قال برقّة: «إيڤا».

«ماذا؟ لنذهب. أنتَ على حق. يجب أنْ نسرع»

«إيڤا». انتظر أن تحدّق إليه. «شقّتكم؟ مستحيل»

«إنّها على بعد خمس دقائق»

«لكن لا يمكنك التّفكير...» هزّ رأسه برفض. «إيڤا، أنا آسف، لكن لا يمكننا الذّهاب إلى هناك»

ابتعدت عنه وبدأت تمشي من جديد. «أفهم ما تريد قوله. قد خرّبوا تلك الشّقة على الأغلب، ومن الصّعب أنْ أراها وهي على تلك الحال. أدرك كل هذا، وأنا مستعدّة له».

«لا أقصد هذا يا إيڤا»

«ما الذي تقصده إذن؟ أنّ رجال الشّرطة يراقبون المكان؟ تشغلهم حتمًا أمور أكثر أهميّة من مراقبة شقّة كل يهودي مُبعد عن باريس»

«إيڤا...» بدا أنّ رِمي يبحث عن كلمات. «من المحتمل ألّا تكون الشّقة خالية»

«خالية حتمًا»

«إيڤا، ما عاد النّاس ينهبون الشّقق فقط. إنّهم يسكنون بها. يفترضون أنّكم لن تعودوا إليها»

حدّقت إليه باستغراب. «أتعتقد أنّ غريبًا يقطن في شقّتي؟ بهذه السّرعة؟»

«أنا شبه مُتيقن من هذا»

«غادرنا منذ أيّام معدودات»

«يعمل جامعو الغنائم بسرعة». ضغط على يدها ثم تركها. «دعيني أذهب إليها. سأطرق بابكم. إذا كانت الشّقة مأهولة، فسأخبر ساكنيها بأنّي أبحث عن عمّي وأنّ العنوان خاطئ وإذا كانت شاغرة، فسأبلغكِ، ونصعد فورًا».

أومأت بالإيجاب، رغم شعورها بأنّ قلبها أشبه بصخرة غارقة في بحر صدرها. «حسنًا. لكنّي واثق بأنّك على خطأ».

بعد خمس لحظات من السّكوت، كانوا يقفون في الظّلال خارج بناية إيڤا مع آخر أشعة غروب في الأفق. سيحل موعد حظر التّجوّل قريبًا، ولا يوجد متّسعٌ من الوقت.

«الطّابق الثّاني، الشقّة (تاء)؟» سألها رِمي، وملء عينيْه شفقة لم تطلبها إيڤا ولم تردها.

«هذا صحيح»

«سأعود خلال لحظات يا إيڤا. لا تدعي أحدًا يراكِ ويتعرّف إليكِ»

شاهدته وهو يبتعد بقلب مفطور، عاد بعد ثلاث دقائق، وكانت تعرف النّتيجة.

«من السّاكن؟» سألته بخفوت وهو يطوّقها بذراعه، ويُبعدها عن المكان الذي سكنت فيه طوال حياتها.

«من يقيم فيها؟»

«امرأة وجهها كالبرقوق مع طفلتيْن» قال وهما يتوجّهان بسرعة باتّجاه الجنوب، ويحاول هزيمة الشّمس الحارقة. «نادت ابنتها الصّغرى بسيمون»

«مدام فونتان». لم تتفاجأ إيڤا بشكل ما.

«استعرتِ اسمك المزيّف من تلك المرأة السّليطة؟»

تنهّدت إيڤا. «إنّها مسيحيّة بلا شك، أليست كذلك؟»

احتاج رِمي إلى بضع دقائق ليجيبها. «إذا سألتني، فعلها ليس من الدّين، أليس كذلك؟ السّكن في منزل أشخاص بمجرّد رحيلهم؟ الأمر أشبه برقصة فرح فوق قبر. رغم أنّي أراهنك أنّ مدام فونتان لم ترقص البتّة في حياتها».

ابتسمت إيڤا وهي تتخيّل مدام فونتان تحاول الرّقص. «أعتذر عن هدر وقتك. كان يجب أنْ أصدّقك».

حرّك رِمي كتفيه باستهجان، وقال: «تذكري من الآن فصاعدًا أنّي على حق دائمًا».

نظرَت إليه شزرًا، لكنّه ابتسم، سألته: «وماذا سنفعل الآن؟» إلى أين سنذهب؟».

«أعرف مكانًا»

تبعته إيڤا وقد خيّم الظّلام على المدينة، شعرت بالإنهاك فجأة، لدرجة توقفها عن التّفكير. أرادت فقط مكانًا تنام فيه دون خوف من أنْ يأخذ الألمان نتفًا من روحها، فلا يبقى لها شيء من ذاتها بعد حين.

الفصل الحادي عشر

«بيت دعارة؟ صدقًا؟ سألت إيڤا عند وقوفهما على شارع جانبي قذر في بيغال، ومشاهدة مبنى حجري عليه لافتة توضّح ساعات العمل مكتوبة بالألمانيّة والفرنسيّة. «أتريدني أنْ أبقى هنا؟»

«أوّلًا، اسمه ماخور وليس بيت دعارة»، قال رِمي بابتسامة عريضة مستمتعًا بمشاكستها.

«ماخور، كرخانة، مبغى، هل يهم الاسم؟»

«بما أنّ الطّيّبات المقيمات هنا سيستضفننا هذه الليلة، فالتّهذيب واجب»

«آه، أجل، طيّبات، الكلمة الأولى التي أفكّر فيها حين أفكّر في بنات اللّيل». قطّبت إيڤا جبينها وهي تشاهد المبنى. تحت ساعات العمل مباشرة، كُتبت عبارة بالألمانيّة بخطٍ عريضٍ:

Jeder Soldat ist strengstens verp- flichtet die frei gelieferten Praeservative zu benutzen.

«ما المقصود؟ أنّ الجنود الألمانيين مرحّب بهم بذراعيْن مفتوحتين؟ أم رجليْن مفتوحتيْن؟

ضحك رِمي. «أرى التّكم في حديثك يا عزيزتي». وكزها. «في الواقع، إنّه يعني -وأنا أقتبس- أنّ (كل جندي مُجبر على استخدام الواقي الذّكري الذي سيمنح له مجّانًا). صراحةً، يجب أنْ تحترمي المكان؛ فكل مكان له مبدأ».

استنكرت إيڤا قوله. «لننهِ المسألة، هلّا فعلنا؟»

«حسنًا. لكن لندخل من الباب الخلفي. لا أريد أنْ يعتقد الألمان أنّك متاحة»

لوَت وجهها، وتبعته إلى زقاق خلف المبنى. طرق الباب ثلاث مرّات وسحبها إلى الدّخل بسرعة حين فُتح الباب. وجدت إيڤا نفسها في مطبخ معتم تنبعث منه روائح السّجائر والثّوم والعرق؛ مزيج أشعرها بالرّغبة في التّقيؤ.

«صباح الخير رِمي» قالت امرأة في الظّلال. مع ميلها إلى تقبيل رِمي على وجنتيْه، لاحظت إيڤا أنّ المرأة في الخمسينيّات من عمرها، ووجنتاها مخضّبتان بالحمرة، وتضع أحمر شفاه زاهٍ، وشعرها مسحوب إلى الوراء جيّدًا على شكل كعكة. «أحضرت صديقة». حيّت إيڤا باهتمام، فيما تجنّبت إيڤا تلاقي الأعين.

«نحتاج فقط إلى مكان نقضي فيه ليلتنا. عزيزتي، هذه مدام غريملون. مدام غريملون، هذه ماري شاربنتير»

«اسمها المزيّف، بلا شك» قالت المرأة وهي تُقيّم إيڤا من رأسها حتّى أخمص قدميْها.

أجاب رِمي: «أنتِ ذكيّة بقدر جمالك يا مدام».

شرعت مدام غريملون بالحديث: وقالت: «إذا كانت بحاجة إلى بعض العمل الإضافي...»

«أوه! أعتقد أنّنا بحاجة إلى غرفة نبيت فيها. أشكرك جزيل الشّكر». قال رِمي وهو يحاول كبت ضحكه.

تنهّدت مدام غريملون. «حسنًا. كما تريدان. أردت مساعدتكما فقط. يمكنكما أخذ غرفة أوديت، 3G. لقد هربت مع ألماني في الأسبوع الماضي. حمقاء فاسقة».

«شكرًا مدام. أدين لك بخدمة»

حرّكت المرأة بؤبؤيْها، وحدّقت إلى إيڤا للمرّة الأخيرة، ثمّ أسرعت الخطى نحو المطبخ، تاركة رِمي وهو يبتسم بتكلّف لإيڤا في الظّلام.

***

حين استيقظت إيڤا في صباح اليوم التّالي، وجدت نفسها في سرير غير مألوف، رائحته عفنة. احتاجت إلى بضع ثوان لتتذكّر مكانها. تذكّرت حينها مجريات الليلة السّابقة، فنهضت بسرعة، وتأمّلت الغرفة من حولها. كانت الغرفة معتمة في الليلة السّابقة، فلم تشاهد شيئًا، ومع تسلّل ضوء النّهار إلى الغرفة، شاهدت قمصانًا شفّافة ريشها متناثر في كل مكان، وحمّالة صدر من الدّانتيل معلّقة على أحد أعمدة السّرير.

كان رِمي يبتسم وهو على كرسي متضعضع نام عليه. «صباح الخير أيّتها الجميلة النّائمة».

«أرى أنّ مدام غريملون لم ترتّب الغرفة منذ هروب ساكنتها السّابقة». كأس شمبانيا عليه أثر أحمر شفاه على الطّاولة الجانبيّة، ونصف رغيف فاسد إلى جانبه.

أجاب رِمي بمرح: «مدام غريملون متعدّدة المواهب. لكن للأمانة، تدبير المنزل ليس من بين مواهبها».

«أظنّها صديقة قديمة، إذن. ولا مشكلة لديها في استضافة الألمان، أليس كذلك؟»

استهجن رِمي. «أعدّها روبن هود العصر. إنّها تأخذ من الألمان ضعف المقابل الذي تأخذه من الفرنسيين، وتمنح الفارق للقضيّة».

«القضيّة؟»

«أشخاص مثلنا يا إيڤا. تُعد المواخير مكانًا جيّدًا لسماع الأسرار أيضًا. أكثر من جندي ألماني قد تفوّهوا بأسرار وهم في أضعف لحظاتهم».

«إذن فأنت تخبرني بأنّ النّساء هنا هنّ جاسوسات فرنسيّات؟ ينمن على ظهورهن بكل وطنيّة لخدمة الرّب والوطن؟»

انفجر رِمي ضاحكًا. «لربما هذا ما يحدث. أشخاصٌ كُثر يقاومون بطريقتهم. حذارِ من تقليل شأن الآخرين. الآن، هلّا تناولنا طعام الإفطار؟»

«أوه، هذه المؤسّسة السّاحرة توفّر وجبات الطّعام أيضًا، أليس كذلك؟»

«أتعتقدين أنّ النّساء يعملن هنا وهنّ جائعات؟ تعالي، لنأكل»

تجهّزت إيڤا بسرعة؛ غسلت وجهها ووضعت أحمر شفاه من بقايا أحمر الشّفاه الذي في حقيبتها. طالع رِمي المستندات التي أحضرتها إيڤا لتضمن إطلاق سراح والدها. حين جاءت إلى الغرفة من المغسلة التي في الزّاوية، وجدت أنّه ما عاد يضحك كرجل مجنون. في الواقع، بدا مهمومًا.

«ما الأمر؟» سألته. هل هناك خطأ في الأوراق؟» سألته.

«لا يا إيڤا إنّها متقنة»

«إذن ما الأمر؟»

لم يجبها فورًا. «أريدك أنْ تتهيئي لحقيقة عدم وجود والدك هناك».

جفّ حلق إيڤا فجأة. بدت شاردة الفكر. «إنّه هناك دون أدنى شك. وأين عساه أنْ يكون؟»

«رَحّلوه، أو ...» توقّف ريمي عن الكلام.

مدّت إيڤا كلتا يديها لتعيق خروج الكلمات من فمه. «محض سخافة. سنعثر عليه اليوم، وسنعيده إلى أورينيون معنا»

أومأ رِمي. «أنا معك في كل حال"

رفع يده، فسحبت يدها، وطوت الأوراق بحذر، ثمّ وضعتها في الحقيبة.

في الطّابق السّفلي، اثنتا عشرة امرأة يرتدين أثوابًا حريريّة ويتجمعن حول مائدة ضخمة في غرفة دخل وخرج منها الألمان البارحة.

«صباح الخير يا سيّدات» قال رِمي بشكل عابر وهو يدعو إيڤا إلى الدّخول، ويسحبها خلفه، رغم أنّها كانت تفعل ما في وسعها للثبات في مكانها.

رفع عدد قليل من النّساء أنظارهن إليه، وحيّينه بضجر، أمّا الأخريات فلم يقطعن أحاديثهن. أقبلت مدام غريملون من المطبخ حاملةً طبق ضيافة كبير، وأومأت باتّجاههما. في نور النّهار السّاطع، ودون طبقة ثقيلة من المكياج، بدت أكبر عمرًا. «وصلتِ في الوقت المناسب» قالت لإيڤا. «لعلّ فتياتي في الأسرّة كالأرانب، لكنّهن يأكلن كالخيول. كُلا قبل القضاء على الطّعام».

أرادت إيڤا الامتناع عن الأكل، لكن لم تقاوم إغراء صينيّة ممتلئة بالخبز الطّازج، والبرتقال اللامع، والسّجق، وقِطع كبيرة من الجبن. حدّقت إليها، فاغرة الفم. «كيف...؟» بدأت حديثها.

«يحب الألمان إسعاد الفتيات». قهقهت مدام غريملون، وهي تجيب عن سؤال إيڤا الفضولي. «إسعاد المعدة، يعني إسعاد...»

«أوه، لا أعتقد أنّ لدينا الوقت لدرس في التّشريح اليوم، شكرًا لكِ» قاطعها رِمي. «أعتذر مدام غريملون، لكن لا يمكننا البقاء. سنأخذ القليل من الطّعام لنتناوله ونحن في الطّريق».

انزعجت المرأة العجوز. «تحسب نفسك أفضل من أنْ تأكل معنا».

«لا، أبدًا يا مدام غريملون. كل ما هنالك أنّي يجب أنْ أكون في مكان آخر». أخَذَ أرغفة، قطعة جبن، وقطعة سجق كبيرة. «شكرًا على الضّيافة».

حدّقت مدام غريملون إليه بضع ثوان، ثمّ إلى إيڤا. «أجهل كيف أُغرمت فتاة جميلة مثلك برجل بهذه التّصرفات».

خجلت إيڤا. «لكنّي لست... وهو ليس...»

سحب رِمي يد إيڤا، وقبّل وجنتها. «تقصد أنّ أوان العتاب قد فات. لقد تزوّجتني».

انتبهت بعض الفتيات على المائدة.

«لا.. أنا» اعترضت إيڤا.

«هيّا يا عزيزتي. يجب أنْ نلحق بالقطار. أراكنّ في المرة المقبلة يا سيّدات!» وبيد ممتلئة بطعام قرّبها إلى صدره، ويد تقبض على يد إيڤا، خرجا من الغرفة، ثمّ من باب الماخور الخلفي دون أنْ ينظرا إلى الوراء بتاتًا.

«أراهـن أنّك تحسـب نفسـك خفيـف الظّل» قالـت إيڤـا وهـي تـأكل رغيفًـا كبيـر الحجـم بعـد دقائـق، وهمـا متوجّهـان إلـى حـي جـان جوريس فـي التّاسـع عشـر مـن الشـهر، حيـث دبّر رِمـي لقـاء مع رجل يعرفـه ويملـك سـيّارة ليقلّهمـا إلـى درانسـي.

«أسْـلِب عقـول معظـم النّـاس فـي نهايـة المطـاف. الآن تعالـي، أتحاوليـن تـرك أثـرٍ خلفنـا مـن فتـات الرّغيـف فـي طرقـات باريـس؟ هـل نحـن هانسـل وغريتـل؟»

نظـرت إيڤـا خلفهـا وأدركـت أنّ رِمـي علـى حـق؛ فـي أثنـاء مـلء فمهـا بالطّعـام لجوعهـا، تركـت أثـرًا علـى طريـق بوليفـار هاسـمان. ابتسـمت ابتسـامة خفيفـة. مـا عـادت آداب المائـدة موجـودة. كل مـا هنالـك إنّـي أتضـوّر جوعًـا."

ناولهـا رِمـي قطعـة جبـن كبيـرة، ليّنـة حيـن توقّـف قليـلًا ليجـاري سـرعتها فـي المشـي. «لا توجـد مائـدة هنـا، وأنـا لا أطلـق الأحـكام عليـكِ».

أرادت أنْ تقـول لـه أنّهـا لا تطلـق الأحـكام عليـه، أيضًـا، لكنّهـا كانـت تفعل ذلـك في الواقـع. فعلـت ذلـك منـذ لحظـة لقائهمـا الأولـى. فـي هـذا ظلـمٌ لـه.

***

احتاجـا إلـى أكثـر مـن سـاعة ليقطعـا ثلاثـة عشـر كيلومتـرًا إلـى درانسـي، ضاحيـة كئيبـة فـي طـرف المدينـة الشّمالي-شـرقي. الطّرقـات التـي أتلفتهـا الحـرب تعـج برجـال شـرطة فرنسـيين يسـتندون إلـى سـيّاراتهم ويدخنـون السّـجائر، أمّـا الجنـود الألمانيـون فكانـوا يضحكـون وهـم يمـرون بالشّـاحنات. سـائقهم، رجـل عرفـه

رِمي باسم ثيبولت برون، بالكاد حيّاهما حين ركبا شاحنته العتيقة. ركب رِمي وإيڤا وجلسا إلى جانب السّائق متلاصقي الأرداف. لم ينبس برون بكلمة طوال الطّريق. لكنْ، بدا أنّه يعرف تقريبًا كلّ المسؤولين الذين قابلوهم؛ لوّح لعددٍ منهم وأومأ لبعضهم الآخر.
«ها قد وصلنا» تمتم، وهم يسحب الكابح الجانبي عند قطاع سكني. «سأنتظركما، لكن ارجعا خلال ساعة. أعطياني نصف المبلغ الآن».

بصمت، أعطى رِمي السّائق مالًا وفيرًا، وأنزل إيڤا بفظاظة من الشّاحنة، ثمّ نزل بعدها. أحصى برون المال مع ابتعادهما، انبعث من الشّاحنة دخان مشبّعٌ بغاز رائحته تشبه البيض الفاسد.

«أصدقاؤك مثيرون للاهتمام» تمتمت إيڤا وهما يشقّان طريقهما في شوارع مظلّلة، أطبق الهدوء عليها بشكل غريب في منتصف النّهار.

«برون ليس صديقي. إنّه حلقة وصل». لم يسهب رِمي في كلامه.

«من أين حصلت على المال؟»

«وهل هذا مهم؟»

تردّدت إيڤا. «لا، وشكرًا لك»

أومأ رِمي، ووضع يده تحت مرفقها، ثمّ قال: «احبسي أنفاسك».

«ماذا تقول...؟» لم تكمل إيڤا السؤال لأنّ الرّائحة خنقتها كأنّها لكمة في وجهها. رائحة فضلات بشريّة أحاطت بهما فجأة، معجونة بروائح أجساد بشريّة كريهة وطين. شعرت إيڤا بالإجهاد والدّوار، وتعثّرت، لكنّ رِمي أمسكها قبل أنْ تسقط.

«هل أنت بخير؟» دون انتظار الإجابة، أضاف: «واصلي المشي. رد الفعل يُثير الارتياب».

«يا إلهي» تمكّنت إيڤا من القول، والدّموع في عينيْها مع وصولهما إلى نهاية القطاع، والاستدارة عند الزّاوية. «ما هذا المكان؟»

«درانسي مع الأسف»

رفعت إيڤا رأسها، وكادت تتوقّف من جديد عند مشاهدتها المعسكر الضّخم. ذباب له طنين في المكان، يدخل ويخرج من الأسلاك الشّائكة. المنشآت من الطّراز الحديث، ثلاثة، على شكل مستطيلات جديدة ونظيفة، مصفوفة على شكل حرف U. يتكوّن كلٌّ منها من ستّة طوابق، بدا أنّها بُنيَت لتؤوي المئات من الأسر، لكن عوضًا عن ذلك، تكدّس في الفناء الشّاسع آلاف الأشخاص، محشورين كقطيع في قطار؛ منهم من يبكي، ومنهم من يصرخ، ومنهم من على وجهه أمارات الذُّل وفي عينيه الذّعر. في المكان أطفالٌ قذرون، وآخرون يصرخون، عجائز ضاويات، وكهول يبكون. دار حرّاس الأبراج حول الجمع، ورجال الشّرطة الفرنسيّون يحرسون المحيط، تعابير وجوههم خالية من المشاعر.

«لا يمكن أنْ يكون هذا صحيحًا» تمتمت إيڤا عند اقترابهما من البّوابة الرّئيسَة.

«بالطّبع ليس صائبًا»

أعني، لا يُعقل أنّ هذا هو المكان الذي يبقون السّجناء فيه، إنّه... إنّه لا يليق حتّى بالحيوانات». واجهت إيڤا صعوبة في التّنفس، لكن لم تعد الرّائحة الكريهة سبب انزعاجها. بل

شعورها المفاجئ بوجود فجوة تفصلها عمّا تألفه. اعتقالات الأسبوع الماضي شائنة حتمًا، لكنّها جرت بشيء من التّهذيب. لكن هذه، هذه الحظيرة المخصّصة للبشر المخضّبون بفضلاتهم، كانت وحشيّة. تَهَوّعَت إيڤا من جديد حين تخيّلت أنّ تاتوش وسط هذا الحشد. «رِمي، يجب أنْ نُخرج والدي الآن».

بالكاد أومأ رِمي. «جهّزي أوراقك» قال لها. «تصرّفي بهدوء، دون غضب. حياتنا على المحك».

لم تتصوّر إيڤا كيف يمكنها ادّعاء أنّها بخير للشّرطة الفرنسيّة. لكن، كيف يدّعي الحرّاس أنّهم بخير؟ يتجوّل في المكان عشرات الضباط، وأكثر منهم يراقبون المكان من الأبراج العالية، لا أحد منهم يبدو على وجهه النّفور أو الاستنكار. هل هم موغلون في الشّر إلى هذا الحد؟ أمْ أنّهم اكتشفوا في أرواحهم أيقونة إذا ضغطوها تنعدم أخلاقهم؟ أيذهبون إلى زوجاتهم ليلًا فيضغطون على الأيقونة لتعود محاسن أخلاقهم ويصبحون بشرًا مرّة أخرى؟

تكلّم رِمي مع ضابط تفحّص أوراقهم عند البوّابة، وأشار إليهما للدّخول نحو مكتب. مع دخولهما، ناداهما بعض السّجناء في الجهة الأخرى من الأسلاك الشّائكة.

– رجاءً، كَلِّما ابني پيير في نيس! پيير دينيس، في حي كلوڤيير!

– رجاء، هلّا عثرتما على زوجي مارك؟ مارك ويسنيفسكي؟ انفصلنا في ڤِل ديڤ!

– مات طفلي! هل مات طفلي؟ مات طفلي!

شعرت إيڤا بدموع عينيّها، لكنّ رِمي ضغط يدها بقوّة لدرجة تألّمت عظامها، فتذكّرت كلماته. اهدئي، قالت لنفسها، وهي تتنفّس باضطراب.

خرج ضابط فرنسي، داكن الشّعر، سمين، في الأربعينيّات من عمره، خارج مكتبه، مدّ يده، عيناه هادئتان، وابتسامته موارية وهو يُشير لهما للدّخول دون أنْ ينطق بكلمة. «ما الأمر؟» سأل، فور إغلاق الباب خلفهما، بعد أنْ أخمد العويل في الخارج. الهواء في المكتب حار ونتن. في الصّيف القائظ، والنّوافذ كان يجب أنْ تُفتح لتجديد الهواء، لكنّ فتحها سيستدعي انتحاب المعذّبين الذين في الخارج. «ما الذي جاء بكما إلى هذا المكان البهيج؟»

قدرته على إلقاء الدعابة في هذه الظّروف أغضبت إيڤا أكثر، لكنّ رِمي ضغط يدها من جديد، فاستسلمت. ابتسمت ابتسامةً مصطنعة في أثناء حديث رِمي.

«أنا رِمي شاربنتيير، وهذه زوجتي، ماري، سكرتيرة. هناك خطأ في اعتقال أحد أفضل موظفينا هنا، وجئنا لإطلاق سراحه». نبرة صوته كانت هادئة، ومرحة، وبشوشة، وقد أُعجبت إيڤا بطمأنينته.

«أتقول أنّ هناك خطأ؟» هزّ الضابط رأسه. «أشك في ذلك».

«نحن نتفهّم اللبس» تابع رِمي كلامه بلطف، كأنّ الرّجل لم يتحدّث. «موظفنا، في الواقع، يهودي، لكنّه أرجنتيني».

تغيّر شيء في وجه الرّجل. «أكمل كلامك».

«أنت تعلم -بكل تأكيد- عن الاتّفاق الدّبلوماسي بين ألمانيا والأرجنتين. انزعج القنصل الأرجنتيني كثيرًا حين عرف عن اعتقال أحد مواطني بلده. وبما أنّه لا يحبّذ تصعيد المسألة مع نظيره الألماني...»

قطع رِمي كلامه وناول الضابط الخطاب الأرجنتينيّ المدموغ. فتحه الضابط وقرأه على عجل. «في الواقع، لست من ارتكب هذا الخطأ» صرخ وهو ينظر إليها. «ليو تروب؟ لا يبدو الاسم أرجنتينيًّا بالنّسبة إليّ».

«وهل هناك من يعرف الحقيقة هذه الأيّام؟» قال رِمي باستنكار تراجيدي. «لعلّه بولندي هاجر والده قبل عقد كامل. ومع ذلك فالأرجنتينيّون ليسوا سعداء...»

«سأرى ما يمكنني فعله». غادر الرّجل، بعد أنْ أغلق الباب خلفه بقوّة، وترك رِمي وإيڤا وحدهما في تلك الحرارة الخانقة.

«أتعتقد أنّه؟» بدأت إيڤا، لكنّ رِمي قاطعها برفع يده.

«اششش للجدران آذان»

أغلقت إيڤا فمها، ونظرت إلى النّاس في خارج النّافذة، تعساء في حالة يرثى لها تحت شمس يوليو الحارقة. هل والدها بينهم، ويُعامل كبهيمة؟ لم تنتبه لدموعها إلّا حين هسهس رِمي وقال: «تمالكي نفسك. أنت مجرّد سكرتيرة». رفعت عينيْها له، ولم تشاهد أي انزعاج في عينيْه، مجرّد شفقة. مسح دموعها بسرعة بإبهامه.

عاد الضّابط وهو يحمل سجلًّا تغليفه جلدي، لم يتمكنا من قراءة وجهه حين دخل وصفع الباب خلفه. لم يقم بأي تواصل بعينيْه معهما وهو يُقلّب الصّفحات، توقّف أخيرًا في منتصف الطّريق ووضع يده على صفحة. «ليو تروب» قال أخيرًا وهو يرفع عينيْه.

«نعم، هذا صحيح» قالت إيڤا بحماس شديد، فوكزها رِمي وكزًا خفيفًا على ضلعها.

«حسنًا، أخشى أنّ هذا الالتباس لم يعد من اختصاصي» قال الرّجل وهو يُدير السّجل على مكتبه ليراه كلٌّ من إيڤا ورِمي. وضع إصبعه السّمينة على السّطر الخامس والثّلاثين حيث كتب اسم ليو تروب بخط جميل، إلى جانب عمره، اثنان وخمسون، والعنوان: إلزفير، حيث أقامت إيڤا طوال حياتها. «نقلوه إلى مكان آخر».

«مكان آخر؟» سألت إيڤا.

كانت عينا الرّجل خاليتيّن من المشاعر حين أومأ للتأكيد، وأبعد إصبعه. مالت إيڤا. كُتبت بخط واضح إلى جانب تاريخ اعتقال والدها -16 يوليو- ملحوظة أخرى: قطار7/ 19 يوليو.

رفعت إيڤا عينيّها، شعرت بدوار، والضابط يُمعن في النّظر إليها. «قبل يوميّن. في التّاسع عشر من يوليو. ما معنى هذا؟»

«أنّه استقل القطار رقم سبعة المُغادر إلى درانسي» قال الضابط بصوت عديم المشاعر. اقترب منها رِمي، وراحة يده تمسح على ظهرها، لكنّ جسدها كان باردًا؛ برودة شديدة يستحيل تخفيفها بأي شيء.

«وما وجهة القطار؟» همست إيڤا.

«أوشفيتز»

ظلّت إيڤا تحدّق إليه، والعالم يدور حولها. سمعت رِمي يقول شيئًا إلى جانبها، بنبرة صوته الهادئة، لكنّ طنين أذنيّها طغى على كلماته. «أوشفيتز؟» سألت بهمس. كانت قد سمعت بالمكان، سمعت شائعات عن ترحيل اليهود إلى هناك، وإجبارهم على العمل حتّى الموت، لكنّها لم تصدقها. الآن، وخلال ثانية واحدة، صدّقتها.

لمحها الضابط. «إنّه مخيّم عمل في كراكو. لو أنّ والدَي الموظّف الذي تتحدثان عنه قد هاجرا من بولندا، فيجب أنْ يشعر بأنّه في وطنه أليس كذلك؟» ابتسم الرّجل أخيرًا.

«أشكرك على وقتك» قال رِمي وهو يسحب إيڤا نحو الباب. رجلاها ثقيلتان كأنّهما مخلوقتان من الرّصاص. «تعالي» قال لإيڤا بصوت خفيض مع فتح الضابط الباب لهما. «ليس هنا»، ثمّ طوقها بذراعه، وسحبها باتّجاه المخرج، خلال التّنافر المزعج للإحباط والانحطاط والموت المحيط بهما من كل صوب، مرّا بعذاب بشر فاقدي الأمل ومعزولين بأسلاك شائكة.

ما إنْ وصلا بأمان إلى شاحنة برون التي تحرّكت في الطّرقات المدمّرة باتّجاه باريس، حتّى انفجرت إيڤا باكية؛ بكاء بسيط أوّلًا، ما لبث أنّ تصاعد وأصبح نحيبًا بدا غير بشري، حتّى لأذنيْها.

«هلّا أسكتَّها؟»

«لن أفعل» قال رِمي، وهو يقربها منه، ويعرض عليها أنْ ترتاح على كتفه. «لا، لن أفعل».

حين استعادت قدرتها على الكلام من جديد، وتجاوزت الحزن الذي غصّت به، همست، وسألت: «ما الذي سنفعله؟ كيف سنخرجه من أوشفيتز؟»

قَبّل رِمي جبينها. «أخشى أنّ هذا مستحيل».

أغمضت إيڤا عينيْها. «ما الذي سيحدث الآن؟»

«الآن» تمتم رِمي. «نصلّي».

في طريقهما إلى باريس، والفزع والإصرار في قلبيْهما. لعلّ الوقت قد تأخّر على إنقاذ الأب، لكنّها رأت بأمّ عينيْها مصير آلاف اليهود. لو أنّ بيدها فعل شيء لمساعدتهم، فلن تتردّد لحظة.

الفصل الثّاني عشر

«ماذا سيحدث له؟»

تلك كلمات إيڤا الأولى بعد ساعتيْن، أوّل ما استطاعت التّفوّه به، وعرفت أنّ عليها نطقها بصوتٍ عالٍ، رغم أنّها لم ترغب في معرفة الإجابة. كانوا على القطار المتوجّه إلى جنوب باريس، وكانت إيڤا شديدة الاستغراق في كربها لدرجة أنّها لم تلحظ تفحّص جندي ألماني هويّتها المزوّرة وتصريح السّفر مدة دقيقة كاملة بعدد صعود القطار.

«التّخمين صعب» قال رِمي دون أنْ ينظر إليْها.

«حاوِل» عرفت أنّ صوتها بدا باردًا، لكنّ برودتها لم تكن موجّهة إليه، بل كان خاطرها متجمّدًا.

تنهّد رِمي. القطار شبه خاو، لكنّ عينيه تراقبان المكان دون توقّف، بحثًا عمّن يسترق السّمع أو جندي يقترب. «هل العمر الذي كتبوه صحيح؟ اثنان وخمسون؟»

«أجل»

«وهو بصحّة جيّدة؟»

«سليمٌ بالنّسبة إلى عمره»

«إذا شاء الرّب، فسيختارونه لعملٍ دقيق»

«إذا شاء الرّب؟»

تنحنح رِمي. «سمعت أنّ الخيار الآخر أسوأ»

تأمّلت إيڤا راحة يدها. عيناها محمرّتان متألمتان، بلا دموع».

«شكرًا لك» قالت بعد هنيهة.

«علام؟ خذلتك»

هزّت رأسها نافية. «أنت صادق معي. وأنا أقدّر هذا، كما أنّك لم تخذلني يا رِمي. لم أكن لأفعل هذا وحدي»

كان رِمي سيجيب، ابتسم نصف ابتسامة، لكنّه تراجع. عوضًا عن ذلك، نظر إلى خارج النّافذة للحظة قبل أنْ يقول شيئًا. «أتعرفين أنّ لدي أبًا أيضًا» تحشرج صوته. «مات في الجبهة قبل عاميْن».

«تقبل عزائي يا رِمي»

أومأ برأسه.

«ماذا عن والدتك؟» سألته حين سكت.

«ماتت في طفولتي. لذا أنا وحيد الآن»

وضعت يدها فوق يده بضع ثوان ثمّ سحبتها.

«على الأقل...» قال رِمي وهو يدير وجهه لإيڤا، «والدتك على قيد الحياة»

«أمّي» أغمضت إيڤا عينيْها. «يا إلهي. كيف سأطلعها على النّبأ؟»

تاتوش هو العالم بالنّسبة إلى ماموشا. تساءلت إيڤا إذا كان الخبر سيدمّرها.

«حاولي الحصول على قسط من الرّاحة» تمتم رِمي. «سأراقب المكان»

لم تعترض إيڤا لشعورها بالإنهاك، فأومأت وأسندت رأسها إلى كتف رِمي. نامت في نهاية المطاف، وحلمت بوالدها وهو في قطار يتّجه إلى الشّرق نحو مصير مجهول.

***

اجتازا نقطة تفتيش في مولنز بيُسر، نظر جندي إلى الأوراق بلا مبالاة وتثاؤب، أمّا بقيّة الرّحلة إلى كليرمونت-فيرّاند فكانت هادئة. عند غروب الشّمس نزلا من الحافلة في أورينيون واقتربا من النّزل ذي الواجهة الحجريّة. «تعالي إلى الكنيسة غدًا. سنعثر على حل» قال رِمي، وهو يصافحها بحرارة.

«ماذا تقصد؟»

«طريقة للمساعدة. طريقة لمواجهة الألمان. طريقة لحماية آخرين مثل والدك» قبل أنْ تجيبه تابع كلامه «وأمّك؟ ستكون بخير، وأنتِ أيضًا ستكونين بخير» ضغط مرّة أخيرة على يدها.

أومأت إيڤا بسكوت. حين أفلت رِمي يدها وابتعد، شاهدته وهو يختفي عند المنعطف. أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ استدارت ودخلت النُّزل.

كانت مدام باربيير في النّزل، فرفعت حاجبيْها، واتّسعت حدقتا عينيْها وهي تنظر باستفهام إلى إيڤا. هزّت إيڤا رأسها، فاكفهرّ وجه المرأة. «حزني شديد يا عزيزتي».

دخلت إيڤا الغرفة، ووجدت أمّها واقفة، يداها في وضعيّة الدّعاء. التمعت عيناها فور رؤية إيڤا، ثمّ شاهدت المساحة الخالية خلف ابنتها. الحزن في عيني إيڤا.

«والدك...؟» سألت ماموشا.

«لم يعد في ذلك المكان. أنا آسفة»

خيّمت الكلمات بصمت. لم تتحركا.

واصلت ماموشا التّحديق إلى إيڤا، كأنّ تاتوش سيدخل في أي لحظة، ويُفاجئهما.

«ماموشا؟ هل سمعتني؟»

شعرت بالدّوار حين حرّكت ناظريْها إلى وجه ابنتها. «أين؟ أين ذهب؟»

«شرقًا» أخذت إيڤا نفسًا عميقًا. «إلى معسكر اسمه أوشفيتز في بولندا».

«لكن هذا مستحيل. اعتقلوه قبل أقل من أسبوع، ونحن نعيش في فرنسا يا إيڤا. هذا لا يحدث في فرنسا»

«يحدث مع الأسف» تذكّرت إيڤا منظر تكدّس النّاس في درانسي في كل مرة تغلق فيها عينيْها.

«لكنّنا غادرنا بولندا. نحن... نحن فرنسيون»

«نحن يهود». صوت إيڤا كان خفيضًا وبالكاد سمعت نفسها.

استدارت والدتها نحو النّافذة. السّتارة تحجب النّافذة خلال الليل، لكنّ ماموشا أزاحتها جانبًا وحدّقت وقتًا طويلًا في الظّلال الطّويلة إلى شوارع أورينيون. خلال دقائق، ستظلم القرية وستصبح غير مرئيّة، والنّور الذي في غرفتهما سيثير ريبًا شديدًا. أرادت إيڤا إبعاد أمّها عن النّافذة وسحب السّتارة، لكنّها عجزت عن الحركة.

«أين هو الشّرق؟» همست ماموشا. التفتتا إلى الجهة الأخرى من غروب الشّمس، والسّماء أظلمت.

«ذلك الاتّجاه» قالت إيڤا بإيماءة، وهي تنظر إلى برج كنيسة القدّيس ألبان الضخم، الذي يمكن رؤيته من الشّارع.

«لن يعود» قالت ماموشا وهي تشاهد بقايا النّهار. «سيموت هناك».

«لا». تذكّرت إيڤا كلمات رِمي، وتساءلت إن كان يكذب. هل يختارون الرّجال الذين يبلغون الثّانية والخمسين من عمرهم لعمل إجباري، أم أنّ هذه الأعمال تُترك للجيل الأصغر والأقوى بُنية جسديّة؟ أيمكن أنّ رِمي قد أخبرها بما تريد أنْ تسمعه؟ «بل» قالت مرّة أخرى، وهي لا تثق بنفسها. «تاتوش قوي، سيرجع».

هزّت ماموشا رأسها نافية، وحين عادت إلى النّافذة أخيرًا، كان وجهها شاحبًا، وقد عضّت شفتيْها فلم يظهر منها إلّا خط. «وعدتِني أنّه سيعود».

طعن قلب إيڤا سهم الذّنب الحاد. «حاولت».

«تأخّرتِ»

طأطأت إيڤا رأسها، وقالت: «أنا في غاية الأسف»

«لقد خذلته». عمّ الصّمت بضع لحظات، ثمّ في كسر الصّمت عويل خفيض يفطر القلب. يشبه صوت. حيوان جريح مخذول، لكنّه صدر من أمّها التي يتلوّى وجهها وجعًا.

«ماموشا!» قالت إيڤا وهي تقترب منها، لكنّ الأم هجمت على ابنتها كأنّ لها مخالب، وتكلّمت بغضب شديد مع ابتعادها عن ابنتها. ازداد ارتفاع العويل فغطّت إيڤا أذنيْها، وكانت ماموشا على

ركبتيْها، وعيْناها مغلقتان، صوتها لحن يسبق الكمد قد قطّع إيڤا كأنّه سكين. «ماموشا!» حاولت إيڤا من جديد، لكنّ أمّها كانت في عالمها الخاص.

لم تسمعها إيڤا وهي تعود، لكن فجأة، مدام باربيير كانت هناك، يداها القويّتان على كتفي إيڤا. «قومي. نامي في البهو» قالت بصوت هادئ وحازم. «سأعتني بأمّك»

«لكن لا أستطيع تركها!»

استمرّ العويل، يصم الآذان، صيحات تُفتّت القلب.

«يجب أنْ تتركيها. امنحيها الوقت». توجّهت مدام باربيير إلى الأم، واحتضنتها بيديْها القويّتيْن. جسد ماموشا كان منهكًا حين وضعت رأسها على صدر مدام باربيير الرّحب. دون مقاومة استأنفت الانتحاب. «فعلتِ كل ما بوسعك يا عزيزتي» قالت مدام باربيير. «الآن، احصلي على قسط من الرّاحة. اذهبي. سأعطي أمّك شيئًا يساعدها على الاسترخاء».

وأخيرًا، ابتعدت إيڤا عن الغرفة. عرفت أنّها لن تنام، لكنّها جلست على الأريكة وأغمضت عينيْها على أي حال، وقد تركت أشباح درانسي تعذبها في الظّلام.

***

استيقظت إيڤا باكرًا في صباح اليوم التّالي على رائحة قهوة حقيقيّة، ومع فتح عينيْها بصعوبة، فكّرت للحظة إن كان هذا حلمًا. لم تشم هذه الرّائحة بعد الاحتلال؛ حبوب القهوة هي إحدى الأمور التي اختفت من الحياة اليوميّة. لم تتذكّر أنّها نامت، لكنّها شعرت بتجديد النّشاط حين نهضت عن الأريكة وتتبعت الرّائحة

إلى المطبخ، حيث كانت مدام باربيير تتمتم بشيء ما وهي تصب القهوة في كؤوس فخارية.

«صباح الخير» قالت مدام باربيير دون أنْ تلتفت. «مع الأسف لا يوجد حليب، لكن لدي القليل من السّكر لو أردتِ».

«لكن... من أين جئتِ بالقهوة؟»

«كنت أحتفظ بقليل منها منذ مدّة في القبو لمناسبة خاصّة». أخيرًا، استدارت لتواجه إيڤا، وعرضت عليها كوب قهوة سوداء ساخن. استنشقت إيڤا الرّائحة بعمق. «ظننت أنّك وأمّك بحاجة إليها هذا الصّباح».

«شكرًا». بدا الكلام غير كافٍ، وظلّت إيڤا واقفة بغرابة هناك وهي تحمل الكوب.

«اشربي يا صغيرة» قالت مدام باربيير. «اشربي قبل أنْ تبرد» رفعت كوبها كأنّه نخب والتقت عيناها عيني إيڤا حين بدأتا احتساء القهوة.

«أنا آسفة» قالت إيڤا وهي تشرب من الكوب، الدّفء يغمر صدرها، والكافيين يندفع في أوردتها. «على الليلة السّابقة».

«أوه، عزيزتي، لا شيء لتعتذري عليه»

«لكنّي لم أعرف كيف أساعدها»

«لا أحد يمكنه المساعدة في هذه الأزمة»

«لكنّكِ...»

«أعطيتها حبّة دواء. أحيانًا كل ما يحتاج إليه المرء هو النّوم. احتفظت بعدد منها بعد وفاة زوجي».

رأت إيڤا الشّفقة في عيني المرأة، ربّتت مدام باربيير على كتفها، وناولتها الكوب الثّاني. «أعطي أمّك هذا. لا بدّ من أنّها قد استيقظت الآن»

بالتّأكيد، كانت ماموشا جالسة في السّرير حين دخلت إيڤا. شعرها أشعث، والهالتان تحت عينيْها بنفسجيّتا اللون. «ماموشا؟» سألت إيڤا بحنان.

«إيڤا» صوت ماموشا خال من المشاعر. لكن، بُعثت في عينيها الحياة مرّة أخرى. عادت إلى طبيعتها.

«أعدّت مدام باربيير القهوة». احتست إيڤا قهوتها وناولت أمّها الكوب الآخر. أخذته ماموشا، تنفّسته بعمق، ثمّ وضعته على الطّاولة الجانبيّة. اقتربت إيڤا وجلست على حافة السّرير. لمست ذراع والدتها وتألّمت حين جفلت ماموشا. «أنا آسفة. أتمنى لو أنّي فعلت المزيد».

«بذلتِ قصارى جهدك. لم يكن علي لومك»

نظرت ماموشا نحو النّافذة. «لا أستطيع تخيّل بعده عنّي. في ذلك المكان المريع». تحشرج صوتها ومسحت دموعها. «ماذا سنفعل؟»

«سننجو» قالت إيڤا. «وسننتظر عودته»

تنهّدت ماموشا. «تفاؤلك. يشبه تفاؤل والدك. لكن لاحظي إلى أين قاده»

«ماموشا...»

«لا، يا قلبي. لا أريد سماع كلماتك المتفائلة الآن. لن تساعدني كلماتك على التّحسن»

«نظرت إيڤا إلى الأرض. بردت قهوتها. تمخّضت معدتها بالذّنب والأسى والجوع. «أعرف».

إنّهم يمسحوننا عن الوجود، ونحن نساعدهم على هذا. «ما زال صوت ماموشا مبحوحًا خفيضًا». «فتَح الباب لهم، أليس كذلك؟ غادر والدك دون ذود عن نفسه. وانظري إلينا. لم نعد نحمل اسم والدك الآن. غادر منذ أقل من أسبوع، وقد تنكرنا معرفته؟»

«لكن، ماموشا، أنا...»

«ما الذي سيحدث حين يأتون إلينا أيضًا؟ حين يأخذوننا شرقًا؟ من سيتذكرنا؟ من سيهتم؟ بسببك لن يبقى شيء منّا ولا حتّى أسماؤنا».

هزّت إيڤا رأسها باستنكار. هل أمّها على حق؟ هل سيُمسحون كغبار أزيح عن الأرض؟ كيف تمنع حدوث هذا؟

حينها تذكّرت صوت رِمي. «تعالي إلى الكنيسة غدًا. سنحاول العثور على حل. أيمكن أن يمد يد العون؟ هذا يعني البقاء في أورينيون عوضًا عن السّفر إلى سويسرا.

من ناحية أخرى، أنّى لها ألّا تفعل شيئًا؟

أليس هذا ما يفعله أهالي فرنسا؟ أليس هذا ما يفعله العالم أجمع في الوقت الذي يتجرّع فيه يهود أوروبا الويلات؟

«ماموشا» قالت بلطف، فطالعتها والدتها أخيرًا. «يجب أن أذهب».

«تذهبين إلى أين؟»

وقفت. «للمساهمة في إنقاذنا».

«لن أبقى هنا يا إيڤا، ولا أنتِ. سنغادر في أقرب وقت ممكن».

عبست ماموشا في وجهها، لكنّها لم تحاول إيقافها. «اذهبي إذن إلى أولئك الكاثوليكيين، لكن ودّعيهم في نهاية النّهار. حمقاء أنت إذا صدّقتِ أنّ بوسعكِ إحداث أي تغيير».

حاولت إيڤا ألّا تتعجّب وهي تخرج من النّزل إن كانت أمّها تعرف شيئًا لا تريد إخبارها به. لعل الوقت قد تأخّر على إنقاذ أي شخص. لربما لم يعد بوسعها فعل أي شيء، لكن كيف ستغفر لنفسها عدم المحاولة؟

***

المكتبة الصّغيرة خلف مذبح الكنيسة كانت دافئة حين دخلتها، وأوّل شيء أعاقها عن الدّخول هو رائحة قويّة -رائحة نفّاذة، مِلحيّة كالحليب- أجبرتها على التّراجع. يجلس رِمي إلى الطّاولة وسط الغرفة مائلًا على مجموعة أوراق موزّعة أمامه.

«ما هذه الرّائحة الكريهة؟» سألته إيڤا، وهي تكتم أنفها بيدها.

التفت إليها. على وجنته اليمنى لطخة حبر، وكان عليها أنْ تقاوم رغبة الاقتراب لمسحها.

«مرحبًا» أمسك قطعة قماش ومسح يديه، ثمّ وقف، قال لها: «هذه رائحة حمض اللاكتيك».

«حمض اللاكتيك؟»

تجاهل السّؤال. «هل أنتِ بخير يا إيڤا؟ كيف تلقّت والدتك الخبر؟»

أخـذت نفسًـا عميقًـا لتهدئـة نفسـها، مـا زاد الرّائحـة سـوءًا. سـعلت، وغطّـت فمهـا.

«لا بأس. ستعتادينها. لكن، أخبريني، ماذا حدث لوالدتك؟»

«كانـت فـي حالـة يرثـى لهـا. أخبرتنـي أنّـي أرتكـب خطـأ بمجيئـي هـذا الصّبـاح»

«وما رأيك؟»

«أنا... أنا لا أعرف رأيي»

«لكنّكِ هنا»

أومـأت إيڤـا لتأيـيده. «أنـا هنـا. فـي الوقـت الحالـي». أخـذت شهيقًا مـرّة أخـرى وجعّـدت أنفهـا. هـل ستشـرح لـي الآن سـبب لهـوك بحمـض اللاكتيـك فـي المكتبـة؟»

ابتسـم. «بعـد وفـاة أمّـي، كان علـيّ الخـروج مـن باريـس لمـدة قصيـرة، إلـى مزرعـة عمّـي فـي بريتانـي. أُرسِـلت مـرّة واحـدة أسـبوعيًّا إلـى معمـل ألبـان فـي الشّـارع. المزارعـون الذيـن باعونـا القشـطة كانـوا جشـعين أحيانًـا، وحاولـوا إضافـة المـاء إلـى المنتـج. أتعلميـن مـا الـذي فعلـه الكيميائـي الـذي فـي المعمـل لفحـص نسـبة الدّهـون فـي المنتـج؟»

«لا» لم تعرف إيڤا علاقة نسبة الدّهون بأي أمر آخر.

«أخذنـا كميّـة قليلـة مـن قشـطة كل مـزارع وقطّرنـا فيهـا أزرق الميثيليـن فيهـا، ثـمّ راقبنـا الوقـت الـلازم لاختفائـه. كمـا تعلميـن، فحمـض اللاكتيـك فـي القشـطة سيمسـح أزرق الميثيليـن».

«حسنًا» قالت إيڤا وهي تشعر بالتّيه.

«أغلب المستندات الحقيقيّة التي مصدرها الولايات ذاتيّة الحكم موقّعة ومختومة باستخدام حبر (واترمان) الأزرق، وهذا الحبر مكوّن من ميثيلين أزرق، ويستحيل مسحه. أعتقد أنّ هذا سبب استخدامهم إياه».

فهمت إيڤا أخيرًا. اتّسع بؤبؤا عينيّها حين لمحت الطّاولة خلفه، التي لاحظت أنّ عليها وثائق هُويّة مرصوفة كأنّها مبلّلة. «إذن، فأنت تستخدم حمض اللاكتيك لمسح الحبر؟ على مستندات حقيقيّة؟»

«نقوم بهذا منذ أشهر. في غاية الذّكاء صحيح؟»

«عبقري يا رِمي. لا بدّ أنّ هذا قد استغرق وقتًا طويلًا»

«لم تتح لنا فرصة الحصول على مستندات خالية باستمرار. في نهاية المطاف، تعرّفنا إلى ضابط تعاطف معنا في قسم الشّرطة المحلّي، وقد زوّدنا بالأدوات اللازمة. لكن بالنّسبة إلى بعض النّاس، من السّهل تعديل وثائقهم الأصليّة».

انتقل نظر إيڤا إلى الطّاولة مرّة أخرى. «وهذا ما تريدني مساعدتك فيه؟»

«لا، أقصد بخلاف استكشاف المواد الكيميائيّة اللازمة لمحو الحبر، يمكن لمعظم الأشخاص فعل ذلك. افترضَ الأب كليمنت أنّه بإمكانك مساعدتي في تجهيز الأوراق التي جفّت، بما أنّك موهوبة». أشار إلى حافة الطّاولة، حيث توجد حزمة وثائق في حال سيئة. «هذه بحاجة إلى أسماء وبينات تفصيليّة».

«يمكنني فعل هذا»

«جيّد. أنا في حاجة إلى هذه المساعدة. نحن بحاجة إلى مئات المستندات»

«مئات؟»

عبس. «لا يوجد غيري هنا يا إيفا»

«لعلّ بإمكاني التّفكير في طريقة أكثر سرعة». خطر على بالها أنّها زوّرت وثائق أسرتها بدقّة، فلا بدّ من وجود طريقة أكثر فاعليّة لإنتاج مجموعة وثائق في وقت واحد، بما أنّ الأختام يجب أنْ تتطابق في كل الأحوال. خطرت لها فكرة، لكن عليها زيارة متجر الكتب مرّة أخرى لترى إن كانت قابلة للتطبيق.

«إيفا أقدّر حماسك، لكنّي أزوّر الوثائق بأقصى سرعة ممكنة».

«لا أظن هذا»

شعر بالإهانة. «وهل اكتشفتِ هذا من خبرتك الكبيرة في التّزوير؟ قلت بنفسك إنّك مبتدئة. لا تفهميني خطأ يا إيفا -أنا أقدّر مقدرتك الفنيّة- لكن هذه ليست مدرسة فنيّة. إنّها مسألة حياة أو موت».

«أتعتقد أنّي أجهل هذا؟»

«أعتقد أنّك نجحت نجاحًا باهرًا تحت الضّغط، أمّا الآن فأنتِ تعتقدين أنّك تتقنين ما تفعلين. لكن تذكري ما حدث على قطار باريس. هناك تعقيدات كثيرة لم تفهميها بعد».

حدّقت إليه. «علّمني إذن»

انبسطت أساريره. شعر بالسّعادة. «أعلمك؟ أيعني هذا أنّك ستبقين مدة؟»

تساءلت إذا كان ما تفعله صحيحًا. «لا أعرف بعد» لم تنتظر إجابته، وخرجت لتبحث عن الرّاهب. تبعها رِمي فورًا. أرادت إخبار الأب كليمنت بأنّها فكّرت في طريقة لتسريع عمليّة التّزوير، لكنّها تحتاج إلى مساعدته. هذا أفضل ما يمكنها فعله، وشعرت بأنّه الأمر الصحيح. «في الوقت الحالي، لا وقت لهدره، أليس كذلك؟»

الفصل الثّالث عشر

بعد عشر دقائق، شاهد الأب كليمنت رِمي وإيڤا يتجادلان حول من يمتلك أفضل أفكار تخص التزوير، بدا على وجهه التّعجّب. عثرت إيڤا عليه في غرفة الاعتراف، فأنزل ستار الخصوصيّة، وطلب منها إحضار رِمي ليكلّمه في محادثة مهمّة.

«كوليت» ناداها حين توقّف رِمي عن الكلام بعد أنْ ذكرهما بمدى ثوريّة فكرته حول حمض اللاكتيك. «أتقولين إنّ لديك فكرة تُسرّع عمليّة تزوير الوثائق؟»

«أجل. غير أنّي لا أعرف كيفيّة تطبيقها»

تمتم رِمي بكلام غير مفهوم.

حدّقت إيڤا إليه، ثمّ نظرت مرّة أخرى إلى الرّاهب. «واسمي إيڤا أيّها الأب. عرف رِمي اسمي الحقيقي، ويجب أنْ تعرفه أنت أيضًا»

ابتسم. «يسرني التّعرف إليك يا إيڤا»، ثمّ وجّه خطابه إلى رِمي، وقال: «إيڤا ممتازة. رائع. أنت تعرف هذا. أعلم. هل كنت لتلحق بها إلى باريس دون أنْ تخبرني لو تتيقن من موهبتها؟»

نظر رِمي إلى إيڤا. «في الواقع، أنا أفضل منها في مسح المستندات. لا يمكنك إنكار هذا».

قال الأب كليمنت: «لنرى إذا كانت إيڤا أفضل في تزويرها، وبسرعة. نحتاج إليها».

لمح رِمي إيڤا مرّة أخرى. «يسعدني تعيينها مساعدة لي».

ابتسم الأب كليمنت ابتسامة مواربة. «بل فكرت في أنْ تكون أنت مساعدها».

اتسعت فتحتا أنف رِمي، وخلال هذا الوقت، حين تمتم، كانت الكلمات واضحة - وغير مهذّبة. استدار ومشى مبتعدًا، وأغلق باب غرفة الاعتراف بقوّة.

«دعيه يذهب» قال الأب كليمنت بهدوء.

توقّفت إيڤا وتنهّدت. «أنا آسفة» قالت. «لربما كان علي...»

قاطعها. «لا اعتذارات. لا مجال للغرور في مجموعتنا، ورِمي يعرف هذا. إنّه بارع في ما يفعله أيضًا، لكنّ وجود أشخاص مختلفين يعني قوى مختلفة، ونحن أقوى إذا اتّحدنا. ستعملان معًا بصفتكما زميليْن، إذا ناسبك الأمر يا إيڤا».

«أجل، بالطّبع»

«جيّد. الآن، هلّا دخلنا إلى المكتبة وبدأنا؟ لا وقت لهدره»

خرج من الجهة القريبة منه، وتبعته إيڤا. توقّعت رؤية رِمي في المكتبة، لكنّه غير موجود، فشعرت بالذّنب. شاهدت الأب كليمنت وهو يحرّك مجموعة كتب، وأخرج صندوقًا استخدمه رِمي قبل أيّام. سحب مجموعة أوراق، أنزل الباب الجانبي، أعاد الكتب، وعاد إلى إيڤا.

نظرت إلى ما ناولها إيّاه. مجموعة هُويّات، عشرات البطاقات الخالية من النّوع الذي يستخدم لشهادات الميلاد، وقائمة مكتوبة بخط اليد عليها أسماء وتواريخ ميلاد. تفحّصتها بسرعة. «معظمهم أطفال: قالت وهي ترفع نظرها. يافعون».

«صحيح» قال الأب كليمنت وهو يراقبها عن قرب.

«من هم؟»

«يحتاجون إلى الهروب في أقرب وقت ممكن. كثيرٌ منهم صغار بما يكفي لدرجة أنّهم لا يحتاجون إلى بطاقات هُويّة – فقط شهادات ميلاد وتعميد، بطاقات مؤن لتأكيد هُويّاتهم، وتصاريح سفر، وأوراق من هذا القبيل».

شعرت إيڤا بانقطاع نفسها. «وأهاليهم؟»

«رَحّلوهم إلى الشّرق».

إلى الشّرق رحل آباؤهم وأمّهاتهم، كما حدث لوالدك، إلى أوشفيتز، أو إلى مكان يشبهه. «وأين الأطفال الآن؟» قرأت إيڤا قائمة الأسماء مرّة أخرى. معظم الأطفال أقل من عشرة أعوام، ومنهم رضّع. هل فقدوا جميعًا آباءهم؟ أمر لا يصدّق. «من يعتني بهم؟»

تأمّلها الأب كليمنت بضع ثوانٍ. «هل أستطيع أنْ أثق بك يا إيڤا؟»

«من ذا الذي يعرف؟ يهوديّة أنا، في مكان غير مألوف، وأسافر بأوراق مزوّرة». رفع حاجبًا، فتنحنحت وغمغمت. «أقصد، بالطّبع يمكنك الوثوق بي».

أومأ. « كما تعلمين يا إيڤا، ولربما خمّنتِ هذا، أنّ الكنيسة جزء من عملية الهروب حيث تساعد النّاس للوصول إلى سويسرا بأمان. نحن على اتّصال بمجموعات المقاومة في المنطقة المحتلّة، وخلال الأشهر الماضية، مع ازدياد حملات الاعتقال، هرّبوا اللاجئين إلى هنا، وإلى قرى أخرى تشبه قريتنا في أنحاء المنطقة الحرّة». أخذ نفسًا عميقًا. «في باريس خلال الأسبوع

الماضـي، كمـا تعلميـن، كانـت هنـاك اعتقـالات. أخرجـت شـبكتنا مجموعـة أطفـال قبـل أخذهـم مـع والديهـم، وكثيـر منهـم هنـا الآن، مختبئيـن فـي منـازل خاصّـة، وجميعهـم بـلا أوراق رسـميّة، بـلا آبـاء».

«جميعهم يهود» قالت بهدوء والألم يعتصر قلبها.

«جميعهـم يهـود» ردّد الأب كليمنـت كلماتهـا. «جميعهـم فـي خطـر يـزداد يومًـا بعـد يـوم».

«كيـف تُخرجهـم؟ سـيكون عبـور الحـدود السويسـريّة بمجموعـة كبيـرة مـن الأشـخاص مثيـرًا للارتيـاب»

«وهنـا يأتـي دورك. سـينتقل الأطفـال إلـى سويسـرا، ثلاثـة أو أربعـة فـي كل مـرّة، ينتقلـون علـى أنّهـم إخـوة يُسـافرون مـع أمّهـم أو أبيهـم. لكـن، لتنفيـذ هـذا نحتـاج إلـى وثائـق مقنعـة، ونحتـاج إليهـا بسـرعة». تـردّد. «كمـا تعلميـن، هنـاك شـائعات بـأنّ الألمـان سيحتلون المنطقـة الحـرّة أيضًـا».

شـعرت إيڤـا باتسـاع حدقتـي عينيهـا. «المنطقـة الحـرّة؟ لكنّهـم عقـدوا اتّفاقًـا مـع بيتـان».

«وهـل تعتقديـن أنّهـم سـيحافظون علـى العهـد؟ وعودهـم لا تعنـي شيئًا. وفـور أنْ يبـدؤوا تحركاتهـم، سـيكون مـن الصّعـب علـى الأطفـال مغـادرة فرنسـا».

حـدّق إليهـا، فشـعرت أنّ بإمكانـه قـراءة أفكارهـا. إذا كانـت الحـدود سـتغلق، فعليهـا إخـراج أمّهـا أيضًـا.

«لا يـزال هنـاك وقـت» قـال، وهـو يجيـب عـن السّـؤال الـذي لـم تطرحـه. «أرجـوك ابقـي هنـا يـا إيڤـا. عـدد اللاجئيـن يـزداد»

ابتلعت ريقها بصعوبة. «اتفقنا»

«قلتِ إنّ لديكِ فكرة لتزوير الوثائق بشكل أسرع؟»

«أجل، بيْد أنّي لستُ أكيدة من نجاحها. فكرة خطرت على بالي البارحة. أتعرف عملية الطّباعة اليدويّة المُستخدمة في المدارس؟ تلك التي تصنع نسخًا من أوراق العمل للطلبة؟»

«أعتقد أنّي أعرفها. تلك التي بها لبادة أسطوانيّة ويحيط بها هُلام، أتعرفها؟ ثمّ يكتب المعلّمون على الهُلام؟ كيف تعمل؟ يجب أنْ تبدو المستندات مكتوبة بخط اليد».

«ستبدو مكتوبة بخط اليد، على عكس الأختام. الأختام هي أصعب جزء لإنتاجه، وتستهلك وقتًا أكبر لتجهيزها. إذا تمكّنت من تتبعها على اللبادة الأسطوانيّة، وتمكّنت من اختيار لون الحبر الصّحيح، سنتمكّن من طباعة خمسين ورقة في الوقت الواحد. سأستخدمها فيما سيملؤها رِمي يدويًا».

حدّق بيير كليمنت إليها. «أتعتقدين أنّ بإمكانك تقليد الأختام بدقّة بحيث تكون مقنعة؟»

أومأت إيڤا ببطء. «أعتقد. أتمنى».

«إيڤا، هذا مذهل. هلّا رافقتني إلى المتجر لشراء أدوات الطّباعة؟»

تردّدت. «ألن نثير الارتياب؟»

«لن يحدث هذا إذا كانت البائعة واحدة منّا». لمعت عيناه. «قالت مدام نورو أمورًا جيّدة عنكِ».

«مدام نورو؟»

«في المتجر. هل كنت لأقترب منك دون أنْ أتأكّد ممّن في القرية أوّلًا؟»

«المـرأة التـي أعطتنـي نسـخة مـن كتـاب الصّديـق الوسـيم؟» شـعرت إيڤـا بالتّيـه. «لكـن كيـف وثقـت بـي؟ تحدثنـا لدقيقـة فقـط».

«أجـل، لقـد رأت فيـك روحًـا متّقـدة، وكان تخمينهـا صائبًـا؛ مـن ناحيـة سـبب حاجتـك إلـى أقـلام الرّسـم. حيـن عـادت لرؤيتـي، قالـت إنّ كل مـن يعـرف سـحر الكتـب هـو شـخص صالـح»

«أيعني هذا أن كل من في هذه القرية جزء من عمليّة التّزوير؟»

ابتسـم. «لا. لكـنّ أهالـي قريتنـا نزيهـون. يعمـل كثيـر منّـا لخدمـة القضيّـة، وأكثرهـم سـعداء يتظاهـرون بعـدم وجـود حـرب. إذن فـي أثنـاء وجودك بأمـان أكبـر هنـا يـا إيڤـا، لا تخذلـي مـن يحميـك. هـلّا ذهبنـا الآن إلـى مـدام نـورو؟»

أومأت بالإيجاب. تبعته وهي تشعر بضيق يقبض على قلبها.

* * *

بعـد عشـر دقائـق، بعـد المشـي فـي دروب مهجـورة تعلوها شـرفات خشـبيّة، ودرابزيـن مزخرفـة بتفاصيـل، دخلـت إيڤـا خلـف الأب كليمنـت المتجـر. المتجـر خـالٍ إلّا مـن مـدام نـورو التـي كانـت ترتّـب دفاتـر الملاحظـات عنـد واجهـة المتجـر. رفعـت نظرهـا وابتسـمت مـع إغـلاق البـاب.

«آه، الأب كليمنـت. كنـت أتمنـى عودتـك. وأرى أنّـك أحضـرت صديقـة». ابتسـمت إيڤـا. «هـل تمكّنـتِ مـن قـراءة الصّديـق الوسـيم يـا عزيزتـي؟»

«مـع الأسـف لـم أقـرأه مـدام». أدركـت إيڤـا فجـأة أنّ هـذه أطـول مـدة تقضيهـا دون قـراءة كتـاب فـي حياتهـا، مـا بـث الحـزن فـي نفسـها. أمـر آخـر أبعدهـا الألمـان عنـه. «كنـت ... مشـغولة»

«آه أجل، هذا ما سمعته»

نظرت إيڤا إلى الأب كليمنت، لكنّه تجاهلها عمدًا.

«إذن ما الذي أحضركِ اليوم؟» سألت مدام نورو. «كتاب آخر ربّما؟»

«لا مدام، أشكرك. نود شراء آلة طباعة يدويّة. من النّوع الذي يستخدمه المعلّمون لنسخ أوراق العمل للتلاميذ»

قطّبت مدام نورو حاجبيّها. «أتحتاجين إلى نسخ أوراق؟»

«في الواقع، خطرت لإيڤا فكرة رائعة» قال الأب كليمنت بعد أنْ أبعد انتباهه عن الأقلام واقترب من إيڤا، ثمّ أضاف بهمس: «هل هناك طريقة أفضل لنسخ الأختام الرّسميّة؟»

فتحت مدام نورو فمها وأغلقته. «لكنّي اعتقدت أنّ رِمي يصنع الأختام من المطّاط».

«أومأ الأب كليمنت بالإيجاب. «لا يخفى عليك الوقت الطّويل المستغرق في صنعها، والعدد الكبير المطلوب منّه تقليدها. كان قد ذكر هذا لإيڤا في لقائهما الأوّل، وبعد تفكير مَلِي في الموضوع، فكّرت إيڤا بالآتي: تقليد الأختام باستخدام أسطوانة كهذه، سنحتاج إليها فقط لتتبع الأختام الحقيقيّة بيد واثقة ثابتة».

أومأت مدام نورو ببطء. «ومطابقة ألوان الحبر».

«وهو ما نتمنّى أن تساعدينا فيه أيضًا» ختم الأب كليمنت حديثه.

التفتت مدام نورو لتتأمّل إيڤا بضع ثوان، على وجهها علامات الإعجاب. «أعتقد أنّ الرّب قد أرسلكِ إلينا يا إيڤا».

خجلت إيڤا، وتوجّهت مدام نورو إلى آخر المتجر وهي تؤكّد وجود آلات طباعة يدويّة لديها هناك. وبإمكانها طلب المزيد من الهلام إذا احتاجوا. «لمَ أخبرتَها عن اسمي الحقيقي؟» همست للأب كليمنت.

تفاجأ الرّاهب. «أوّلًا، أخبرتها باسمك الأوّل فقط، ثمّ ألم يخبرك رِمي؟ لقد عثر في الجريدة الرّسميّة على هويّتَين لكِ ولها، وهويّتك تسمح لك بالاحتفاظ باسم إيڤا».

«لكنّه منحني هُويّة جديدة بالفعل: ماري شاربنتيير»

«هُويّة مؤقّتة. استخدمتِها في درانسي، ولا بدّ من أنّها موثّقة في السّجلات الرّسميّة، من الأفضل التّخلي عنها. أضيفي إلى هذا، أنت بحاجة إلى هويّة جديدة تربطك بوالدتك، بما أنّكما تقيمان معًا. وجد رِمي الأسرة الملائمة: امرأة روسيّة بيضاء جاءت عن طريق تركيا، وتزوّجت فرنسيًّا، وأنجبت ابنة اسمها إيڤا في عام 1920. حقيقة أنّ الأسرة روسيّة، ستساعد مدام باربيير على ادّعاء أنّ أمّك ابنة خالتها، ما سيعلّل سبب إقامتكما في النّزل. اسمك هو إيڤا مورو، وأمّك هي يلينا مورو».

حدّقت إيڤا فيه. «لا بدّ أنّ العثور على أسرة كهذه قد استغرق وقتًا طويلًا».

«أعتقد أنّه سهر الليلة الماضيّة. عرف حزنك على والدك، وأراد مساعدتك للشّعور بالرّاحة هنا. وجد أنّ استخدامك اسمك الحقيقي سيساعدك».

منعت إيڤا نفسها من البكاء. ظلمته - ولا يمكن لومها كليًّا على التّفكير بسوء في رجل يلاطف امرأة في ماخور يُموّنه النّازيون. «إنّه رجل جيّد، أليس كذلك؟»

«هو كذلك في الواقع يا إيڤا. هو كذلك».

عـادت مـدام نـورو حاملـة آلَتَـيْ طباعـة يدويّتيْـن باعتـزاز. «وجدتهمـا. سـأجلب لكم هلامًـا إضافيًـا لاحقًـا، لكن يمكنكم البـدء بهـذه الأدوات. لـدي بعـض الحبـر الملـوّن الخـاص خلـف الحاسـبة، وسـأطلب المزيـد».

«لا تطلبـي الكثيـر لكيـلا تثيـري الشّـكوك» حذّرهـا الأب كليمنـت، وهـو يأخـذ الطّابعتيْـن والحبـر منهـا بعـد أنْ وضعتهمـا فـي حقيبـة. أعطاهـا بضعـة دراهـم، قبلتهـا دون أنْ تعدّهـا.

وضعـت مـدام نـورو يدهـا علـى صدرهـا، «لمـاذا أيّهـا الأب كليمنـت، تتعامـل كأنّ هـذه المـرّة الأولـى التـي أقـوم بفعـل مـن هـذا القبيـل». غمـزت لإيڤـا. «لا تقلقـي. أعـرف تمـام المعرفـة كيفيـة أداء دور عاشـقة الكتـب. إنّـه أفضـل قنـاع».

ابتسـمت إيڤـا لهـا، ومـع اسـتدارتها هـي والأب كليمنـت للمغـادرة، نـادتهمـا مـدام نـورو مـرّة أخـرى.

«انتظري. إيڤا؟»

«نعم؟»

«شكرا لكِ. شكرًا لأنّك هنا. ستنقذين حيواتنا جميعًا».

ابتسـمت إيڤـا وقالـت وشـكرتها بالفرنسـيّة. لـم تسـتطع مقاومـة شـعور أنّهـا مخادعـة بعـد خروجهـا مـن المتجـر. فـي نهايـة المطـاف، لـم تكـن منقـذة إيمانًـا بالقضيّـة؛ إنّهـا هنـا لاقتسـام العبء مـع رِمـي، ثـمّ سـتغادر مـع أمّهـا إلـى سويسـرا وانتظـار تاتـوش.

«الأب كليمنـت؟» سـألت وهمـا يمشـيان بعجـل باتّجـاه الكنيسـة. « »هـل أسـتطيع أنْ أسـألك سـؤالًا؟»

«أكيد يا إيڤا» أجابها بعد أنْ أوقف المحادثة ليومئ للجزّار ذي الشّارب الذي كان يغلق محلّه، وليلوّح لبائعة الورد السّمينة التي تبادلت إيڤا معها تحيّة الصّباح وهي في طريقها إلى الكنيسة في المرة الأولى.

«من أين حصلت على المال لشراء الأدوات؟»

ابتسم. «نحن لا نعمل وحدنا هنا. فبالإضافة إلى إرسال الحاجات، يساعدنا تنظيم المقاومة السّرّي أحيانًا في التّمويل المالي. وبهذا الخصوص، إذا قررتِ البقاء هنا فسنخصّص دعمًا ماليًّا لكِ. ستعملين مقابل أجر».

«لست مضطرًّا...»

«سيُتاح لكِ دفع قيمة السّكن وشراء الطّعام» وغمز لها. «وبهذا الخصوص، سأتحصّل على بطاقتي تموين بلا بيانات لكِ ولوالدتكِ».

شعرت بالذّنب. المغادرة فعل فادح الآن. «أيمكن أنْ أسألك سؤالًا آخر؟ قلت إنّ الأطفال الذين سأزوّر مستنداتهم الرّسميّة بلا أهاليهم» أخذت نفسًا عميقًا. من الذي يحتفظ بأسمائهم الحقيقيّة؟»

تحيّر بعض الشّيء. «أسماؤهم الحقيقيّة؟»

«ليجتمعوا بأهاليهم بعد الحرب»

«أوه يا إيڤا. يجب أنْ تفهمي أنّ أهاليهم لن ينجوا»

«أعرف». أزاحت أفكارًا تتعلّق بوالدها عن مخيلتها وكلمات والدتها: من سيتذكرنا؟ من سيهتم؟ لكن لا بدّ من وجود طريقة أيّها الأب.. ماذا لو أنّ الأطفال الأصغر عمرًا لم يتذكروا ماضيهم عند انتهاء الحرب؟»

«في إرسالهم عبر الحدود مع أشياء تحمل هُويّاتهم الحقيقيّة خطر كبير». في عينيْه تعاطف. «آنا آسف».

«أيمكن... أيمكن أنْ تعرفي أسماءهم بأي حال من الأحوال؟»

«وما نفع هذا يا إيڤا؟» نبرة الأب كليمنت لطيفة.

«سأعرف من هم» قال بلطف. «من فضلك، يهمّني ألّا يطوي ذكراهم الزّمن».

تأمّلها للحظة. سأرى ما يمكنني فعله. «وشيء آخر يا إيڤا؟»

«نعم أيّها الأب؟»

«شكرًا لكِ. أظن مدام نورو مصيبة في مسألة أنّ الرّب قد أرسلك إلى هنا»

* * *

في ذلك المساء، مع أفول الضّوء من النّوافذ الملوّنة فوق رفوف المكتبة الصّغيرة، أنهت إيڤا ختم مجموعة وثائق حين جاء رِمي. كتفاها متصلّبتان من العمل المكتبي الشّاق، وأصابعها تؤلمها من تقليد الأختام بدقّة شديدة، وتعبئة البيانات، وإمضاء الأوراق. عيناها جافّتان، وحنجرتها تؤلمها. لم تتوقّف لشرب قطرة ماء منذ عودتها هي والأب كليمنت إلى الكنيسة هذا الصّباح.

احتاجت إلى ساعة كاملة لدراسة الأداة البدائيّة واختبارها، التي لم تستخدمها من قبل، وساعة أخرى لمحاكاة أوّل ختم ستستخدمه. فور غطسه في الهُلام، تمكّنت من دمغه على عشرين شهادة ميلاد خالية من البيانات في تتابع سريع. أمّا الختم الثّاني، فقد استغرق وقتًا أقل، ثمّ جاءت مسألة منح الأطفال أسماء

وتواريخ ميلاد جديدة، وإمضاء الوثائق بخربشة غير واضحة. خلال عملها، فكّرت في مصير أهالي هؤلاء الأطفال، ووالدها. ما عدد من لقوا حتفهم؟ توقّفت مرّات عدّة لتمسح دموعها لكيلا تفسد الحبر الذي على الأوراق الجديدة.

«حسناً؟» سألها رِمي وهو يدخل المكتبة، ويحمل صرّة صغيرة رائحتها شهيّة. «اشتريت قليلاً من الجبن والبطاطس لكِ. هل انتهيت من بعض الوثائق؟»

وضع الطّعام وكانت معدة إيڤا تُقرقر.

قاومت إيڤا الابتسام. «أوه، القليل».

«قولي ما تفكرين فيه. ما عددها؟»

حملت إيڤا مجموعة الوثائق. «واحد وعشرون ونيّف»

رمقها رِمي بنظرة أوّلًا، ثمّ إلى الأوراق التي في يدها. «في وضح النّهار؟ هذا مستحيل!»

«شاهد بنفسك». سلّمته الأوراق ثمّ أكلت وهي تستمتع بطعم البطاطس الحارّة الخارجة من الفرن».

تجاهلها رِمي وهو يطالع المستندات، ويمعن في الأوراق الأولى بدهشة، ثمّ يتصفح الأخرى بسرعة.

«لكن...» رفع نظره إلى الأعلى، وقال: «لا شائبة فيها. كيف أنجزتها بسرعة؟»

وضعت المتبقي من الجبن ونصف البطاطس في الصّرة؛ أرادت أخذها لأمّها. «لا أعرف فعلًا. كل ما هنالك أنّي أفضل من أن أكون مساعدة لك. أليس كذلك؟»

هذه المرّة، لم تخف ابتسامتها عندما وقفت وأخذت سترتها، وتوجّهت إلى الباب. كانت في منتصف الطّريق خارج الكنيسة حين سمعت وقع قدم خلفها. تقدّم رِمي إلى جانبها ومسك ذراعها. «انتظري» قال لها.

التفتت.

«أعتذر عن كلامي. من الواضح أنّك تتقنين ما تفعلين، خاصّة إذا تأمّلنا حقيقة عدم تدريبك».

«في الحقيقة، لقد تبعتني إلى باريس، أليس كذلك؟ إذن فنحن متعادلان».

«هلّا أريتني طريقة تنفيذها؟» قال بصوت خفيض. «يمكننا العمل معًا...»

قالت له: «بالتّأكيد. بشرط واحد».

«موافق...»

«أريد إعداد قائمة بأسماء الأطفال الذين نزوّر هُويّاتهم. ينتمون إلى عائلات، جميعهم».

«أخبرك الأب كليمنت حتمًا عن خطورة تدوين أسمائهم الحقيقيّة بالتّأكيد»

«إذن ساعدني على إيجاد طريقة» قالت له وهي تنظر إليه. «ندين بهذا لهم. ندين بهذا لآبائهم. أرجوك»

«ما سبب اهتمامك الشّديد بهذا الأمر؟»

أشاحت إيڤا بنظرها وفكّرت مرّة أخرى بيأس والدتها. إنّهم يمحون وجودنا، ونحن نساعدهم على ذلك. «لأنّ لا بد من وجود شخص يتذكّرهم. كيف سيعودون إلى منازلهم؟»

فتح رِمي فمه ثمّ أغلقه. «لا أعدك بأي شيء. لكن سأفكّر في الأمر».

«أشكرك» ابتسمت له. «وأشكرك على الطّعام. هلّا تأكدت من استلام الأب كليمنت الوثائق؟» ابتعدت وهي تشعر بعينيْه تتبعانها عند الغروب.

***

«أين كنتِ؟» لحقتها ماموشا وهي غاضبة حين دخلت إيڤا إلى الغرفة. معطفها جاهز وحقيبتا السّفر جاهزتان عند الباب.

«ما هذا يا ماموشا؟» توقّفت إيڤا عند عتبة الباب وحدّقت إليهما.

«قررت أنّنا سنعود إلى باريس» قالت ماموشا بصرامة. «لكن الآن علينا الانتظار حتّى الغد، بلا شك. تأخّرنا بما يكفي».

أبصرت إيڤا أمّها ثمّ الحقيبتيْن من جديد، فأغلقت الباب بلطف خلفها. «ماموشا، لا يمكننا العودة إلى باريس».

«يمكننا بالتأكيد!» تبرّمت والدتها. «فكّرت في الأمر كثيرًا. يجب أنْ نكون هناك حين يعود والدك. وإلّا كيف سيجدنا؟ لن يعثر علينا إذا ذهبنا إلى سويسرا. لا، باريس هي الحل الوحيد».

قالت إيڤا بلطف: «لكن ماموشا، لن يعود تاتوش».

«كيف تجرئين على قول شيء كهذا؟» ارتفع صوت ماموشا لصراخ. «سيعود دون أدنى شك! ترحيله خطأ، وفور إدراكهم الخطأ...»

«ماموشا» كرّرت إيڤا، بحزم أكبر هذه المرّة. «لم يكن خطأ».

«سيجد والدك طريقة لـ...»

«لا» قاطعتها إيڤا. «لن يعود. غادر».

«لا تعنين أنّ والدك قد مات؟» صرخت والدتها.

«لا» قالت إيڤا بسرعة، رغم أنّها تعلم في صميم قلبها أنّ هذا قد يكون صحيحًا. فكّرت في الأمر طوال النّهار، فكرة لم تفارقها في أثناء كتابتها للأسماء والأوراق وبضعة سطور أخرى. «لا. لا أقول هذا ماموشا. كل ما هنالك أنّه لن يعود الآن».

«أنتِ لا تعرفين هذا! لا يا إيڤا. سنعود إلى باريس وهذا قرار لا رجعة فيه»

«ماموشا، ما عادت باريس المدينة ذاتها التي نعرفها حين غادرناها. لا يمكننا العودة حتّى إلى شقّتنا»

«كلامك يخالف المنطق. لم لا؟ إنّها ملكنا!»

أخذت إيڤا نفسًا عميقًا. لم تخبرها بعد عن الجارة القديمة بعد؛ أرادت أنْ تجنّب أمّها الألم. لكن فات الأوان الآن. «لأنّ مدام فونتان سكنت فيها».

نظرت الأم إلى ابنتها بذهول. «محض هراء. آل فونتان لديهم شقتهم، في نهاية الرّواق».

«شقتنا أكبر وأجمل. لا شكّ في أنّ مدام فونتان أرادت شقتنا منذ بداية الحرب. وما الذي سيحدث برأيك إذا عدنا وطالبنا باستعادتها؟ ألا تعتقدين أنّها ستهاتف الشّرطة لاعتقالنا؟»

«تعيش في شقّتنا؟» تغيّرت ملامح ماموشا. «إذن أنسمح لها بأخذ الشّقة بكل بساطة؟ على الرّغم من عملنا الشّاق لندفع ثمنها لعقود؟ أن نهرب كالكلاب كما تحسبنا؟»

«لا أحبّها أكثر منك، لكن ليس لدينا خيار»

عضّت ماموشا شفتيّها بغضب. «نملك الخيار دائمًا، لكن يبدو أنّك قد تخلّيت عنه، وعن والدك».

«ماموشا، نحن لم نتخلّ عنه. نحن نحاول إنقاذ أرواحنا. هذا ما أراده»

«وكيف تعرفين؟» بكت أمّها. «لقد خذلناه يا إيڤا! ألا ترين هذا؟ سمحنا لهم بأخذه! سمحتِ لهم بأخذه! عرفتِ أنّهم قادمون ولم تفعلي شيئًا».

حاولت إيڤا التّماسك وتقبّلت العتب. كان عليها إقناع والدها بجهد أكبر للهروب. لا يمكنها الهروب من هذا الذّنب الجسيم في ذاكرتها.

«وماذا الآن؟» سألت أمّها. أسرعت الخطى، مؤكّدة كلامها بحركات يد قاسية. «تريدين الآن أن نبدأ حياتنا من جديد، أنْ ندعي أنّ باريس ليست وطننا؟ لمَ تسألينِ حتّى إذا ما أريده!» تلاشت كلماتها بين الدّموع.

قاومت إيڤا دموعها. «ماموشا، ليس لحياتنا السّابقة أثر».

عبست والدتها وتأمّلت ملامحها بصمت. «حسنًا. لنذهب إلى سويسرا. ألم يقل والدك هذا؟ سيلاقينا هناك حين يحل المشكلة»

أشاحت إيڤا بصرها حتّى لا ترى الوجع فيهما. هل تعتقدين ماموشا فعلًا أنّ تاتوش سيتفاوض مع ضبّاط المعسكر الألماني ليسافر؟ «أجل، سنذهب. لكن عليّ إنجاز بعض المهام أوّلًا».

نظرت ماموشا إلى ابنتها بلا تصديق. «بعض المهام؟ تقصدين التّزوير، كتلك الأكاذيب التي أخرجتنا من باريس دون والدك».

«ماموشا...»

«أكاذيب يا إيڤا، محض أكاذيب!» بصقت على إيڤا. «وأنت تردّدين الأكاذيب على نفسك! كيف يمكنك أنْ تكوني أنانيّة؟ لماذا يهمك البقاء هنا والعمل مع الغرباء أكثر من مصلحة أبيكِ؟»

«لأنّ بوسعي مساعدتهم! لأنّهم ليسوا مسألة مفقودة!»

ندمت على الكلمات بمجرد خروجها من فمها، لكن فات الأوان. احمرّ وجه ماموشا، تطاير الشّرر من عينيها، وعضت شفتيها. مشت إلى جانب إيڤا، ودفعتها وهي في طريقها إلى الباب.

«إلى أين ستذهبين؟» سألت إيڤا وأمّها تمشي إلى صالة الاستقبال. لم تجبها ماموشا، مشت وكادت تصطدم بمدام باربيير التي جاءت لتعرف سبب الصّراخ.

«أنا في غاية الأسف» قالت إيڤا لمدام باربيير وهي تلحق بأمّها.

وقفت مدام باربيير أمام إيڤا، أعاقت دربها. «دعيها. أنت تحاولين المضي قدمًا في حياتك، لكنّ أمّك لا ترى إلّا الماضي الآن. إنّها تتعذّب ولا يمكنها رؤية شيء غير الذي فقدته».

«لكن...»

«امنحيها وقتًا» قالت مدام باربيير بصوت مُطمئن كتهويدة. «سأبذل ما في وسعي للمساعدة. خلال هذا الوقت، خذي قسطًا من الرّاحة».

وأخيرًا، أومأت إيڤا بالإيجاب والتفتت نحو الغرفة. جسدها كلّه يؤلمها، ورأسها منهك، لكنّها تعرف أنّها لن تنام حتّى تعود أمّها.

الفصل الرّابع عشر

عادت ماموشا إلى الغرفة عند الرّابعة صباحًا، اندسّت في السّرير، حينها نامت إيڤا نومًا عميقًا وجسد والدتها الدّافئ يمنحها الرّاحة.

استيقظت إيڤا بعد ساعات، وقد تسلّلت أشعّة الشّمس إلى الغرفة رغم السّتارة المعتمة. التفتت إيڤا لتلقي نظرة إلى أمّها التي تنام نومًا عميقًا إلى جانبها، فشعرت بالحزن. الشّجار قد أنهك ماموشا، ولولاه لبدت كطفلة صغيرة. لعلّها كذلك بطريقة أخرى. كانت في الثّامنة عشرة من عمرها حين تزوّجت تاتوش. إنّها لا تعرف من هي دون وجود زوجها إلى جانبها. ارتدت إيڤا ثيابها بصمت وغادرت دون إيقاظها.

«هلّا اعتنيتِ بها اليوم؟» سألت مدام باربيير حين قابلتها في الرّواق.

«بحسب وجهتك. هل ستذهبين إلى الأب كليمنت؟»

تردّدت إيڤا وأومأت بالإيجاب.

«جيّد. إذن سأعتني بها» قالت بتأكيد. انتظري هنا لحظة»، ثمّ عادت وهي تحمل تفّاحة وقطعة جبن. رفعت إيڤا يدها لترفض أخذها، لكنّ معدتها التي تقرقر منعتها، فأصرّت الآنسة باربيير وهي تبتسم. «سأحتفظ بشيء منها لوالدتك، أيضًا. تحتاجان إلى الطّاقة».

شـوارع أورينيـون هادئـة مـع إسـراع إيڤـا إلـى كنيسـة القدّيـس ألبـان بعـد دقائق، وهـي ممسـكة بالطّعـام. لكن لـم تكـن هـادئـة تمامًـا؛ الهـواء النّقـي سـاكن، كأنّـه الهـدوء الـذي يسـبق العاصفـة، بـلا تغريـد للطّيـور. خلـف الكنيسـة، بـدا أنّ الجبـال بظلالهـا السّـاقطة علـى القريـة تنـذر بسـوء.

كان الأب كليمنـت يمسـح الممـر، رفـع نظـره فشـاهد إيڤـا وهـي تدخـل. «هـل أمّـك بخيـر يـا إيڤـا؟ شـاهدتُها فـي ميـدان القريـة أمـس. أخبريهـا بـأنّ الخـروج بعـد مغيـب الشّـمس خطـر. القريـة صغيـرة، وفـي القـرى الصّغيـرة، يتكلّـم النّـاس».

«سـأخبرها. وأعتقـد أنّهـا بخيـر». تـردّدت قليـلًا، ثـمّ قالـت: «مفطـورة القلـب، أعتقـد».

«كلّنـا كذلـك». ابتسـم بحـزن. «إيڤـا، أحضـر رِمـي لـي مجموعـة وثائـق الليلـة الماضيـة. عملـك لا يصـدق».

أخفت وجهها حتّى لا يرى خجلها. «أشكرك. هل ستساعدكم؟»

«سـاعدتنا بالفعـل. أحضـرت لـك المزيـد مـن الأدوات. ومـا دام لديـكِ اسـتعداد للبقـاء، سـنكون شـاكرين لـك مسـاعدتك». سـلّمها المفتـاح. «تفضّلـي. سـيدخلكِ إلـى المكتبـة. أنـتِ وأنـا ورِمـي نملـك نسـخة مـن المفتـاح».

مشـى مبتعـدًا عنهـا قبـل أنْ تتكلّـم. ابتسـم ابتسـامة بسـيطة قبـل أنْ تتوجّـه إلـى المكتبـة الصّغيـرة.

دخلَـت، وتفاجـأت مـن وجـود رِمـي جالسًـا إلـى الطّاولـة، منشـغلًا بأمـر مـا. شـاهدها وابتسـم حيـن دخلـت وأغلقـت البـاب خلفهـا.

«أحضـرتُ تفّاحـة وبعـض الجبـن هـلّا شـاركتني فـي تنـاول الطّعـام»

قالت لـه وهـي تخـرج الطّعـام مـن جيـب تنّورتهـا وتقـدّم لـه شيئًا منـه.

شـاهد الوجبـة الصّغيـرة. «لسـتِ بحاجـة إلـى تقديـم شـيء منهـا لـي».

«أعـرف هـذا». لكنّهـا ناولتـه الجبـن علـى أي حـال، وانتظـرت حتّـى أكل شيئًا منـه.

«شـكرًا لـكِ». أعـاد الجبنـة ورفـض تنـاول التّفاحـة. «كمـا تبيّـن، لـدي شـيء لـكِ أيضًـا» رفـع الكتـاب الـذي أمسـكت بـه حيـن رأتـه أوّل مـرّة، الرّسـائل والأناجيـل، المرشـد العتيـق [المكتـوب بالفرنسـيّة] والـذي يضـم المواعـظ الأسـبوعيّة منـذ عـام 1700.

قطّبت جبينها وهـي تأخذه منه. «أتسخر منّي؟»

ضحـك. «لا، بـل علـى العكـس. مـن فضلـكِ، افتحـي الصّفحـة الأولـى».

رمقته بنظرة شك. ضحك من جديد وأشار إلى الكتاب. «هيّا».

فتحـت الكتـاب علـى الصّفحـة الأولـى التـي أظهـرت بيانـات الكتـاب: العنـوان، والعنـوان الفرعـي، واسـم النّاشـر، وسـنة النّشـر. نظـرت إلـى رِمـي. «لكـن مـاذا...»

«لا، لا، استمرّي. للصّفحـة رقـم واحـد». قلّبـت الأوراق الثّمانيـن الأولـى تقريبًـا، الموسـومة بأرقـام رومانيّـة، ثـمّ وجـدت صفحـة رقـم واحـد. هنـاك نجمـة سـوداء صغيـرة علـى حـرف e فـي Le، متبوعـة بنقطـة علـى حـرف v فـي l'Avent علـى السّـطر ذاتـه.

رفعت إيڤا نظرها بتحيّر. «أتشوّه الكتب القديمة الآن؟»

ضحـك رِمـي. «لسـبب وجيـه، كمـا أعتقـد. تابعـي. الصّفحـة الثّانيـة».

في الصّفحة الثّانية، هناك نقطة على حرف a في car، ونقطة على t في perfécuteurs، لكن لم يضف شيئًا إلى الصّفحة الرّابعة. أمّا في الصّفحة الخامسة، فهناك نقطة علىr في alors، لكن في الصّفحة السّادسة، لم توجد علامة. «لا أفهم» قالت وهي تعيد الكتاب.

«هل سمعتِ بشيفرة فيبوناتشي من قبل؟» سألها رِمي.

«لا أعتقد هذا»

«أنا أحب الحساب. تبدأ شيفرة فيبوناتشي بالرقم واحد، ثمّ الرقم واحد من جديد. اجمعي هذين الرّقمين، سيكون النّاتج اثنين. حاصل جمع واحد واثنين هو ثلاثة. جمْع اثنين وثلاثة هو خمسة. جمْع ثلاثة وخمسة هو ثمانية، إلخ. إضافة الرّقمين السّابقين للحصول على الرّقم التّالي. هل فهمتِ؟»

حدّقت إيڤا إليه. «أفهم الحساب. لكن لا أفهم ما علاقة هذا بالكتاب الأثري».

«ركزي معي يا إيڤا. الآن، استمري في التّتابع، من فضلك.»

«رِمي...»

«ثقي بي»

تنهّدت، وهي تشعر بأنّها عادت إلى المرحلة الابتدائيّة، وتختبر اختبارًا مفاجئًا. «حسنًا. واحد، واحد، اثنان، ثلاثة، خمسة، ثمانية، ثلاثة عشر، واحد وعشرون، أربعة وثلاثون...» توقّفت.

كتب رِمي الأرقام التي قالتها، ثمّ ناولها الورقة. «الآن، اذهبي إلى كل صفحة وابحثي عن النّقاط. اكتبي على هذه الورقة كل حرف أسفل النّقطة».

عبست إيڤا، لكنّها نفّذت المطلوب. في الصّفحة الثّامنة، هناك نقطة على حرف a في apôtre. أمّا في الصّفحة الثّالثة عشرة، فكانت النّقطة علىu في suit. لم تفهم مغزى ما يحدث إلّا عندما وصلت إلى حرف b في كلمة considerable في الصّفحة الحادية والعشرين. «هل هذا اسمي؟»

«أحسنتِ. هذه طريقة لتوثيق هُويّتك الحقيقيّة حتّى لا يُمحى وجودك من التّاريخ».

نظرت إليه بذهول. «رِمي...»

«ليست مضمونة، أعتقد. لكن من سيقرأ كتابًا دينيًّا قديمًا ليبحث عن أسماء أطفال يهود مفقودين؟ ومن سيفكّر في فك شيفرة النّجوم والنّقاط بهذه الطّريقة؟ لكنّها طريقة سهلة. كل اسم سيبدأ بصفحة جديدة، وسنضيف بكل بساطة رقم الصّفحة إلى كل رقم في السّلسة. على سبيل المثال، سيبدأ الاسم الثّاني في الصّفة الثّانية، ثمّ إلى الصّفحة الثّالثة عوضًا عن الصّفحة الثّانية، والصّفحة الرابعة عوضًا عن الصّفحة الثّالثة، الصّفحة السّادسة عوضًا عن الصّفحة الخامسة، والصّفحة التّاسعة عوضًا عن الصّفحة الثّامنة، وهكذا. إذا وُجدت نقطة على الصّفحة، ستتابعين بنقطة جديدة، ما سيكوّن شيفرة أكثر صعوبة».

شعرت إيڤا بالدّوار. «لكن ماذا عن الأسماء الزّائفة التي منحناها للأطفال؟ كيف سنوثقها دون كشف هويّاتهم؟»

«بسيطة. فقط ابدئي بنهاية حرف الشّخص وفكّي شيفرة الأسماء الزّائفة بترتيب عكسي. لنبدأ باسمك مثالًا. ينتهي الكتاب بالصفحة ستمئة وثمان وثمانين، إذن فالرقم الأخير من

اسـمك الزّائـف هـو سـتمئة وعشـرة. سـنبدأ مـن هنـاك بمثلـث علـى حـرف e، ثـمّ علـى حـرفv فـي الصفحـة ثلاثمئـة وسـبع وسـبعين، ثـمّ a فـي الصفحـة مئتيْـن وثـلاث وثلاثيـن، سـنبدأ بعدهـا باسـم Moreau فـي الصّفحـة مئـة وأربـع وأربعيـن. وهكـذا حتّـى نكتـب الاسـم كلّـه، بالمقلـوب، فـي الصّفحـة ذاتهـا التـي كتبنـا فيهـا اسـمك الحقيقـي. وإذا انتهـت المسـاحة فـي كلا الاتّجاهيْـن –إذا كانـت الحـروف أكثـر مـن الصّفحـات– فـلا مشـكلة فـي هـذا. يجـب أنْ تكـون بدايـات الأسـماء كافيـة لتحفيـز ذكرياتنـا المتعلّقـة بتلـك الحـالات. أتريـن يـا إيڤـا؟ العمليّـة شـبه مثاليّـة».

ابتسم لها، وشعرت هي بانقطاع نفسها. «هل ابتدعتها الآن؟»

«سـهرت طـوال الليـل. أنـت علـى حـق يـا إيڤـا. لا يمكننـا محـو وجـود أطفـال لا يمكنهـم التّعبيـر عـن أنفسـهم. سـنحتفظ بقائمـة فيهـا أسـماؤهم».

«أنا... أنا لا أعرف ما يجب أن أقوله لك»

«قولـي مـا تريديـن: رِمـي أنـت عبقـري، أو رِمـي أنـت وسـيم تسـلب الألباب»

ضحكـت إيڤـا حتّـى دمعـت عينياهـا. «كلاهمـا. أضـف إليهمـا إنّـك بطـل. مميّـز. لكـن مـاذا لـو كان الأب كليمنـت علـى حق فـي مـا يخـص خطـورة الاحتفـاظ بسـجل كهـذا؟»

اسـتهجن رِمـي الفكـرة. «إنّـه علـى حـق. ولهـذا سـينجح النّظـام. لسـت متأكّـدًا. لـن يكتشـف أي شـخص الكتـاب، وإذا فعلـوا، فـلا معنـى للنّجـوم والنّقـاط والمثلّثـات. كمـا أنّنـا سـنبقيه فـي مرمـى نظرنـا علـى الـرّف؛ مـن ذا الـذي سـيفكّر فـي البحـث علـى أي حـال؟»

سكت.. «ستمتلئ الصّفحات بسرعة، سنبدأ إذن بالحبر الأسود، وإذا انتهت المساحة في الكتاب، سنبدأ من جديد بالحبر الأزرق». فتح الكتاب مرّة أخرى على الصّفحة الأولى وناوله بلطف لإيڤا... «لكنّنا لن نكتب أي اسم في الصّفحة الأولى. إنّها لكِ». نظرت إيڤا ورأت الحزن في وجهه.

التقت نظراتها نظراته ثمّ نظرت إلى الكتاب، خجلت. «لا أعرف كيف أشكرك يا رِمي».

«نعم. أنتِ مدينة لي إلى الأبد، طبعًا» عادت ابتسامته المواربة.

ابتسمت وأمسكت بقلم على الطّاولة.

ابتسمت، فتحت الصّفحة الثانية ورسمت نجمة صغيرة على حرف r في feront، ونقطة على é في étoit. في الصّفحة الثّالثة وضعت نقطة على m في Romains، وفي الصّفحة الرّابعة نقطة فوق حرف y في il y a. حين رفعت نظرها من جديد، كان رِمي يحدّق إليها.

«أكتبتِ اسمي؟»

«أجل. الصّفحة الثّانية لك»

***

استغرق إقناع الأب كليمنت بجدوى هذه الطّريقة ثلاثة أيّام، ووافق على مضض بعد أنْ هدّدت إيڤا بالتّوقف عن تزوير الوثائق، وقد تحدّاه رِمي بأخذ الكتاب ومحاولة فك الشّيفرة. أمضى الرّاهب يومًا ونصف اليوم وهو عاكف على فهم الشّيفرة، ثمّ أعاد الكتاب بتردّد.

«أنتما تعلمان أن هناك أطفالًا سيصلون بأسماء» قال محذرًا.

«إذن علينا بذل قصارى جهدنا لمعرفة هويّتهم قبل محو هُوياتهم» قال رِمي فورًا. «هذا مهم».

نظرت إيڤا له بذهول وشكر لأنّه وقف في صفّها.

تجعيدة جبين الأب كليمنت زادت. «أنتما تعلمان أنّ الرّب يعرف حقيقتهم دومًا».

«أكيد» قال رِمي باستهجان. «لكنّ الرّب مشغول بأمور أخرى الآن. هل في مساعدته ضير؟»

«لكن إذا عثر أي شخص على الأسماء...»

«لن يحدث هذا» قال رِمي بتأكيد. «من سيفكّر في هذا الكتاب القديم الممل؟»

عضّ الأب كليمنت على زاوية فمه. «أتجده مملًا؟» نص ديني قديم؟» أمسك الكتاب.

«ألا تعتقد هذا؟» ابتسم رِمي.

ضحك الأب كليمنت. «لا أعتقد أنّ عليّ الإجابة عن هذا السّؤال».

غادر رِمي بعد دقائق، وترك إيڤا وحدها مع الأب كليمنت في المكتبة الصّغيرة السّريّة. «أتعلمين يا إيڤا» قال الرّاهب وهو يضع الكتاب بينهما، «لم أكن أحاول محو أسماء هؤلاء الأطفال. أردت إنقاذهم فقط».

«أعرف» قالت بلطف. «لكن على أحدنا منع طمس حقيقتهم».

لمس كعب الكتاب أكثر من مرّة. «سعيدٌ بانضمامك إلينا يا إيڤا».

تذكّرت والدتها. «أعتقد أنّ عليّ المغادرة».

«تذكّري أنّ خطط الرّب لكِ قد تختلف عن خططك لنفسك».

أومأت إيڤا تأييدًا. أرادت تصديق أنّ القادم في حياتها أفضل، لكن كيف يكون ما يحدث من تخطيط الرّب؟ لكن ألم يرسل الرّب إيڤا إلى هذا المكان، إلى أورينيون، إلى الكنيسة؟ أرادت أنْ تسأل الأب كليمنت إن كان الرّب قد أدار ظهره لهم، لكنّها قد لا تتحمل الإجابة. سألته: «كيف بدأت مساعدة النّاس؟».

«أنا من باريس كما تعلمين. أمضيت في هذا المكان خمس سنوات منذ اندلاع الحرب، وسمعت فورًا من معارفي في المنطقة المحتلة عن الأهوال المنتظرة. لا توجد أهميّة استراتيجيّة لأورينيون؛ نحن في التّلال، في اللا مكان، ولهذا اقترحت على رفاقي القدامى الاختباء هنا».

«الاختباء؟»

ابتسم لها. «اعتدى أحدهم على جندي نازي في المحطّة، واعتقله الألمان. كان سيعدم مع أخيه الذي كان في موقع الحدث وليس له يد في ما حدث».

«ضرب صديق نازيًا؟ هل هو راهب أيضًا؟»

ضحك الأب كليمنت. «لا. زميل مدرسة قديم. ليس سيئ الأخلاق، لكن حين وصل هو وأخوه إلى هنا ذكّرتهما أنّه من الأفضل مقاومة العدو من تحت الطّاولة لا من فوقها.

«على أي حال، احتاج إلى الخروج من فرنسا قبل أنْ يقبض عليه الألمان» قال بابتسام. «جاء بأوراقه المزوّرة، وكل ما فعلته هو إيجاد شخص ينقله إلى الحدود السّويسريّة، مهمّة يسيرة جدًا. لكن قبل مغادرته بليلة واحدة، في جلسة أُنس، وقبل النّوم،

سألني إذا كان بإمكاني مساعدة رفاقه. قال إنّه يؤكّد لي أنّ رفاقه سيرسلون المدنيين إلى أورينيون إذا وفقت. توقّعت أنّي سأقابل مدنيًا أو اثنين فوافقت، وأنا شاكر لهم مساعدتهم.

«وحين علم رفاقه في باريس باستعدادي لمساعدتهم، فتحتُ أبواب الطّوفان. جاء رجل لهجته بريطانيّة في الأسبوع التّالي وطرح عليّ أسئلة كثيرة، ثمّ توافد اللاجئون. مواطنون أوّلًا، ثمّ يهود. إضافة إلى طيّارين أسقطت طائراتهم على الشّمال الفرنسي وكانوا يحاولون العودة إلى وطنهم. منهم من حاول توثيق علاقاتهم هنا، لمعرفة من يستحق الثّقة ويمكنه المساعدة. حين زاد عدد النّاس، أرسلوا رِمي إليّ».

«رِمي؟»

أومأ الأب كليمنت بالإيجاب. كان عضوًا في مجموعة مقاومة في باريس، طوّر مهاراته في التّزوير، ولكنْ، هناك آخرون أسرع وأفضل، وكما تعرفين لديه مشكلة في عزّة النّفس، لعلّه تباهى فيما يفعل أمام الأشخاص الخطأ. لكنّ المجموعة لم ترغب في خسارة شخص مثله، فأرسلوه إلى هنا».

«عقابًا له تقصد؟»

«أفضّل اعتبارها فرصة» قال الأب كليمنت بابتسامة. «كما يفعل رِمي، أتمنّى. أن يعتبرها كذلك. على أي حال، خسارتهم مكسبٌ لنا. حتّى لو تظاهرت بالعكس، إنّه موهوب ومخلص. ورغم تكوين جماعة مقاومة هنا، رِمي هو الشّخص الوحيد الذي أستأمنه على حياتي».

فتحت إيفا فمها لتسأله عن السّبب، لكنّها أدركت السّبب.

عرفت رِمي مدة قصيرة فقط، ومع ذلك جاء إلى باريس لينقذها ويُبرهن لها صدقه. متهوّر، لكنّه فور وثوقه بالطّرف الآخر يصبح أوفى الأوفياء.

«كما قلت، رِمي أحد الأخيار» قال الأب كليمنت، «وأنتِ منهم أيضًا. التّمسّك بالمبادئ في خضم الحرب قد يكون خطرًا، لكنّي أعتقد أنّ العكس أسوأ».

«ماذا تقصد؟»

بدا أنّه يبحث عن كلمات. «أعني أنّي أفضّل الموت وأنا أحاول، عوضًا عن العيش بتخاذل. هل تفهمين؟»

سرت رعشة في جسد إيفا. لم يقل ذلك صراحة، لكن باغتها شعورٌ أنّها تريد أنْ تسأله إذا شعر بذات الأمر. لكن هل حدث هذا؟ أتستحق هذه القضيّة المغامرة بحياتها لأجلها؟ ولو كانت كذلك، هل ستندم إذا اكتشفت أنّها تواجه بندقية جندي نازي يومًا؟ هل في تحالفها مع شبه غريب خطأ أمْ أنّ هذا قدرها؟ في النّهاية ما احتمال وصولها إلى قلب حركة مقاومة تساعد على الهروب وتحتاج إلى مُزوّرة؟

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت إلى الكتاب القديم الذي أمامها، الكتاب الذي يكتنف الأسرار وربما يعيد بعث الحيوات. «أفهم.. أفهم وأعتقد أنّي في المكان الذي يجب أنْ أكون فيه».

الفصل الخامس عشر

مايو 2005

أنا تمامًا في المكان الذي يجب أنْ أكون فيه. كرّرت هذه الكلمات التي قلتها للأب كليمنت قبل ستّة عقود، وما زالت تُهيمن علي. كلماته التي اعتقدت أنّ بإمكاني طيّها مع الماضي.

قبل ثلاثة وستين عامًا، في خضم الحرب، اخترت البقاء في أورينيون. اختيار غيّر حياتي إلى الأبد. والآن، ها أنا، جالسة أمام بوابّة مطار أورلاندو الدّولي، وأنتظر رجوع حياتي إلى الماضي. الحياة محض اختيارات، غمضة عين تقلب الأحوال.

لم يفت الأوان لتغيير رأيي هذه المرّة. يمكنني العودة إلى منزلي. يمكنني التّخلي عن الماضي، وترك الأشباح تنام، ومهاتفة ابني بِن لأخبره بأنّي مسافرة إلى برلين. أبسط ما يمكنني فعله، والرّب يعلم أنّي اخترت الدّرب الأيسر في كثير من الأحيان في السّنوات التي تلت مغادرتي فرنسا.

حين اخترت المستقبل مع لويس، وركوب باخرة متوجّهة إلى أمريكا، والعمل بجد لفقدان لكنتي الفرنسيّة، وبذل ما في وسعي للاندماج، اعتقدت أنّ ترك الماضي سهل نسبيًا. في النّهاية، ألم أصبح سيّدة تغيير الهُويّات حينها؟ يفصل بيني وبين أورينيون محيط كامل، ولم أعد أذكر المدّة التي مضت على موت رِمي؛ في البداية كانت بالأشهر، ثمّ بالأعوام، ثمّ بالعقود. كان من المفترض أن تصبح الأمور أسهل بالنسيان، ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان..

في أثناء مسحي دموعي، انتبهت إلى طفل، لعلّه في الثّالثة أو الرّابعة من عمره، يجلس على الأرض، ويخربش في دفتر رسم عند قدميّ والدته على بعد ثلاثة مقاعد منّي. شعره مجعّد بلون بني، كشعر بِن في طفولته. نظر إليّ وابتسم، فرح قلبي، لثانية واحدة نسيت الزّمن، ورأيت ابني بعمر الطّفل. لا بدّ أنّي قد حدّقت وقتًا طويلًا، لأنّ الطّفل تحيّر ثمّ قطّب حاجبيه وبكى.

تنظر أمّه فوق المجلّة، وتقول: «جي حبيبي، ماذا حدث؟»

«تلك السّيدة» ويشير إليّ. «كانت تسخر منّي».

أنظر إلى الأم بفزع. «أنا آسفة. لم أقصد...»

«لا لا. إنّه منزعج لأنّي رفضت شراء الحلوى له» تقول الأم بسرعة. «جي، حبيبي، تصرف بتهذيب». تبتسم وتعتذر وألاحظ إنهاكها. أتذكر شعورًا كهذا مع بِن في سنواته الأولى أيضًا، وتساءلت إن كنت سأعود إلى طبيعتي مرّة أخرى. لكن ها أنا هنا، بعد انصرام العقود، لا أعرف ما يجب أنْ أشعر به. من أنا، على أي حال؟ الطّالبة؟ المزوّرة؟ الزّوجة الوفيّة التي لا ماضيَ لها؟ أم أمينة المكتبة المنهكة التي يجب أن تنتبه إذا ما كتب أحدهم على جدران المكتبة ثمّ عليها التّقاعد؟ لعلّي لست من هؤلاء الأشخاص، ولعلّي منهم كليًا.

أُبعد التّساؤلات العقيمة من رأسي وأجبِر نفسي على الابتسام. «إنّه يذكرني بابني». بعد ازدياد تجعيدة جبين المرأة، أوضّح: «في الواقع، ابني بِن في الثّانية والخمسين الآن، كان يشبه ابنك في صغره».

«آه» تومئ المرأة وتمشّط شعر ابنها بأصابعها. عاد انتباهه للتلوين، واستبدل القلم الشّمعي الأحمر بالأزرق الفاتح ليلوّن بقرة تذكرني بإحدى شخصيات البقرات الثّلاث في (كلِك، كلاك، كلوك)؛ كتاب تلوين أوصيت به لأصحاب مكتبة منذ خمس سنوات. هناك أمرٌ ساحر في مشاهدة طفل منجذب لكتاب أثار انتباهه. آمنت بأنّ أولئك الأطفال -الذين يجدون سحرًا في الكتب- سيحظون بأروع حيوات.

«أيحب الكتب؟» سألتها بعجل. «ابنك؟» سألتها وأنا أتمنّى أنّه يحبها فعلًا.

تنظر إليّ المرأة من جديد، لكن في ملامحها حذر أكثر الآن. تقول ببطء: «أقرأ له أغلب الليالي. إنّه أصغر من أنْ يقرأ بنفسه»، كأنّي لم أفهم أنّه لم يدخل المدرسة بعد.

«مفهوم. أنا أمينة مكتبة» أقول لها، فتنبسط ملامحها. «أقصد، من الرّائع أنْ يحب الأطفال الكتب. الكتب تُغيّر العالم، أعتقد».

تومئ المرأة بالإيجاب، وتعود إلى مجلتها، وتنجح في إنهاء الحديث. أنظر إلى ساعتي؛ خمس دقائق حتّى صعود الطّائرة. خارج النّافذة طائرة تلمع على الإسفلت عصرًا.

أهزّ رجلي، أحرك كتفَي، وأحاول إراحة أعصابي. كأني سمكة قد خرجت من الماء، سمكة ليس لديها فكرة عن كيفيّة السّباحة إلى مقصدها.

أنظر إلى الطفل من جديد. ارتكبت أخطاء كثيرة مع بِن في صغره، أخطاء يستحيل العدول عنها، لأنّها باتت جزءًا لا يتجزّأ من شخصيّته. أتمنى مستقبلًا أفضل لهذا الطّفل، لكن تكمن

المشكلة في أنّ الآباء يرتكبون كل أنواع الأخطاء، لأنّ قدرتهم على تربية أبنائهم تتأثّر بحيواتهم التي عاشوها قبل الإنجاب.

أشعر بوخز الضّمير. لا يمكنني المغادرة دون إعلام ابني، حتى وإن لم ير حقيقتي مطلقًا. هذا خطئي، وليس خطأه. أخرج هاتفي النّقال من حقيبتي، وأهاتفه. آخذ نفسًا عميقًا. يرن الهاتف مرّتين، ثمّ أسمع رنّة أعقبها تسجيل لصوته. أعبس. لقد أرسلني إلى بريده الصّوتي.

أتردّد قبل الإغلاق. هذا أفضل. ماذا لو كلّمني عن الأمر؟ ماذا لو أصر أنْ أعود إلى المنزل؟ هل سأنفذ ما يقول؟ هل سأتخلّى عن ماضيَّ مرّة أخرى؟ متجاهلة ترنيمة أورينيون الصّامتة؟ لربما كنت سأفعل هذا، وكنت سأندم إلى الأبد.

يتردّد صوت من مكبّر الأصوات. «فليصعد ركّاب طيران دلتا 2634، المتوجهة إلى مطار نيويورك JFK من البوّابة 76». تزداد سرعة دقّات قلبي في أثناء وقوفي. بدأ الرّكاب من حولي الاصطفاف، عليّ الوقوف لحجز أفضل مكان في الطّابور، لكنّي متردّدة. ها أنا هنا. إذا صعدت على متن هذه الرّحلة، فلا مجال للعودة. علاقتي بنيويورك قصيرة، ولن أفكّر في العودة إذا وصلت إلى بوّابة برلين.

«مدام، أتحتاجين إلى مساعدة إضافيّة؟» تقول موظّفة طيران دلتا بعينيْ شابة في العشرينيّات من عمرها. «ربما تحتاجين إلى كرسي بعجلات؟»

«لا، أشكركِ، يمكنني الاعتناء بنفسي يا عزيزتي» أقول لها بتصنّع، وأنا أعلم أنّ سبب انزعاجي منها هو ابني والشّباب في

كل مكان، وليس منها فقط. «لم أقترب من القبر بعد».

يهتز هاتفي مع استهجان الموظّفة وابتعادها. أبحث عنه في حقيبتي، وأجد اسم ابني على شاشة الهاتف. أتردّد. تدور إصبعي على الشّاشة. ثمّ، قبل الرّد عليه، أنهي الاتصال وأغلق الهاتف.

يستحيل أنْ أدير ظهري للماضي بعد الآن. آخذ مكاني في الطّابور المتوجّه إلى الطائرة، حان الوقت.

الفصل السّادس عشر

نوفمبر 1942

مع انتهاء سقوط أوراق الأشجار في نوفمبر، احتلّ الإيطاليّون والألمان المنطقة الحرّة، وأصبحت فرنسا كلها تحت تحكّم دول المحور. الآن، لم يعد الجنوب أكثر أمنًا من باريس بالنّسبة إلى اللاجئين، وهذا يعني أنّ للواصلين إلى أورينيون وقتًا أقل لعبور الحدود السّويسريّة. أعدادهم الآن أكثر من ذي قبل، وهذه معضلة.

في أغسطس، أغلقت الحدود السّويسريّة حدودها، ثمّ فتحتها من جديد قبل أنْ تغلقها رسميًا في كل الأحوال في السّادس والعشرين من شهر سبتمبر. تستقبل سويسرا في الوقت الحالي: كبار السّن، والحوامل، والمرضى، والأيتام، والأسر التي لا يتجاوز أعمار أطفالها السّادسة عشرة. تشديد على عبور الحدود. الانتقال إلى الحدود يستوجب سفر اللاجئين عبر فرنسا التي يزداد خطر السفر فيها.

توسّلت ماموشا إلى ابنتها أنْ تعيد التّفكير، لكنّ إيڤا كانت قرّرت البقاء في أورينيون أشهرًا إضافيّة على الأقل لمساعدة الأب كليمنت، فبقيت ماموشا على مضض معها، قرار أصبح دون قصد دائمًا بسبب إغلاق الحدود. الآن، حتّى وثائقهما التي لا شائبة فيها؛ امرأة عشرينيّة ووالدتها الأربعينيّة صعب عبورهما إلى سويسرا. هذا يعني أنّهما عالقتان ولا مفر.

«كيف سنصل إلى والدك الآن؟ تأوّهت ماموشا في إحدى الليالي بعد أنْ قرأت أذكار الليل، وهما في السرير متجاورتان في سرير النّزل الصّغير. «ما الذي فعلته بنا يا إيڤا؟». كلمات أبكت الابنة وحرمتها من النّوم لعذاب الضّمير. ومع ذلك، لا يمكنها تجاهل العمل الذي صار أكثر حتميّة.

أمضت إيڤا ورِمي معظم الأيّام برفقة بعضهما، يعملان بأقصى سرعة، لكنّهما عجزا عن تلبية الطّلبات المتزايدة. لم يعد اليهود هم من يحتاجون إلى المستندات فقط. على الأقل مرّة واحدة شهريًا، تستقبل مجموعتهم طيّارًا جريحًا، من بريطانيا غالبًا أو من كندا، أو الولايات المتّحدة، بالكاد يتكلّم الفرنسيّة. ويستقبلون أشخاصًا أكثر يعملون في المقاومة، لكنّهم وجدوا أنفسهم في حاجة ماسّة إلى ثبوتيّات مزوّرة تجنّبًا للخدمة الإجباريّة التي تستلزم رجالًا بين الثّامنة عشرة والخمسين، والعازبات تحت الخامسة والثّلاثين للعمل إجباريًا في ألمانيا. بالنّسبة إلى الرّجال تحت الخامسة والعشرين، كان الأمر أشبه بشراء عام أو عاميْن من خلال تزوير أوراق تثبت أنّهم أقل من الثّامنة عشرة، لكن بالنّسبة إلى الرجال الذين تبدو أشكالهم أكبر من المراهقة، فالأمر أصعب؛ يجب تزوير مستندات تثبت أنّهم مزارعون، وطلبة، أو أطبّاء تعفيهم من التّرحيل شرقًا. النّساء أسهل؛ لم يستدعيْن عادةً، لكن في حال حدوث هذا، فعليهن إيجاد أزواج والحصول على أوراق مزوّرة بدقّة.

لكن الأوراق المزوّرة الأكثر إتقانًا هي التي خصّصوها للأطفال. كتاب الأسماء الخاص بها يكبر يومًا بعد يوم.

«أشكرك» قالت إيڤا لرِمي في أحد الأيّام وهما يعملان متجاورين على مجموعة أيْتام جديدة وصلوا في الأسبوع ذاته من أورينيون، حيث اعتقل خمسمئة يهودي. انشغلت إيڤا في تزوير شهادات الميلاد لطفلة في الثّالثة من عمرها كانت قد ولدت بعد غزو ألمانيا لبولندا؛ لم تنعم بالسّلام بعد الحرب.

جلس رِمي بقرب شديد من إيڤا لدرجة تلامس مرفقيْهما، رغم وجود مساحة على الطّاولة. وجدت نفسها في الآونة الأخيرة وهي تقاوم رغبة الاقتراب منه، وبدا أنّه يفعل الأمر ذاته. أصبحا لا يفترقان عن بعضهما بصريًا. هو فكرتها الأولى في الصّباح، وآخر فكرة في المساء قبل أنْ تنام. حذّرتها ماموشا منه «لا تقضِ وقتًا طويلًا مع شاب بمفردكما، شخص غير يهودي على شاكلته!» لكنّ إيڤا تثق به أكثر ممّا تثق بأي شخص آخر في حياتها.

«تشكرينني على ماذا؟» سأل رِمي، وهو يرفع عينيْه من مجموعة بطاقات تموين كان يزيل بياناتها بحمض اللاكتيك. تشبّعت الغرفة برائحة الحموضة، لكنّ إيڤا ما عادت تلاحظها.

«على ثقتك بي». بدت كلماتها غبيّة.

التفت إليها، بقرب شديد لدرجة أنّها شاهدت أجزاء خضراء في عينيْه العسليّتيْن. «مؤكّد أنّي أثق بكِ» قال متحيّرًا.

أعني فيما يخص كتاب الأسماء المفقودة. عن سبب حاجتنا إلى توثيق أسماء الأطفال الحقيقيّة قبل طمس هُويّاتهم الحقيقيّة».

عبس ونظر إلى شهادة الميلاد التي تمسكها. حينها فقط لاحظت ارتعاش جسدها. «كتاب الأسماء المفقودة؟» وضع رِمي يديْه بلطف على يديْها، ثمّ توقّف حتّى توقفت الورقة عن الارتعاش.

«إيڤا، حقيقة أنّ للموضوع أهميّة بالنّسبة إليكِ...» توقّف كأنّه يريد النّظر إلى أعماقها. «تحكي الكثير عن شخصيّتك. وأنا سعيد لأنّي شريكك في كل هذا».

أبعد يديْه عنها، زفرت، لكنّ دقات قلبها تتسارع، كأنّ كلّ ذرات الأوكسجين قد اختفت من الغرفة. شهقت شهيقًا عميقًا، لكنّها غصّت برائحة المواد الكيميائيّة في الجو، فسعلت سعالًا شديدًا لدرجة أنّها انحنت إلى الأمام. ربّت رِمي ظهرها، وحين توقّف السّعال فردت ظهرها، ظلّ يراقبها وإبهامه يتحرّك بدوائر صغيرة لطيفة على عمودها الفقري.

قشعريرة سرت في جسدها حين التقت عيناها عينيْه مرّة أخرى.

«إيڤا...» قال بصوت خفيض ومبحوح.

بدت الغرفة فجأة صغيرة المساحة، شديدة الدّفء، فتراجعت. لم يعد بإمكانها إشاحة النّظر وهو يحدّق إليها. «ما الأ.. مر؟» تلعثمت وقلبها ينبض بقوّة.

واصل التّحديق إلى عينيْها بطريقة أشعرتها بأنّه يحدّق إلى روحها. «من المهم أنْ تفهمي أنّنا لا نسلب من الأطفال حقيقتهم. النّازيّون هم من يفعلون هذا. نحن نمنحهم الفرصة ليعيشوا. لا تنسي هذا».

رمشت. «لكنّ تغيير هُويّاتهم...».

«نحن لا نغيّر حقيقتهم». لمس يدها مرّة أخرى، وحين تركها، منعت نفسها من الاقتراب منه فورًا. «أنت وأنا غيّرنا أسماءنا أيضًا، وهذا لا يعني أنّنا غيّرنا حقيقتنا». لمسها بلطف، أسفل

عظمة التّرقوة تمامًا، وفوق قلبها، فتسارعت دقّات قلبها. «إنّها لا تغير مشاعرنا».

أجابته إيڤا: «ما عدت الفتاة ذاتها. هجرت باريس قبل أربعة أشهر، وأتساءل أحيانًا إن كنت سأتعرف على شخصيّتي السّابقة». تردّدت قليلًا، ثمّ قالت: «هل سأتغير كثيرًا بالنّسبة إلى والدي إذا عاد؟».

«إيڤا» قال وهو يرمقها بنظراته. «ما زلتِ كما أنتِ. كل ما هنالك أنّك قد عثرتِ على القوّة المُستقرّة في أعماق روحك والموجودة فيكِ مذ ولدتِ». تردّد ثمّ اقترب لدرجة أنّها شعرت بحرارة جسده. «أعتقد أنّك متفرّدة» مال إليها، وللحظة، لم تفكّر إلّا في القبلة المثاليّة التي جمعتهما على القطار، تلك القبلة التي كانت غايتها خداع العدو. ثمّ، فجأة، تراجع، وسعل. «أحتاج إلى الهواء النّقي».

خرج ثمّ عادت إلى طبيعتها، وحين عاد بعد نصف ساعة، عملا بصمت شديد، متقابليْن.

في تلك الليلة، حدّقت والدتها إليها وهما تأكلان حساء البطاطا باللحم على مائدة النّزل. غادرت مدام باربيير وقد تركتهما وحيدتيْن لأوّل مرّة منذ أسابيع.

«عرفت أنّك تعملين في الكنيسة» قالت ماموشا لتكسر حاجز الصّمت بينها وبين ابنتها. «الكنيسة الكاثوليكيّة."

رفعت إيڤا نظرها، وهي تشعر بالذّنب. «حسنًا. أجل. إنّها فكرة الأب. كليمنت». تحضر إيڤا القداس كلّ أحد منذ شهريْن بغرض الاندماج. ادّعت مدام باربيير لكل من استمع إلى لكنة

ابنة خالها الرّوسيّة أنّها هنا لأنّها فقدت زوجها، وأنّ ابنة خالها تنظّف الكنيسة يوميًا للحصول على الأجر. سيتساءل النّاس إذا لم يروها تتعبّد.

«إنّه يحاول تنصيرك يا إيڤا، وأنت تطيعينه طاعة عمياء».

هزّت إيڤا رأسها نافية. «ماموشا، ليس هذا ما يحدث. إنّه مجرّد تمويه. سأقع في مأزق إذا عرف أهل المدينة أنّني يهوديّة، كلانا سيقع في مأزق».

انزعجت أمّها. «غسل الرّاهب دماغك إذن، تمامًا كما تغسلين أدمغة هؤلاء الأطفال الذي تدعين أنّك تساعدينهم».

«ماذا تقصدين؟»

«تعطينهم أسماء نصرانيّة، ألا تفعلين؟ وترسلينهم إلى منازل مسيحيين حيث سينسون من هم؟ ثمّ تركعين أمام الصّليب كلّ أحد وتصلّين. لا أعرف من أنتِ يا إيڤا. لستِ من رَبّيْتها حتمًا».

دهشت إيڤا. «ماموشا، ظنّك خطأ».

«ليس كذلك؟ ما عدت تصلين (صلاة شيما) معي»

«لا أعود في الوقت المناسب عادة». الحقيقة هي أنّ والديْها قد علّماها تلاوة الصّلاة قبل النّوم لحمايتها من أشباح الظّلام. لكنّ والدها كان يتلوها يوميًا في حياته، وفي ليلة هادئة من ليالي شهر يوليو جاءته الأشباح على أي حال.

«تختلقين الذّرائع يا إيڤا. أنتِ يهوديّة، مثلي، مثل والدك، وبتغاضيكِ عن هذه الحقيقة، بذهابك إلى الكنيسة، تثبتين تغيّرك»

اغرورقت عينا إيڤا بالدّموع، فلم تجب فورًا. أرادت نفي الاتهامات، لكنْ ماذا لو أنّ أمّها على حق؟ كانت شديدة الحذر

مثل والديْها، لكن مع هذا، كانت تطمس ذاتها كما تطمس أسماء الأطفال الذين انتحبت عليهم قبل وصول رِمي كلّ صباح؟ «لن أنسى يا ماموشا» قالت بهمس.

ماذا لو أنّها نسيت بالفعل؟

* * *

مع حلول ديسمبر، غطّى الثّلج أورينيون، وازدادت عزلة ماموشا. بدأ عيد (الحانوكة) في الثّالث من ديسمبر، لكنّ ماموشا رفضت كرم مدام باربيير بالشّموع، وقالت بحزم أنّها لن تحتفل هذا العام لغياب زوجها. «إنّه عيد للشكر» قالت في اليوم الأوّل، فجلست هي وإيڤا في الظّلام، أسفل مجموعة بطّانيّات بسبب البرد الشّديد. «وما الذي نملكه لنكون من الشّاكرين؟ أضيفي إلى هذا أنّ الشّمعدان يجب أنْ يوضع عند النّافذة لنري العالم أنّنا نفخر بديننا. لكنّنا هنا، نخفي عن الجميع هويّتنا. لا يا إيڤا لن نشعل الشّموع هنا لنحتفل بمعجزة، لن نفعل هذه السّنة».

آلمتها الحسرة المتزايدة في قلب والدتها؛ لأنّها شعرت بأنّ المرأة التي عرفتها وعاشت معها تذوي. في الوقت الذي كانت فيه تزداد حيوية ورونقا، كان قلب والدتها يتحول إلى حجر بلا مشاعر. قالت: «في الواقع، أنا ممتنة لأجل شيء واحد؛ نحن على قيد الحياة ونتمتع بصحة جيّدة، ممتنة لأنّنا معًا».

قالت ماموشا بعد صمت طويل. «تفكيرك كلّه مع ذلك الشّاب الكاثوليكي مؤخّرًا».

سعلت إيڤا. «من؟»

«تعرفين من أقصد؛ رِمي. ذاك الذي تحمر وجنتاكِ كلّما نطقتِ اسمه. ذاك الذي تتكلّمين عنه عند تناول طعام العشاء كثيرًا لدرجة أنّي بدأت أتساءل إذا كان هو سبب بقائك الحقيقي في الكنيسة طوال اليوم».

لدغتها كلمات أمّها، لا لأنّها تحاول تجاهل مشاعرها، بل لأنّها أدركت أنّها تتكلم عنه كثيرًا. «ماموشا، إنّه مجرّد زميل عمل».

«أتعتقدين أنّي لا ألاحظ يا إيڤا؟ طريقة مشيك كأنّ لديك سرًّا؟ أتعتقدين أنّي لا أعرف العشق؟ يجب أنْ تشعري بالعار. والدك في السّجن، وأنت تتصرفين كمراهقة عاشقة».

«ماموشا، لا شيء بيننا». بيّد أنّ الحقيقة هي أنّها كلّما أمضت وقتًا معه، أحبّته أكثر. إنّه صالح ولطيف ونزيه، وكان يخاطر بحياته لإنقاذ أشخاص مثلها. كيف يكون حبّها خطأ؟ لم تُغرم من قبل، لكنّها تساءلت إن كان شعورها عشقًا في بادئ الأمر؛ رغبة في الاستمتاع قدر الإمكان برفقة الآخر، حتّى لو عنى هذا قذف المنطق في الرّيح. لعلّ أمّها على حق، في نهاية المطاف. «أنا... أنا آسفة» أضافت بوهن. «ماموشا؟»

لم تجبها. أدارت أمّها ظهرها، وابتعدت عن إيڤا التي حدّقت إلى السّقف، وحاولت تجنّب البكاء، حتّى تمكّن منها الإعياء.

كان الطّقس مثلجًا الصّباح في اليوم التّالي لحانوكة. حين وصلت إيڤا إلى الكنيسة، تسلّلت إلى الدّاخل ووصلّت عند المدخل كعادتها، في حال لو كان أحد يراقبها. أصبح من عادتها أن تركع على أحد المقاعد لدقيقة أو دقيقتيّن قبل الدخول إلى المكتبة، لضمان عدم وجود أي شخص آخر في المحيط. في بعض

الأحيـان تجـد فـي الكنيسـة شـخصًا يسبّح أو يحـدّق إلـى الصّليـب وهـو جالـس علـى ركبتيْـه، فتدّعـي إيڤـا الصّـلاة أيضًـا حتّـى يذهـل. مؤخّـرًا، وجدت إيڤـا أنّ الكنيسـة مـكان مثالـيّ للحديث. بصمت مـع الـرّب. أكانت تخـون اليهـود إذا وجـدت الـرّب فـي كنيسـة كاثوليكيّـة؟ تسـاءلت إذا كان والدهـا يكلّمـه فـي مـكان آخـر أيضًـا، خلـف أسـوار شـائكة فـي مـكان معـزول.

الكنيسـة خاليـة اليـوم. ركعـت إيڤـا للصـلاة، فكّـرت فـي كلمـات والدتهـا التـي قالتهـا قبـل يوم واحـد. جل تفكيـرك محصـورٌ فـي ذلـك الكاثوليكـي مؤخّـرًا. هـل ماموشـا علـى حق؟ هـل هجـرت إيڤـا أمّهـا تدريجيًـا وازداد تعلّقهـا برِمـي؟

«أتوسـل إليـك يـا رب، سـاعدني علـى فعـل الشّـيء الصّحيـح» همسـت إيڤـا قبـل أنْ تقـف وتوجّهـت إلـى المكتبـة. فـي طريقهـا إلـى المذبـح، ظهـر الأب كليمنـت وحيّاهـا، ملامحـه جـادّة. أومـأت، انتابهـا شـعور سـيئ حيـن لحقهـا وهـو يعـرج إلـى الغرفـة السّـرية الصّغيـرة.

«نواجه مشكلة» قال لها فور إغلاقه الباب.

«تتعلّق برِمي؟» سألته فورًا. «هل هو بخير؟»

«رِمـي؟ أوه نعـم، إنّـه بخيـر حسـب علمـي. المشـكلة تتعلّـق ببعـض المسـتندات».

شعرت إيڤا بصعوبة في التّنفس. «المستندات؟»

«أتتذكريـن تزويـر أوراق رجـل يدعـى جـاك لاكفـو؟ أبقيـت اسـمه حسـب طلبـه، لكنّـك غيّـرت تاريـخ ميـلاده ووظيفتـه؟»

«أجل بالتـأكيـد». أنجـزت إيڤـا مسـتندات الرّجـل قبـل أسـبوع. إنّـه فـي الرّابعـة والعشـرين مـن عمـره، لكنّهـا قـرّرت مـع رِمـي تقليـل عمـره

إلـى سـبعة عشـر عامًـا لتجنيبـه الخدمـة الإجباريّـة، لأنّـه بـدا فـي صورتـه الفوتوغرافيّـة حليق الوجـه، وسيجتاز التّفتيش. لـم يخبروهـا مـا دوره فـي الحركـة، لكنّ رِمـي يعرفـه، وشـعرت بأنّـه شـخص مهـم، شـخص حمايتـه واجبـة. انقبضـت حنجرتهـا. «مـا الخطـأ الـذي ارتكبتـه أيّهـا الأب كليمنـت؟»

«ليـس خطـأك» قـال فـورًا. «تزويـركِ لـن يُكتشـف فـي أي نقطـة تفتيـش، لكـنّ البيانـات التـي اسـتخدمتها، تلـك التـي لا تحصليـن عليهـا مـن المقاطعـة... فـي الواقـع، يبـدو أنّ الألمـان يمتلكـون طرائـق جديـدة لاكتشـاف بطاقـات الهويّـة وتصاريـح السّـفر مـن نـوع الـورق».

ابتلعت إيڤا لعابها بصعوبة. «أوه لا. السّيد لاكغو..»

«إنّـه بخيـر. قبـل شـخص الرّشـوة فـي السّـجن، ولاكغـو مختـفٍ منـذ ذلـك الحيـن. لكـن يـا إيڤـا، السّـلطات تعـرف أن هنـاك شـخصًا يـزوّر المسـتندات بإتقـان. هـذا يضعـك فـي دائـرة الخطـر، ويعـرّض أعضـاء التّنظيـم إلـى التّهلكـة». سـكت، ثـمّ قـال: «أحـد الضّبـاط ذو رتبـة عاليـة فـي الحركـة فـي هـذه المنطقـة -رجـل ينادونـه جيـرارد فوكـون- مـن الواضـح أنّ بإمكانـه المسـاعدة، لكنّـه يريـد أنْ يعـرف إن كان بإمكانـه الوثـوق بـك».

«يمكنه بالتأكيد. ألا يمكنك أن تزكّيني؟»

«فعلـت هـذا، لكنّـه لا يعرفنـي تمـام المعرفـة. جـاء مـن باريـس، ويحـاول تطبيـق أمـور نجحـت هنـاك. يريـد مقابلتـك شـخصيًا، هـذا الصّبـاح». نظـر إليهـا بانتظـار الجـواب.

«بكل تأكيد. هل سيأتي رِمي أيضًا؟»

«لا، إنّه...» سكت فجأة، وقطع ما كان سيقوله. «لا».

استبدّ القلق بإيڤا من جديد. «لكنّه بخير؟»

"أؤكّد لكِ ذلك. هلّا ذهبنا؟ يمكننا تأجيل مستندات اليوم إلى العصر"

نظرت إيڤا إلى المكان حولها، عاينت الكتاب؛ كتابها للأسماء المفقودة على الرّف، بيْن كتب دينيّة أخرى. كلّما أضافت أسماء إلى صفحاته، خشيت التّخلّي عنه، لكنّه هنا في أمان أكثر من أي مكان آخر. «حاضر» قالت وهي تنقل نظرها إلى الرّاهب. «لنذهب».

* * *

قاد الأب كليمنت إيڤا بين أزقة يكسوها الثّلج إلى مبنى مدرسة لم تره من قبل، حيث يجلس أطفال داخلها، يرتدون السّترات ومعاطف باهتة وهم يشاهدون المعلّمة وهي تكتب شيئًا على السّبورة. «تذكّري» تمتم الأب كليمنت وهما يمشيان خلف المبنى، الثّلج يتكسّر تحت أقدامهما، «فوكون يعرف أنّك إيڤا مورو فقط. لا فائدة ترجى من معرفة الأسماء الحقيقيّة».

في المكان باب أحمر باهت بعيد عن المدرسة. طرق الأب كليمنت الباب مرّتيْن، توقّف، ثمّ طرقه من جديد، أدخل بعدها يده في جيبه وأخرج مفتاحًا. دون أنْ ينظر إلى إيڤا، فتح الباب ودخله، وأشار إليها لتتبعه.

دخلا مكانًا يبدو فصلًا فسيحًا مهجورًا. المكان معتم، لكنّ النّوافذ القذرة سمحت بدخول قليل من الضّوء. شاهدت إيڤا كراسي ومقاعد خالية، نظرت بطرف عينيها، كأنّ الأطفال الذين درسوا هنا يومًا قد هربوا على عجل، تاركين أثرًا عند مغادرتهم.

منح هذا إيڤا شعورًا سيّئًا، لكن ليس بذات سوء الذي شعرت به حين فاجأها الأب كليمنت وقال لها بلطف إنّه يخطّط للمغادرة قبل وصول فوكون، «إنّه يريد مقابلتك وحدك» قال لها، ونظر إلى الباب.

«لكن لماذا؟»

«أعتقد أنه يريد مناقشة بعض الأمور مع عدد محدود من الأشخاص». قال بحزم فجأة، وفهمت إيڤا لسبب ما أنّ فوكون أراد إخراج الرّاهب من الموضوع.

«أنا آسفة». عبارة غير ملائمة للحدث، لكنّه ابتسم ابتسامة بسيطة عند سماعها.

«عزيزتي، لا يوجد ما تتأسّفين لأجله».

«أأنت متأكّد من أنّ هذا الرّجل أهلٌ للثّقة؟»

«بالتّأكيد؟» قال الأب كليمنت بتردّد. «لقد برهن كفاءته وفائدته. ولا تقلقي يا إيڤا؛ لن أذهب بعيدًا. اتّفقنا؟»

أومأت بالإيجاب، وقد وجدت العزاء في الكلمات، لكن مع خروج الأب كليمنت في الصّباح المثلج، وبقائها في العتمة مرّة أخرى، شعرت بالانزعاج. مرّت دقائق، وبدأت تتساءل عن وجوب مغادرتها المكان، ثمّ ما سبب عدم وجود رِمي معها؟ إنّه متورّط في التّزوير مثلها تمامًا.

شغل تفكيرها، وازداد خوفها حين فُتح الباب ودخل رجل في ضوء النّهار البسيط. ياقة المعطف القطني مرفوعة، والقبعة تُغطّي عينيْه. أغلق الباب خلفه، وأحاطت به الظّلال وهو يمشي في الغرفة. «صباح الخير» قال لها والوشاح يكتم صوته:

«صباح الخير». كان بهذا الصوت شيء مألوف، أصابها بالاضطراب، فلم تفهم ما يحدث حولها.

نزع الوشاح، ومع نزع قبّعته ابتسم لها، وتفاجأت. «جوزِف بالِتيير؟!»

«جميل، جميل. فأرتي الصّغيرة العاشقة للكتب. هل يُعقل!» تقدّم خطوة، وعانقها بحرارة، اضطربت. لم تتخيّل بتاتًا أنّ حياتها ستتقاطع مع طالب السّوربون، وحتمًا ليس في هذا المكان. ليس في هذه الحياة الجديدة التي اكتسبت فيها هُويّة جديدة.

«أنت جيرارد فوكون؟»

«صحيح. وأنتِ إيڤا مورو، المزوّرة الماهرة؟»

أومأت إيڤا بالإيجاب، رغم أنّ كلماته أشعرتها بالحماقة. «ما الذي تفعله هنا يا جوزِف؟»

«أقاوم الألمانيين الملاعين، طبعًا» قال بفرح، بعد أنْ ابتعد عنها ووضع يده بخفّة على وجنتها. حدّق إليها، أمال رأسها قليلًا، كأنّه يريد أنْ يتأكّد إن كانت هي فعلًا. «لم يُخمّن أي شخص أنّ المزوّر الشّاب الموهوب الذي سمعت عنه الكثير هو أنت!»

الفصل السّابع عشر

احتاجت إيڤا إلى دقيقتيْن كاملتيْن لزوال صدمة مشاهدة جوزِف وعدم التّحديق إليه بلا تصديق.

كان أوسمَ من ذي قبل، قسَمات وجهه مُحدّدة، كتفاه أعرض، خصلة شعر مُموّجة على جبينه بطريقة جعلتها تحك جبينها كأنّها ستبعدها عنه. تفاجأت. كلاهما يحارب من أجل فرنسا، وكانت على وشك الاستسلام لأنّ مشاعر طفوليّة سخيفة. «لكن... كيف جئت إلى هنا؟»

«يمكنني أنْ أسألك السّؤال ذاته يا إيڤا. كيف أصبحتِ جزءًا من هذه الحركة؟ أعترف لكِ، لم أكن لأتوقّع هذا»

بالكاد عرَفت من أيْن تبدأ حديثها، فبدأت كلامها من لحظة انقلاب أحوالهم. «أخذوا والدي»

«سمعت هذا. أنا في غاية الحزن»

استهجنت في محاولة ادّعاء أنّ الأمور بخير، أنّها تأقلمت، لكنّها بكت. قرّبها جوزِف منه، وهمَّ يتمتم قريبًا من شعرها وهي تحاول التّماسك. وأخيرًا، بخزي، ابتعدت. «لا أعرف ما اعتراني. لم أبك عليه منذ أشهر. رؤيتك قد...»

«رؤيتك تستدعي الماضي بالنّسبة إليّ أنا أيضًا يا إيڤا» صوته أعمق ممّا تتذكر، كأنّ الزّمن قد غيّره. أخطرت على باله ذات الفكرة؟

«كيف انتهى بكَ المطاف هنا؟»

«لا أستطيع إخبارك حتمًا؛ بسبب ميثاق الحركة، إلخ، لكنّكِ إيڤا تروب!». ضحك بلا تصديق. «كنت أعمل عضوًا في حركة مشابهة في باريس. أتذكرين عندما أخبرتك بوجود نيّة للاعتقال في شهر يوليو، واقترحت عليك تحذير والديْك؟» سؤالٌ لطيفٌ، لكنّ إيڤا شعرت بالذّنب عند سماعه. نقل لها المعلومة التي كانت ستنقذ والدها، لكنّها بدّدتها؛ أشاحت بنظرها عنه.

«حاولت يا جوزِف، لكنّهما لم يصدّقاني»

«أشخاص كُثر لم يصدّقوا» قال لها فورًا. «لكنّنا نعرف الآن. على أي حال، تبيّن أنّي متفوّق على العدو بخطوة». ابتسم لها ابتسامةً أخرى، فتذكّرت سحره وجاذبيّته. «مع ضرورة توسيع رقعة عمل الحركة في هذا الجزء من فرنسا، لتعمل مع الحركة السّريّة في باريس، طلبوا منّي المجيء إلى هنا».

«ومتى جئت؟»

«نهاية أغسطس» سكت بعدها. «ماذا عن أمّك يا إيڤا؟ هل أخذوها مع والدك أيضًا؟»

شعرت إيڤا بالألم. «لم يأخذوها. شكرًا للرّب. إنّها هنا معي».

بدا متفاجئًا. «أنت محظوظة. هل هي بخير؟»

خطر لإيڤا أنْ تصب على مسمع جوزِف لوعات المرارة المتزايدة التي تشعر بها، ولومها على اعتقال والدها. لكنّ جوزِف لم يأت ليسمع مشكلاتها، وهي تعلم علم اليقين أنّها لا تقارن بالهموم والأعباء الجسيمة التي تثقل كاهليْه. «أعتقد أنّها ستكون بخير».

«بلّغيها تحيّاتي»

«رؤيتكَ ستسعدها. يجب أن تتعشى معنا الليلة». شعرت إيڤا بالحماقة لدعوته، إذ لا يمكنها تحمّل كلفة وليمة شهيّة. حتّى مع راتبها البسيط من الأب كليمنت والكثير من بطاقات التّموين التي بحوزتها، من المستحيل الحصول على طعام لائق في منتصف الشّتاء. في الليلة الماضية، على سبيل المثال، أعدّت مدام باربيير طبقًا فيه نبات القرفالة الذي ظلّت تغليه طوال النّهار. النّبات القاسي يستعمل عادة لإطعام الحيوانات، فهمت إيڤا السّبب وهي تحاول مضغه؛ كطعم جوارب قذرة. وحتّى لو كان جوزِف من عشّاق الجوارب المطبوخة، فلديه حتمًا أشياء أهم من إيڤا وماموشا، أشخاص أهم يقضي وقته معهم.

أدهشتها ابتسامته بعد تردّد قصير. «أتعلمين؟ أود هذا. سأحضر الأدوات معي».

«الأدوات؟»

«الأمور التي أردت مناقشتها مع المزوّرة إيڤا مورو. ما زلت لا أصدّق أنّها أنتِ». ربّت على رأسها، كما كان ليفعل مع طفل. «أعطني عنوانك وسأزورك».

«نقيم في نُزل مدام باربيير. أتعرفه؟»

«أعرفه. تذكري يا إيڤا أنّه لا يمكنك إخبار أي شخص عن هُويّتي الحقيقيّة». هزّ رأسه محذّرًا ولمس وجنتها من جديد بيديْه الباردتيْن». «من كان ليصدّق أنت إيڤا تروب الصّغيرة تحارب الألمان؟ لا نهاية للأعاجيب».

ارتدى قبّعته، ولفّ وشاحه حول عنقه مرّة أخرى، ثمّ غادر متخفّيًا في الصّباح المشمس.

* * *

خلال المسافة القصيرة المقطوعة إلى الكنيسة، لم تخبر إيڤا الأب كليمنت بأنّ جوزِف شخص عرفته سابقًا. أخبرته بأنّ الاجتماع جرى على خير ما يرام ثمّ تقبّلت الصّمت المريح بينهما. ودّعها عند باب الكنيسة، وقبّلها قبلة أبويّة على جبينها، ثمّ دخلت إيڤا المكتبة الصّغيرة وملايين الأسئلة تدور في رأسها.

«إذن؟ هل قابلتِ فوكون؟» باغتها صوت رِمي الذي أفزعها؛ كان واقفًا في الظّلال خلف الرّفوف حين دخلت، فيما كانت هي في الضّباب عند المدخل. خرج من الظّلال وهو عابس. «أعتقد أنّه أراد إخبارك بأنّ كل ما نفعله هنا خاطئ؟»

«في الواقع، كان شديد اللطف»

«لن أستخدم هذه الكلمة لوصفه»

رمشت إيڤا وهي متفاجئة. «هل قابلتَه؟»

«مرّتين حتّى الآن. ولو أنّه أمضى وقتًا أكبر مع أعضاء الحركة عوضًا عن الوقت الذي يمضيه فيه تسريح شعره أمام المرآة، لكُنّا قد هزمنا الألمان»

«رِمي، إنّه ليس بهذا السّوء». أرادت أنْ توضّح له أنّ الرّجل الذي يعرفه باسم جيرارد فوكون كان زميل الطّفولة، وأنّه يعرف أمّها، وهي تعرف والديْه، وتعرف أنّه خلوق محترم، وإن كان مغرورًا بعض الشّيء. غير أنّ قول ما سبق يعني مشاركة معلومات يجب كتمانها.

«أعتقد أنّه جيّد. كل ما هنالك أنّه أزعجني. لا بأس إذن. عمَّ تكلمتما؟»

«لا أعرف بعد. سيشرح ما يريد الليلة»

تعجّب رِمي. «الليلة؟»

«أجل. سيتناول العشاء معنا»

ظهر الألم على وجه رِمي، ثمّ أشاح بوجهه. «فهمت. موعد إذن؟»

«لا، لا بالطّبع». لم تتمكّن إيڤا من الإسهاب. ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت تغيير الموضوع. «إذن فقد قابلتَه مرّات عدّة؟ لماذا؟»

كان رِمي حزينًا حين استدار ليواجهها. «كنت أبحث عن طرائق لأقوم بدور أكثر فعالية في الحركة يا إيڤا، واعتقدت أنّه سيساعدني».

«إنك تقوم بأدوار كثيرة فعلًا. انظر إلى كل الأطفال الذي ساعدناهم معًا»

«ألا تتمنين لو أنّنا نفعل المزيد؟ أشعر أحيانًا بانعدام الحيلة هنا أحيانًا، خاصّة مع احتلال الألمان هذه القرية الأسبوع الماضي». تنهّد. «قبل أسابيع، طلبت مقابلة كلود جودبرت. هل سمعتِ باسمه من قبل؟»

أومأت بالإيجاب. اسم الشُّهرة لرئيس المقاومة في منطقته. ذكرت اسمه مدام نورو في أحد الأيّام.

«هو من أرسل فوكون إلى هذا المكان، ومن الواضح أنّه لم يُعجب بي. سألني أسئلة كثيرة عن العمل الذي نقوم به هنا، وقال إنّه سيساعدني بطريقة أخرى، ولم أسمع عنه منذ ذلك الحين. قال إنّ جودبرت يريد أنْ يعرف إن كنت متاحًا لعمليّات أخرى».

«ما نوع الأعمال؟»

انتقل نظر رِمي إليها. «يحتاج إلى مرافقين أكثر لنقل الأطفال إلى سويسرا. يبدو أنّ هناك حاجة فوريّة إليهم، لأنّ أحد هؤلاء المرافقين قد اعتقل».

«لكن في هذا خطر يا رِمي. ألا تفكر في هذا؟» بكت وعرفت أنْ رِمي قد شاهد دموعها، لأنّه هدأ، واقترب خطوة منها ليلمس وجنتها.

«يجب أنْ أفعل هذا يا إيڤا. يجب أنْ أساعد أكثر، وهذا ما أردت إخبارك به اليوم، وقد قلته للأب كليمنت بالفعل».

«قلت ماذا؟»

«أنّي سأغادر الليلة مع مجموعتي الأولى من الأطفال»

شعرت ببرودة مفاجئة في جسدها كلّه. «الليلة؟ لكنّنا في منتصف الشّتاء. العبور محفوف بالمخاطر حتمًا».

هزّ رأسه نافيًا. أمروني بنقل الأطفال إلى مكان قريب من جنيف، دون المرور بجبال الألب، ولهذا لن يكون الطّقس معضلة. في الواقع، إنّه يعيق تقدّم جحافل العسكر وهذا في صالحنا»

«لكن ماذا لو حدث شيء لك؟»

«سألتزم الحذر»، اقترب خطوة منها وشعرت بدفء أنفاسه. اعتقدت للحظة أنّه سيقبلها لكنّها بالكاد قرّب شفتيْه من جبينها، ثمّ تراجع خطوة سريعة كنّه احترق. «على أي حال، استمتعي بعشائك مع فوكون».

«رِمي، أنا...»

لم يجبها لأنّه أدار ظهره، وغادر خلال لحظات، وأغلق الباب. فكّرت إيڤا باللحاق به، والتّوسل إليه ليسلّم هذه المهمّة إلى

شخص آخر، لكن لماذا سيصغي إليها؟ إنّه لا يدين لها بشيء.

كيف يغامر جودبرت بحياة رِمي بسهولة؟ كيف ستتحمل مجموعة المقاومة في منطقتهم خسارة مزوّر بارع في عمله لو اعتقل؟ حاولت تجنّب هذه الأفكار، وإتمام تزوير الوثائق المطلوب إنهاؤها لذلك اليوم، لكنّها عرفت أنّها عاجزة عن التّركيز. كلّما أغمضت عينيْها، رأت رِمي وهو يشعر بالبرد وحيدًا وسط عاصفة جليديّة، وبندقيّة نازيّة موجّهة إلى رأسه.

***

«جوزِف بالِتيير؟» لمعت عينا ماموشا بعد أن أخبرتها إيڤا أنّ ضيفًا غير متوقّع سيتناول العشاء معهم، لكن لا يمكنهما نطق اسمه الحقيقي أمام مدام باربيير. لم تر أمّها بهذه السّعادة منذ أشهر. «إنّها معجزة! أتعرفين طبقه المفضّل يا شمسي؟ سنطبخ له شيئًا مميّزًا».

«ماموشا، أنا أكيدة أنّه يدرك اقتصادنا في الطّعام، وسيكون شاكرًا تقديم أي شيء له»

«لكنّه جوزِف بالِتيير! أحد أوسم فتيان المدرسة، وينحدر من أسرة محترمة أيضًا. أنا متأكّدة من أنّ بإمكاني طلب المساعدة من مدام باربيير وصديقها المزارع»

عضّت إيڤا شفتها قبل أنْ تُجب.

وصل جوزِف بعد الظّلام، مرتديًا سترة صوفيّة وبنطالًا أسود يلائم ذهابه إلى مقهى باريسي رفيع المستوى. طافت ماموشا حوله وهي تطري على وسامته، وسعادتها لرؤيته، وشرف استقباله. مدام باربيير التي وفّرت دجاجة ثمينة وبعض البطاطس

للمناسبة بدت شديدة التأثّر أيضًا. عملها عن قرب مع مجموعة المقاومة جعل اسم جيرارد فوكون مألوفًا، وجعلها تعرف أهميّته في المقاومة.

«جي-جيرارد» قالت ماموشا، وهي تميل بجوع حين فتحت مدام باربيير زجاجة نبيذ لهم، ثمّ تركتهم وحدهم وذهبت إلى المطبخ. «ألا يبدو لقاؤك مع إيڤا هنا بعيدًا عن باريس استثنائيًّا؟»

«ماموشا» حذّرتها إيڤا.

ابتسم جوزِف، أوّلًا لماموشا ثمّ إلى إيڤا التي رمقها بنظراته. «في الواقع، إيڤا هي الاستثنائيّة».

خجلت ماموشا، ثمّ قالت بتأثّر كأنّها المقصودة بالكلام: «أوه، يا لَلطفك يا جوزِف. تخطف الألباب، ألا تعتقد هذا؟»

«ماموشا من فضلك!»

ابتسم جوزِف لإيڤا من جديد، وعيناه قد التقت عينيها. «نعم، أنا أكيد من هذا».

«لربما من الأفضل أنْ نغيّر الموضوع» قالت إيڤا بامتعاض.

«حسنًا» تنهّدت والدتها ثمّ روت حكاية تتعلّق بحفل حضرته تلبية لدعوة والديْه في صيف 1937، في شقتهم الكبيرة في (رو دو رينارد)، وكيف أخبرت زوجها برقيّها وتألقها. لكنّ عند ذكر تاتوش تغيّرت ابتسامتها بعض الشّيء، فسكتت ونظرت باتّجاه الباب كأنّه سيدخل في أي لحظة.

«أحزنني رحيل زوجك» قال جوزِف بحزن، وهو يمد يده للمس يد ماموشا.

«شكرًا جوزِف» قالت ماموشا وهي تشهق. «أتمنّى الاجتماع به من جديد بعد الحرب. كل ما هنالك أنّي أفتقده كثيرًا الآن»

ابتلعت إيفا ريقها بصعوبة وحدّقت إلى الطّبق. ماموشا غير قادرة على إدراك احتمال عدم وجود لم شمل سعيد مع تاتوش. قالت بلطف: «ماموشا»، لكنّ جوزف لمس يد إيفا تحت المائدة، وضغط عليها بلطف، ولم يتركها.

«مدام تروب، يسعدني الاستعلام عنه، إذا كان في هذا مساعدة» قال جوزِف، وشاهدت إيفا انتفاضة رأس أمّها.

«تستعلم عن ليو حبيبي؟» سألت ماموشا بصوت عالٍ وصعوبة في التّنفّس. «أيمكنك فعل هذا؟»

استهجن جوزِف، كأنّ الحصول على معلومة من مخيّم النّازيّة في غاية السّهولة، وكأنّ هناك سكرتيرًا ينتظر خطاب الاستعلام في أرض الموت والبؤس. «لدي معارف كثر، ويسعدني إذا وجد أحدهم مكان زوجك الآن. أنا واثق بأنّه يفكّر فيك طوال الوقت مدام تروب».

«جوزِف، لا أعتقد...» بدأت إيفا.

«أوه جوزِف» قاطعتها ماموشا، وفي عينيْها دموع وهي تنظر إليه. «عرفت دائمًا أنّك فتى رائع. لطالما أخبرت إيفا بهذا، أليس كذلك يا عزيزتي؟ يجب أنْ ترتبطي بشاب يهودي لطيف مثل جوزِف. قلت لها هذا مرارًا».

غطّت إيفا عينيْها بيدها اليمنى، بحرج، لكنّ جوزِف لم يضحك، ولم يترك يدها. ازداد ضغطه، ثمّ بدأ يلمس راحة يدها بإبهامه بحميميّة وراحة.

«في الواقع، يا مدام تروب، سأكون في غاية السّعادة إذا عثرت على امرأة مثل إيڤا أيضًا. أنت وزوجك ربيّتما فتاة رائعة».

أمسكت ماموش مروحتها وضحكت من جديد كأنّها مراهقة قبل أنْ تستأذن لتتفقّد الطّبق الرّئيس في المطبخ. فور ابتعادها عن المكان، تأوّهت إيڤا: «وقالت: «أعتذر عن كلام والدتي. إنّها تعتقد أنّ هذا موعد غرامي».

«وهل في هذا مشكلة؟» سألها جوزِف، وهو ينتظر حتّى نظرت إيڤا إليه بدهشة. «يجب أنْ تعترفي أنّنا سنكون زوجيْن رائعيْن».

سحبت إيڤا يدها ونظرت إلى الأسفل، خجلت فجأة. «جوزِف أنا...»

«أوه لا تقلقي كثيرًا يا إيڤا» قال لها وهو يضحك.

«لا يتيح لي عملي الوقت للرّومانسيّة. كنت أشير إلى لطفك فقط، واختلافك عن آخر مرّة قابلتك فيها». انتظرَ حتّى رأته إيڤا من جديد. «هل في هذا خطأ؟»

«شكرًا لك». شعرت بأنّها طالبة مدرسة خجولة كما كانت في السّابق، وتاقت لتغيير دفّة الحديث، ثمّ سألته: «أتعرف خطورة مرافقة أعضاء المجموعة الأطفال عبر الحدود السويسريّة؟»

قهقه جوزِف. «اعتقدت أنّك ستبادلينني العاطفة يا إيڤا، لكنّك تسأليني عن سلامة المرافقين؟ لستِ بارعة في هذه الأمور».

ازدادت حياء. «أنا قلقة على أحدهم».

اختفت ابتسامته. «آه، شريكك في التّزوير. رِمي أليس كذلك؟»

«أجل، هذا صحيح»

«سيكون بخير يا إيڤا. يمكنه الاعتناء بنفسه»

تأمّلت عينيْه. «أنت لا تحبه. ما السّبب؟»

«في وقت كهذا، أفضل أنْ أُحاط بأشخاص يسهل علي توقّع تصرفاتهم؛ مثلك»

دار في ذهن إيڤا تساؤل عمّا إذا كان في رأيه إهانة لها. هل جوزِف هنا لأنّه افترض أنّها إيڤا القديمة، طالبة الأدب الإنجليزي الوديعة التي لا تتكلم بتاتًا، عديمة الخبرة، الفتاة المنعزلة التي كانت تتوتّر إذا لاطفها أحدهم؟ «لا أعرف. أعتقد أنّ هناك قيمة معيّنة للتّغيير حين تستدعي الحاجة، وإلّا لن نتطوّر بتاتًا».

تعجّب جوزِف. «إيڤا، أنتِ على حق تمامًا، أقصد أنّي معجب بشخصيّتك، ووقارك. من الجيّد أنْ أعرف دائمًا موقفكِ». ابتسم ابتسامة فاتنة أخرى لها.

«إذن، أتعتقد أنّ رِمي سيكون بخير؟» أصرّت على السؤال.

«في الواقع، إنّه يسافر بأوراق زوّرتماها معًا، ولهذا أعتقد أنّ لديه كل الأسباب ليكون بخير. هذا يذكرني يا إيڤا بالموضوع الذي أردت مناقشته معكِ». رفع رأسه لينظر أسفل الرّدهة، مطمئنًا إلى أنّ أمّها تحاول تركهما معًا بعض الوقت، ثمّ التفت إلى إيڤا. «مستندات الهُويّة التي صنعتها ممتازة، وقد أتقنتِ تزوير الأختام. لكن الأوراق التي استخدمتها أثارت الشّبهات مؤخّرًا».

اتّسعت عينا إيڤا. هل هناك مشكلات أخرى تتعلّق بالمدعو لاكفو؟ «جوزِف، أعتذر اعتذارًا شديدًا. هل اعتقل أي شخص بسبب عملنا؟»

«لا يهم. المشكلة هي أنّ الورق المستخدم في المستندات المزوّرة يجب أنْ لا يثير الشّبهات»

انفعلت إيڤا. «كنّا نحاول صنع أوراق أفضل، لكن هذا ليس اختصاصنا». عرفت منذ البداية أنّ الورق هو نقطة الضّعف في عملهما. تطبع المستندات المختلفة على أنواع مختلفة من الورق –منها ما هو محاك أو مصقول، ومنها ما هو معالج أو غير معالج– واعتقدت أنّ بإمكانها هي ورِمي القيام بعمل متقن من خلال الاستعانة بمصادر مختلفة. حتّى أنّ رِمي قد فكّر في صنع ورق خاص به من عجينة الخشب والماء، لكن لا وقت لإتقان المسألة، خاصّة مع كل المستندات التي يجب تزويرها. شخصان يؤديان المهمّة، وساعات النّهار لا تكفي.

«ليس خطأك؛ خطأ التّنظيم لأنّه لم يوفّر لكما حاجاتكما، لكنّ هذا على وشك التّغير». وقف جوزِف ومشى إلى الشّماعة في الرّدهة حيث عَلّق معطفه. سحب منه حزمة ورق بسماكة قاموس لُغوي، فتعجّبت إيڤا، مع عودته إلى غرفة الطّعام من براعته في إخفائها. «تفضّلي» قال وهو يناولها الأوراق.

«ما هي؟»

«نظر إلى الرّدهة مرّة أخرى. لم يلمح أمّها أو مدام باربيير. «افتحيها بسرعة».

فكّت رباط الطّرد وشاهدت حزمة تغليفها بني اللون. داخلها مجموعة كبيرة من الأوراق المختلفة: منها ما هو سميك، ومنها ما هو رفيع كأوراق التّنشيف، كل الأنواع من بطاقات التّموين الخالية إلى أوامر تسريح الجنود. قلّبتها ثمّ نظرت إلى جوزِف بتعظيم. «إنّها مختلفة عن كل ما تحصّلت عليه هنا. كيف...؟»

«صُنعت في الجزائر الحُرّة، ونُقلت بالمظلّة»

«بالمظلّة؟» سمعت إيڤا إشاعات عن أسلحة أسقطها الحلفاء، لكن مستندات بلا بيانات؟ «ممن؟»

ابتسم جوزِف. «معرفة القليل، أفضل. لكن يجب أنْ تكفيك مدة. الآن، اذهبي وخبئيها في مكان آمن هذه الليلة، وسأجعل أشخاصًا يراقبون طريقك إلى الكنيسة غدًا. ستكونين بخير إذا خبأتِ الطّرد تحت معطفك. يعرف الألمانيّون أنّ بالقرب منهم مكتب تزوير، لكنّهم لا يبحثون عن فتاة، خاصّة فتاة بجمالك».

خجلت إيڤا. «أشكرك. سأذهب لأخبئها في غرفتي»، ثمّ وقفت.

«جيّد» قال جوزِف وهو يربّت على معدته. «الآن، أنا أتضوّر جوعًا. أين والدتك مع الطّعام؟»

***

غادر جوزِف بعد ساعة -متخمًا بالدّجاج، والنّبيذ، والقهوة المصنّعة بلمسة كريمة- وفي طريقه إلى الخارج، طمأن والدة إيڤا أنّه سيتابع موضوع تاتوش.

«إذن فأنت تؤمن، كما أومن، بأنّه على قيد الحياة وبخير؟» سألته ماموشا وهي تصفّق.

«أومن يا مدام تروب». قبّل وجنتيْها. «لدينا كل سبب يدعو إلى التّفاؤل».

ارتدت إيڤا معطفًا لترافق جوزِف إلى الخارج. الثّلج يتساقط، والشّوارع مظلمة، خاوية، تذروها الرّياح. «أتعتقد حقيقة أنّ بإمكانك الحصول على خبر عن والدي؟»

لم يجبها جوزِف فورًا. «لا بدّ أنّك تعلمين أنّه مات بلا شك يا إيڤا».

حاولت التّحكم بدموعها. بالتأكيد، كانت تعرف احتمال ذلك، نطق الكلمات بهذه الثّقة جعلها كاللكمات على وجهها. نظرة الشّفقة في عينيه زادت الوضع سوءًا. «إذن لماذا أخبرت والدتي بأنّك تؤمن بأنّه على قيد الحياة؟»

«أردتها أنْ تشعر بالرّاحة فقط، وأعتقد أنّي نجحت في هذا». سحب ياقة معطفه ودخل ثلج في قميصه.

«لا راحة في أمل زائف يا جوزِف» عارضته إيڤا.

اقترب جوزِف منها ولمس وجنتها بلطف. إبهامه خشن وبارد. «لا أوافقك الرّأي» قال لها بلطف. «نحن جميعًا ندّعي أنّنا أشخاص آخرون، أليس كذلك؟». مال وقبّلها قبلة خفيفة على شفتيْها، تباطأ بضع ثوان. مع ابتعاده، التقت عيناه عينيها. «في أوقات كهذه، أعتقد أنّ لا يمكننا العيش مع أنفسنا إلّا بهذه الطّريقة».

الفصل الثّامن عشر

في الأيّام الأربعة التّالية، عملت إيڤا دون هوادة في تزوير: بطاقات النّقابة المهنيّة، بطاقات الإعاشة، شهادات التّسريح من العمل، وكل أنواع المستندات التي لم تتمكّن من تقليدها سابقًا قبل أنْ تستلم الأوراق من الجزائر الحرّة. تزوير بطاقات الهُويّة في غاية السّهولة؛ لأنّ المستندات الخالية من البيانات متوافرة في متاجر كثيرة، أمّا شهادات الميلاد والتّعميد فتعتمد نسبيًا على الأختام والطّوابع، إضافة إلى الوثائق المختلفة بين الأقاليم المختلفة. لكنّ المستندات الأخرى كانت أكثر صعوبة، ولهذا أصبح تدقيق الألمان عليها أكبر إذا شعروا بالارتياب من شيء ما.

لم يعد رِمي بعد، لكنّه وإيڤا قد أمضيا شهورًا في تحويل مكتبة الكنيسة الصّغيرة إلى ورشة، استكمال تقطيع الورق بنظافة بالقاطعة، طابعة من طراز أندروود، آلتا تدبيس، عشرات القوارير الكيميائيّة، سائل تصحيح لمسح بطاقات التّموين، ومجموعة من الأحبار المخلوطة بإتقان التي خلطها رِمي لنسخ المستندات الأكثر انتشارًا. كانت هناك أختام مطّاطيّة حفرتها إيڤا بحذر، بالإضافة إلى اثنتي عشرة أسطوانة نسخ أختام المستندات الشّائعة التي يجب تزويرها بسرعة، وآلة بسيطة ابتكرها رِمي تستخدم الغبار ورصاص الأقلام لصنع تأثير مُعتّق في الأوراق. كما كان في المكتبة ماكينة خياطة سينجر قديمة، لكن إيڤا

وجدت طريقة لاستخدامها في تقطيع الأختام من خلال استبدال بالإبرة الكبيرة أخرى الصغيرة.

في كل مساء، كانت كل الأدوات -باستثناء آلة الكتابة وآلة الخياطة- تُخبّأ في أدراج سفليّة أو بين الكتب على الرّفوف لتبدو الغرفة غير ضارة، رغم وجود الرّوائح الكيميائيّة.

مرّ جوزِف بالكنيسة في صباح الخميس مع حزمة جديدة من الأوراق التي وصلت من الشّمال مع مرافق. سمح له الأب كليمنت بدخول المكتبة الصّغيرة. فزعت إيڤا التي اعتادت رؤية رِمي فقط والرّاهب في هذا الحيّز الخاص. مع استئذان الرّاهب ليتركهما وحدهما، شعرت بأنّه قد خان ثقتها. لكن لا يُعقل أنْ يُخفي الأب كليمنت الغرفة السّريّة عن شخص في حركة المقاومة ويثق به كليًا، أليس كذلك؟

«أنتِ تقومين بعمل استثنائي هنا يا إيڤا» قال جوزِف وهو ينظر إلى كل الأجهزة، والأحبار، والمواد الكيميائيّة قبل أنْ يجلس إلى جانبها ويضع يده بلطف على ظهرها. لمس حميمي؛ فأبعدت إيڤا نفسها عنه، لا لأنّها رفضت اللمسة، فالرّب وحده يعلم كم ودّت لو يعرف تأثير لمسته، بل لأنّه جلس على كرسي يملكه شخص آخر.

«شكرًا لك، لكن إتمام المهمّة بمفردي صعب هذا الأسبوع. هل تلقيْت أخبارًا عن رِمي؟»

«لا، لكنّنا كنّا سنسمع شيئًا لو حدث مكروه له. هذه المسائل تستغرق وقتًا. سيعود» وقف وقبّل وجنتيْها. «تحياتي لوالدتك». غادر، فتح الباب ثمّ أغلقه خلفه.

كانت إيڤا تميل إلى الطّاولة، تملأ بيانات بطاقات التّموين، حين فُتح الباب مرّة أخرى بعد عشرين دقيقة. التفتت وهي تتوقّع عودة جوزِف مع شيء نسي تسليمه، لكن دخول رِمي جعلها تقفز من مكانها وترتمي بين ذراعيْه.

«أوه، رِمي، أنت بخير!» صاحت، تردّد قبل أنْ يُقربها بقوّة إلى صدره ويدفن وجهه في شعرها. لم يقل كلمة، لكنها شعرت بتسارع دقّات قلبها وهذا كاف. إنّه على قيد الحياة، هنا، وبين ذراعيْها. يعانقها بقوّة وهي متشبّثة به، ولا بدّ من أنّ هذا يعني شيئًا.

حين ابتعد عنها أخيرًا، حدّقت إليه، وانتبهت للخدوش الحديثة على وجهه، جرح على رقبته، الرّضوض المصفرّة أسفل عينه اليسرى. «أنت مجروح».

لمسَ الرّضة، كأنّه متفاجئ من وجودها. «جرح بسيط».

«والأطفال؟»

ابتسم قليلًا. «هناك أربعة أطفال. جميعهم من بولندا. كنّا قد زوّرنا مستندات لهم في الأسبوع الماضي».

«أرليت، جنين، جان-بيير، رولند». فضّلت تذكُّر أسمائهم الأولى الحقيقيّة بدل الأسماء المستعارة التي منحتها لهم. أعمارهم متفاوتة من الثّانية إلى السّابعة؛ أصغر من أنْ ينقذوا أنفسهم.

أومأ بالإيجاب. «الصّفحات؛ مئة وسبع إلى مئة وعشرة في كتابنا. إنّهم بخير وعافية في جنيف».

«أوه، حمدًا للرّب. ماذا عنك؟ رِمي، من فعل هذا بك؟»

«لقد عدت يا إيڤا، أنا بخير. باقي الأحداث غير مهمّة». أشاح بنظره. «كنت قلقًا عليكِ».

«لكنْ أنت الذي كنت في خطر»

«ومع هذا لم يشغل تفكيري غيرك». سعل واستدار، فرحت لأنّه لم يرَ احمرار وجنتيْها. «إذن» قال دون أنْ ينظر إليْها، «كيف كان عشاؤك مع فوكون؟»

نبرة صوته الحادّة التي استَبدَلت الدّفء الذي كان في صوته قبل ثوان، والتّغيّر المفاجئ فاجأها. «لا بأس يا رِمي. سيعمل معنا أكثر الآن، سيزوّدنا بالأدوات».

ارتفع حاجباه. «أدوات؟»

أشارت إيڤا إلى الطّاولة. «أوراق أفضل بكثير من التي حصلنا عليها بأنفسنا. نحتاج إليها».

نظر إلى المستندات. صكّ فكّيه. «صحيح. فوكون أنقذنا».

«رِمي...»

«أنا آسف». رمش مرّات متتاليات ثمّ تنهّد، أرخى كتفيه. «كانت... كانت أيّامًا طويلة. الدّمار خارج المدن أكبر...» توقّف وهزّ رأسه. «إيڤا، لا أستطيع مقاومة شعور أنّي لم أبذل جهدًا كافيًا».

قشعريرةٌ سرت في جسدها. «لكنّك تبذل قصارى جهدك. العمل الذي تقوم به هنا لا يقدّر بثمن. وبما أنّك قد عدت الآن، فبإمكاننا تزوير مستندات أكثر بكثير...»

«إيڤا، في عالم نموذجي، لا يوجد ما هو أفضل من البقاء هنا معك. لكنّ وجودي في الخارج، بالسّفر مع الأطفال... هنالك الكثير لأنجزه. ولا يمكنني فعله هنا».

آلمها بطنها. فهمت قصده، ما يرمي إليه، لكن عليه أنْ يعي أنّه يُجانب الصّواب. «أحتاج إليك يا رِمي» قالت له. «أعني... عمل كثير ينتظرنا». تعليل متأخّر، أشارت إلى الأوراق التي أمامها، وأدركت أنّه فهم المغزى الحقيقي من كلامها. أشاحت بنظرها، وحين نظرت إليه من جديد، رأت ألمًا في عينيْه، آلمتها رؤيته.

«أريد أنْ أبني فرنسا أفضل لك يا إيڤا» قال بلطف. «فرنسا تملكين فيها منزلًا. لا يمكنني فعل هذا إذا بقيت هنا».

«عدني بأنّك ستنتظر قبل أنْ تتخذ أي قرار». حبست أنفاسها.

حدّق إليها وقتًا طويلًا، ثمّ قال: «أعدكِ».

***

في ذلك المساء، على وجبة مُخفّفة من حساء اللحم بالشّعيريّة، حدّقت ماموشا إلى إيڤا بعينيْن ضيّقتيْن وهي تتكلم مع مدام باربيير في محاولة لتخفيف قلقها على رِمي وقراراته دون استشارتها. بعد تنظيف الطّاولة وصعود مدام باربيير إلى الطّابق العلوي، جلست إيڤا بجوار أمّها عند المغسل لتجفيف الصّحون التي تغسلها ماموشا.

«تهدرين فرصة أرسلها الرّب إليك يا شمسي» قالت ماموشا فجأة، في كسر للصّمت المزعج بينهما.

«أي فرصة؟»

«جوزِف بالِتيير بلا شك»

«ماموشا...»

«من الواضح أنّ الشّاب يكنّ المشاعر لك. قالها بنفسه: أنت قيّمة. أأنت منغمسة في عمليّة التّزوير لدرجة عدم الانتباه؟ إنّه ملائم لكِ يا إيڤا. والقدر هو الذي أتى به إلى هنا»

«في الواقع، أعتقد أنّ المقاومة هم من أرسلوه».

«ألقي الدّعابات كما تشائين، لكنّك لن تفرّي من إرادة الرّب. لقد أرسل جوزِف إلى عتبة بابك. ماذا تريدين أكثر؟ أيمكنك تخيّل سعادة والدك إذا عاد من بولندا ليجدك زوجة سعيدة لرجل يهودي نعرف والديْه؟»

«أعتقد أنّ تاتوش سيكون في غاية السّعادة إذا عاد ووجدنا أحياء»

«ألن تصيخي السّمع إليّ يا إيڤا؟ أعرف أنّك تعتقدين أنّي أجهل ما أتحدّث عنه، أنّي مجرّد عجوز حمقاء. لكن للعادات معنى. مؤازرة بعضنا في المحن تعني شيئًا. إيماننا يعني شيئًا، رغم أنّه يبدو أنّك تتخلين عنه».

رمت إيڤا منديل التّجفيف وحاولت حبس دموعها. «أنا لا أتخلى عن إيماني يا ماموشا».

«تتصرّفين كأنّي كفيفة يا إيڤا، لكنّي أرى الطّريقة التي تتحدثين فيها عن الشّاب الكاثوليكي. حذّرتك، ولم تسمعيني».

«الكلمات، الباردة التي توحي بالشّعور بالعار، كانت بمثابة صفعة على وجه إيڤا التي شعرت بالحنق، وسريان الدّماء في أوردتها بالذّنب والتّيه. «ماموشا، أنتِ لا تعرفينه. رِمي رجل جيّد».

«هنالك رجال جيّدون كثيرون يا إيڤا، لكنّك.. أتريدين هدر وقتك مع كاثوليكي المذهب؟ أتعتقدين أنّك أفضل من جذورنا، لكنك تتهرّبين منها».

«لا أحاول فعل هذا!»

«أوه، إيڤا، أنتِ تتهربين منذ وصولنا إلى هنا»

مع التفات إيڤا لتنظر إليّها، أذهلتها نحافة والدتها المتزايدة. كيف لم تلاحظ هذا من قبل؟ كتفاها بارزتان كجناحي طائر، عظمة التّرقوة ظاهرة تحت خط عنق قميصها. قلقت إيڤا، رغم غضبها وألمها.

«ماموشا، أنا لا أهرب. أنا... أشعر بأمور لم أتوقعها. لكن لم يحدث شيء».

«احمرّ وجه ماموشا. «إذن أتعترفين؟ تحبينه؟»

«لم أقل هذا؟»

«حسنًا، تذكري هذا فقط. والدك وأنا غادرنا بولندا في شبابنا بحثًا عن حياة أفضل؛ لنفسيّنا وللطّفل الذي تمنينا إنجابه. أنتِ يا إيڤا تلك الطّفلة، ولدت في الحريّة بسبب تضحياتنا. إذا تخلّيتِ عن ذلك الطّريق، فأنت تخونيننا بلا رجعة»

«ماموشا...»

توجّهت أمّها إلى الباب. «خذلتني يا إيڤا، أكثر من أي خذلان شعرت به في حياتي».

وقفت إيڤا بثبات في مكانها وهي تحدّق بعد ذهاب أمّها وقتًا طويلًا، شعرت بالدّوار، وهي تتساءل عن سبب إصرار كل من تحب على كسر قلبها.

***

كانت إيڤا تعمل بمفردها عصر اليوم التّالي حين وقف الأب كليمنت عند باب المكتبة. «ما حال العمل؟»

«الأوراق الجديدة مفيدة» أشارت إيڤا إلى حزمة الأوراق التي أنهت تزويرها. «لم... لم أكن لأنجزها لولا رِمي، كما تعلم».

«أريده أنْ يبقى أنا أيضًا» قال الأب كليمنت. «لكنّ المجموعة قد تحتاج إليه في مكان آخر. أثبت أنّه مرافق ذكي للأطفال، ويمكن أنْ يكون نافعًا بطرق أخرى، أيضًا».

«إنّه نافع هنا. لا يمكن أنْ أفعل هذا بمفردي»

تنهّد الأب كليمنت. «على الأرجح سيرسلون شخصًا ليؤدي مهمّته ويساعدك».

رمشت إيڤا بلا تصديق. كيف يعتقد أنّه بإمكان أي شخص أن يكون في مكان رِمي؟ بدأت كلامها: «أيّها الأب كليمنت...».

«العمل الذي تقومين به في غاية الأهميّة يا إيڤا. تعين هذا، أليس كذلك؟»

حاولت التّماسك. «أجل، لكن أنا...»

قاطعها: «إيڤا، أيمكنك أخذ استراحة لساعة واحدة تقريبًا. أريد أنْ أريك شيئًا».

تردّدت ثمّ وافقت. بصمت قادها خارج المكتبة إلى الكنيسة، ثمّ إلى خارج الكنيسة تحت شمس الظهيرة.

دون أي كلمة، مشيا إلى ميدان المدينة. ثلج على السّطوح الطّينيّة، يتلألأ في النّور الصّافي أومأ الأب كليمنت بتهذيب لجنود نازيين في الجهة المقابلة من مبنى، وإيڤا أشاحت بنظرها. زاد عددهم مؤخّرًا، ثيابهم الرّسميّة متيبّسة، في نظراتهم تهديد

ووعيد. تجمّعوا في القرية الصّغيرة –حتّى من لم يرتدوا ثيابهم الرّسميّة– ليحدّقوا في الواصلين الجُدد.

«هل تسمح لي بسؤال؟» قالت إيڤا وهما يخرجان من الميدان إلى حي جيرولت الهادئ.

«سلي ما شئتِ، إيڤا»

«أتعتقد أنّي...» سكتت، ثمّ أخذت نفسًا عميقًا. «أتعتقد أنّي أخون ديني؟ والديّ؟»

نظر إليها باستغراب، أوقفا حديثهما ليلوّحا للسيّد ديناود الذي كان يقف خارج محل الجزارة، وكان يكلّم رجلًا من رجال الشّرطة يرتدي الزّي الرّسمي، كانت قد رأته يتجوّل في القرية. بدا السّيد ديناود شارد الذّهن حين لوّح، والشرطي لم يهتم بهما.

«إيڤا، بالطّبع لا أعتقد هذا» قال الأب كليمنت حين دخلا زقاقًا مظلمًا بين بنائين. «لماذا تسألين؟»

خجلت إيڤا من دموعها. «أمّي». لم تتمكّن من قول المزيد.

«أوه، إيڤا» قال بحزن وهو ينظر إليها من جديد. قطّة جرباء أضلاعها بارزة قفزت من الظّلال، اندفعت باتّجاه درّاجة مغطاة بالثّلج قرب الجدار، شعرت إيڤا بالحزن على الحيوان. كان سيموت جوعًا أو تجمّدًا إذا لم يغثه أي شخص.

«لعلّها على حق» تمتمت إيڤا. «أنا لا أصلّي كما تفعل، وأعرف أنّ عليّ فعل هذا. التقاليد تعني الكثير لوالدي، أكثر ممّا تعنيه لي، وأعتقد أنّ عليّ أنْ أخجل من هذا، خاصّة في هذه الأثناء. خاصّة مع رغبة الألمان في محو وجودنا».

تنهّد الأب كليمنت. «إيفا، هناك شيء يقال لاتّباع أحكام الدّين بحذافيرها. تعاليم كهذه تشكّل جزءًا مهمًّا من حياة الرّاهب. لكن أهم ما تعلّمته منذ بداية الحرب هو: التّحلي بالإيمان والتّمسّك به مهما حدث. وصلا عند حي فلاندين؛ شارع سكني صغير مطلع على سفح جبل جليدي. قال لها: «أعتقد أنّ أكثر ما يهم هو ما في قلبك. أما زلتِ تؤمنين بالرّب؟»

«بالطّبع أومن به» فاجأها هذا السؤال في خضم هذا الظّلام، حتّى عندما كانت تتساءل إذا كان الإله يسمع دعواها، لم تشك فيه مطلقًا.

«وهل أصبحت كاثوليكيّة أثناء عملك في الكنيسة؟» نظرت إليه نظرة حادة وقالت: «بالطّبع لا!»

ابتسم. هذا هو مصدر قلق والدتك، أليس كذلك؟ هل ستصبحين واحدة منّا فجأة؟»

تردّدت إيفا، ثمّ أضافت بسرعة: «نعم إنّها تتحدث عن الكاثوليكيّة كما لو زنّها واحدة من أسوأ المصائر التي قد تصيب الإنسان. أنا آسفة».

هزّ الأب كليمنت رأسه. «إيفا، إنّها فقط خائفة، وأنا لا ألومها. لقد عثرتِ على طريقة للمساهمة في الأحداث المحيطة بكِ، وفعل بعض الخير، لكن فكّري بمدى شعورها بالعجز، خاصّة بعد رحيل والدك. لا يمكنكِ لومها على خوفها من فقدانكِ أيضًا. يمكنك الصلاة معها فقد يبث هذا الطّمأنينة في قلبها وتفكيرها. ولكن قبل كل شيء، تذكّري أنْ تصغي إلى ما في قلبكِ. يجب ألّا تتأثّري بكلماتها أو بكلماتي. وحدكِ من تعرفين ما علاقتكِ بالرّب، فلا تسمحي لأي أحد بالتّدخل في ذلك».

شعرت إيڤا بالسّلام حيث استقرّ صمت مريح بينهما. «شكرًا لك أيّا الأب كليمنت».

يمكنك أنْ تأتيني في أي وقت يا إيڤا، ويمكنك اللجوء إلى الرّب أيضًا. طريق الحياة تشتد ظُلمته إذا سرنا فيه فرادى». بعد لحظة، سلك الأب كليمنت منعطفًا إلى اليمين، في شارع جانبي صغير، شارع نيكولا توري، وجذب إيڤا معه. توقّف فجأة خارج منزل حجري من ثلاثة طوابق له شرفة واحدة مطلّة على الشّارع. طرق مرّة واحدة الباب الأمامي الأسود، توقّف، ثمّ طرقه مرّة ثانية، ثلاث مرّات على التّوالي. ساد صمت طويل ثمّ فتحت الباب امرأة كانت إيڤا قد رأتها في الكنيسة لكنّها لم تكلّمها، امرأة وقورة، عيناها ضيّقتان، وشعرها الرّمادي على شكل كعكة، ابتسمت ابتسامة عريضة فور تعرفها على الرّاهب.

«الأب كليمنت!» تقدّمت إلى الأمام وقبّلت وجنتيْه، ثمّ نظرت إلى إيڤا وضاقت عيناها مرّة أخرى. «بمَ أخدمكما؟»

«مدام ترافير، أريد أنْ أعرّفك إلى الآنسة مورو» قال الأب كليمنت وهو يُشير برسميّة إلى إيڤا. «آنسة مورو هذه مدام ترافير».

أومأت مدام ترافير لإيڤا، لكن بارتياب. «وما الذي أحضر الآنسة مورو إلى هنا اليوم؟» سألت وقد نقلت نظرها إلى الأب كليمنت.

«إنّها منّا. وأريدها أنْ تقابل الأطفال»

ظلّت مدام ترافير بلا حراك تمامًا للحظة. «أب كليمنت، مع خالص الاحترام، لكنّنا نريد الحد من مقابلتهم الغرباء». حين

نظرت إلى إيڤا مرّة أخرى، ابتسمت ابتسامة مجاملة. «أنا أكيدة من تفهّمك».

«مدام ترافير» قال الأب كليمنت. «أنا أكيد من أنّك تعرفين الأوراق المزوّرة وتصاريح السّفر التي نستخدمها لنقل الأطفال».

«لا أعرف ما...»

«الآنسة مورو هي التي تزوّرها» قال الأب كليمنت ليقاطع إنكارها.

تلاشى بعض البرود الذي بدا على ملامح المرأة وهي تعيد تقييم إيڤا مرّة أخرى. «لا تقل!»

«أعتقد أنّ من الصّعب عليّ البقاء طوال اليوم في الكنيسة دون تواصل مع شخص ممّن تنقذهم. هذا سيساعد في تذكيرها بالخطورة التي تعرّض نفسها لها»

فتحت المرأة الأكبر عمرًا فمها وأغلقته، ورغم بقاء الارتياب على وجهها، تنحّت جانبًا أخيرًا، وأشارت إلى إيڤا والرّاهب بالدّخول. تمتمت إيڤا شكرًا، فأومأت مدام ترافير قليلًا.

تبعا المرأة العجوز إلى الطّابق العلوي، حيث البهو الشّاسع خالٍ. نظرت إيڤا بحيرة. لا أطفال حولها حتمًا. زمّت مدام ترافير شفتيها، ثمّ أمسكت مكنسة، وطرقت السّقف ثلاث مرّات سريعة. توقّفت، طرقته مرّتين، ثمّ توقّفت، ثمّ طرقته مرّة أخيرة.

«ما الذي تفعله؟» همست للأب كليمنت الذي بالكاد ابتسم لها.

«بعد ثوان، فُتح باب سرّي في السّقف، ومن العتمة في الطّابق العلوي، أُنزل سُلّم. مع مشاهدة إيڤا برعب، نزل صبي في

العاشرة من عمره تقريبًا، ثمّ تبعه صبي أصغر عمرًا، وفتاة في الثّالثة عشرة تقريبًا من عمرها، ففتاة أخرى بجديلتيْن لا تتجاوز السّابعة من عمرها.

«كانوا قد أنهوا الدّوام المدرسي حين طرقتما الباب» قالت مدام ترافير. «استغرق اختباؤهم في العليّة وقتًا أطول من المعتاد».

كل ما فعلته إيفا هو التّحديق إلى المرأة.

«إنّهم يختبؤون إذا طرق أحدهم الباب» علّل الأب كليمنت. «تحسبًا للأسوأ».

«و... يذهبون إلى المدرسة؟»

«بكل تأكيد» قاطعت مدام ترافير. «حتمًا لا تعتقدين أنّ هذه مدة إجازة بالنّسبة إليهم، أليس كذلك؟ وحتمًا لا تعتقدين أنّي سأتركهم يلعبون حولي طوال اليوم. ستتلف أدمغتهم».

قاطعها الأب كليمنت بابتسامة: «مدام ترافير تقصد أنّنا نكافح لتوفير حياة طبيعيّة لهم قدر الإمكان، وهذا يعني أنّهم يواصلون دراستهم. إنّها تدرسهم هنا».

مدام ترافير: «ستنتهي الحرب يومًا ما. كيف سيكون حالهم إذا لم يتعلّموا؟»

لمح جميع الأطفال إيفا باهتمام بسيط بعد نزولهم من العليّة، لكنّهم انشغلوا في ما يحبون الآن، فلم يعيروها بالًا؛ الصَّبيّان يلعبان الشّطرنج في الزّاوية، والمراهقة تُخربش بقوة في دفتر، أمّا الفتاة الأصغر سنًّا فتقرأ كتابًا على أريكة. استقرّ نظر إيفا عليها. «أجميعهم لاجئون يهود؟»

أشاحت مدام ترافير بنظرها، لكنّ الأب كليمنت أومأ بالإيجاب. «أجل. من الشّمال».

«وماذا سيحدث لهم بعد وصولهم إلى سويسرا؟»

«يُتَبَنَّوْن» قالت مدام ترافير، نبرة صوتها قاطعة واضحة. «مؤقّتًا. حتّى يلتم شملهم مع أهاليهم».

فكّرت إيڤا في والدها فأغمضت عينيها لمنع الدّموع. «وماذا لو لم يلتم شملهم؟»

«هناك تدابير لهذا الأمر أيضًا» قال الأب كليمنت. «منهم من سيعود إلى فرنسا، ومنهم من سيبقى مع أسرته. سنحرص على أنْ يلقى كلٌّ منهم الرّعاية. هذا على رأس أولويّاتنا». سكت ثمّ أضاف: «وأنتِ يا عزيزتي جزء من هذه العمليّة».

«الآن» قالت مدام ترافير وهي تصفّق فجأة «يكفي ما شاهدتموه. هلّا غادرتما؟»

بدأت تبتعد، لكنّ الفتاة الصّغرى ذات الجديلتيْن رفعت رأسها ونظرت إلى إيڤا، أمّا إيڤا فشعرت بانجذاب إلى الطّفلة. مشت عبر الغرفة، وتجاهلت مدام ترافير التي قالت أمرًا ما عن عدم تحبيذ التّفاعل المتبادل مع الأطفال.

«ما اسمك يا غالية؟» سألت إيڤا وهي تميل إلى مستوى الطّفلة التي ما زال كتابها مفتوحًا على حضنها.

رمشت الطّفلة. «آن»، من طريقة نطق اسمها، ثمّ إشاحتها النّظر، عرفت إيڤا أنّ هذا اسمها المستعار لضمان سلامتها.

«سعيدة بمقابلتك يا آن. اسمي الآنسة مورو»

تأمّلتها آن. «هذا ليس اسمك الحقيقي، أليس كذلك يا آنسة؟»

هزّت إيڤا رأسها نفيًا، شعرت بالذّنب. كيف تكذب على طفلة؟ لكنّ قول الحقيقة أخطر. «لا. ليس كذلك».

في أحد الأيّام، حين وَجب على إيڤا تزوير مستندات الفتاة، ستعرف اسمها الحقيقي. تساءلت من أين أتت، وإلى أين ستذهب من هنا. تبدو صغيرة جدًّا على انتزاع جل حياتها منها. «كم عمرك يا آن؟» سألت.

«ستّة ونصف. سبعة تقريبًا»

«وماذا تقرئين؟»

نظرت الفتاة إلى الكتاب، وقالت: السّاحر أوز. أتعرفينه؟ إنّه عن فتاة اسمها دوروثي، وجدت نفسها في أرضٍ غريبة اسمها أوز، حيث قابلت فزّاعة، وحطّابًا، وأسدًا جبانًا».

ابتسمت إيڤا. «لقد قرأتها. لكن أليست صعبة على فتاة في عمرك؟»

استنكرت الفتاة، وقالت: «أعرف معظم الكلمات، وقد أعطتني مدام ترافير قاموسًا للكلمات التي لا أعرفها. لا يهم ما دمت قادرة على فهم الشخصيّات».

«القراءة عن شخصيّات متخيّلة كهذه ممتع»

«ربّما، لكن لم أقصد هذا. أقصد أنّي مثل دوروثي بشكل ما، أليس كذلك؟ أنا في مغامرة عظيمة، وذات يوم، سأعثر على طريقي إلى المنزل»

كان على إيڤا أنْ تبتلع الغصّة التي في حنجرتها قبل أنْ تجيب. «هذه ملاحظة جيّدة».

دقّقت الطّفلة في عينيّ إيڤا. «أتعرفين كيف تنتهي؟ دوروثي تعود إلى منزلها، أليس كذلك؟»

«أجل. أجل. تعود»

«وأسرتها تنتظرها هناك؟»

لم تستطع إيڤا فعل شيء غير الإيماء.

«جيّد» قالت آن. «ذات يوم سيقودني الطّريق ذو اللبنات الصّفراء إلى منزلي أيضًا. أعرف هذا».

اقترب الأب كليمنت من إيڤا، ووضع ذراعه حولها. «إيڤا، يجب أنْ نغادر فعلًا. لكنّي أرى أنّك قد قابلتِ نزيلتنا التي تعشق الكتب».

ابتسمت آن للرّاهب. «الآنسة مورو قرأت ساحر أوز أيضًا يا أب كليمنت!»

«جيّد يا آن. أتصدقين أنّ الآنسة مورو قد عملت في مكتبة كبيرة ملأى بالكتب يومًا ما؟ أومن بأنّها تعشق الكتب مثلك تمامًا»

نظرت آن إلى إيڤا، وقد اتّسعت عيناها من فرط الدّهشة. «في أحد الأيّام، أتمنّى العمل في مكتبة أيضًا. أتعتقدين أنّ هذا ممكن؟»

«بالتّأكيد» أجابتها إيڤا والحسرة في صوتها. «المكتبات أماكن ساحرة».

أومأت آن تأييدًا ثمّ نقلت انتباهها لصفحات الكتاب، وغرقت في عالم أوز مرّة أخرى. رمقت إيڤا الطّفلة بنظرة أخيرة ثمّ أخرجها الأب كليمنت بلطف.

بدأ الليل يخيّم حين أوصدت مدام ترافير الباب خلفهما، ومشى الأب كليمنت مع إيڤا باتّجاه الكنيسة. تساقط الثّلج بصمت، متعلّقًا بحواف السّطوح.

«أشكرك» قالت إيڤا برقّة عند زاوية مبنى.

«هناك ستّة عشر منزلًا آخر في القرية وسبعة بيوت ريفيّة تؤوي أطفالًا. آوت مدام ترافير أطفالًا لوقت أطول من غيرها ممّن في القرية. أوّل من تطوّعت بعد وصول الأطفال من باريس».

الأطفال الأربعة الذين قابلتهم إيڤا اليوم جزءٌ لا يذكر من عدد كبير من الأيتام الذي فقدوا آباءهم. ما الذي حلّ بهم؟ هل ستكون حياتهم طبيعيّة من جديد؟ أيمكنك تشييد حيواتهم من العدم؟ «كيف ننقذهم جميعًا؟» سألت بهمسٍ أخيرًا.

«بالشّجاعة يا إيڤا» قال الأب كليمنت فورًا. «وبضعة من الإيمان».

الفصل التّاسع عشر

مع حلول سنة 1943، كان من الصّعب تذكّر شعور الطّقس الأدفأ. قبض الشّتاء بمخالبه الجليديّة على أورينيون قبضة محكمة، أغرقها بمطر متجمّد وثلج، وجمّد شوارعها، وأرسل رياحًا عاصفة في الدّروب.

الفائدة الوحيدة لهذا الطّقس هو أنّه أفزع الألمان. عوضًا عن تعزيز مواقعهم في أدوارهم في المنعطفات، التمسوا الدّفء في مقهى القرية الوحيد إلى جانب نار مشتعلة، ويشربون قهوة أحضروها من ألمانيا، تنتشر رائحة الكاكاو السّاخن في الطّرقات أحيانًا، تثير غيظ إيڤا وتعجّبها. من يحسبون أنفسهم ليتمتّعوا بكل النّعيم الفرنسي في وقت يختبئ فيه الأطفال في منازلهم يعانون الأمَرّيْن من فرط الجوع والبرد؟ تضاعف تعداد سكان القرية لوجود اللاجئين في العام الماضي رغم أنّ سكّان أورينيون يعون جيّدًا أهميّة التّحضير لشتاء طويل وشاق، لذلك لم يتوافر طعام يكفي الجميع.

زارت إيڤا الأطفال أسبوعيًّا رغم اعتراضات مدام ترافير، بحذر متناهٍ من عدم وجود أي شخص في الشّارع حين تدخل المنزل. مساحة أورينيون صغيرة، لا يزيد عدد سكّانها على ألف مقيم، كلٌّ منشغلٌ في شؤونه. كلّما قلَّ عدد النّاس الذي رأوها (باستثناء من في القداس)، كان أفضل، خاصّة أنّها تشعر أحيانًا بنظرات الجدّات تحرق ظهرها إذا ركعت للصّلاة. أنْ يروها وهي تقترب من مدام ترافير أسبوعيًّا في غاية الخطورة.

لم يصل لاجئون جُدد في هذا البرد القارس، ولهذا بقيت إيڤا مع الأطفال الذين التقتهم بعد عيد حانوكة مباشرة، وقد اعتادوا منزلهم الجديد. درسوا كلّ صباح مع مدام ترافير، وفي بقيّة اليوم رفّهوا عن أنفسهم في صالة الاستقبال.

«أتعتقدين أنّ والديّ على قيد الحياة؟» وجّهت آن سؤالها إلى إيڤا في أحد أيّام شهر فبراير. كانتا تجلسان جنبًا إلى جنب على الأريكة، وفي حِجر آن نسخة بالية من رواية أطفال الكابتن غرانت. يتجمّع أمامهما الصّبيّان الأكبر عمرًا والفتاة المراهقة حول جهاز تسجيل تمكّن رِمي من الحصول عليه، يستمعون إلى ألبوم جاز بصوت خفيض، يتهامسون مع بعضهم. رفضت مدام ترافير وجود جهاز تسجيل في منزلها لإيمانها بأنّه شائن، لكنّ الأب كليمنت أقنعها أنّه سيساعدها على تعزيز الأخلاق الحميدة في الأطفال. «حسنًا»، قالت بتذمّر. «لكن دون رقص البتّة».

«العوامل كلها تُشير إلى ذلك» أجابت إيڤا بحذر بعد صمتٍ طويل. عرَفت القليل عن حياة آن قبل مجيئها إلى أورينيون، لأنّ الأطفال كانوا ممنوعين من الحديث عن ماضيهم، لكنّها عرفت من الأب كليمنت أنّ آن قد جاءت من قرية خارج باريس وأنّ والديْها قد اعتقلا في أكتوبر الماضي.

قالت آن بعد صمتٍ: «أتعلمين، حين كانت دوروثي في أوز، لم يكن لديها أدنى فكرة أنّ منزلها في كنساس قد دمّرته زوبعة. بذلت قصارى جهدها لتعود إلى خالتها وخالها، لكنّها لم تعرف إن كانا فيه».

«أعلم» قالت إيڤا بحذر. أنهت آن الكتاب بعد رأس السّنة، ولا تتحدّث إلّا عنه منذ ذلك الحين، ارتبط أملها بشخصيّة خرافيّة دلّت الطّفلة على طريق العودة إلى الحياة السّابقة من مكان اسمه كانساس.

«لكنّهم كانوا هنا، يا آنسة مورو. كانوا هنا طوال الوقت، قلقين عليها. وهي عادت إلى المنزل، ولُمّ شملهم كعائلة من جديد».

«صحيح» أيّدت إيڤا مرّة أخرى. أخذت نفسًا عميقًا. «لكن، آن، عزيزتي، هذه ليست أوز»

«أعرف هذا يا آنسة مورو» قالت آن فورًا. «يمكننا التّخيل، أليس كذلك؟»

لم تقل إيڤا شيئًا، لأن الطّفلة بلا شك على حق. وهذا سبب وجود الكتب في نهاية المطاف. الكتب منافذنا لعوالم ووقائع وحيوات أخرى موجودة في أذهاننا. لكن في فترة عصيبة كهذه، هل هناك خطورة من هذه التّخيّلات؟

«آنسة مورو» قالت آن مرّة أخرى بعد سكوت إيڤا زمنًا طويلًا. «أعرف أنّ من الصّعب أحيانًا تصديق أنّ الحياة المثاليّة قادمة، لكن أليس هذا أفضل من تصديق بأنّنا سنستمر في هذا السّوء؟»

رمشت إيڤا تأييدًا. الطّفلة في السّادسة تقريبًا؛ كيف فكّرت بهذه الطّريقة؟ «أنتِ على حق تمامًا يا آن».

«أُفضّل امتلاك أمل على أي حال» ختمت الفتاة حديثها، وهي تربّت على يد إيڤا كما يفعل الكبار للأطفال. «أعتقد أنَّ عليكِ أنْ تؤمني به أيضًا، وإلّا ستصبح الأمور مفزعة، ومن الصّعب مواصلة العيش. الآن، أقرأتِ كتاب: أطفال الكابتن جرانت؟»

ابتسمت إيڤا. «للكاتب جول ڤيرن؟ أجل، قرأته حين كنت في مثل عمرك تقريبًا».

«جيّد. إذن فلا بدّ من أنّك تعلمين أنّ في قلب الظّلام أمل»

تذكّرت إيڤا أطفالًا فخورين في القصّة، كانوا قد عادوا إلى حضن والدهم في النّهاية، بعد رحلة مرعبة في العالم. «أعتقد أنّه موجود. أعتقد أنّه موجود».

***

في ذلك المساء، عملت إيڤا وحيدة في مكتبة الكنيسة على نور شمعةٍ واحدةٍ حين وصل الأب كليمنت، بحزن ظاهر على وجهه. «علينا إنهاء تزوير مجموعة هُويّات سريعًا» قال وهو يسلمها القائمة. «صباح الغد لو أمكن».

قرأت إيڤا القائمة. أربعة أسماء ألِفَتْها خلال الأشهر القليلة الماضية. توقّفَت، وأطرافها ترتجف حين وصلت إلى الاسم الأخير: آن الصّغيرة. «اعتقدت أنّ المرافق كان يتمهّل ليكون الطّريق أدفأ» قالت برقّة وهي ترفع عينيْها.

تلقينا معلومة سريّة عن نيّة الألمان في تفتيش منزل مدام ترافير، صباح الغد ربّما. يشتبهون في اختباء أطفالٍ يهود فيه».

شعرت إيڤا بتجمّد الدّم في أوردتها. «لكن كيف؟ من أبلغهم؟»

عضّ الأب كليمنت شفتيْه. «قد يكون أي شخص: جار غيّور، عابر فضولي. قد يكون أي شخص، شرطي له مصلحة. معظم أهالي هذه القرية يكرهون الاحتلال إلّا أنّ هناك قلّة قليلة من الانتهازيين».

«كيف يخونون أطفالًا!» سألت بغضب. «وما الذي يريده الألمان منهم على أي حال؟ أي أذى سيرتكبون؟»

تنهّد الأب كليمنت. «يبدو أنّ هذا ليس الهدف».

«أيمكنني توديعهم على الأقل؟»

«لا يمكن. لا يمكننا الاختلاط بهم، لعلّهم تحت المراقبة. إضافة إلى أنّ لديك عملًا مكثّفًا هذه الليلة حتى تجهز المستندات قُبيل الفجر. أترغبين في إطلاع والدتك بعدم عودتك إلى النّزل هذا المساء؟»

أومأت إيڤا بالإيجاب ببطء ولمست اسم آن المألوف لها، إلى جانب تاريخ الميلاد المُزيّف الذي جعلها في الخامسة والنّصف بدلًا من السّادسة. «من هي حقيقةً؟»

أدخل الرّاهب يده في جيبه وأخرج قائمة ثانية. أصبح هذا واقعهم الجديد؛ ستُسجّل إيڤا أسماءهم، أسماءهم الحقيقيّة، ثمّ تحرق الورقة. الأسماء الحقيقيّة مفصولة عن الأسماء الزّائفة، في حال اكتشاف أي شخص الأوراق قبل إتلافها. «إنّها الأولى».

طالعت القائمة. «فرانيا كور» قرأت بصوتٍ عالٍ. نظرت إلى الأب كليمنت، ابتلّ بصرها بالدّموع. «اسمها بولندي. أتعرف ما يعنيه اسمها؟»

«لا»

«فرانيا يعني فرنسا أو حُرّة» تحشرج صوت إيڤا. وُلدت على الأغلب في فرنسا مثلي، واعتَقد والداها أنّ اسمها سيحميها، ويمنحها حياة أفضل».

«لكن يمكننا حمايتها يا إيڤا» قال الأب كليمنت. «يمكننا فعل هذا لأجلها، لتنعم بالأمان، ونضمن مستقبلًا زاهرًا لها» قال بتردّد. «ما كان عليّ السّماح لكِ بالتّعلّق بها».

مسحت دموعها. «لا تندم. أنا سعيدة لأنّك فعلت. هذا يذكرني بمن أجازف بحياتي لأجلهم». كما أنّ ليس بوسع الأب كليمنت فعل شيء لمنع هذا الارتباط. من اللحظة الأولى التي شاهدت فيها إيڤا الفتاة، رأت روحًا متّقدة، حالمة أخرى فقدت روحها ثمّ وجدتها في الكتب.

«لا فائدة تُرجى من تقديم بضعة من قلبك في خضم الحرب». انتظر تحديق إيڤا إليه. «هذا خطر يا إيڤا».

عرفت إيڤا أنّه لا يقصد الأطفال فقط. تذكّرت رِمي الذي قابلته مرّات أقل في الآونة الأخيرة بسبب انشغاله في تنفيذ مهمّات التنظيم السّري. «أعتقد أنّ الخطر يكمن في عدم فعل ذلك» قالت بتنهيدة، ثمّ توجّهت إلى الرّف الذي خلفها لتأخذ كتاب الأسماء المفقودة.

«سأستدعي رِمي. ليساعدك في إنجاز الوثائق في الوقت المطلوب».

شكرته إيڤا ثمّ غادر. عادت إلى الكتاب وفتحته على الصفحة 147. في السّطر الثّاني، رسمت نجمة سوداء صغيرة على حرف F من كلمة Fils، ونقطة فوق حرف R من كلمة parconséquent. هنا، على الأقل، فتاة صغيرة اسمها فرانيا كور. ستبقى هنا حتّى لو حاول العالم طمس وجودها. نجاحها في الوصول إلى أوز، سيعني عودتها إلى منزلها يومًا ما.

***

نجحت إيڤا في تزوير أول مجموعتيْن من الوثائق مع وصول رِمي بعد ساعة، على معطفه الأسود أثر نُدف الثّلج، وعلى كتفه حقيبة. وضعها في زاوية ثمّ نزع قبّعته، فركها بتوتّر. «إلى أين وصلتِ؟»

تنهّدت إيڤا. «ستكون ليلة طويلة».

«حسنًا. كيف أساعدك؟»

أشارت إيڤا إلى اسم الفتى الذي رأته يلعب الشطرنج مرّات كثيرة. باتت تعرف الآن أنّ اسمه الحقيقي هو: جون، وهو اسم جعلها تظن أنّ والديْه ينحدران من ألمانيا أو النّمسا، لكن يستحيل التّيقن من هذا. أحد أكبر الأطفال، ولعلّه يكتنف أسرار الماضي معه، لكنّها أضافت اسمه إلى الكتاب على أي حال، كما فعلت مع جميع أطفال هذه المجموعة. سيكون هناك توثيق لاسمه على الأقل إذا اعتقل أو قتل خلال عملية الهروب، وإذا جاء فرد من أفراد أسرته بحثًا عنه، فستخبرهم القليل عمّا حدث؛ أنّ قريةً جبليّةً صغيرةً قد آوته.

«زاد غيابك مؤخّرًا» قالت إيڤا ببرود لرِمي الذي بدأ يكتب البيانات الزّائفة بحذر على إحدى شهادات الميلاد التي جلبها جوزِف في شهر نوڤمبر. حزمة الأوراق على وشك النّفاد، وعلى إيڤا طلب المزيد منه.

أشاح بنظره. «يجتمع رجال في الغابة» قال ببطء، ثمّ أضاف: «يتدرّبون. يستعدون».

«لماذا؟»

«للقتال الذي نعرف أنّه آت لا محالة»

«لكن حسبتك مرافقًا للأطفال فحسب»

التفت لينظر إليها. في عينيه ألم وعزم. «أعرف أنّ الأب كليمنت يؤمن بأنّ السّبيل الوحيد للانتصار في هذه الحرب هو بالدّفاع السّلمي. ما عدت أتّفق معه».

«ماذا تقصد؟» إيڤا تعرف الإجابة مسبقًا، فحاولت كبح تدفّق دموعها التي تعرف أنّها ستبلّل وجنتيْها لاحقًا، وهي وحيدة.

«أنّ على أحدهم قتال الألمان يا إيڤا. لن ينقذنا الآخرون. البريطانيّون يساعدون، لكنّهم ليسوا هنا أليس كذلك؟ ولا حتّى الأمريكيون. نحن وحيدون، والألمانيون تزداد قوّتهم، في حين أنّنا ندفن أنوفنا في مستندات مزوّرة. يجب إيقافهم قبل فوات الأوان، وإلّا لن نلوم إلّا أنفسنا على ضياع فرنسا».

«رِمي، أنا...»

نظر إليها، لكنّها لم تجد تتمّة لجملتها. كيف ترجوه للتّوقف عمّا يفعل، وهي تؤيّده في قرارة قلبها؟ وكيف تعلّل أنّ عملها معه سبعة أشهر بلا انقطاع قد ولَّد فيها رغبةً في حمايته؟ إنّه تعرف خفّة ظله، وتعرف مهاراته التي شكّ فيها، وتعرف كذلك مشاعره التي يسعى لإخفائها. لكن ليس من حقّها أنْ تشعر بهذا، أليس كذلك؟ لا عهود، لا أيمان، لا نذور تجمعهما. ولهذا لم ينطقا بكلمة لدقائق. «إيڤا سأكون بخير» قال أخيرًا. «لطالما كنت بخير. أجد مخرجًا على الدّوام، أتذكرين؟»

«رِمي، أخشى أنّ كل ما نفعل لن يأتي بأكله في نهاية المطاف»

لم يجبها. عملا بصمت لساعات، إيڤا تحفر بحذر الدّمغات المطلوبة على الأسطوانة، ورِمي يكتب على الأوراق بمهارة نَسّاخ.

أنقذت آن الصّغيرة -فرانيا كور- أخيرًا. أخذت أوراقها من بين يدي رِمي وطلبت كتابة بياناتها، شعرت بنزول دمعة على خدها. أشاحت بنظرها، لكن تأخّر الوقت. شاهدها رِمي، وببطء، بلطف أدهشها، مسحها بإبهامه.

توقّف، سبّابته أسفل ذقنها، وحين رفعت عينيها لتشاهده، كان وجهه على مسافة إنشات من وجهها. لاح شعاع الفجر في الأفق خارج النّافذة، وسيأتي الأب كليمنت عمّا قريب ليأخذ الأوراق، وسيرتحل الأطفال شرقًا. لكن الآن، توقّف الزّمن مع تساقط النّدف من سقوف المنازل، وحين مال رِمي لتقبيلها، شعرت بأنّها قد عادت إلى منزلها.

قرّب جسدها منه، لاءمت تقوّس جسده تمامًا. تكامل خصرها الرّقيق مع صلابة صدره الرّجولي كأنّهما جزء من أحجية صور مقطوعة لم تتخيّل أنّها موجودة. طريقة تقبيله أشعرتها بأنّه يعرفها تمام المعرفة، لربما أفضل ممّا عرفت نفسها. تخلّلت أصابعه شعرها، ولمس جسدها، بخجل في البداية، ثمّ بثقة أكبر.

لم يُقبل أي شخص شَفتيْها بهذه الطّريقة من قبل. كانت فتاة محافظة لتملأ والديْها فخرًا بها. فتاة خامرها شعورٌ بالذّنب كلّما لاطفها الفتية اليهود في المدرسة، رغم عدم السّماح لهم بالتّمادي. الآن، أطبق رِمي بشفتيْه على شفتيْها، رفعها لتجلس على طاولة العمل، لم ترغب في شيء غير ملامسة بشرته لبشرتها، الالتصاق به قدر الإمكان.

بعدها، فجأة، توقّف وتراجع وتركها بملابسها، وخدّيها المحمرّين، وجسدها المشتعل. «أنا... نحن لا يمكن» قال ثمّ أشاح بنظره بسرعة وهو يرتّب قميصه.

«لكن...» همست بتيه. هل فعلت أمرًا خاطئًا؟ لعل انعدام خبرتها ظاهر.

«لستِ السّبب» قال لها في إجابة سؤال لم تسأله. ما زال يشيح بنظره، لكن عند وقوفها وترتيبها شعرها، شعرت بأنّه يعرف أنّها تصارع دموعها.

«إذن ما...؟»

«يستحيل أنْ أتسبب بخذلان شخص آخر» قال وهو ينظر إلى قدميْه.

«لكن يا رِمي، أنتَ لن...»

«سأفعل» قاطعها. شعرت بحشرجة خفيفة في صوته. «سأفعل يا إيڤا، ألا تريْن؟ سأخذلك، حينها لن أتمكّن من التّصالح مع نفسي. أنا... أنا آسف. يجب أنْ أذهب».

غادر مسرعًا من باب المكتبة السّرية كأنّ المبنى على وشك الاشتعال. عزاؤها الوحيد كان في نظرة أخيرة التقت فيها العيْنُ العيْنَ. في تلك الهُنيهة، رأت العذاب والحزن على وجهه. كان صادقًا، عرفت هذا؛ هرب لأنّه يعتقد أنّه سيجرحها.

قد تطاردها فكرة عدم اللحاق به، لكنّها ظلّت في مكانها تشعر بالخزي والإخلاص لوالدتها. حين هدأت توجّهت إلى باب الكنيسة الرئيس، لم يكن في مدى نظرها. آثار أقدامه على الثّلج، باتّجاه منزل الأطفال، وهذا دليل على بقائه هناك طوال الوقت.

لم تذهب إيڤا إلى منزلها ذلك الصّباح؛ أرادت البقاء لتسلم الأب كليمنت الأوراق بنفسها، وفي عقلها الباطن تمنّت أنْ يُغيّر رِمي رأيه ويرجع.

لا يمكنها مواجهة أمّها أيضًا، خاصّة مع مشاعرها المضطربة. قبّلها رِمي وشعرت بأنّ هذا أفضل ما حدث لها مطلقًا، أكثر شعور طبيعي في العالم. لكن كيف حدث هذا وهو ليس يهوديًا؟ لن تسامحها أمّها بتاتًا، وماذا لو لم يسامحها تاتوش أيضًا؟ كيف تخونهما الآن؟ كلّما جلست على مصطبة الكنيسة، زادت حيرتها. هل ستكون أشجع إذا تبعت قلبها على حساب والديْها؟ أم أشجع إذا أدارت ظهرها لشخص حُرّمت مَحبّته عليها لتحافظ على تاريخٍ انتزع نزعًا من بني شعبها؟ لا يبدو أنّ أيًّا من هذين الطّريقين صائب.

حين وصل الأب كليمنت بعد ساعة، وجدها جالسة في البرد. آثاره تلاشت بسبب تساقط الثّلج الكثيف.

«ماذا تفعلين في الخارج؟» سألها الأب كليمنت وهو يصعد السّلالم، ووجهه محمرٌ من أثر البرد القارس. «هل من خطب؟»

«أنا...» كيف تشرح له ما حدث دون أنْ تبدو غبيّة؟ «كنت أشم الهواء النّقي فقط».

لم يقنعه جوابها، لكنّه أومأ وساعدها. «ادخلي يا إيڤا. ستموتين بردًا. أأكملتما أنتِ ورِمي العمل؟»

لفّت وجهها قبل أنْ يرى احمرار خدّيْها. «أجل...».

الجو في الكنيسة دافئ، قادت إيڤا الرّاهب باتّجاه المكتبة، وشعرت في هذه الأثناء أنّها مصنوعة من الثّلج، قلبها بارد ووجهها مُحمر. «يا إلهي يا إيڤا» قال الأب كليمنت وهو ينظر إليْها بقلق في الغرفة السّريّة. «منذ متى وأنتِ في الخارج؟ أنتِ شبه متجمّدة».

«منذ وقت قصير» قالت بلا مبالاة. فقدت إحساسها بالوقت. كل ما تدركه هو مرور وقت كاف لمحو آثار رِمي. «رَحل رِمي».

«أجل» قال الأب كليمنت، ولاحظت أنّه يعرف هذا بالفعل.

«أتعرف أين يمكنني إيجاده؟» قالت إيڤا بتردّد. أعتقد أنّي يجب أنْ أطلعه على أمور، أمور لم أحكها له البارحة».

عبس الأب كليمنت. «ألم يخبرك؟»

«يخبرني! بمَ؟»

«إيڤا، سيرافق رِمي أطفالاً اليوم».

«سـ... ماذا؟»

«قال إنّه يعرف مدى قربك من أطفال مدام ترافير خلال الأشهر الماضية، خاصّة آن، وأراد أنْ يتأكّد من عبورهم الحدود بأمان»

غصّت إيڤا. «غادر بسببي؟»

ابتسم الأب كليمنت ابتسامة حانية، فخامرها شعور تعرفه بأنّ بوسعه النّظر إلى مكنونات قلبها. «ذهب لأنّه رجل صالح يحاول فعل الصّواب».

«لكنّه لم يخبرني»

«لعلّه أراد بث الطمأنينة في قلبكِ»

أو لعلّه كان أكيدًا من أنّها ستمنعه. لعلّ قبلتهما قبلة وداع. أهذا ما قصده من أنّه لن يخذلها؟ أكان يخشى أنّه لن يعود؟ اقشعرّ جسدها لبرودة تجاوزت البرودة التي شعرت بها وهي خارج الكنيسة. «الدّرب خطر في هذا الوقت من السّنة» قالت بهدوء.

«صحيح»

«برأيك متى سيعود إلى أورينيون؟»

«إيڤا، لا أعلم متى سيعود» قال بعد لحظة. «أخبرتني الحركة السّريّة بأنّهم بحاجة إلى خبرته».

«خبرته؟»

في عيني الأب كليمنت قلق شديد. «قبل مجيئه إلى أورينيون، يبدو أنّه عمل في التّفجير».

«تفجير؟ رِمي؟»

«لديه معرفة بمجال الكيمياء»

«طبعًا. من معرفته بحمض اللاكتيك»

أومأ الرّاهب بالإيجاب. «كما فهمت منهم أنّ صنع المفخّخات يتطلّب معرفة دقيقة بها»

هذا يعني أنّ رِمي سيكون في مكان ما، ليفجّر شيئًا ما، مخاطرًا بحياته. هل ستقابله من جديد؟ شعرت فجأة أنّها تغرق. «لكنّي أحتاج إليه» قالت بوهن.

هل فهم الرّاهب كلماتها خطأ عن قصد، أم أراد تجنيبها إحراج إجابة حقيقيّة. «ستكونين بخير يا إيڤا. في الواقع، سترسل الحركة مزوّرًا آخر في مكانه ليساعدك مدة معيّنة».

«مزوّرًا آخر؟» قلّبت إيڤا نظراتها في المكان بشرود. شاركها رِمي هذا الحيّز. لم تتخيّل وجود رجل آخر هنا، رجل يتنفّس هواء كان من المفترض أنْ يتنفّسه رِمي، ويشغل مكان رِمي.

«صراحة، أخبروني بأنّها مقاربة لكِ في العمر»

«امرأة؟» خالف هذا توقّعاتها، لكن ما المانع؟

أومأ بالإيجاب، ثمّ قال: «ستصل خلال شهر».

توجّهت إيڤا ببطء إلى المستندات التي زوّرتها خلال الليل، تلك التي ستسمح للأطفال بعبور الحدود السويسريّة إذا سارت الأمور حسب الخطّة. استجمعت شجاعتها وهي تُسلّمها إلى الأب كليمنت. «أيمكنني القدوم معك؟ لأودّعه؟»

من تحديقه عرفت أنّه خمّن مشاعرها. «لا يا إيڤا. لا يمكنك. في الواقع، أصبح رِمي مع الأطفال خارج القرية. سينقل أحدهم الوثائق الآن. إنجاز الأمور بطريقة أخرى فيه خطورة».

«حتّى أنت لن تقابل رِمي؟»

وضع يديها بيْن يديه، ثمّ قال: «أشعر بأنّنا سنقابله من جديد. تذكري يا إيڤا: علينا التّحلّي بالإيمان».

باغتها شعور مقيت، ذلك لأنّها تعرف أنّ الكاثوليكيين يؤمنون بأنّهم سيجتمعون بأحبائهم في الحياة الأخرى، بعد موتهم. والأب كليمنت لم يعدها بتاتًا أنّه سيعود على قيد الحياة. لعلّه يقصد أنّهم سيجتمعون يومًا ما، إذا كانوا أحياء، بعيدًا عن هذا المكان. سيتأخّر الوقت كثيرًا حينذاك.

الفصل العشرون

وصلت المزوّرة الجديدة بعد أسبوعين. إنّها في السّادسة والعشرين واسمها المستعار جَنْڤييف مارشاند. شعرها الأسود القصير ذكّر إيڤا فورًا بالممثّلة ماري بِل. طويلة السّاقيْن لدرجة أنّها من الممكن أنْ تكون نجمة سينمائيّة، لكن في زمكان آخر. مظهرها لافت للنّظر هنا، فتساءلت إيڤا كيف يمكن لامرأة بمثل هيئتها أنْ تعمل لصالح المقاومة التي اعتمدت بشكل أكبر على قدرات الأشخاص على الاندماج، تمامًا مثل إيڤا.

جاءت من منطقة أخرى اسمها بلاتو، على بُعد 150 كيلومترًا جنوب أورينيون. عاشت في قرية ينتشر فيها التّزوير انتشارًا واسعًا، ويختبئ فيها أكثر من ألف يهودي، بتوجيه من كاهن بروتستاني محلّي يعمل مع المقاومة. بدا في كلام جنڤييف مبالغة، لكنّ الأب كليمنت أكّد كلامها. «الآن بما أنّ التّنظيمات بدأت تصبح أكثر تنظيمًا، صار بمقدورنا التّواصل معهم». قال الرّاهب، ثمّ أضاف: «ولهذا أرسلوا جنڤييف إلى هنا. (بلون) هو اسم الرّجل الذي درّبها، وقد زوّر آلاف المستندات».

تبيّن أنّ وسائل تزوير بلون لا تختلف عن وسائل إيڤا، رغم أنّه يعمل على نطاق أوسع. باستخدام ناسخات صغيرة فيها هلام لنسخ الأختام. هذا يعني أنّ جنڤييف ملائمة تمامًا، حتّى لو لم تعرف إيڤا بهذا بصوت مرتفع، إنّها أفضل من رِمي، أكثر دقّة وحذرًا. عثرت أحيانًا على أخطاء –خطأ إملائي بسيط أو تناقضات في التّفاصيل– قبل إيڤا، وهذا وحده يعني أنّها تستحق

إمضاء الوقت معها. عثورها على خطأ إضافي واحد يعني انتماءها إلى هذا المكان.

مع بدء ذوبان الثّلج، عملت جنفييف في مكان رِمي لأكثر من شهر، ورِمي لم يعد بعد. خشيت إيڤا أنْ تنساه، لكن في كل صباح، في اللحظات الأولى الفاصلة بين الأحلام واليقظة تتذكّر عذوبة شفتيه على شفتيْها، وتتذكّر ملاصقة جسده لجسدها. ولا تقوم من سريرها إلّا بتلاشي تلك المشاعر، وتتذكّر وحدتها من جديد.

كلّما زادت مدة غيابه، ازداد تساؤلها إذا كانت تخدع نفسها بإمكانية زوال مشاعرها نحوه. حتّى في العالم المثالي –في عالم لا حروب فيه مع عدو يريد قتل أشخاص يشبهونها– كان لا يزال كاثوليكيًا، وهي لا تزال ابنة يهوديّيْن يستحيل أنْ يقبلا به. علّمتها الأشهر التّسعة الماضيّة أهميّة تقدير واحترام العائلة. لعلّ أمّها على حق، ويجب أن تنساه، وتحاول تقبّل رجل يُلائمها أكثر؛ مثل جوزِف. المشكلة الوحيدة هي أنّها لم تتمكّن من إقناع قلبها بهذه الأفكار.

ومع ذلك، لقد تركها، أليس كذلك؟ تعرف أنّه في الخارج يقاتل، يفعل خيرًا –هذا إذا كان على قيْد الحياة– لكن في ليالٍ أحلك، وجدت إيڤا نفسها بأنّه كان سيبقى لو أحبّها بما يكفي.

جنفييف لم تتكلّم كثيرًا، وهذا يناسب إيڤا التي ازدادت ثقتها بالشّابة، لكن لم تكلّمها عن كتاب الأسماء المفقودة. في البداية، تفكّرت في الأمر أكثر من مرّة، لأنّهما عملتا يوميًا معًا، ولم يكن هناك شك في إخلاص جنفييف للقضية مثل إيڤا تمامًا. لكنّ

السّـر بأمـان أكبـر مـع رِمـي والرّاهـب فقـط، لهـذا وافـق الرّاهـب علـى عـدم الإشـارة إليـه أمـام جنڤييـف، ولـم تضـف إيڤـا أسـماء جديـدة إلّا فـي غيـاب المـرأة.

فـي يـوم من أيّـام سـنة 1943 الدّافئـة بحـق، فـي أواخـر أبريـل، بعد ذوبـان الثّلـج والجليـد بمـدة طويلـة، خرجـت إيڤـا مـن المكتبـة السّـريّة مبكـرًا، وسـألت أمّهـا عمّـا إذا كانـت تريـد التّنـزّه. فـي باريـس، كانـت هـي ووالدتهـا كإصبعيـن فـي يـد واحـدة، كحبتـيْ بـازلّاء فـي جـراب واحـد. تشـاركتا كل التّفاصيـل، وتاقـت إيڤـا لتفخـر والدتهـا بهـا. هنـا، انقلبـت الأحـوال؛ لـم تتقبّـل الأم مـا تفعلـه ابنتهـا، ولتتعايـش الابنـة مـع نفسـها، ادّعـت عـدم الاهتمـام. لكنّهـا تكتـرث، علـى الرّغـم مـن أنّهـا تعلـم علـم اليقيـن أهميّـة عملهـا، فعذّبهـا تزايـد البعـد بيْنهمـا. الآن، برحيـل رِمـي، تمكّنـت إيڤـا مـن ملاحظـة الفجـوة التـي فـي حياتهـا وتمثّلـت فـي العاطفـة والإخـلاص.

«أردتِ الحديـث معـي؟» سـألتها أمّهـا وقـد توقّفـت عـن طـي البطّانيّـات لتحـدّق إلـى إيڤـا بتحيّـر. نتيجـة ازديـاد انشـغال إيڤـا فـي التّزويـر، قامـت أمّهـا بـكل مهـام التّنظيـف والطّبـخ لمـدام باربييـر. فـي الصّيـف، قالـت مـدام باربييـر، قـد يكـون لدينـا نـزلاء، لكـن فـي الوقـت الحالـي، ماموشـا تـؤدي خدمـة بإبقـاء المـكان نظيفًـا مقابـل أجـر زهيـد. تسـاءلت إيڤـا لـو أنّ أمّهـا قـد اشـتبهت فـي أنّ مـدام باربييـر تُشـفق عليهـا وتحـاول إبقاءهـا منشـغلة.

«هـل هـذا غريـب جدًا يـا ماموشـا؟» لـم تقصـد إيڤـا الحـدة التـي فـي صوتهـا، لكـن هـذا مـا حـدث.

تابعت ماموشا طي البطّانيّات. «كنت واثقة من نسيانك أمّك كما نسيت أنّك لستِ كاثوليكيّة».

«لا تتكلّمي بهذه الطّريقة»

«بأي طريقة؟ بطريقة امرأة فقدت كل شيء لتمنحكِ حياة هانئة، ثمّ هَمّشتِها؟»

أخذت إيڤا نفسًا عميقًا. «لم يحدث هذا يا ماموشا»

تذمّرت ماموشا، لكنّها تركت البطّانيّة أخيرًا والتفتت باتّجاه إيڤا. «رائع. يمكننا التّنزّه، أعتقد. لكنّي وعدت مدام باربيير بإعداد الحساء الليلة، ولهذا يجب أنْ نعود خلال ساعة».

بعد خمس دقائق، مشتا مبتعدتيْن عن ميدان القرية، في الاتّجاه المعاكس للكنيسة ومنزل مدام ترافير، ولأوّل مرّة خلال أسابيع، شعرت إيڤا بأنّها قادرة على التّنفس. بدأ الخبيز يتكاثر في صناديق على الشّرفات، متشبّعة بالشّمس، وحتّى الألمان المنتشرون لم يعيروا المرأتيْن بالًا. لوّحت لمدام نورو التي كانت ترتّب واجهة متجرها، والسّيد ديناود الذي لم يرتد المريلة، لكنّها تجنّبت أنظار أحد رجال الجندرمة الفاحصة الذي عرفت أنّ اسمه هو بيسنارد. بدا أنّ عينيْه تراقبان ماموشا حتّى استدارتهما عند الزاوية.

«مدام باربيير عامَلتنا بالحسنى» قالت إيڤا، فقط لتكسر الصّمت.

حدّقت ماموشا إليها. «أنا أصنع معروفًا لها. أُبقي المنزل نظيفًا. لا تجعليني أشعر بأنّها تُشفق علينا».

«لم أقصد هذا»

«جيّد، لأنّ مدام باربيير، على أي حال، لا تدفع لي أجرًا كافيًا. ما تدفعه لا يغطي قيمة عملي حتمًا. تمامًا كما لا يدفع لك الرّاهب أجرًا كافيًا نظير عملك. إنّهم لا يعرفون قيمتنا كما تعلمين».

تنهّدت إيڤا. الحقيقة هي أنّ الأب كليمنت قد عرض عليها أجرًا أكبر بتمويل من الحركة السّريّة، لكنّ إيڤا طلبت إرسال أغلبه إلى منازل الأطفال. هناك مجموعة جديدة منهم في أورينيون، وينتظرون ترحيلهم إلى سويسرا، والمال الإضافي سينفعهم. «لا نحتاج إلى أكثر ممّا لدينا» ذكّرت إيڤا والدتها.

«نحتاج حتمًا. أنا أدّخر المال للمستقبل. سنحتاج إليه حين نجتمع بوالدك». والدتها ما زالت مقتنعة أنّ تاتوش سيعود رغم كل الوقائع.

«ماموشا...» بدأت إيڤا حديثها.

«أنتِ ابنة أبيكِ يا إيڤا» قاطعتها والدتها، ثمّ أضافت: «ومع ذلك يبدو أنّك مصرّة على خلق حياة لا مكان له فيها».

«غير صحيح. أنا... أنا سأخصّص له مكانًا دائمًا. لكليكما»

تنفّست أمّها بصعوبة ثمّ سكتت. شعرت إيڤا بتجمّع دموعها خلف جفنيْها. «لقد رحل رِمي يا ماموشا. أردتك أنْ تعرفي هذا».

سكتت أمّها. «ومع هذا، ما زال يشغل بالك».

«أحاول ألّا أفعل»

من جديد، سكتت أمها طويلًا، وحين نطقت، كان في صوتها دفء لم تشعر به إيڤا منذ مدة. «لربما لم تنسي من أنتِ بعد كلّ ما حدث».

في اليوم التّالي، كانت إيڤا تعمل مع جَنْڤييڤ بتجاور إلى الطّاولة في المكتبة، بصمت وهما تضغطان على خطوط الحروف الرّفيعة التي أضيفت توًا إلى بطاقات التّموين ليبدو الحبر أقدم عمرًا، باليًا أكثر. بعد الانتهاء من الحبر، قامتا بطي وإعادة طي الأوراق، أيضًا؛ وهي عمليّة تلقائيّة تتم دون تفكير، لكنّها ضروريّة ليعتقد النّاظر إليْها أنّها حُملت زمنًا طويلًا في الجيب.

«أين كنتِ قبل المجيء إلى هنا؟» جنڤييڤ سألت فجأة، أذهل إيڤا كسر هذا الصّمت لدرجة أنّ يدها انزلقت ورسمت خطًا بالحبر على البطاقة التي لن تُستخدم الآن. «أعتذر» قالت جَنْڤييڤ وهي تبتسم ابتسامة مواربة.

«لا بأس» قالت إيڤا وهي تتنهّد وتأخذ بطاقة أخرى. «لم أتقن صنعها على أي حال».

أومأت جَنْڤييڤ، لكنّها لم تقل كلمة أخرى. إيڤا تعرف أنّ الشّابة تنتظر إجابة السؤال.

«أتعنين ما كانت وظيفتي؟» قالت إيڤا بجرأة.

أومأت جنڤييڤ مرّة أخرى، ثمّ قالت: «أنتِ ماهرة في التّزوير» قالت بتردّد. «بلون، أراد أنْ يكون طبيبًا، لكنّ القوانين منعته من دراسته الطّب، ولهذا أصبح كاتبًا على الآلة الكاتبة ومُصلحًا لها في نيس، قبل إجباره هو ووالدتي على النّزوح. لكنّي أعتقد أنّه عمل بدقّةِ جرّاح».

رفعت إيڤا حاجبًا. كان تبجيلها المتواصل لمعلّمها، وسهولة مشاركتها معلومات شخصيّة عنه بغيضًا. إيڤا أهلٌ للثّقة بلا شك، لكن يُفترض عدم التّهاون في هذه المسألة. ماذا لو اعتُقلت

وعُذّبت لتكشف عن معلومات؟ باتت تعرف الآن أصل أهم مزوّر، وعمله السّابق، وإلقاء القبض عليه سيسعد النّازيّين بلا شك. قالت إيڤا بلطف: «كوني أكثر حذرًا. يجب ألّا أعرف هذه الأشياء عن (بلون)، رغم أنّها تفاصيل رائعة».

أُحرجت جَنْڤييف. «هذا ليس اسمه الحقيقي يا إيڤا. مجرّد اسم مستعار. على أي حال، أعتذر بشدّة. كل ما هنالك أنّي حاولت تبادل الأحاديث معك».

«أعرف أنّي غدوت شديدة الاحتراز». اغرورقت عينا جَنْڤييف بالدّموع، فأضافت إيڤا: «إجابة عن سؤالك، كنت طالبة في تخصّص الأدب الإنجليزي».

مسحت جَنْڤييف دموعها وابتسمت. أدركت أنّ الكلمات اعترافًا. صحيح أنّ إيڤا قد شاركت الشّابة معلومة مهمّة، لكن في باريس معاهد وجامعات كثيرة، وهذا يُصعّب البحث عنها، حتّى مع معرفة هذه المعلومة.

«ماذا عنك؟» سألت إيڤا. «كل ما أعرفه أنّك قد جئتِ من بلاتو».

«أنا...»، بدأت جَنْڤييف، لكن قاطعهما فتح باب المكتبة خلفهما. جمعتا بطاقات التّموين فورًا وأخفتاها تحت الكتب المبعثرة على الطّاولة؛ هذا رد فعل إيڤا التّلقائي إذا لم تتوقّعا زائرًا. فعلٌ خاطفٌ.

لا خطر اليوم. إنّه جوزِف الذي قال: «أعتذر اعتذارًا شديدًا على إفزاعكما أيّتها الشّابتان»، ثمّ أغلق الباب خلفه. «أعطاني الأب كليمنت مفتاحه».

نظرت جَنْڤييف باستفهام إلى إيڤا، فيما تفحّص جوزِف الفتاة ذات الشّعر الأسود بنظرة عجلى. انتبهت إيڤا إلى أنّهما لم يتعرّفا إلى بعضهما، رغم أنّ جَنْڤييف قد أصبحت جزءًا من حياة إيڤا اليوميّة. «جَنْڤييف، هذا... جيرارد فوكون». في مناداته بالاسم المستعار غرابة، خاصّة أنّ الاسم لا يُلائم جوزِف الذي عرفته في باريس. «جيرارد هذه جَنْڤييف مارشاند، شريكتي الجديدة».

«آه». عبر جوزِف الغرفة، وأمسك يد جَنْڤييف، ثمّ قبّلها بلطف وتودّد. ابتسم لإيڤا أوّلًا، ثمّ لجَنْڤييف، وكان على إيڤا أنْ تمنع نفسها من التّحديق في رد فعل جَنْڤييف التي خجلت ورمشت برموشها الطّويلة بتوتّر. «لم أكن أعلم أنّ شريكة إيڤا فائقة الجمال» قال جوزِف بابتسامة. «لكنت قد أتيت مبكرًا».

قهقهت جَنْڤييف. «مقابلتك شرف يا سيّد فوكون».

«من فضلك يا آنسة نادني جيرارد فقط»

«حسنًا. فقط إذا ناديتني جَنْڤييف»

«شرفٌ لي. الآن جَنْڤييف، أتمنى أنْ تعذريني لأخذ إيڤا للحظة»

«بكل تأكيد». لا تزال جَنْڤييف بلون الطّماطم.

«جيّد. سأرجعها خلال وقت قصير»

قاد جوزِف إيڤا إلى خارج المكتبة، وأشار إلى الأريكة. «لن نثير الشّبهات إذا دخل أي شخص. مجرّد عاشقَيْن يُصليان طلبًا للأمان».

لكلماته وقع خاطئ على إيڤا؛ ألا يوجد سبب آخر لاجتماع رجل وامرأة في كنيسة؟ لكن في عيني جوزِف ظُلمة، ملامحه جادّة، فعرفت أنّ هناك خطبًا. «ما الأمر يا جوزِف؟»

انتظر حتى جلسا على ركبتيْهما جنبًا إلى جنب، وهما يدّعيان الصّلاة. «جرت اعتقالات في أنّيسي قبل أيّام. شريكك في التّزوير أحد المعتقلين».

عجزت عن التّنفّس فجأة. «ماذا؟»

«كان ينقل مجموعة أطفال إلى سويسرا. دقّقوا في أوراقه، وحقّقوا معه».

«جوزِف، هل...؟» لم تتمكّن من نطق الكلمة.

نظر إليها بلا مشاعر.

«مات؟» أجبرت نفسها على نطق الكلمة. هل أعدموه؟»

«لا، لا. إنّهم يستجوبونه الآن مع المرأة التي معه»

المرأة التي معه. مرافقة أخرى حتمًا، لكنّ الكلمات أوجعت معدة إيڤا. تساءلت إذا كان هذا قصد جوزِف. «ماذا عن الأطفال؟» سألته بصعوبة.

«إنّهم بخير. اعتقلوه في طريق العودة، بعد أنْ عبر الحدود بسلامة».

«لكنّي اعتقدت أنّه يتعامل مع المتفجّرات لصالح الحركة السّريّة»

استهجن جوزِف. «كان. لكن لديه خبرة في عبور الحدود، وقد احتجنا إلى شخص يعرف تمامًا ما يفعله. لم نتوقّع أنْ تكون المشكلة في مستنداته». استهجن مرّة أخرى، فبدت على قسمات إيڤا أمارات الخزي.

«لكن كيف؟» سألته. «ما الخلل في الأوراق؟»

«النّازيّون يزدادون مهارة يا إيڤا»

«بلا شك، ولهذا استخدمنا الجريدة الرّسميّة. بدت لنا موثوقة؛ استعارنا منها هُويّات رسميّة.

«مع الأسف، انتحل شخصيّة رجل يعرفه أحد رجال الجندرمة. هذا الشّرطي عرف أنّ الشّاب قد قتل في حادث في مزرعة في العام الماضي»

«يا إلهي» تمتمت، للكلمات تأثير صادم عليها.

«انظري يا إيڤا، أعلم أنّ هذه نكسة» وضع جوزِف ذراعه حولها، ثمّ أضاف: «لكن يجب أنْ نفكّر في المستقبل. سأتكلّم مع الأب كليمنت، لكن عليكما؛ أنتِ وجنڤييڤ الاحتجاب عن الأنظار بضعة أيّام»

رفّ جفنها. «لماذا؟»

«في حال بلغ رِمي عنكِ»

بلّلت دموع الغضب عينيّها. «لن يفعل هذا بتاتًا».

«إيڤا، إنّهم يُعذّبونه دون أدنى شك. أنتِ تجهلين ما يمكن أنْ يفعله المرء تحت الضّغط».

تألّمت. «لكنّي أعرفه تمام المعرفة».

«إيڤا». انتظر حتّى التفتت إليه. «يستحيل معرفة أي شخص. أتعرفين ذاتك؟»

حدّقت إليه، وقالت: «بالتأكيد».

ابتسم ابتسامة حزينة. «أتعرفين ذاتك تمام المعرفة؟ في نهاية المطاف، ما عدتِ تلك الفتاة التي في باريس، أليس كذلك؟ النّاس يتغيّرون يا إيڤا». قام، ثمّ قال: «أنا أكيد من أنّك محقّة بخصوص رِمي، لكنّ أخذ الحيطة أفضل من النّدم».

غادر قبل أنْ تعترض أكثر، وبعد مغادرته، شعرت بأنّها خائنة لأنّها لم تدافع عن رِمي بشراسة.

ظلّت جالسة على المقعد نصف ساعة، بتنميل تام في جسدها، دخل الأب كليمنت من الباب الخلفي، وقال: «أتحدّثتِ مع فوكون؟».

أومأت بالإيجاب. التفتت إلى الرّاهب وتفاجأت من انهمار دموعها من جديد. «يستحيل أنْ يخوننا رِمي أيّها الأب كليمنت».

«أعتقد أنّك على حق يا إيڤا، لكنّ فوكون على حق أيضًا. يجب أنْ تتواريا عن الأنظار بضعة أيّام، احتياطًا». في عينيْه تعاطف شديد.

«لا أستطيع» قالت بعد سكوت طويل، فأومأ كأنّه يعرف ردّ فعل مسبقًا. «يجب أنْ أعثر على طريقة لإنقاذه. إذا كان اعتقاله بسبب المستندات التي زوّرناها معًا، فأدين له بتخليصه من المشكلة».

«إيڤا، لم تتسبّبي بأي خطأ»

«أعرف». تعرف بالفعل، لكن لو كانت هناك طريقة لتخليصه من براثن النّازيين، فستجدها. «سأذهب إلى جَنْڤييف لأطلب منها المغادرة مدة قصيرة. أنتَ أيضًا توخّى الحذر».

هزّ الأب كليمنت رأسه اعتراضًا. «هذا منزلي يا إيڤا» أشار إلى تمثال يسوع وابتسم. «أنا معه مهما حدث».

أومأت إيڤا. إنّها تفهم هذا أيضًا. لن تهجر شخصًا تحبّه. في هذا معنى أكبر الآن.

الفصل الحادي والعشرون

دخلت إيڤا إلى المكتبة، كانت جَنْڤييف مُحدّبة الظّهر إلى الطّاولة، تعمل على تغيير هُويّة شاب من المقاومة.

«جَنْڤييف» قالت إيڤا بلطف، فنظرت شريكتها في التّزوير إلى الأعلى بابتسامة اختفت من وجهها فور رؤية وجه إيڤا العابس.

«ما الأمر؟»

«يجب أنْ تغادري فورًا»

«عفوًا؟»

«هناك... هناك احتمال لإلقاء القبض عليك. فوكون يريدنا أنْ نتخفى بضعة أيّام، حتّى نطمئن من سلامتنا»

بدت جَنْڤييف مُتحيّرة. «لكنّ هناك عملًا كثيرًا يجب إنجازه، ومجموعة أخرى من الأطفال سيغادرون مطلع الأسبوع القادم».

«يمكنني إنجازه بنفسي. لا أريد تعريضك للخطر»

«ماذا حدث؟» سألت بنبرة رقيقة وهي تتأمّل ملامح إيڤا.

حاولت إيڤا التّماسك. «رِمي، الرّجل الذي عمل قبلك... اعتُقل».

لم تقل جَنْڤييف شيئًا، وإيڤا لم تسمعها وهي تتحرك، فجأة، طوّقت إيڤا بذراعها واحتضنتها بقوّة. بدهشة، تيبّسَت إيڤا ثمّ بادلتها العناق، ابتعدت بعدها، ومسحت دموعها.

«إنّه يعني الكثير لكِ» قالت جَنْڤييف.

«صحيح». اكتفت إيڤا بهذه الكلمة.

«كيف...؟»

بمجرّد حديث إيڤا ببطء عن أوراق رِمي التي لم تُطابق السّجلّات الرّسميّة، تغيّرت ملامح جَنْڤييڤ. أوقفت إيڤا حديثها وسألت: «ما الأمر؟ أتعتقدين أنّهم قتلوه؟»

«لا، لا، لا شيء من هذا القبيل» قالت جَنْڤييڤ، حينها لاحظت إيڤا التماع عيني الشّابة بشيء يشبه الأمل. «أتعنين أنّ هُويته منتحلة من الجريدة الرّسميّة؟ وقد اخترتما مزارعًا فرنسيًا صدف أنّ أحد رجال الجندرمة يعرفه؟

أومأت إيڤا ببؤس.

«لكن ماذا لو كشفنا عن سبب انتحاله هُويّة المزارع؟ ماذا لو جعلناه مواطنًا يحمل جنسيّة دولة حليفة لألمانيا، ويعلّل بسذاجة أنّه يحمل الإثباتات المزوّرة لأنّه يخشى رفض جيرانه الفرنسيين إذا اكتشفوا حقيقته؟ في أسوأ الأحوال، سيسجن أسبوعًا أو أسبوعين لتقديمه وثائق مزوّرة، لكن سيعدونه أحمقَ، ولن يُعدم بتهمة الخيانة، خاصّة إذا كان مؤيّدًا لألمانيا. نحتاج فقط إلى بيانات رجل تحصّل على الجنسيّة قبل زمن بعيد، في طفولته، لتبرير سبب فقدان رِمي لهجة بلده في كلامه».

ازدادت سرعة ضربات قلب إيڤا. «سيطلبون اسم المصدر الذي زوّده بالمستندات المزوّرة».

«حينها سيعطيهم اسم مزوّر باريسي أُعدم. لورانت بولنجير، على سبيل المثال، ماريوس أوغستين.

حدّقت إيڤا إليها. «أتعتقدين أنّ الفكرة ستنجح؟»

«إذا وجدنا الهُويّة الصّحيحة، هُويّة تطابق كل شيء، لا شائبة فيها». تحرّكت جَنْڤييف باتّجاه الباب. «لم لا تتركين لي مهمّة البحث عن الاسم المناسب، ويمكنك بدء العمل على المستندات الواجب إنهاؤها. سأعود في أقرب وقت ممكن».

«لماذا تساعدينني يا جَنْڤييف؟» لم تقاوم إيڤا طرح السّؤال.

«فيها خطورة ربّما».

«أنا لا أهرب من الخطر يا إيڤا، وإلّا ما كنت لأكون هنا»

«أشكرك» همست إيڤا، لكنّ جَنْڤييف استهجنت الشّكر بهز كتفيْها، ثمّ رحلت، تاركة إيڤا في صمت المكتبة مكتبة خالية لن تنتعش إلّا بعودة رِمي. لكنّ جَنْڤييف حليفة أيضًا، ولا بدّ من قول شيء لعثورنا على أشخاص نستودعهم سرّنا في أحلك الأوقات.

***

غير قادرة على إغماض عينيْها دون التّفكير في وسائل قد يستخدمها النّازيون لتعذيب رِمي، عملت إيڤا المساء كله، والليل كلّه. عند الصّباح، حين جاءت جَنْڤييف حاملةً حقيبة على ظهرها، أنهت إيڤا جميع الإثباتات والوثائق المساندة المُخصّصة لمجموعة الأطفال الجديدة، وقد أضافت أسماءهم إلى كتاب الأسماء المفقودة.

«أبقيتِ هنا طوال الليل؟» سألت جَنْڤييف، وهي تضع الحقيبة على الطّاولة، وتشاهد حزمة الأورق المرتّبة.

«لم أتمكّن من النّوم»

«أحسنتِ صنعًا». أخرجت جَنْڤييف جرائد قليلة. «أتمنى أن لديك طاقة للعمل على مجموعة إضافيّة من الجرائد. عثرت

على هُويّة شخص تلائم رِمي؛ شاب، في السّابعة والعشرين من عمره. تجنّس قبل عشرين عامًا بعد وصوله من النّمسا. ظهر اسمه من جديد في سجل الزّواج عام 1942، أي أنّ لديها شيئين لتزويرهما حسب السّجلات الرّسميّة. طالعت كلّ أعداد الجريدة الرّسميّة الموجودة في مكتب الأب كليمنت المؤرّخة بعد ذلك، ولا يوجد إشارة إلى موته، ولهذا أعتقد أنّ بوسعنا افتراض أنّه على قيد الحياة. هنا الجريدتان اللتان ذكر اسمه فيهما».

أخذتهما إيڤا، إحداهما مُصفرّة بعض الشّيء، فهزّت رأسها بتعجّب. «لا أعرف ما أقول».

«لا داعي لقول شيء يا إيڤا. جميعنا مشترك في هذا. الآن، كيف أساعدك؟»

بسرعة، استعدّت إيڤا لتزوير مستندات هُويّة لرِمي بانتحال شخصيّة أندراس كونغ، المولود في الثّاني عشر من شهر مايو عام 1915، الذي هاجر إلى فرنسا من الجمهوريّة النّمساويّة الأولى مع والديْه، وتحصّل على الجنسيّة عام 1922. كان مزارعًا، وهذا يُعلّل عدم استدعائه للخدمة العسكريّة، وطبقًا للجريدة الرّسميّة في أغسطس، تزوّج شابّة فرنسيّة، اسمها ماري ترافير عام 1920. بحوزتها صور فوتوغرافيّة لرِمي، مُخبّئة بين صورها، في حال احتاجوا إليها لهُويّات جديدة بسرعة، ما بسّط عمليّة التّزوير الجديدة التي غطّوها بالأختام اللازمة. لديه مخالفة لقيادة الدّراجة دون مصباح في (سيرڤاس)، وبطاقة مكتبة من (بورج إن بورج) اكتملت بها عمليّة الانتحال الجديدة.

عند مجيء الأب كليمنت لتفقّد الشّابتيْن، كانت إيڤا على وشك الانتهاء. «هل اقتربتِ من إنهاء المستندات؟» سألها وهو يسحب ويُغلق الباب الثّقيل خلفه.

«أوشكت أن تنتهي»

«أحسنتِ. سآخذها في حال انتهائك منها»

اختفت ابتسامة إيڤا. «إلى أين ستأخذها؟»

أخطّط لإحضار رِمي بنفسي»

أب كليمنت...»

رفع يدًا ليقاطعها. «صلّيت طوال الليل يا إيڤا، وهذا هو التّصرّف السّليم. سأذهب بنفسي؛ راهب قلق بشأن أحد المُصلّين، وسأقنعهم أنّه يخجل من ماضيه النّمساوي بكل بساطة. سأعتذر عن الخطأ الشّنيع لاستخدامه مستندات مزوّرة، وسأعاهدهم أنّ الأمر لن يتكرّر.

«لو أنهوا استجوابه...» بالكاد تمكّنت إيڤا من نطق هذه الكلمات.

«أؤيد ما ذكرته سابقًا يا إيڤا، وأومن بأنّ هذا لم يحدث. هل هناك مجازفة؟ نعم. لكنّي أمضيت مدة الحرب حتّى الآن داخل هذه الكنيسة، في حين أنّ رجالًا مثل: رِمي وفوكون يضحّون بأرواحهم في الخارج يوميًا. حان وقت إقدامي على الأمر ذاته».

«سأرافقك» قالت إيڤا.

هزّ رأسه رفضًا بصرامة. «سيعقّد هذا الأمور، ويزيد الخطورة. أضيفي إلى هذا أنّنا لا نستطيع المخاطرة بحياتك أنتِ أيضًا في حال عدم سير الأمور على خير ما يرام».

لـم تتقبّـل رأيـه، لكنّهـا تعلـم أنّـه علـى حـق. «أنـا... أنـا لا أعـرف كيـف أشـكرك».

«أنـا الـذي أشـكرك جزيـل الشّـكر يـا إيڤـا» قـال الأب كليمنـت. أحـاط يديْهـا بيديْـه وضغـط عليهمـا براحـة قبـل مغادرتـه.

* * *

بعـد ثلاثـة أيّام، كانـت إيڤـا تعمـل وحيـدة فـي المكتبـة حيـن فُتـح البـاب. «رِمـي؟» نـادت وهـي تقـف.

إنّـه الأب كليمنـت، وعلـى وجهـه التّجهّـم والحـزن، فزعـت إيڤـا فزعًـا شـديدًا. «أب كليمنـت، هـل...؟»

عاجلهـا بالإجابـة، وقـال: «إنّـه بخيـر. مثّـل دوره جيّـدًا. فـي الحقيقـة، بمعجـزة مـا، كان يعـرف بضـع كلمـات نماسـاوية-باڤاريّة كانـت كفيلـة بخـداع قـوّات الجندرمـة. حمـدًا للـرّب لـم يكـن حُبـس عنـد الألمانييـن بعـد».

ارتـاح قلـب إيڤـا، ولكـنْ، لا يـزال فـي قلبهـا شـيء مـن الخـوف. نظـرت خلـف الأب كليمنـت مـرّة أخـرى، وتسـاءلت: «أيـن هـو؟»

عبـر الأب كليمنـت الغرفـة وأمسـك يـدي إيڤـا. «لـن يعـود فـي الوقـت الحالـي».

«لكن...»

«إنّـه بخيـر يـا إيڤـا، لكنّهـم يحتاجـون إليـه فـي الشّـمال. لا أعـرف سـبب إبعـاد جودبـرت وفوكـون لـه مـن خـلال السّـفر المتكـرّر لعبـور الحـدود، لكنّ المقاومـة السّـرية تحتـاج إلـى خبرتـه فـي المتفجّـرات. لـن يرافـق الأطفـال بعـد الآن، السُّـلطات تراقبـه. grillé [تحمّـص] كمـا يقولـون».

«هل... آذوه؟»

«ضربوه قليلًا، هذا كل ما في الأمر. من الواضح أنّهم اعتقدوا أنّه يُهرّب السّجائر لفائدة. لا يملكون أدنى فكرة عن عمله ضدّهم. فهمهم الخاطئ أنقذ حياته».

تنفّست إيڤا الصّعداء. «وهل هو بأمان؟»

«حتّى الآن. لكنّ ما يفعله خطِر. لو قبض عليه الألمان في عمل تخريبي، سيعدم فورًا يا إيڤا. يجب أنْ تعرفي أنّ احتمالات النّجاة لا تصب في صالحه».

«هم ليسوا في خندق أيضًا. ومع هذا ما زلتُ هنا»

ابتسم ابتسامة بسيطة. «كل ما يمكنني فعله هو الدّعاء له، وفعل ما بوسعنا هنا لدعم العمل، كما فعلنا دائمًا».

سألته بعد لحظة: «أب كليمنت؟ هل سأل عنّي؟»

«أكيد»

«وماذا؟»

حدّق الأب كليمنت إليها. «أراد أنْ نضمن سلامتك»

«فقط؟ لا رسالة؟»

«لا، مع الأسف يا إيڤا»

غادر الأب كليمنت، وسمحت لدموعها بالتّدفق. حاولت مسحها، لتخبر نفسها بأنّ أنباء اليوم السّعيدة هي: أنّ: رِمي على قيد الحياة، ولم يُصب بأذى تقريبًا، ولن يُرافق الأطفال بعد اليوم.

غير أنّه لن يعود إليها، ولن تعرف أخباره. ستمنحه هُويّة أندراس كونِغ حماية إضافيّة، لكنّها تدرك أنّ قيمتها معدومة إذا ألقوا القبض عليه في عمل إجرامي، أو حصل خطأ وفجّر نفسه.

الأب كليمنت مصيب، كل ما بوسعها فعله هو الدّعاء.

التفتت إلى أعداد الجريدة الرّسميّة، وبدأت مطالعتها بحثًا عن هُويّات يمكن انتحالها لأشخاص مثل رِمي في الجبهة الأماميّة للحرب ويقاتلون الألمان.

* * *

في الأسبوع التّالي، ذهبت إيڤا إلى النّزل ونامت بجانب والدتها ثلاث مرّات في الأسبوع؛ أمضت الليالي الأخرى مستيقظة في كنيسة، تطالع الجريدة الرّسميّة، وتزوّر المستندات، وتسرق ساعات نوم قليلة إذا تمكّنت من ذلك. هناك بطاقات تموين يجب طباعتها، هُويّات لتزويرها، أطفال لحمايتهم، مقاتلون لإخفائهم. لم تنقص كميّة الأعمال. ساعدتها جَنڤييڤ رغم أنّها كانت تغادر قبل شروق الشّمس. عملت جَنڤييڤ مثل إيڤا خلال النّهار وجلبت النّور إلى المكتبة البائسة.

في يوم الخميس، بعد عودة الأب كليمنت بخبر عن رِمي، سمحت إيڤا لنفسها أخيرًا بالمغادرة مبكرًا. وجدت أمّها جالسة عند نافذة في صالة الاستقبال، تحدّق بشرود.

«ماموشا، أأنتِ بخير؟» سألت وهي تميل إليها.

لم تلتفت أمّها. «أتساءل فقط عن مكان والدك الآن».

أطبقت إيڤا جفنيها بقوّة، ثمّ فتحتهما. قالت بلطف: «ماموشا...»

قاطعتها: «أتعرفين ماذا كنّا نفعله في مثل هذا التّاريخ، قبل ثلاثين عامًا؟»

«لا، ماموشا»

«كنّا نتزوّج. ارتَدى أبوكِ بدلة استعارها، وارتديت فستانًا أبيض اللون معتقدة أنّ كل أحلامي قد تحقّقت. ظننت أننا سننعم بحياة رائعة. حياة طويلة. أمّا الآن، فانظري إلى حالنا؛ هو في مكان ما شرقًا، يفكّر فيّ ربّما، وأنا هنا، وحيدة تمامًا».

«أوه ماموشا» نسيت إيڤا هذا التّاريخ. «مبارك. أعتذر عن عدم تذكّر المناسبة. مخطئة إذا اعتقدتِ أنّكِ وحيدة. أنا هنا».

«أنتِ منهمكة في عالمك يا إيڤا، ولا مجال لي فيه»

أرادت إيڤا أنْ تخبرها بأنّ لا مجال في حياتها لأي شخص، لكنّ هذا ليس صحيحًا؛ هناك مكان لرمي، لكنّ مكانه الآن بارد ومظلم. «ماموشا سأكون هنا دائمًا. آسفة لأنّي لم أشعرك بهذا الأمر».

تنهّدت ماموشا. «الاعتذار لن يُعيد والدك إليّ» ابتعدت، ثمّ سمعت إيڤا بعد ثوانٍ قليلة صوت باب غرفتهما يوصد بقوّة.

خرجت مدام باربيير من المطبخ، وهي تجفّف يديْها بمنشفة.. «أكل شيء على ما يرام؟»

«يبدو أنّ كل ما أفعله يتسبب لأمي بالخذلان»

«عزيزتي، والدتك مرهقة فقط، منهكة من الأمل، منهكة من الانتظار». مشت مدام باربيير في الغرفة ووضعت يدها على كتف إيڤا، ثمّ قالت: جميعنا هنا. هذه الحرب طويلة، وكل ما تعرفه هو أنّ أهم الأشخاص في حياتها -أنتِ ووالدكِ- قد ابتعدتما عنها».

«ابتعدنا! أنا هنا»

«لا تشعر بهذا، رغم أنّ هذا ليس خطأك»

«لكنّها عائلتي»

«وفي خضم حربٍ كهذه، تدركين أنّ الأسرة أقوى علاقة إنسانيّة. أنا والأب كليمنت أسرتك الآن، وكذلك كل الأطفال الذين ساعدتهم، وكل الرّجال والنّساء الذين بإمكانهم مواصلة القتال لتحرير فرنسا لأنّك حميتهم».

«لا يعالج هذا حال والدتي»

«ستفهم يومًا ما أنّك ولدت لهذه المهمّة»

نظرت إيڤا إليها. «برحيل والدي، مع هذا...» لم تكمل جملتها.

«عزيزتي، ألا ترين؟» ابتسمت مدام باربيير لها. «دون أشخاص مثلك، سيحتل الذّئاب فرنسا. الطّريقة الوحيدة لإنقاذ أمّك هي بإنقاذ فرنسا، وهو ما تفعلين».

عادت مدام باربيير إلى المطبخ، ثمّ طرقت إيڤا باب الغرفة المقفل، لكن لم تجبها والدتها.

«ماموشا، افتحي الباب من فضلك» نادتها إيڤا. «أنا أحبّك. لا أحاول إيذاءك».

«ابتعدي». قالت والدتها بهمس، لكنّ الكلمة واضحة.

«ماموشا...»

«من فضلك يا إيڤا. أود البقاء بمفردي»

فكّرت إيڤا في البقاء، وإمطار والدتها باعتذارات عن الألم الذي تسبّبه، لكنّ مدام باربيير على حق. إذا سقطت فرنسا، ستُرحّل هي ووالدتها، لأنّ الدّم السّاري في عروقهما يهودي. يجب أنْ تمنع إيڤا حدوث هذا، والطّريقة الوحيدة لفعل ذلك هي بالعودة إلى العمل.

الشّوارع خالية، ولم يزعجها أحد وهي في طريقها إلى الكنيسة. داخل الغرفة الرّئيسة، شموع تحترق على المذبح، فمالت إيڤا إلى الصّلاة. لم يعد يهمّها إذا كان الرّجل ذو العينيْن اللطيفتيْن والحزينتيْن والمعلّق على الصّليب يُفترض ألّا يعني لها شيئًا. عرفت الآن أنّهم جميعًا في الفئة ذاتها. صلّت لأمّها ووالدها، كما صلّت لرِمي، وصلت لتتحلّى بالقوّة لفعل الصّواب؛ أيًّا كان.

بعد نصف ساعة دخلت المكتبة السّريّة وأشعلت الفانوس. شعرت بسلام لم تشعر به منذ زمن. لعلّ كلمات مدام باربيير المتعلّقة بإنقاذ فرنسا، أو ربما استجابة الرّب لصلواتها ووجّهها إلى طريق الحق. جلست لتعمل، لربما بسبب الهم الذي أزيح عن كاهلها، تدفّق الحبر بثبات أكبر، فأنجزت العمل أسرع. عند منتصف الليل، أنهت مجموعة جديدة من الأوراق للأطفال الجدد الذي وصلوا إلى أورينيون.

مضى الآن وقت طويل على بدء حظر التّجول ولن تعود إلى النّزل. عقلها نشيط رغم ألم يديْها، وقفت لتتمدّد، وبعد المشي بضع خطوات، قرّرت دخول الكنيسة لتدعو مرّة أخرى؛ سكنت روحها في الصّلوات السّابقة، وباتت تحتاج الآن إلى كل ذرّة من الطّمأنينة.

ما إن فتحت باب المكتبة، سمعت أصواتًا عالية في الكنيسة. تسارعت دقّات قلبها، اختبأت في الظّلال. من سيأتي إلى الكنيسة في هذا الوقت المتأخّر؟ في إغلاق باب المكتبة الآن خطورة. كانت في غاية الشّجاعة، مع استمرار الحديث، فلم يلحظ أحد

وجودها، لكنّها ستكون محظوظة إذا حاولت التّراجع. ظلّت ساكنة وحاولت التّنفس دون صوت قدر الإمكان.

الصّوتان لرجليّن في الكنيسة، ميّزت صوت الأب كليمنت. استرخت بعض الشيء؛ من حقّه القدوم إلى هنا، حتّى لو كان الوقت متأخّرًا. قد يكون الرّجل الآخر أحد أفراد المقاومة أو حتّى أبرشي محزون جاء للصلاة.

تنفسّها بعدها بانتظام، سمعت الرّجل يتكلّم مرّة أخرى، ففزعت. لهجته ألمانية لا غبار عليها. قلبها ينبض بقوّة، تراجعت بحذر لئلّا تُحدث صوتًا. هناك مُسوّغ منطقي حتمًا.

لكن حين اقتربت من أريكة قرب المكتبة، شاهدت الأب كليمنت في الجانب الآخر من الكنيسة، وقف الدّم في عروقها. الرّجل الآخر مقارب لها في العمر، شعره مموّج، مُحمر الوجنتيْن. وكان يرتدي زي النّازيّة الرّسمي.

وضعت إيڤا يدها على فمها، وعادت إلى الظّلال. لا يمكن أنْ تصدر صوتًا؛ سينتهي أمرها إذا سمعها الرّجلان. ما لم يكن هذا اللقاء بريئًا، حدّثَت نفسها. قد يحتاج الألماني إلى نصيحة دينيّة من الأب كليمنت. لعلّها هواجس فقط.

لكن مع محاولتها لفهم المحادثة، تلاشت آخر ذرّة من التّفاؤل.

«سيتحرّكون في الثّالث عشر» قال الألماني بصوت خفيض.

«أبكر من المخطّط» قال الأب كليمنت بصوت أوضح.

«أجل. ولهذا جئت. أحتاج إلى أسماء».

«ثمّ ماذا؟»

«نتوقع وصول شرود أو كرواس مع مطلع الأسبوع»

«إذن هذا هو الموضوع»

«في الوقت الحالي، ألديك القائمة؟»

«تفضّل»

«سأفعل ما بوسعي»

سمعت جلبة، وبعد لحظات، خطوات أقدام. تراجعت بضع خطوات، لتختبئ مستندة إلى الجدار، لكنّ الأصوات تراجعت، باتّجاه آخر الكنيسة. حبست أنفاسها من جديد حتّى سمعت فتح الباب وإغلاقه. لا بدّ أنّ الأب كليمنت قد خرج مع الألماني، بسبب عدم وجود خطوات أقدام عائدة. بقلب فزع، انتظرت إيڤا دقائق إضافيّة قبل الدّخول إلى المكتبة وإغلاق الباب بسرعة خلفها. إذا وجدها الأب كليمنت، ستتصرّف كأنّها هنا طوال الوقت.

ارتعشت يداها أثناء جلوسها إلى الطّاولة الصّغيرة. هل يخونهم الأب كليمنت؟ هل يتبادل المعلومات مع النّازيين؟ أعادت الحوار في رأسها، وسمعت نبرة وديّة بينهما من جديد، ولاحظت أنّ الرّاهب يألف أسماء الجنود الذين ذكرهم الجندي. وبوضوح، سلّمه قائمة. لكن ما معنى هذا؟ هل يلعب الأب كليمنت لعبة طويلة لا تفهمها؟ أم أنّها تفهم الموضوع خطأ؟

حينئذ، سمعت ضجّة خارج المكتبة، فارتعبت. مع فتح باب المكتبة، ادّعت النّوم على الطّاولة وهي تعمل. أجبرت نفسها على أخذ نفس طويل رغم ارتعاشها. حين شعرت بوجود شخص إلى جانبها شخرت شخيرًا خافتًا، على أمل أنْ يخفي هذا ارتعاش يديْها المستمر.

«إيڤا» تكلّم الأب كليمنت بلطف. «إيڤا هل أنتِ مستيقظة؟»

أغمضت إيڤا عينيْها بقوة وتمنّت مغادرته. ظلّ مكانه بضع ثوان قبل أنْ يتنهّد ويقول أمرًا غير مفهوم، ثمّ سمعت ابتعاد خطواته وفتح باب المكتبة. فتحت عينًا، فوجدت الأب كليمنت وهو لا يزال يرتدي رداء الرّهبان يعود إلى الكنيسة بهدوء كما أقبل. أغلق الباب خلفه، وتركها في ظلام دامس.

الفصل الثّاني والعشرون

لم تتجرّأ إيڤا على التّحرك أو ترك المكتبة حتّى طلوع الفجر، وخلال انتظارها، أجبرها الإرهاق على نصف غفوة ملأى بكوابيس فيها وحوش ترتدي ثياب البشر.

حين سمحت لنفسها بالخروج عند الثّامنة صباحًا، لم تجد أثرًا للأب كليمنت، لكنّها لم تتنفّس بسهولة حتّى عادت إلى النّزل. لا تزال والدتها ترتدي ثياب النّوم والرّداء، تحتسي قهوتها في صالة الاستقبال، حدّقت في إيڤا مع دخولها بضجر. «ليلة بعد ليلة، أقلق بشدّة عليكِ» قالت عوضًا عن تحيّة الصّباح. «لكن أعتقد أنّ هذا ليس مهمًّا أليس كذلك؟»

رأس إيڤا يؤلمها. «ماموشا لا أستطيع فعل هذا الآن. يجب أنْ أبحث عن جوزِف».

تهلّلت أسارير أمّها. «جوزف؟ رائع. لم لا تدعينه على العشاء مرّة أخرى؟ إنّه وسيم، وشاب، وأعزب...»

«توقّفي رجاء»

«لا تعزليني عن حياتك بسهولة يا إيڤا. إنّه رجل صالح ومن عائلة مرموقة. أتعلمين أنّه يأتي ليتفقّدني أسبوعيًّا؟»

توقّفت إيڤا وحدّقت إليها. «ماذا يفعل؟»

نفخت ماموشا صدرها بتفاخر، ثمّ قالت: يقول إنّي أذكّره بوالدته. يبقى ويصلّي معي يا إيڤا، أكثر ممّا تفعلين. يمكنك تعلّم شيء منه. سيكون صهرًا رائعًا».

«ماموشا، كفى!»

«فكّري فيه يا إيڤا. يجب أنْ تكوني مع شخص يشبهنا»

«أجل، ألا يقول النّازيّون الأمر ذاته أيضًا، حين يشجعون شعبهم على الوقوف صفًّا واحدًا ضد من يختلف عنهم؟» أدركت إيڤا سلاطة لسانها، لكنّها أجبرت على ذلك. تعيش أمّها في عالم فيه لونان: أبيض وأسود، وإيڤا تعرف أنّ لا وجود لهذين اللونين؛ كل ما يحيط بهما رمادي.

ضاقت عينا ماموشا. «من السّهل تشتيتي. لكن يمكنك الوثوق بجوزف. كيف تتجاهلين هذا الأمر؟»

تنهّدت إيڤا. «من فضلك. ماموشا، توقّفي عن اختيار زوج لي».

عبست والدتها، ولم تقل أي كلمة إضافيّة. خرجت إيڤا من دورة المياه بعد عشر دقائق، وكانت قد غيّرت ثيابها، وغسلت وجهها. ودّعت والدتها بابتسامة صغيرة، توحي بوضوح أنّ من المحتمل أنْ تأخذ إيڤا بنصيحتها.

لم تعرف إيڤا مكان جوزف، ولا يمكنها سؤال الأب كليمنت عنه حتمًا، ولا يمكنها سؤال سكّان القرية عن فوكون. لكنّها أدركت أنّ مدام ترافير قد تتواصل معه في حالة الطّوارئ، ويمكن الوثوق بها بلا شك؛ حياتها على المحك فقط لتنقذ أطفالًا أبرياء.

طرقت باب منزل الأطفال بعد عشرين دقيقة بقوّة، ففتحت الباب فجأة المرأة ذات الشّعر الرّمادي مرتابة. «ما الأمر؟»

«أنا، إيڤا مورو». ما زالت تشعر بأنّ في استخدام الاسم المستعار مع من تعرفهم مراوغة، رغم مرور الوقت. لكن أثبتت الليلة الماضية استحالة ثقتها بأي شخص نهائيًّا.

عضّت مدام ترافير شفتيْها، وهي تفكّر، ثمّ فتحت الباب أكثر لتدخل إيڤا. «هذا غريب يا آنسة مورو. لم يبلغني أي شخص بقدومك».

«آسفة مدام. هذا موقف غير معتاد. أحتاج إلى جيرارد فوكون، وأتساءل إذا كان بإمكانك مساعدتي»

لم تقل مدام ترافير شيئًا وهي تقود إيڤا إلى الطّابقين العلويّيْن، حيث يوجد خمسة أطفال، تتراوح أعمارهم من الثّالثة إلى الثّامنة تقريبًا، ويلعبون بصمت. لم تسفر حملات الاعتقال في شهر فبراير، انتظرت بعدها أسبوعين فقط قبل إيواء الأطفال مرّة أخرى، لا توجد أماكن كافية لإيوائهم، ولا عدد كاف من النّاس للوثوق بهم. حزنت إيڤا حين شاهدتهم.

«آنسة مورو» قالت مدام ترافير، ومع التفات إيڤا إليها، أدركت أنّ المرأة الأكبر عمرًا تراقبها من كثب وهي تشاهد الأطفال. استرخت ملامحها بعض الشّيء، وانتاب إيڤا شعور أنّها اجتازت اختبارًا لا تعرف شيئًا عن وجوده. «أفهم أنّ في القرية شابّات كثيرات يُردن التّواصل مع فوكون، لكن...»

«ماذا؟ لا، لم أقصد هذا، أنا...» سكتت إيڤا، وهزّت رأسها بحرج. «أحتاج إلى التّكلم معه فورًا، ولا أعرف مكانه».

حدّقت مدام ترافير فيها وقتًا طويلًا، قبل أنْ تتقبّل بإيماءة. «لماذا لم تسألي الأب كليمنت؟»

غصّت إيڤا. رغم أنّ الحوار الذي سمعته بدا مهلكًا، لكن ماذا لو لم يكن كذلك؟ لا تريد إيڤا نشر الظّنون حول الرّاهب حتّى تتأكّد. تدين بهذا على الأقل له. «أنا... أنا لم أقابله هذا الصّباح، ولهذا جئت إليك. من فضلك، الأمر مهم».

عضّت مدام ترافير شفتيْها، وبدا أنّها تفكّر في الطّلب. «عملك رائع في مستندات الأطفال» قالت أخيرًا، «خاطرتِ بحياتك لمساعدتنا، لماذا؟»

باغت هذا السّؤال إيفا، لكنّها أجابت عنه. «لأنّهم لا يستحقّون ما يحدث لهم. بمساعدتهم أشعر أنّه بإمكاني إنارة العالم قليلًا، حتّى وسط الظّلام».

«أشعر بالأمر ذاته» أومأت مدام ترافير ببطء. «حسنًا يا آنسة مورو. يمكنك أنْ تسألي عن فوكون في مزرعة شمال حدود القرية، تلك التي حظيرتها زرقاء وفيها زهور حمراء. أصحابها رفاق الحركة. عرفت أنّه يقيم هناك إذا كان في المنطقة. توجّهي شمالًا عبر (رو دي شيبوتي) وستصلين إليها على تل. يتجمّع فيه منذ أشهر رجال المقاومة الذين يذهبون إلى الغابة للمساعدة».

هزّت إيفا رأسها. تتعلّم يوميًا مسألة جديدة تخص هذه القرية والأسرار التي تكتنفها. «شكرًا لك مدام ترافير».

«شكرًا آنسة مورو» أجابت وهي تنظر إلى عينيّ إيفا. «أيًّا كان السّبب، حافظي على سلامتك. نحتاج إليك».

* * *

احتاجت إيفا إلى خمس وأربعين دقيقة لتمشي حتى مزرعة في طريق قاد إلى قذارة خارج القرية. لم يصادفها أحد في الطّريق، ومع ظهور محاصيل التّلال في مدى نظرها، فهمت إيفا سبب ملاءمة المكان للاختباء.

على أرض المزرعة مبان مختلفة، من بينها منزل حجري كبير، وحظيرة زرقاء متوافقة مع أغصان الورد، ومبان أصغر يبدو أنّها مخصّصة للزراعة. في المكان رجال يعملون بصمت بين صفوف المحاصيل، لكنّهم رفعوا رؤوسهم عند اقترابها. لوّحت بترحيب، وشعرت بنظراتهم تحرقها مع طرقها باب المنزل الرّئيس.

فتحت الباب امرأة بعمر إيڤا تقريبًا، لها شعرٌ طويل داكن، وعينان بُنيتان. بشرتها صافية ومُسمَرّة من أثر الشّمس، ووجنتاها محمرّتان. تجعّد حاجبها حين رأت إيڤا واقفة أمامها. «من أنتِ؟» سألت فورًا.

«أمم، أنا إيڤا مورو» قالت إيڤا بتردّد لأنّ التّرحيب الفظ قد باغتها. كانت تلهث بعض الشّيء من المشي.

نظرت المرأة بجفاء إلى إيڤا وهي تتفحصها من الأعلى إلى الأسفل. «حسنًا، ماذا تفعلين هنا؟ لا نبيع القمح للعامّة، ولا البيض أيضًا. يجب أنْ تنتظري في الصّفوف كالآخرين».

«لم آت من أجل القمح أو البيض، مدام» أخذت نفسًا عميقًا ثمّ قالت: «أبحث عن فوكون».

تراجعت المرأة خطوة إلى الوراء، ازدادت فظاظتها. «فالكون؟ مع الأسف لا يتوافر هذا النّوع من الطّيور هنا في هذا العام. لعلّ مراقبتك الطّيور ستنجح في مكان آخر»

«لا، أنا»

«شكرًا لمرورك» ثمّ أغلقت الشّابة الباب في وجه إيڤا التي وقفت تغاضت وطرقت الباب مرّة أخرى، ولكن لم يفتح الباب.

في نهاية المطاف، استدارت إيڤا وتوجّهت إلى الحقول بقصد

سؤال العاملين فيها عن مكان فوكون، لكنّهم غادروا المكان أيضًا. هُجرت المزرعة تمامًا.

مشت إيڤا حول الحظيرة ودخلتها، ووجدتها مظلمة هادئة، جرّارة وعدد من المعدّات الزّراعيّة على حزم من علف الدّواب. «مرحبًا؟» نادت إيڤا ولم تسمع إلّا صدى صوتها.

بخذلان عادت إلى القرية، كتفاها مرتخيتان. ماذا الآن؟ ربّما عليها ترك رسالة مع مدام ترافير أنّها بحاجة إلى الحديث مع فوكون. لكن كم سيستغرق نقل الرّسالة إليه؟ في الوقت الحالي، على إيڤا العمل في الكنيسة كأنّ شيئًا لم يكن، لأنّ تغيير تصرفاتها سيثير الشّبهات.

كانت على وشك الوصول إلى منزل مدام ترافير حين انتبهت لحركة في النّاحية الأخرى من الشّارع إلى اليمين. هل هناك شخصٌ آخر؟ حدّقت في الظّلام في انتظار ظهور الشّخص.

وحين لم يظهر أي شخص، أقنعت نفسها أنّ خيالها يخدعها. أسرعت الخطى، ثمّ شعرت بحركة خاطفة، التفتت في الوقت المناسب ورأت جنديًا ألمانيًا يعبر من الشّارع إلى أحد الأحياء.

اهدئي، حدّثت نفسها، أنتِ ترين الألمان يوميًا.

لمحها الألماني، ومع تلاقي عينيْهما لجزء من الثّانية، تعرّفت إليه. تجمّد الدّم في أوردتها. إنّه الرّجل الذي تكلّم مع الأب كليمنت في الكنيسة، إنّها شبه واثقة. أيلحق بها؟ هذا جنوني، أليس كذلك؟ إيڤا واثقة بأنّه لم يرها البارحة، لكنّ الأب كليمنت هو من رآها. ماذا لو أنّه أخبر الألماني أنّها قد تجسّست على حوارهما السّري؟

أسرعت المشي، استعدّت عضلاتها للهرب إذا استدعى الأمر، لكن بعد ثوانٍ. استدار الألماني عند حي آخر. إنّها تركض الآن، لكن مع استدارتها عند حي ڤالدون المؤدّي إلى ميدان القرية، لا أثر للألماني في أي مكان. أكانت تتخيّل أنّه يتبعها؟ لعلّه ليس الجندي ذاته الذي شاهدته البارحة؛ فالكنيسة كانت مظلمة.

أخبرها حدسها بأنّها على حق. في المسألة أمر خاطئ. غيّرت الاتّجاه وتوجّهت إلى امرأة تثق بها في القرية.

المكتبة خالية حين دخلتها إيڤا بعد ثوان، لكنّ الأجراس نبّهت مدام نورو، فجاءت مسرعة بابتسامة تلاشت فور رؤية وجه إيڤا.

«عزيزتي؟» سألت، وهي تسرع باتّجاه إيڤا وتضع راحتي يدها على وجنتيّ إيڤا. «ما الأمر؟ يبدو أنك رأيت شبحًا»

تردّدت ثانية واحدة؛ ما الذي تفعله هنا؟ الأب كليمنت مقرّب من مدام نورو في نهاية المطاف، ماذا لو أنّها طرف في الخيانة أيضًا؟ نظرت إيڤا إلى كل الكتب الجميلة حولها، ثمّ شاهدت القلق في عيني المرأة التي هي أوّل من رحّبت بها في هذه القرية، فشعرت بانكسار شيء داخلها. لو كان لمدام نورو مقاصد خبيثة أيضًا، فلا شيء منطقي بعد الآن. تحتاج إلى أن تثق بشخص ما، ويبدو أنّ مدام نورو هي الأفضل. «أنا... أنا كنت في الكنيسة البارحة وسمعت خلسة الأب كليمنت يكلّم جنديًا ألمانيًا».

رمشت مدام نورو مرّات عدّة وأنزلت يديها عن وجه إيڤا. «وماذا في ذلك؟ ماذا قالا؟»

«شيء يتعلّق باحتمال وصول ألمانيين عمّا قريب. وقائمة. أعتقد أنّ الأب كليمنت سلّمه قائمة. بدت مثيرة للارتياب»

«لا بدّ من وجود تفسير»

«ماذا لو لم يوجد؟»

مفاصل مدام نورو بيضاء وهي تقبض على يدي إيڤا. «إيڤا، لا ترتكبي أي حماقة. لم يفعل الأب كليمنت شيئًا غير مساعدتك، وشاهدته يخاطر بحياته ليساعد الآخرين أيضًا. ندين له بطرد الشّكوك».

حاولت إيڤا الثّبات. «أعلم» ولهذا لم تخبر مدام ترافيير شيئًا. لكنّها مرعوبة. «حاولت البحث عن فوكون. سيعرف ما يجب فعله»

«وهل أنتِ واثقة بأنّه أهلٌ للثّقة؟»

أومأت إيڤا بالإيجاب. لديهما تاريخٌ، وقد قدّم الكثير لنصرة القضيّة. «أجل، أنا واثقة»

«ومع هذا، أعتقد أنّ عليك التّحدّث مع الأب كليمنت أوّلًا. فور تحدّثك مع فوكون، سيخرج الموضوع عن السّيطرة، أليس كذلك؟ وأحيانًا، تتصرّف الحركة السّرية قبل معرفة الحقائق. إنّهم خائفون أيضًا، كما تعلمين، والخوف يمنعنا من التّفكير المنطقي»

أومأت إيڤا ببطء. مدام نورو على حق. ومع هذا، كانت مرعوبة. ماذا لو أنّ الحديث مع الأب كليمنت، في الواقع، يعني تسويغ موتها؟ «لو حدث شيء لي...»

«فسأبحث عن فوكون وأخبره، وسأبحث عن أمّك. لكن، يا حبيبتي، لا أعتقد أنّ هناك ما يجب أنْ تخافي منه»

«أتمنى أنّك على حق» قالت إيڤا بلطف. «على أي حال، يجب أنْ أقوم بالأمر». على أي حال، كانت تعيش بالفعل في وقت مسروق. كل لحظة مرّت منذ اعتقال شهر يوليو في باريس ما كان يجب أنْ تعيشها، والأب كليمنت هو من منح حياتها معنى. لا شيء

يمكن فعله سوى المشي إلى قلب النّار، وتمنّي ألّا تحرقها حيّة.
«حظًّا موفّقًا يا عزيزتي» قالت مدام نورو. «سأصلّي لكِ».

***

غادرت إيڤا متجر القرطاسيّة غارقة في التّفكير. احتاجت إلى مواجهة الأب كليمنت فورًا، قبل أنْ تفقد شجاعتها. عليها التّوجّه إلى الكنيسة. على الأقل في وضح النّهار، سيخشى إلحاق الأذى بها أكثر لو خاب حدسها. تخدع من؟ لو كان متحالفًا مع الألمان، لكانت قد هلكت منذ زمن طويل. تلك الفكرة، بغرابة، جعلتها تتحسّن، فلو كان ذلك هو الحال، فلا يوجد أمر لتخسره.

«إيڤا!» همسٌ بيْن الظّلال أوقفها فجأة وهي مسرعة باتّجاه الكنيسة. نظرت ناحية الصّوت، لكن لا شخص هناك.

«إيڤا!» نادها الصّوت مرّة أخرى، وخرج الأب كليمنت من زقاق عن يمينها، بقبّعة تُغطّي وجهه.

توقّف قلبها. صحيح، إنّها في طريقها لتكلّمه، لكنّها ليست مستعدّة بعد؛ لم تُرتّب أفكارها، ولا تملك خطّة للهروب. انتقل نظرها من اتّجاه إلى آخر، وابتسمت لتشتري وقتًا. «أب كليمنت، ماذا تفعل هنا؟»

«يمكنني أنْ أسألك السّؤال ذاته يا إيڤا». خرج من الظّل عابسًا. «أجدك في الكنيسة عادة في هذا الوقت من النّهار».

«أنا... أنا أردت فعل بعض الأمور»

حدّق إليها زمنًا طويلًا ومن كثب. «سمعتِ حوار الأمس في الكنيسة، أليس كذلك؟»

شعرت إيفا بدفء يزداد في وجنتيها. «أنا... أنا لا أعرف ماذا تقصد».

تأمّل وجهها باهتمام شديد، لم تفهم أنّ إجهاده يُخفي حزن عينيه. «هل أخبرتِ أي أحد؟»

أجابته بتردّد: «لا». إذا كان سيؤذيها، فسيؤذي كل من يعرف.

«بحثتِ عن فوكون، أليس كذلك؟»

حنت رأسها. «أجل».

«سعيدٌ لأنّي وجدتك أوّلًا. من فضلك يا إيفا، أريدك أنْ ترافقيني. يجب أن أريك شيئًا».

رفعت رأسها وحدّقت إلى عينيه. «أنا...»

رمش بتكرار. «إيفا، أقسم أنّي لن أوذيك». وحين رفضت التّحرّك، اقترب خطوة. «إيفا، أنتِ تعرفينني. لن أخيب مبادئ ديني، لن أوذيك ما حييت. من المهم أنْ تفهمي ما رأيته ليلًا».

استنشقت الهواء بعمق. «لكنّي رأيتك مع جندي نازي. رأيتك تسلّمه قائمةً».

مدّ يده لها. «رجاء يا إيفا. ثقي بي»

تردّدت قبل أنْ تمد يدها وتسمح له بسحب يدها. إنّه على حق؛ لا يمكنها تخيّل ارتكاب أفعالٍ تتحدى الرّب. وإذا كان سيقدّم لها توضيحًا، يجب أن تصغي إليه.

قادها إلى نهاية الحي الظّليل بصمت، مع ابتعادهما عن الشّوارع الجانبيّة، بعيدًا عن ميدان القرية، سألته: «ما الذي كنت تفعله؟»

«ستريْن؛ استدار إلى اليمين إلى حي دي لافانت، ثمّ إلى مدخل بولانجِري دي لافانت، مخبز القرية. لا أثر للنّاس المصطفين في هذا الوقت من الصّباح، والرّفوف والحافظات نظيفة. عرفت إيفا المرأة السّمينة ذات الشّعر الرّمادي التي كانت ترتدي مئزرًا أبيض اللون خلف جهاز العد. رغم أنّ إيفا لم تأتِ إلى هذا المكان من قبل بتاتًا، تاركة التّسوّق لمدام باربيير، اعتادت تبادلَ تحيّات الصّباح مع مالكة المخبز مدام ترينيانت، في طريقها من الكنيسة إلى النّزل مرّة أو مرّتيْن أسبوعيًا.

ابتسمت المرأة لهما بعد دخولهما. «آه، أب كليمنت» قالت، ثمّ لمحت إيفا مرّة واحدة، ونقلت نظرها إلى الرّاهب. «الخبز يتخمّر في الخلف»

«شكرًا مدام». تقدّم الأب كليمنت، وقبّل المرأة على خدّيها. «إيفا، هذه مدام ترينيانت. مدام، هذه آنسة مورو».

«بالتّأكيد. رأيتها في القرية. سعيدة لتعرفي إليك أخيرًا» قالت مدام ترينيانت بنظرة ثاقبة وتقييم خلف ابتسامتها المهذّبة. نظرت إلى الرّاهب ثمّ قالت: «سأقفل الباب الأمامي، وأراقب المكان».

«شكرًا». أمسك الأب كليمنت يد إيفا المرتعشة مرّة أخرى، وقادها خلف جهاز العد، ثمّ إلى باب باسترخاء يدل على زيارته هذا المكان مرّات عدّة من قبل. دخلا إلى مطبخ، رطب ودافئ بسبب الأفران. عشرات الأرغفة –محشوّة ربّما بالبطاطس، والشّوفان، والحنطة السّوداء، وحتّى خَرّاطة خشب للتّعامل مع نقص القمح– لتبرد على المنضدة، ورائحة خبز الخميرة تغلفها. قرقر بطن إيفا؛ لم تتذكّر متى أكلت آخر مرّة.

«أب كليمنت، ماذا...؟» بدأت إيڤا، لكنّها لم تكمل سؤالها لأنّ جنديًا ألمانيًا بزيّه الرّسمي قد ظهر من الباب الخلفي الذي يبدو أنّه يؤدّي إلى المخزن. تفاجأت، وتعرّفت عليه فورًا. الجندي ذاته الذي شاهدته أمس مع الأب كليمنت في الكنيسة، الجندي ذاته الذي لحقها اليوم. صرخت واستعدّت للهرب، لكنّ الرّاهب وقف في طريقها.

أمسكها برفق من ذراعيّها. «إيڤا، من فضلك. هذا إرش. إنّه حليف».

توقّفت إيڤا عن المقاومة، والتفتت لتحدّق إلى الألماني الذي كان ينظر إليها بتعجّب دون أن يرمش. أصغر ممّا اعتقدت، لعلّه أصغر منها بعام واحدٍ أو عاميْن. شعره المموّج أكثر شقرة تحت إنارة المطبخ، أشهب العينيْن. كانت لتعتبره وسيمًا في ظروف أخرى. «لكنّه موالٍ للنّازيّة».

تغيّرت ملامح الألماني. «أعاهدك، أنا بصفّك». لهجته ثقيلة، كأنّه يخض الكلمات.

تعجّبت. «كيف؟ أنت تقاتل لصالح ألمانيا!»

«ألبس الزّي الألماني» صوّب كلامها بلطف. «أفضّل الإيمان بأني أقاتل في سبيل الحريّة».

نظرت إيڤا إلى الأب كليمنت بدهشة. كيف يصدّق كلمات هذا الرّجل؟

«إيڤا، هو من أخبرنا بحملات الاعتقال في منازل الأطفال» أوضح الأب كليمنت بلطف، دون أن يشيح بنظره عن عيني إيڤا. «تحذيراته ساعدتنا لإنقاذ العشرات».

نقلت نظرها إلى الألماني الذي ما عاد يشكّل خطرًا عليها الآن. «لماذا تساعدنا؟»

«لأنّ ما يفعله وطني خطأ. هذه وسيلة الفوهرر للتّوسع الجغرافي، لكنّ الأوامر التي تلقيناها –بخصوص الأطفال واليهود والعجزة– همجيّة». نظر إلى الأب كليمنت ثمّ إلى إيڤا. «لست مثاليًّا. أحاول أنّ أكون نزيهًا، ملتزمًا الكاثوليكيّة بحق، ولهذا لجأت إلى الأب كليمنت. ما عاد بوسعي تجاهل ضميري».

«إذا اكتشفوا أنّك تساعدنا...»

«أجل، سأعدم فورًا»

حدّقت إيڤا إليه زمنًا طويلًا قبل الالتفات إلى الأب كليمنت. «هل يعرف فوكون؟»

«لا»

«لماذا؟» في نهاية المطاف، لفوكون شأن في المقاومة، واعتقدت أنّ الرّاهب يثق به.

«كلّما قلّ عدد الأشخاص، كان أفضل. جاء إرش في السّنة الماضيّة، وتكتّمت على هُويّته منذ ذلك الوقت»

«ولماذا تخبرني الآن؟»

«لأنّكِ شاهدتِه، ولأنّي أثق بك يا إيڤا. أحتاج إلى ثقتك بي أيضًا. سيأتي يوم محتاج فيه إلى تزوير مستندات ليهرب، وأريدك أنْ تكوني مستعدّة»

التفتت إلى إرش من جديد. عن قرب، وحتّى وهو في زيّه الرّسمي، لا يبدو كوحش مرعب. مجرّد رجل عادي؛ رجل يثق الأب كليمنت به. «في فبراير، أأنت من حذّرتنا عن حملة اعتقال على منازل أطفال؟»

«أجل»

تذكّرت إيڤا فرانيا كور الصّغيرة التي حلمت بطريقة للخروج من أوز. بسبب هذا الألماني، وصلت الطّفلة إلى سويسرا، حيث ستحظى بفرصة للنّجاة. «وثوق الأب كليمنت بك، يعني وثوقي بك أيضًا».

ابتسم إرش ومدّ يده. «جيّد. هلّا تعارفنا مرّة أخرى؟ أنا إرش».

أخذت نفسًا عميقًا. شعرت أنّ الأرض تدور تحتها. «إيڤا. مقابلتك تسرّني».

الفصل الثالث والعشرون

لم تقابل إيڤا إرش في الأسابيع القليلة التّالية. لكن بشكل ما، في معرفة أنّه يساندهم ويزود الرّاهب بالمعلومات شيء من الرّاحة، رغم أنّها بحاجة إلى وقت لاعتياد فكرة وجود حليفٍ ألماني. تذكرت بأنّ مبادئ المرء أهم من أصوله. معرفة أنّ إرش يؤازر الخير على حساب حياته، ملأ إيڤا بالشّجاعة أيضًا.

أينعت الأزاهير مع حلول شهر يونيو، وارتفع عدد الأطفال الواصلين من جديد بسبب إجحاف الألمانيين بحق اليهود أينما اختبؤوا. زاد عدد البالغين الآن الذين تدفّقوا إلى الغابات والتّلال المحيطة بأورينيون أيضًا، بسبب حاجة الألمان المتزايدة إلى الأيدي العاملة. في يناير، حاول الألمان رفع عدد العمّال الفرنسيين إلى ربع مليون عامل، فشرّعت فرنسا قانونًا في فبراير، يجبر المولودين بين عامي 1920 و1922 بالعمل لخدمة الفوهرر. في أبريل، استدعوا 120.000 رجل. النتيجة هي ارتفاع عدد الأشخاص الذي طفح كيلهم، وضاقوا ذرعًا بالمحتل، فقرّروا القتال. المقاومة المسلّحة المختبئة في الغابة تضاعف العدد من المئات إلى الآلاف، وربّما عشرات الآلاف في أرجاء فرنسا. يستحيل التأكّد من أنّ المقاتلين الذي كوّنوا جماعات المقاومة المسلّحة تخصّصوا في الاختباء، وبوسعهم التّنقّل فورًا. وازدادت مواجهتهم للألمان بعنف. لم يرجع رِمي بعد، وقلقت إيڤا أكثر مع مرور الأيّام من أنّ خبرته بالمتفجّرات تعني تعرضه لمخاطر

الجبهة الأماميّة. سمع الأب كليمنت اسمه هنا وهناك؛ أنّه أدى دورًا محوريًا في تفجير سكّة قطار قرب تريسني، أنّه كان من ضمن من اقتحموا مركزًا للشّرطة في ريوم، لكنّ إيفا لم تتأثّر بالأخبار. ارتاحت لأنّه على قيد الحياة.

في أحد الصّباحات المشمسة، عملت إيفا مع جَنفييف على تزوير مستندات مئة عامل جديد تملّصوا من الخدمة، حينها جاء الأب كليمنت عند باب المكتبة، وجوزِف يتبعه. حدّقت السّيدتان إليهما، ووقفت جَنفييف.

«جيرارد!» نادت بتعجّب، وهي تقترب منه بخجل، لكنّه لم ينظر إليها. عيناه على إيفا التي وقفت ببطء.

«ماذا حدث؟» سألت.

قال لها: «المجموعة التي تزوّرين مستنداتها، يجب أنْ تغيّر مكانها فورًا. سلّميني ما يمكن تسليمه، فورًا».

«لماذا؟»

«الألمان قريبون جدًا، ويجب أنْ ينتقلوا إلى مكان أبعد في الغابة قبل العثور عليهم، وأريد مساعدتهم، لكنّ القادة هناك لم يثقوا بي بعد. إنّهم من إقليم آخر من فرنسا، ولا يعرفونني جيّدًا. إذا أحضرت المستندات لهم...»

«تريد استخدام مستنداتنا لتعزّز نفوذك؟» سألته إيفا.

عبس، وقال: «إيفا، أنا أحاول إنقاذ الآخرين. ساعديني رجاء».

رمقت الأب كليمنت. أومأ إيماءة بسيطة. قالت: «ما زلنا في بداية العمل يا جيرارد. أعتذر».

نظر إلى مجموعة المستندات المبعثرة على الطّاولة. «ما الذي أنجزته؟ بطاقات هُويّة؟»

«أنجزت عددًا لا يذكر، رغم أنّ معظم بطاقات التّموين قد انتهت»

حرّك جوزِف يدًا بازدراء. «بطاقات التّموين لن تنفعهم في مكان معزول. لكنّها أفضل من لا شيء. هيّا، سلّميني إياها».

أمرٌ ما جعل إيڤا تتردّد. «لم نتفق على هذا مع المقاومة المسلّحة. إنّهم يرسلون وسيطًا».

اقترب جوزِف خطوة وبلطف لمس ذقن إيڤا. «إيڤا. أتثقين بي؟»

حدّقت إلى عينيْه وشاهدت عينيْ الرّجل الذي وقف على عتبات مكتبة السّوربون قبل أحد عشر شهرًا وحذّرها لإنقاذ عائلتها. شعرت بالذّنب وعذاب الضّمير لتشكيكها في كلامه، آنذاك والآن. «أثق بك حتمًا».

«أفعل هذا لحماية الرّفاق هناك. هل تفهمين هذا؟ لعلّ رِمي بينهم». لا يزال ممسكًا بذقنها ومحدّقًا إلى عينيْها، وإيڤا تعرف أنّ بوسعه رؤية ألمها. «إذا ائتمنتني على هذه المستندات، أعدك ببذل جهدي لتحديد موقعه. لكن لو وصل الألمان إليه قبل...» كلاهما يعرف تتمّة الجملة.

«جيرارد ربّما بإمكاني المساعدة» تكلّمت جَنفْييف. كانت تحدّق إليهما باهتمام. «دعني أرافقك».

«من الأفضل أنْ أذهب وحيدًا».

«لكن لو حدث لك شيء...»

«لن يحدث». التفت إلى إيڤا. «لا وقت لإضاعته يا إيڤا. ما رأيك؟»

تبادلت إيڤا النّظرات مع الأب كليمنت الذي أومأ بالموافقة. إذا كان رِمي في الغابة، ورأى الألمان المقاومة المسلّحة، فلن يكون هناك خيار آخر. يجب أنْ تفعل ما بوسعها لإنقاذهم. بسرعة، جمعت كل بطاقات التّموين والمستندات وسلّمتها إلى جوزِف: «عدني بأنّك ستخبر رِمي بأنّي ما زلت أفكّر فيه إذا رأيته».

عبس جوزِف. «إيڤا، إنّه لا يستطيع العودة. يحتاجون إليه هناك».

«من فضلك. عدني»

تردّد قبل الإيماء. «سأوصل رسالتك». ثمّ غادر حاملًا البطاقات التي كدحت الفتاتان لتزويرها، تلك التي عليها أسماء زائفة ووجوه رجال حقيقيّة يختبؤون في الغابة وينتظرون القتال. ورغم أنّ إيڤا تستأمن جوزِف على حياتها، رغم أنّها تعرف أنّه حاول إنقاذ حياتها أكثر من مرّة وسيفعل لو استعدت إذا استدعت الحاجة، شعرت بالشّك قليلًا. إذا لم يكن حذرًا بما يكفي، وتقاطع دربه مع الشّخص الخطأ في رحلته، فسينتهي به المطاف بتسليم الألمان قائمة بأسماء أهداف، عوضًا عن إنقاذ مقاتلي المقاومة، وسيكون لها ضلعٌ في هذا.

«فعلتِ الصواب» قال الأب كليمنت، وهو يشاهد إيڤا عن قرب.

«حقًّا؟» سألته.

«يجب استغلال كل الفرص لإنقاذ حياة» أجاب.

«لكن ماذا لو أنّ شخصًا يتبعه؟ ماذا لو دلّهم على مكان المقاتلين؟»

«يجب استغلال هذه الفرصة»

«ألا يخطر على بالك أنّ جهودنا ستذهب هباء منثورًا؟ ماذا لو أنّ كل ما نفعله هو تسويف المحتوم؟ ماذا لو كنّا نلعب في وكرهم؟»

«جهودنا ليست عقيمة حتّى لو أنقذنا شخصًا واحدًا، وقد أنقذتِ المئات بالفعل». ابتسم بلطف. «أمّا بالنّسبة إلى البقيّة يا إيڤا، فيجب أنْ نثق بالرّب، وننتظر إشارةً منه. عثرت على إشارات كثيرة في أحلك ساعات حياتي، إنّه هنا».

التفت الأب كليمنت، ولم تقتنع إيڤا. في الواقع، شعرت أنّ الشّبكة المحيطة بأورنيون تضيق مع مرور الأيّام. إذا عرف الألمان مكان اختباء المقاتلين، وجاءهم أكثر من بلاغ عن الأطفال اللاجئين، فسيعرفون حقيقتها. سرت رعشة في أوصالها وهي تعود إلى العمل.

«هل هناك شيء بينك وبين جيرارد؟» سألت جَنڤييڤ بعد ثوان. وسط بنات أفكارها، نسيت إيڤا تقريبًا أنّ المرأة الأخرى موجودة. الآن، مع رفع ناظريْها، احتاجت إلى ثانية لتذكّر نفسها أنّ جيرارد هو اسم جوزِف المستعار. كل من في القرية ينادونه فوكون».

«لا، بالطّبع لا» أجابت إيڤا. من دهشة جَنڤييڤ، واستمرار احمرار خديْها، فهمت إيڤا ما يحدث فجأة. «جَنڤييڤ، هل هناك شيء بينك وبين جيرارد؟»

طأطـأت الشّـابة رأسـها، وأومـأت بعـد ثـوان. «أجـل، لكـن أعتقـد أنّـه يكـن لـك المشـاعر، إنـه يتحـدّث عنـك بـدفء وحميميّـة» تمتمـت جنڤييـف. «وفـي أغلـب الأحيـان يتحـدّث عنـك إذا كنّـا وحدنـا».

جَنڤييف، أنا أعرفه منذ زمن طويل. نحن صديقان، لا أكثر».

«يبدو أنّه يهتم بك...»

«جَنڤييف، لا شيء بيننا. أعدك. هل تربطكما علاقة؟»

ازداد خجل الشّابة. «تواعدنا بضع مرّات»

«موعـد غرامـي؟» إيڤـا ليسـت حسـودة، لكنّهـا لا تعـرف متـى وجـدت الشّـابة –أو جـوزِف– الوقـت؟ «متـى؟»

«تقابلنـا فـي آخـر الليـل أحيانًـا. هنـاك عِليّـة فـي الحظيـرة فـي الملكيـة التـي يقيـم فيهـا. فـي غايـة الخصوصيّـة؛ تسـتخدمها الأسـرة للتّخزيـن فقـط. أعلـم أنّهـا بسـيطة، لكنّهـا فـي غايـة الرّومانسـيّة».

هـزّت إيڤـا رأسـها. مـن المفتـرض أنْ تفـرح لأنّ إحداهمـا تجـد السّـعادة فـي صميـم الظّلمـة، لكنّهـا تذكّـرت لسـبب مـا بُعـد رِمـي.

«أأنـتِ منزعجـة منّـي؟» سـألت جنڤييـف حيـن سـكتت إيڤـا. «أردت إخبـارك، لكـنّ جيـرارد طلـب منّـي التّكتـم».

«لا مشكلة. سعيدة لأجلك». زيّفت إيڤا ابتسامة.

«جيّـد». لـم تقتنـع جنڤييـف. «مـن الجيّـد وجـود شـخص نعتمـد عليـه فـي أوقـات كهـذه».

«صحيح، من الجيّد أنّكما معًا»

«لا يـا إيڤـا، أقصـدك» انتظـرت جنڤييـف أنْ ترفـع إيڤـا رأسـها، ثـمّ قالـت: «أقصـد مـن الجيّـد اعتمـادي عليـك».

هذه المرّة، ابتسمت إيڤا ابتسامة حقيقيّة. «الشّعور ذاته يا جَنڤييف. أنا في غاية السّعادة لوجودك هنا».

عملتا بصمت لساعات، ولاحقًا في ذلك المساء، عندما طلبت الشّابة استراحة، أومأت إيڤا. «هل ستذهبين إلى فوكون؟»

خجلت فأشاحت النّظر. «أريد انتظاره في مكان اجتماعنا، تحسبًا لعودته. لا أعرف متى سيعود، لكن لو تمكّن من العودة، فقد يحتاج إلى الرّاحة».

«إنّه محظوظ لأنّك إلى جانبه يا جَنڤييف. توخّي الحذر»

تمتمت «شكرًا» وغادرت، وعادت إيڤا إلى بطاقات الإعاشة بتنهيدة.

***

مع نهاية الأسبوع، عاد جوزِف بخبر رائع» وصل إلى المقاومة المسلّحة، ورغم عدم ثقة قائدها بها كُليًّا، قبلَ الوثائق بعرفان، ووافق على التّحرّك.

لكنّ رِمي ليس هناك، قال جوزِف لإيڤا، ولا يعرف مكانه. مضت أربعة أشهر مذ رأته آخر مرّة، وتساءلت إن كان يفكّر فيها حتّى الآن، أو إذا استقرّ في قرية أخرى، أو قَبّل امرأة أخرى تقاتل الألمان؛ امرأة كاثوليكيّة، لن تبعده عن دينه أو نقض عهده مع أسرته. لن تلوم إلّا نفسها إذا فقدته.

يجب أنْ تثقي بالرّب وتنتظري إشارة منه. تذكّرت كلمات الأب كليمنت، لكنّها بدأت تتساءل إن كان الرّب متفرغًا لها. هناك أمور أهم بكثير من امرأة أدركت في وقت متأخّر أنّها أحبّت رجلًا قد لا يعرف مشاعرها، قد لا يعود.

بعد خمسة أسابيع، كانت إيڤا وحيدة في المكتبة لتنهي هُويّات ثمانية أطفال سيغادرون في اليوم التّالي. حين فتحت صفحة 233 من الكتاب لتسجّل اسم الطّفل 231 الذي ساعدوه، تفاجأت. هناك نقطة في آخر الصّفحة– فوق حرف à – وهي متأكّدة من أنّها لم ترسمها. وكانت تعرف أنّ الصّفحة جزء من ترتيبها هي: واحد، واحد، اثنان، ثلاثة، خمسة، ثمانية، ثلاثة عشر، واحد وعشرون، أربعة وثلاثون، خمسة وخمسون، تسعة وثمانون، مئة وأربعة وأربعون، مئتان وثلاثة وثلاثون. أرقام مألوفة ويمكنها تكرارها في نومها.

حدّقت، تجمّدت يدها على الصّفحة. النّقاط التي تكوّن تروب تنتهي في الصفحة أربع وثلاثين، ورغم أنّ هناك نقاطًا تكوّن حروفًا لأسماء أطفال، ومثلّث رسمته هي في التّرتيب العكسي، انتهت تلك العلامات في الفقرة الأولى. من ذا الذي أضاف نقطة إضافيّة في هذه الصّفحة؟ هل هي خطأ؟ نقطة حبر لم تلحظها؟ أمْ أنّ رِمي قد ترك رسالة أخرى لها في الكتاب؟ بيديْن مرتعشتيْن، فتحت الصّفحة الأولى ووجدت نجمة ثانية جديدة. الأولى فوق حرف e في Le، والنّقطة فوق حرف v في l'Avent مألوفة، لكنّ النّجمة فوق J في Jean أسفل سطور عدّة ليست مألوفة، ولا النّقطة التي بجانبها فوق حرف e في الكلمة ذاتها.

على عجل، بضربات قلب متسارعة، فتحت الصّفحة الثّانية ووجدت نقطة جديدة فوق حرف r في car، ونقطة جديدة أخرى فوق e في de على السّطر الثّاني في الصّفحة التّالية. فتحت الصّفحات التي تحفظ ترتيبها عن ظهر غيب، حتّى صفحة

610، وحين جمعت الحروف التي أسفل كل نقطة، كانت الرّسالة واضحة:

Je reviendrai à toi

(سأعود إليك)

أمعنت فيها بعينين دامعتين. ترك رِمي رسالة لها، عهد وقسم بعودته.

رسالة من النّوع الذي أشار إليه الأب كليمنت. والآن، وهي أمامها بأسود فاحم على ورق أبيض، صدّقته. نظرت إلى السّماء، أغمضت عينيْها، وتمتمت: أشكرك يا رب. أشكرك على الإشارة، وأرجوك أرجوك أنْ تعيده إليّ».

الفصل الرّابع والعشرون

مايو 2005

هبطت الطّائرة عند الحادية عشرة صباحًا. يُفترض أنْ أكون مرهقة؛ إنّها الخامسة صباحًا في فلوريدا، وقد نمت نومًا متقطّعًا على الطّائرة –لكن أنْ أكون في أوروبا لأوّل مرّة منذ عقود له تأثيرٌ غريبٌ فيَّ. أشعر بأنّي شابة مرّة أخرى، ومع تحديقي في المطار من النّافذة إلى العربات الأكثر تكعيبًا والأضخم من تلك التي في الولايات المتّحدة، لم أقاوم ترديد جملة من فيلم شاهدته منذ وقت طويل: «أشعر بأننا ما عدنا في كنساس».

ذكّرتني هذه الجملة بطفلة صغيرة كانت في السّادسة من عمرها حين قابلتها آخر مرّة، اسمها فرانيا كور. سجّلت اسمها في صفحة 147 في كتاب الأسماء المفقودة. أتساءل لو أنّها عادت إلى فرنسا، إذا عاد والداها إلى الوطن، إذا شاهدَت الفيلم المقتبس من قصّتها المفضّلة. عدم معرفة من نجا من الأطفال، أو من التم شمله بعائلته، فطر قلبي ستّين عامًا، والآن دموعي تنهمر. أخرجت منديلًا من حقيبتي ومسحت وجنتي.

المرأة التي تجلس إلى جانبي، ولم تتكلّم على الإطلاق طوال الرّحلة رغم محاولاتي للتّودد، تنظر إليّ نظرة غريبة وتبعد جسدها عنّي؛ كأنّ حزني مُعدٍ.

مع نزولنا من الطّائرة إلى مطار برلين المزدحم، ابتعدت عن الجمع. كل من حولي، أشخاص يتحدّثون مع بعضهم بالألمانيّة،

أمّا أنا فأذكّر نفسي أنّ هتلر قد مات قبل وقت طويل. لا يعيش الشّر هنا: ألمانيا مجرّد مكان، والألمانيون مجرّد بشر. أليس هذا مغزى القصّة بعدئذ؟ لا يمكنك الحكم على أي شخص من لغته أو أصله –رغم أنّ كلّ جيل جديد يصر على تعلّم الدّرس بنفسه. أتذكّر إرش الذي حاولت بجهد نسيانه وتذكّره على مر السّنوات فبكيت دون قصد. تعثّرت فساعدني شاب أشقر الشّعر، عيناه زرقاوان.

قال شيئًا ما بالألمانيّة، ورغمًا عنّي، ورغم أنّ الحرب قد وضعت أوزارها قبل ستّين عامًا، نكصت، وتزايدت دقّات قلبي. تفاجأ وابتعد بمجرّد وقوفي بتوازن.

«Danke» [شكرًا بالألمانيّة] قلت له، لكن فات الأوان؛ لقد رحل.

بعد توقّف قصير عند تحكّم الجوازات، وتوقّف آخر عند نافذة الصّرافة، وقفت في طابور انتظار سيّارة أجرة، ثمّ ركبت إحداها. سألني السّائق أسئلة بالألمانيّة، ومرّة أخرى كان عليّ تجاوز الانزعاج.

«أعتذر، لكنّني لا أتكلّم الألمانيّة» قلت له وأنا أغلق الباب.

«آه، إنجليزيّة»

«أجل»

«كنت أسأل عن أمتعتك» قال بلهجة ثقيلة، لكنّي ارتحت لأنّه بإمكاننا التّواصل. لعلّه أصغر منّي بعقد كامل، ويغطي صلعه بالشّعر، ما ذكّرني بزوجي الرّاحل؛ لويس.

«جلبت معي حقيبة لليلة واحدة» أشرت إلى حقيبة اليد التي إلى جانبي. لن أبقى وقتًا طويلًا».

«هل آخذك إلى الفندق إذن؟»

«في الواقع، سأذهب إلى مكتبة (زينترال أوند بيليوتيك) أخرجت قصاصة جريدة من محفظتي وقرأت العنوان بصوت عالٍ.

أومأ، ولمحني في المرآة بعد ابتعاده عن الرّصيف. «وما الذي جاء بكِ إلى برلين؟»

تأمّلت السّؤال. «أعتقد أنّ بإمكانك أنْ تقول لمقابلة صديق قديم ربّما».

* * *

برلين حديثة وحيّويّة، أكثر جمالًا ممّا اعتقدت. أعرف أنّها انهارت في أيّام الحرب المريرة، كما انهارت فرنسا، وأنا معجبة بالتّطور المحيط بي. لن يعرف المرء بتاتًا أنّ هذه المدينة كانت أنقاضًا قبل ستّين عامًا. أتساءل كيف تبدو أورينيون الآن، بعد إعادة إعمارها، هل فيها ندبة تدل على الماضي. وماذا حدث للأب كليمنت والكنيسة؟ أما زالت موجودة؟

مع وصول سيّارة الأجرة إلى المكتبة بعد ثلاثين دقيقة، شعرت بإنهاك عاطفي. لكنّ التّرنيمة المُغوية لكتاب الأسماء المفقودة تزداد قوّة، ولا يمكنني كبح الذّكريات المتدفّقة كالأمواج.

«استمتعي بزيارة الصّديق» قال السّائق بسعادة بعد أنْ سلّمته المال وساعدني على الخروج من المقعد الخلفي. مع تحرّك السّيّارة، استدرت أخيرًا لمواجهة المكتبة، دقّات قلبي متسارعة.

مكتبة هائلة المساحة، ونوافذها متطابقة، ورغم حداثة هذا المبنى، فيه شيء ما يذكّرني بمكتبة مازارين في باريس. أزيحُ من عقلي عدد المرّات التي وقفت فيها على هذه العتبات، في انتظار مستقبل لم يأت قط. لكنّ النّسيان مستحيل طبعًا. الذّكريات تحيط بي. ببطء، صعدت إلى الباب الرّئيس وفتحته.

في الدّاخل، تنفّست بعمق مع محاولة عيني اعتياد الضّوء الخافت. لا يمكن تصوّر كم أنّ هذا المكان مألوفٌ، رغم عدم وجودي فيه من قبل. فور وقوعك في غرام الكتب، حضورها يُشعرك بأنّك في منزلك في أي مكان، حتّى في أماكن يجب ألّا تنتمي إليها. أمشي باتّجاه المكتب في نهاية مدخل استقبال وطويل، فقالت الشّابة الجالسة بابتسامة:

«Guten Tag, gnädige Frau. Kann ich Ihnen helfen?»

هززت رأسي. «المعذرة. لكن، أتتكلّمين الإنجليزيّة؟»

تجعّد جبينها. «إنجليزيّتي ليست جيّدة».

«Français?» [الفرنسيّة] سألتها، رغم أنّي لم أستخدم لغتي الأم لسنوات. قالت: «Um, französisch?» [امم، الفرنسيّة؟]

تهلّلت أساريرها. «نعم. أتكلّم القليل من الفرنسيّة. كيف أساعدك؟»

يا للغرابة، قلتُ لنفسي، أنْ أتكلّم الفرنسيّة في ألمانيا، هذا البلد الذي حاول قبل مدة قصيرة مسح شعبي من الخريطة. قلت لها بالفرنسيّة أنّي هنا لمقابلة أوتّو كوهِن، وقد فاجأني ارتعاش صوتي.

«بالتأكيد». أمسكت الهاتف وسألتني إن كان بإمكانها إخباره بوجودي.

«أخذت نفسًا عميقًا. شعرت فجأة كما لو أنّ كل شيء قادني إلى هذه اللحظة. «أنا ...» ترددت لأنّ هُويّتي لا تهم. المهم هو ما أريد فعله في هذا المكان. ولهذا قلت لها ببساطة أنّي هنا من أجل الكتاب.

مالت رأسها. «الكتاب، مدام؟»

«نعم». بدا أنّ الأرض قد توقّفت عن الدّوران. قلت لها بالفرنسيّة: «أنا هنا من أجل كتاب الأسماء المفقودة».

الفصل الخامس والعشرون

يناير 1944

مع حلول يناير 1944، عمّ الظلامُ أورينيون، ولم يعد رِمي بعد. كان الشّتاء باردًا؛ أحد أبرد الشّتاءات حسب ذاكرة إيڤا، وكان هناك شحٌ في بطاقات التّموين. عانت ألمانيا الخسائرَ، وقصف الحلفاء برلين دون هوادة، والجيش الأحمر دخل بولندا، فاندحر الألمان مبتعدين عن الشّرق. كلّما زاد التّضييق عليهم، زاد تفريغهم غضبهم بالفرنسيين. هنا، في جبال جنوب فرنسا المركزيّة، شحٌ في الوقود، والتدفئة، والطّعام. حتّى المُزارع الذي ساعد مدام باربيير قد اختفى، أي أنّ ولائم الدّجاج في النّزل ما عادت متوافرة أيضًا. معظم أعضاء الحركة السّريّة الذين عرفتهم إيڤا، تنازلوا عن حصص من طعامهم شهريًا لتغذية الأطفال الذين تنتظرهم رحلة طويلة عبر الجبال، هذا يعني أنّ أجسادهم قد ضوِيَت. نظرت إيڤا في المرآة أحيانًا وبالكاد تعرّفت على وجهها النّحيل.

في بداية ديسمبر، قبل بدء عيد الحانوكا، اعتقلت الشّرطة الفرنسيّة جوزِف وفي جيبه بطاقات تموين، وسلّموه إلى القوّات الألمانيّة، لكن بطريقة ما أطلق سراحه –ربّما لأنّ الأب كليمنت قد توجّه إلى فيتشي لالتماس العفو عنه عند القوّة الآمرة العليا. الألمان، قال جوزف حين عاد إلى أورينيون بيدٍ مكسورة عليها جبيرة، لم يكتشفوا عمله في المقاومة؛ اعتقلوه لأنّهم اعتقدوا أنّه

يبيـع بطاقـات تمويـن مـزوّرة فـي السّـوق السّـوداء، فتصـرّف حسـب اعتقادهـم، وسُـجن أسـبوعيْن مـع إنـذار بمعاقبتـه عقابًـا أليمًـا إذا اعتُقل مـرّة أخـرى. «تخيّـلا مـا الـذي يمكنهـم فعلـه إذا اكتشـفوا أنّـي يهـودي» قـال فـي إحـدى الليالـي وهـو يتنـاول طعـام العشـاء مـع إيڤـا وماموشـا، بابتسـامة مصطنعـة.

لكـن فـي الظّـلام بهجـة أيضًـا. جَنڤييـڤ وجـوزِف تقرّبـا مـن بعضهمـا أكثـر بعـد اعتقالـه -رغـم أنّـه لـم يطلعهـا علـى اسـمه الحقيقـي، حسـب علـم إيڤـا- الاسـم مجـرّد كلمـات، هـذا مـا تعلّمتـه إيڤـا جيّـدًا. بـدا أنّ أحدهمـا يهيـم فـي الآخـر، وفـي الأيّـام التـي كان فيهـا جوزِف فـي أورينيـون، غـادرت جَنڤييـڤ المكتبـة السّـريّة مبكـرًا بفـرحٍ ظاهـر لتقضـي الليـل معـه فـي عِليّـة الحظيـرة القديمـة، تحـت أكـوامٍ البطّانيّـات الصّـوفيّـة.

«أتعتقديـن أنّـه سـيتزوّجني يومًـا؟» سـألت جَنڤييـڤ علـى اسـتحياء فـي أحـد الأيّـام. «أحلـم أحيانًـا أنّـي أمشـي باتّجاهـه فـي درب محـاط بأشـجار الكـرز المُتفتّحـة، حاملـةً باقـة زنابـق. ينتهـي الحلـم دائمًـا قبـل وصولـي إليـه، لكنّـي أسـتيقظ وأشـعر بـأنّ تحقيقـه مسـتحيل. قـد يخطبنـي بعـد انتهـاء الحـرب».

«ربّمـا» وافقتهـا إيڤـا بابتسـامة، وهـي تتسـاءل إذا كانـت جَنڤييـڤ تخـدع نفسـها. بـدا أن الحـرب لـن تنتهـي، لكـن مـاذا لـو أنّ الأحـوال تنقلـب رأسًـا علـى عقـب؟ خسـر الألمـان معركـة الأطلنطـي، وكانـوا يتلقـون الضّربـات مـن الشّـرق والغـرب، حسـب إذاعـة (بـي بـي سـي) الممنوعـة التـي اسـتمعت إليهـا برفقـة ماموشـا ومـدام باربييـر أحيانًـا فـي النّـزل. أيعقـل أنّ فرنسـا سـتُنقذ بعـد كلّ مـا حـدث؟ أنّ رِمـي

قد يعود إليها؟ سمحت إيڤا لنفسها أحيانًا بالتّفكير في مستقبل يشاركها فيه -وبمستقبل يعود فيه والدها من الأوشفيتز، أيضًا. إيڤا تعرف أنّها تخدع نفسها بظنّها أنّ والدها سينجو- وتساءلت إن كانت أحلامها غير واقعيّة أيضًا.

في آخر سبت من الشّهر، كانت إيڤا تعمل مع جَنڤييڤ عصرًا لمجموعة مسلّحة في غابات قرب أورينيون كانت تزداد عددًا وعتادًا أسرع ممّا يستطيع مكتب التّزوير الصّغير التّعامل معه. وهناك أطفال أكثر من ذي قبل، أيضًا، يقارب عددهم الأربعين ويختبؤون في منازل مختلفة موزّعة على أنحاء القرية، هرب معظمهم من باريس، وجميعهم علقوا هنا حتّى يصبح الجو دافئًا بما يكفي لعبور جبال الألب. لم تبدأ إيڤا العمل على أوراقهم بعد لأنّهم سيغادرون بعد مدة طويلة.

«أتفكرين في حياتك قبل الحرب؟» سألت جَنڤييڤ بهدوء لتكسر الصّمت. كانت تعمل على بطاقات هُويّة لشاب ذي شعر داكن اللون، حين رفعت رأسها ونظرت إلى إيڤا.

«أحيانًا» قالت إيڤا بعد توقّف. «إنّها مؤلمة، أليس كذلك؟ أعني التّفكير في ما امتلكناه يومًا ما».

«وما الذي كان من الممكن أنّ يحدث». لمست جَنڤييڤ صورة الرّجل بلطف. «هذا الرّجل يشبه أخي كثيرًا».

«لم أعرف أنّ لديكِ أخًا»

«توأم» قالت بابتسامة عذبة وحزينة. «جون-لوك. تشاغبنا حد الجنون مع بعضنا، لكنّه كان صديقي المفضّل أيضًا. استدعوه للخدمة العسكريّة وتوفي في مايو 1940 في الجبهة. لم يحظ بفرصة قط».

«أنا في غاية الأسف يا جنڤييف»

«تهاوى كل شيء بعد ذلك. لم نتمكّن من مواساة أمّي، أمّا والدي فبدأ يشرب. افترقنا عن بعضنا أكثر وأكثر، رغم عيشنا تحت سقف واحد. في المدة التي انقطع كلامنا مع بعضنا تقريبًا، رجعت من المنزل ووجدت أمّي ميّتة على أرض المطبخ. قال الطّبيب: «قلق أو قلب مفطور. مات أبي بعد شهرٍ واحد بسكتة دماغيّة».

وضعت إيڤا يدها على فمها. «جنڤييف، لم أعرف هذا. أنا في غاية الأسف».

لم تتقبّل التّعاطف. «أحيانًا، حين أشعر برغبة في الابتعاد عن عملنا هذا، فقط لأذهب إلى مكان ما وأعيش حياةً طبيعيّة، أفكّر فيهم؛ جون-لوك وأمّي ووالدي، وأعرف أنّي لا أستطيع التّوقّف عن التّفكير. لو لم يصل الألمان يا إيڤا، سيكون أخي في مزرعتنا إلى جانب والدي، وأمّي ستكون في المطبخ وهي تتساءل متى سأنجب الأحفاد. لربما كان ليكون لدي أبناء بالفعل، وكنت سأغني لهم تهويدة: Au Clair de la lune [تحت ضوء القمر] كما غنّتها يوميًا لي في طفولتي. سلب الألمان الكثير من شعبنا. علينا إنقاذ من بوسعنا إنقاذه، لأنّنا عجزنا عن إنقاذ أحبتنا».

هذا أكثر ما قالته جَنڤييف عن أسباب وجودها هنا، وقد أثارت مشاعر إيڤا. لم تعرف الشّابة أنّ زميلتها قد عانت الفقد هي الأخرى، اعترفت إيڤا وقالت: «عجزت عن إنقاذ والدي أيضًا. اعتقله الألمان».

«أعرف» قالت جَنڤييڤ. حين نظرت إيڤا إليها، أضافت: «تكلّم جيرارد عنه. لكنّك لم تفشلي في إنقاذه يا إيڤا. لم يكن بإمكانك فعل شيء».

استهجنت إيڤا، رغم انزعاجها من حديث جوزِف عن مأساتها ببساطة. «لو أقنعته أكثر في الاختباء... لو انتبهت أكثر لما يحدث...»

أشعر بالأمر ذاته بخصوص الماضي. لا يمكننا لوم أنفسنا مع هذا. يمكننا تحمل مسؤولية عدم تكرار الأمر ذاته مع الآخرين».

«أتعتقدين أنّنا نشكّل تغييرًا؟» سألت إيڤا بعد صمت طويل.

«أحيانًا، ما زال صعبًا أننا جزء من أي مقاومة ذات مغزى. تمر أيّام أنسى فيها وجود عالم خارج هذه الجدران».

بعد يومٍ واحدٍ، مع هذا، تغيّر كلّ شيء. كانت إيڤا تنظّف المكتبة الصّغيرة لتتوجّه إلى النّزل -بإخفاء الأختام والأحبار والوثائق المزوّرة داخل قاموس مفرّغ الصّفحات، وأرجعت كتاب الأسماء المفقودة إلى مكانه المتواضع على الرّف- حين وقف الأب كليمنت عند الباب بوجه شاحب.

«هل جَنڤييڤ معكِ؟»

«لا. لقد غادرت منذ زمن. أكل شيء على ما يُرام أيّها الأب؟»

«لا مع الأسف يا إيڤا. تعالي معي»

بصمتٍ، تبعته في الكنيسة الخالية إلى مكتب صغير خلف المذبح. حين أشار إليها، شاهدت إرِش في الدّاخل ينتظرها على الكرسي بحزن.

«هل...؟» سألته، ثمّ توقّفت فورًا. كانت ستسأل عن رِمي، لكنّها لا تعرف إن كان يعرف رِمي أم لا، ولم ترغب في تسليمه للألمان حتمًا، حتّى أثبت إرِش أنّه حليف. كما أنّ السّؤال سخيفٌ. هل سيخبرها إذا أصابه مكروه؟ لعل من الحماقة أنْ يشغل رِمي حيّزًا من أفكارها، ومن قلبها، بعد غيابه عامًا تقريبًا. لكنّها تفكّر فيه دائمًا، وتقلق عليه، وتتساءل في أحلك الليالي إن كانت ستعرف أنّه ميّت. عرفت فورًا، حين نظرت إلى الأب كليمنت، أنّه فهم تمامًا ما كانت ستقوله.

«لا يا إيڤا، صديقنا بخير، حسب علمي» قال الأب كليمنت فورًا، وهو يُشير إلى الكرسي الذي بجانب إرش. «من فضلك، انضمي إلينا». جلست، وازداد انزعاجها مع جلوس الرّاهب خلف مكتبه.

«إيڤا، نحن قلقون» قال الألماني فورًا. بسبب ما حدث في المرّة الماضية لم يرتد ثيابه الرّسميّة، ولولا لكنته الثّقيلة، لكان واحدًا منهم؛ صديقًا أو جارًا». أعتقد أنّ رؤساء عملي على وشك فضح شبهة عملك».

«ماذا؟ ما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟»

«لديهم أسماء، ليس من بينهم اسمك أو اسم الأب كليمنت حسب علمي، لكنّي أعتقد أنّ الاعتقالات وشيكة». تبادل إرِش والأب كليمنت النّظرات. «لا أعرف عمّن يتكلّم يا إيڤا، لكنّ الأطفال في خطر».

«الأطفال؟ أيّهم؟»

«جميعهم». سمع ثلاثتهم الكلمات الصّاعقة المرعبة، قبل أنْ يستكمل إرش حديثه ويقول: «يملكون الآن عناوين المنازل السّتة

عشـر جميعًـا فـي القريـة، والمـزارع السّـبعة فـي الرّيـف. قـد تبـدأ الاعتقـالات بعـد غـد. لديهـم أسـماء يـا إيڤـا. أسـماء أطفـال، أسـماء أشـخاص يسـاعدونهم. لهـذا السّـبب علينـا نقلهـم، فـي أقـرب وقـت ممكـن. أعتقـد أنّ الأمـر انتهـى يـا إيڤـا».

داخت إيڤا وهي تحدّق إليهما. «انتهى؟»

«الأمر برمته. اكتُشفت مجموعتنا بشكل ما»

التفتـت إلـى الأب كليمنـت بذهـول؛ لا بـدّ مـن أنّ إرِش مخطـئ. لكنّ الرّاهـب أومـأ ببـؤس. «مـاذا سـنفعل؟» سـألته.

«أريدك أنْ تبدئي تزوير الوثائق للأطفال ومن يؤوونهم فورًا».

«أكيـد». سـكتت إيڤـا مـن أثـر الـدّوار. «عملـت مـع جَنڤييـڤ علـى وثائـق المقاومـة المسـلّحة فقـط خـلال الأسـبوعيْن الماضييـن. لـم نسـتكمل أوراق الأطفـال». وضعـت يـدًا علـى فمهـا. «يـا إلهـي، جَنڤييـڤ. يجـب أن يحذرهـا أي شـخص. اكتشـافنا يعنـي...».

«سأذهب» قال الأب كليمنت.

«ماذا عن أمّي؟»

«لا نعتقـد أنّ أي شـخص يعـرف شـيئًا عنهـا. فـور عثـوري علـى فوكون، سـأطلب منـه إرسـال شـخص لمراقبتهـا. نحتـاج إليـك هنـا يـا إيڤـا. لا وقـت لإضاعتـه».

أومـأت إيڤـا، ودقّـات قلبهـا تتسـارع. «ومـاذا سـيحدث بعدهـا؟ مـاذا سـنفعل بعـد الانتهـاء مـن المسـتندات؟»

«أعتقـد أنّ الوقـت قـد حـان للانتشـار. لـذا زوّري أوراقًـا لـكِ ولأمّـك أيضًـا. سَـتَتحقّق أمنيتهـا بالسّـفر إلـى سويسـرا أخيـرًا».

«ماذا عنك؟»

فـي عينـي الأب كليمنـت تجهّـم، وفـي ابتسـامته حـزنٌ. «سـأبقى هنـا لفعـل مـا يمكننـي فعلـه. نحـن بيـن يـدي الـرّب الآن».

***

لـم تـأت جَنڤييـف إلـى الكنيسـة، وعـاد الأب كليمنـت بعـد وقـت قصيـر ليخبـر إيڤـا بأنّـه لـم يجدهـا؛ لـم تكـن فـي شـقّتها، رغـم أنّ حظـر التّجـول قـد بـدأ. حيـن ذكـر الأب كليمنـت أنّـه لـم يجـد فوكـون أيضًـا، ارتاحـت إيڤـا؛ إنّهمـا معًـا بـلا شـك. صحيـح أنّ غيـاب جَنفييـف يعنـي أنّ إيڤـا سـتعمل طـوال الليـل، لكـن إذا كانـوا جميعًـا سـيهربون مـن أورينيـون غـدًا، فمـن الأفضـل أن تقضـي جَنڤييـف ليلتهـا الأخيـرة فـي النّـوم.

ومـع هـذا، لـم تـأت جَنڤييـف إلـى المكتبـة صباحًـا، وبـدأت إيڤـا تقلـق. سـهرت وكانـت علـى وشـك الانتهـاء مـن الوثائـق، لكـن لـم تكـن لترفـض المسـاعدة فـي وضـع اللمسـات الأخيـرة لضمـان عـدم وجـود أخطـاء.

جَنڤييـف تعلـم حتمًـا عـن الخطـر الوشـيك؛ سـيُخطَر جوزِف فـي أقـرب وقـت ممكـن، ولعلّهمـا قـد هربـا معًـا، لكـن لـم تتصـوّر إيڤـا رحيـل جَنڤييـف دون وداع، أو زيـارة أخيـرة إلـى المكتبـة لتتأكّـد مـن عـدم حاجـة إيڤـا إليهـا. ومـع هـذا، لعـلّ جـوزف قـد أصـر. لعلّـه قـد وعدهـا بأنّـه سـيعود للاطمئنـان علـى إيڤـا فـور اسـتقرار جَنڤييـف.

لكـنّ جـوزِف لـم يعـد أيضًـا، وبعـد جفـاف الحبـر تمامًـا، نظـرت إلـى كل هُويّـة نظـرة أخيـرة، أوجعهـا بطنهـا. هرعـت إلـى مكتـب الأب

كليمنت ووجدته يمشي بعجل وقلقًا مثلها تمامًا. رفع نظره وحاول الابتسام، غير أنّ الابتسامة لم تخف حزن عينيْه.

«أنا في غاية الأسف يا إيڤا» سبقها قبل أنْ تنطق بأي كلمة. «أنا من ورّطك في هذه المعمعة».

«من فضلك، لا تعتذر. عامًا واحدًا ونصف العام يعنيان الكثير لي. أنا أكيدة من أنّ هذا مقدّر لي».

«لكنّ الخطر...»

«أعرف منذ البداية أنّ هناك عواقبَ»

تأمّلها وقتًا طويلًا ثمّ تنهّد، وقال: «إيڤا، هنالك أمرٌ يجب أنْ أطلبه منكِ».

«اطلب ما شئت». طريقة نظره إليها أوجعت بطنها أكثر.

«مع الأسف تحتاج المجموعة إلى شخص آخر لمرافقة الأطفال إلى الحدود، وقد اقترحوا اسمك».

حدّقت إليه. «أتريدني أن أذهب؟ لكنّي لم أعبر الحدود من قبل».

«أعرف. سيرافقك شخص له خبرة. تنقصهم امرأة. الرّجال الذين يسافرون وحيدين مع الأطفال يبدون كالمهرّبين يا إيڤا، أمّا الزّوجان اللذان يسافران مع أطفال فسيبدوان كوالديْن. كنت لأطلب هذا من جَنڤييڤ، لكنها غادرت، وعدني جيرارد أنّه سيعود ليضمن سفر والدتك إلى سويسرا بأمان».

داخت إيڤا. «أوجدت جيرارد؟ جَنڤييڤ سافرت؟»

«أكّد لي أنّها بأمان».

حاولت إيڤا التّماسك. جُرحت بعض الشّيء لأنّ جَنڤييڤ لم تودّعها، لكنّها سعيدة أيضًا لأنّ إحداهما بخير، أخيرًا. «وسينقل والدتي؟»

«أجل. ستلتقيان في جنيف خلال أيّام. ستبقيان هناك»

«لكنّك تحتاج إليّ هنا أيّها الأب كليمنت»

ابتسم بكدر. «كما قال إرِش. انكشفت مجموعتنا. من المرجّح أنّ الألمان يعرفون حقيقتك. لن يهدأ لهم بال حتّى يقبضوا عليك، وستعذّبين وتُعدمين يا إيڤا».

«ربّما يمكنني الذّهاب إلى مكان آخر. أبدأ عملية تزوير جديدة...»

«من فضلك. استغلي هذه الفرصة للهروب. إذا احتجنا إلى مزوّر آخر، سنستدعيكِ. فعلتِ الكثير حتّى الآن. لن أغفر لنفسي إذا وجدك النّازيّون».

«ماذا عنك؟ أما زلتَ مصرًّا على البقاء؟»

أومأ بالإيجاب. «مكاني هنا، في الكنيسة».

«لكن إذا كان لديهم اسمك...»

«كل ما يحدث هو مشيئة الرّب»

حدّقا إلى بعضهما وقتًا طويلًا. «هل سأراكَ مرّة أخرى؟»

أمسك يديْها، وابتسم هذه المرّة ابتسامةً وَضاءة واضحة. « أنا واثق بهذا يا إيڤا. بعد الحرب. في الوقت الحالي، سأصلّي لكِ».

«وأنا سأصلّي لكَ». قبل أنْ تبكي، دسّت يدها في جيب فستانها الصّوفي البالي، وسلّمته وثائق الأطفال.

استلمها بإيماءة. ستحتاجين إلى تزوير وثائق لكِ؛ اسمكِ هو لوسي بيسون، زوجة أندريه بيسون، تاجر أقمشة لديه عمل في سويسرا. استلم أوراقه».

«زوّرها مزوّر آخر في المجموعة؟»

تردّد الأب كليمنت قبل أن يومئ بالإيجاب. «عليك تزوير أوراق أمّك، أيضًا، تحسبًا لكشف هُويّتها».

أغمضت إيڤا عينيْها. كيف ستعيش مع نفسها إذا تعرّضت أمّها لمكروه؟ «أتعتقد أنّها...»

«نحاول توخّي الحذر فقط يا إيڤا. أشعر بيقين تام أنّها ستكون بخير»

ارتاحت إيڤا بعض الشّيء. «أب كليمنت، قبل سفري، أحتاج إلى مقابلتها».

تنهّد. «أعرف. تأكّدي من عدم تتبع أحد لك. أريدك أنْ تعودي قبل الواحدة. ستقابلين (زوجك) الليلة في ليون».

***

«إذن ستتركينني» قالت ماموشا دون التفات حين دخلت ابنتها إلى الغرفة بعد عشرين دقيقة، لكن مع ذلك شعرت إيڤا بعبوس والدتها، وحنقها. «أوضحت مدام باربيير لي كلّ شيء. ستهجرينني هنا».

«ماموشا، هذا ما أردته! سنغادر أخيرًا إلى سويسرا»

«أنتِ ستغادرين إلى سويسرا»

«سيهتم جوزِف بانتقالك إلى سويسرا بأمان، أيضًا، فور الاستعداد، لكنّ هناك أطفالًا يجب ترحيلهم الآن، قبل عثور الألمان عليهم»

«وهم أهم من أمّك؟» التفتت ماموشا، والغضب في عينيْها. بالكاد تعرّفت إيڤا إلى المرأة التي أمامها، المرأة ترتعش بغضب، المرأة التي قرّرت التّمسّك بماضٍ لن يعود فجعلها باردة غريبة. «أهم من صلة الرّحم؟ أعتقد أنّك ستنسينني بسهولة كما نسيتِ والدك»

«ماموشا، لم أنسه!» قالت إيڤا وهي تمسح دموعها. «هذا أكبر منّا. هذا يتعلّق بإنقاذ حيوات الأبرياء. ألا يهمّك هذا؟»

تشبّثت ماموشا برأيها بعناد، لكنّ إيڤا تمكّنت من رؤية التّشكيك في عيني أمّها، وارتخاء الكتفيْن. «المهم هو أنّك تفضّلين أنّ تكوني جزءًا من هذه العائلة الزّائفة التي اعتقدتِ أنّك منها. سيخجل والدك من أفعالك». فتحت إيڤا ذراعي والدتها وتراجعت خطوة. «أتؤمنين بهذا فعلًا؟ ألا تعتقدين أنّ تاتوش سيفخر بما أحاول تحقيقه هنا؟»

«يريدك أنْ تكوني الإنسانة التي ربّاها». أدارت ماموشا ظهرها باستهزاء، وحرّكت يدها باستهزاء. «اذهبي إذن يا إيڤا. اهربي إلى سويسرا مع رفاقك الكاثوليكيين واتركيني هنا. لنكن صادقتين، هلّا فعلنا؟ لقد اختفيتِ بالفعل».

حدّقت إيڤا إلى أمّها ثمّ استدارت بارتباك. تاقت للبقاء، لتوضيح وجهة نظرها لوالدتها، لكن لا وقت. ستتقابلان في سويسرا خلال أقل من أسبوع وستوضّح كلّ شيء، مرارًا وتكرارًا

لـو اضطـرت. فـي الواقـع، بمـا أنّ دورهـا سـيكون قـد انتهـى فـي المجموعـة السّـريّة حينـذاك، سـيتوافر لهـا كثيـر مـن الوقـت لتبيـان الحقيقـة لوالدتهـا. «ماموشـا» قالـت بلطـف.

احتاجـت أمّهـا إلـى دقيقـة كاملـة لتلتفـت، وحيـن فعلت، اسـتبدلت الحـزن ببعـض الغضـب. خـلال تحديقهمـا إلـى بعضهمـا، فهمـت إيڤـا أنّهـا تبحـث عـن السّـلوان، بينمـا أحاطـت والدتهـا نفسـها بالامتعـاض. إنّـه درعهـا، هُويّتهـا الجديـدة.

«أحبّـك ماموشـا». تقدّمـت إيڤـا وعانقـت أمّهـا التـي كانـت صـارمـة دون حـراك فـي البدايـة، لكنّهـا تنهّـدت أخيـرًا، وأحاطـت ابنتهـا بذراعيْهـا. «جـوزِف سـيعتني بـكِ. سـأقابلك فـي سويسـرا فـي غضـون أيّـام، وسـيلتم شـملنا أنـا وأنـتِ».

«أهذا وعد؟»

«أعدك، ماموشـا»

ابتعـدت ماموشـا. «إذن، فتوخّـي الحـذر يـا شمسـي». تـردّدت ثـمّ أضافـت: «أحبّـك أيضًـا».

حينهـا غـادرت إيڤـا مُجبـرة، وتركـت والدتهـا. خـلال خروجهـا مـن النّـزل بعـد تبـادل العنـاق والأمنيـات بالتّوفيـق مـع مـدام باربييـر، بكـت بحرقـة، لكنّهـا لـم تمسـح دموعهـا.

الفصل السّادس والعشرون

احتاجت إيڤا إلى ساعة كاملة لتزوّر أوراق لوسي بيسون؛ الزّوجة المزيّفة لرجل لم تقابله. خلال انتظارها جفافَ الحبر، جلست على ركبتيْها وصلّت لأمّها، وللأب كليمنت، ولجَنڤييڤ، ثمّ صلّت لوالدها رغم أنّ مصيره معلوم. وفي النّهاية، طلبت من الرّب القوّة والشّجاعة لتقود الأطفال إلى الجبال بأمان.

حين توقّفت عند مكتب الأب كليمنت لتتلقى الإرشادات منه وتودّعه، سحبها فورًا وعانقها بقوّة. تذكّرت طريقة معانقة والدها لها بعد اندلاع الحرب، ليذكرها أنّها بأمان طالما هما معًا. رغم أنّ سماع نبض قلب الرّاهب مطَمئن، ومعرفة أنّه كان يصلّي بإخلاص لها، عرفت أنّ هذا غير كافٍ. لا بشر على الأرض يمكن أنْ يوفّر لها وقتًا إضافيًا وحظًّا أفضل ورحلة آمنة. الرّب وحده هو القادر.

«تفضل»، قالت وهي تنسحب. سلّمته مفتاح المكتبة الذي كانت تعلّقه حول رقبتها، قرب قلبها، مذ أعطاها إيّاه، آلمها فراقه، لكنّها لا تحتاج إليه بعد اليوم.

هزّ الأب كليمنت رأسه بلطف ورفع المفتاح بلطف من يدها، ثمّ ربطه حول عنقها وابتسم. «احتفظي به يا إيڤا، لتتذكري أنّ وجودك مرحّبٌ به بعد انتهاء الحرب. لك وطن دائمًا في أورينيون».

أطرقت رأسها، وحاولت السّيطرة على دموعها، ثمّ قالت: شكرًا لك يا أبتاه».

«اركبـي الحافلـة المتوجّهـة إلـى كليرمونت-فيرّانـد، ومـن هنـاك اركبـي قطـار السّـاعة الثّالثـة المتوجّـه إلـى ليـون، فيـا فيتشـي. سـتقابلين زوجـك آندريـه بيسـون، وأطفـال؛ أطفالـك: جـورج، ماوريـس، وديديـر، وابنتـك جاكليـن فـي قطـار ليـون لبقيّـة الرّحلـة. سيسـافر الأطفـال بمسـتندات مـزوّرة يجـب أنْ تتجـاوزي التّفتيـش الأوّلـي، لكنّهـم سيحتاجون إلـى مسـتندات أفضـل، ولهـذا سـتعطينهم المسـتندات التي بحوزتك، وسـيخرج زوجك لإتـلاف المسـتندات التي وصـل بهـا الأطفـال. هنـاك قطـار سيغادر مـن ليـون إلـى أنينسـي عنـد منتصـف الليـل. سيتمكّن الأطفـال مـن النّـوم علـى القطـار، وسيشـرح لـك زوجـك الباقـي. «سـتعبرين سويسـرا بالقـرب مـن جنيـف».

«كيف سأتعرّف على الرّجل؟»

«كل مـا عليـك فعلـه هـو الانتظـار خـارج المدخـل، إلـى يسـار البـاب الرّئيـس، وسـيقترب منـك مـع الأطفـال».

أومـأت إيڤـا، وقلبهـا ينبـض بقـوّة. هنالـك احتمالات كثيـرة للخطأ. «أبتـاه أنـا خائفة».

«أنـا خائـف أيضًـا»، لكـنّ غايـات الحيـاة العظمـى تسـتوجب تعالينـا علـى مخاوفنـا. فكّـري فـي موسـى؛ حيـن نـاداه ربّـه مـن جانـب الطّـور وأخبـره أنّ عليـه إنقـاذ شـعبه مـن العبوديّـة، كان خائفًـا أيضًـا. سـأل الـرّب: «مـن أنـا لأذهـب إلـى فرعـون بنـي إسـرائيل؟»، لكـنّ الـرّب وعـده بـأنْ يكـون معـه، فذهـب موسـى، لأنّ هـذا قـدره. سـيكون الـرّب معـك أنـتِ أيضًـا يـا إيڤـا. مهمـا حـدث. تحلّـي بالإيمـان».

«أشـكرك». شـعرت بغصّـة مفاجئـة فـي حلقهـا. «أشـكرك مـن صميـم قلبـي علـى كلّ شـيء».

«إيڤا، كانت معرفتك نعمة من الرّب». نظر إليها والدّموع في عينيّه. هذه الدّموع، من الرّاهب الرّزين لامست قلب إيڤا أكثر من أي أمرٍ آخر. «أنتِ قويّة وشجاعة، وأعرف أنكِ ستعيشين حياةً طويلة، حياةً سعيدة».

ابتسمت له. «أتمنّى لو أنّي صدّقتك أيّها الأب كليمنت، وأتمنّى الأمر ذاته لك».

«إلى لقاء قريب يا إيڤا»

«إلى لقاء قريب»

ناولها الأب كليمنت تذاكر القطار، ولمس وجنتها براحة يده قبل أنْ يستدير باتّجاه الإنجيل المفتوح على مكتبه. مع استدارتها استعدادًا للمغادرة، سمعته يتنحنح مرّات عدّة، فعرفت أنّه مثلها، يحاول التّحكم في عواطفه. هناك عمل يتعيّن إنجازه، ونجاح مهمتهم يعتمد على التّصرّف بهدوء كأنّ العالم لم يكن يتشظّى.

* * *

انطلق القطار إلى ليون عند السّاعة السّادسة والنّصف، ومع نزولها منه، حاملة حقيبة يد صغيرة حزمتها على عجل، اجتاحها شعور بالرّهبة. إنّها في أقصى الشّرق، ولم تكن في هذا البعد من قبل. موقع قريب من الحريّة، بلا شك، لكنّه قريب من ألمانيا. أكانت تهرب لتعانق الأمان؟ أم تمشي إلى الخطر مباشرة؟ في كلا الحالتيْن، تأخّر الوقت كثيرًا على العودة. هناك أطفال يعتمدون عليها.

عند السّادسة وخمسين دقيقة، كانت تقف إلى يسار المدخل الرّئيس في انتظار الأطفال والرّجل الذي ستهرب إلى سويسرا معه. مع محاولتها لتبدو لا مبالية وغير قلقة، توجّست من اللقاء. هل سيقتنع الآخرون بزواجها من هذا الرّجل الذي لم تتزوّجه؟ وأنّها أم هؤلاء الأطفال الذين لم ترهم من قبل؟ كرّرت أسماءهم في رأسها مرارًا وتكرارًا. زوجي آندريه، أطفالي: جورج، ماوريس، ديدير، جاكلين. وجدت في تخيّلهم صعوبة بما أنّها زوّرت مستنداتهم بنفسها: الطّفلة الصّغيرة، ولدت في 1939، اسمها الحقيقي إلين. في حين أنّ جويل، وراؤول، ودانييل قد ولدوا على التّوالي في 1935، 1937، 1940. مستنداتهم المزوّرة مخبّأة بأمان في بطانة معطفها، في النّصف العلوي من الكم في جيب سرّي مُخاط للدّاخل. ماذا عن الرّجل؟ من هو؟ لا تعرف إيڤا شيئًا عنه باستثناء اسمه المستعار.

حلّت السّاعة السّابعة ومرّت، وعند السّابعة وخمسين دقيقة، شعرت إيڤا بالقلق والتّوتّر، أيْن هم؟ ألم يقتنع الضابط الألماني بمستنداتهم المؤقتة؟ خيّم الظّلام على ليون، أمعنت في النّظر وهي تتساءل: ماذا ستفعل لو لم يأتوا؟ إذا ظلّت هنا حتّى اليوم التّالي فستُثير الارتياب، وبلا شك لن تغادر إلى أنينسي دونهم.

عند السّابعة والنصف تقريبًا شاهدت صبيًّا ذا شعر داكن يخرج من المحطّة، ثمّ آخر؛ يبدون في أعمار الطّفليْن ماوريس الذي في السّابعة من عمره، وجورج الذي في الثّامنة من عمره. بعد ثوان، ظهر طفل في الثالثة من عمره خلفهما؛ لا بدّ من أنّ هذا ديدير. تقدّمت على أمل أنْ تكون ابتسامتها أموميّة لا

ابتسامة راحة بال، لكنّها توقّفت حين شاهدت الطّفلة الأخيرة – الطّفلة التي في الرّابعة من عمرها وتسافر باسم جاكلين– تظهر ممسكةً يد رجل.

تفحّص الرّجل تجمّع النّاس خارج المحطّة بنظره، لكنّ إيڤا تعرّفت عليه فورًا. انحناءة كتفيْه، وخصره النّحيل، وحتّى مشيته تشبه مشيتها. حبست أنفاسها بضع ثوان، ومع التفاته ونظره إليها، اتّسعت عيناه، وبدا أنّ الوقت بطيء. إنّه رِمي، حي يرزق هناك. فجأة، آمنت إيڤا بالمعجزات مرّة أخرى.

لم تفارق عيناه عينيها وهو يقترب، ورغم أنّها تعرف أنّ عليها الانحناء لتحية الأطفال بالأحضان والقبل، لم تتمكّن من إبعاد نظرها عنه.

«أنتِ» قال بلطف حين وقف إلى جانبها.

«أنتَ» تنفّست، ثمّ قبّل شفتيْها بطريقة أنْسَتها العالم المحيط بها بضع ثوان، كأنّهما الوحيدان فيه، شهقةُ الطّفلة الصّغيرة الممسكة بيد رِمي أفسدت اللحظة.

«ما الأمر يا جاكلين» سأل رِمي، وفور إبعاده شفتيْه عن إيڤا، أدرك انجرافه وراء مشاعره. «أأنت بخير يا حبيبتي؟ أمّك وأنا هنا».

مع انحنائه إلى الطّفلة الصّغيرة، كان قلب إيڤا منتشيًا؛ عاشت لمحة عابرة من مستقبل لم تحلم به، مستقبل تكون فيه أمًّا ورِمي أبًا لطفلة صغيرة مثل جاكلين، أو طفل صغير مثل ديديير. تذكّرت كلمات أمّها في الصّباح ذاته: من الأفضل أنْ تكوني جزءًا من هذه العائلة المزيّفة التي صدقتها. تجاهلت الشّعور بالذّنب

ولاحقت نظرات الفتاة إلى جندي ألماني قد خرج من المحطّة ليدخّن.

«تذكّري يا جاكلين» قال رِمي بعذوبة ولطف، نبرة صوته خانت أي ذعر شعر به. «ما من داع للخوف من الرّجال الذي يرتدون زي العمل الرّسمي. إنّهم أصدقاؤنا».

على بُعد أقدام قليلة، جاهد الجندي لإشعال عود كبريت في الجو القارس. بابتسامة عذبة، ترك رِمي يد الطّفلة التي أمسكت يد إيڤا فورًا، وتوجّه إلى الجندي، وقد أخرج علبة كبريت من جيب معطفه، أشعل عودًا وغطّاه بيده في أثناء إشعال الجندي سيجارته.

الألماني، أشقر وله وجه طفولي، أومأ لرِمي ثمّ إيڤا. قال: «Danke» [شكرًا بالألمانيّة]، ثمّ أضاف بسرعة «أو merci» [شكرًا بالفرنسيّة] بابتسامة اعتذاريّة.

تراجع رِمي وحاط إيڤا بذراعه، كأنّه فعل هذا آلاف المرّات من قبل. «De rien» [عفوًا بالفرنسيّة] قال للجندي.

مشى الجندي، فتنفّست إيڤا الصّعداء. «أأنت من زوّر وثائق الأطفال؟» همست لرِمي، وأومأت للأطفال.

«أجل، لكنّ تزويري لا يقارن بتزويرك». شعرت بابتسامته قرب وجنتها وهي تهمس في أذنه: «أعترف بهذا الآن، ولهذا أنا سعيد بوجودك هنا مع وثائقك» سكت ثمّ أضاف: «في الواقع، أنا سعيد لأنّك هنا ببساطة».

«أنا سعيدة أيضًا» همست، وحين استدار باتّجاهها قبّلها قبلة أخرى، فتمنّت إيڤا استمرار تلك اللحظة إلى الأبد. لكنّها عرفت

أنّ عليهم الدّخول، وإبعاد الأطفال عن الشّارع، وإطعامهم وبث الطّمأنينة في قلوبهم قبل رحلة الليل التي تنتظرهم. «تعالوا يا أحبّائي» قالت لهم بابتسام. «لنبحث عن مقعد، هلّا فعلنا؟»

«سأرجع عمّا قريب» قال رِمي بلطف. «يجب أنْ أتخلّص من أوراق الأطفال أوّلًا».

«وكيف ستفعل هذا؟»

ابتسامته المعهودة أدفأت قلبها. «هناك نارٌ صغيرة مشتعلة دائمًا داخل مكتب مدير المحطّة يستخدمها الجنود للتّدفئة. إنّهم يتركون المكتب خاليًا، دون أنْ يقفلوه في معظم الأحيان. سأحتاج إلى لحظة واحدة لإضافة المزيد من الوقود».

بعد خمس دقائق، وجدهم رِمي بالقرب من المسار الثّاني، واجتمعت الأسرة المُؤقّتة معًا، لطلب الدّفء. الليل بارد مثلج، وخارج المكتب، لم توفّر المحطّة التّدفئة، ولهذا صاحب كلماتهم هواء أبيض في الظّلام. «ماذا تفعل هنا؟» همست إيڤا فور تقاسم الأطفال رغيفًا وقطعة جبن كبيرة أخرجها رِمي من جيبه.

«أسألك السّؤال ذاته». أنفاسه دافئة على أذنها، فاشتهت معانقته، وإغماض عينيْها، وادّعاء أنّهما عاشقيْن في طريقهما إلى مكان ما. لكن عليها التّيقظ للجنود الألمان أو رجال الدّرك الفرنسيين.

«اكتشفوا مجموعتنا» تمتمت، فأومأ، أدركت أنّه يعرف هذا. «طلب الأب كليمنت منّي مرافقة الأطفال والبقاء في سويسرا». حتّى نُطقها للكلمات بدا خاطئًا، كأنّها تتخلّى عن مهمّتها، عن قضيّتها التي عملت بجد لخدمتها.

استرخت ملامح رِمي، فقرّبها منه أكثر. «حمدًا للرّب. استمعوا إلـيّ أخيرًا».

«أأنـتَ مـن اقتـرح مرافقتـي للأطفـال؟ لكـن، رِمـي، مكانـي هنـا. فـي فرنسـا. فـي العمـل»

«لا. أنـتِ تنتميـن إلـى مـكان آمـن». التفـت إليهـا والدّمـوع فـي عينيّـه، وكان عليهـا منـع نفسـها مـن تقبيلـه. «أنـتِ تسـتحقين أنْ تكبـري فـي العمـر ويكون لـك أبنـاء وأحفـاد وحيـاة رائعـة. ولـن يحـدث هـذا إذا بقيـتِ».

«ماذا عنك؟»

تـردّد. «يجـب أنْ أبقـى هنـا يـا إيڤـا. لكـن سـأعجز عـن أداء واجباتـي إذا لـم تكونـي بأمـان»

«ألا تـرى يـا رِمـي؟ أنـا أشـعر بالأمـر ذاتـه. لا يمكننـي الابتعـاد الآن»

«يجب أنْ تفعلي هـذا. أنـتِ تعيشـين فـي مـكان مكشـوف يـا إيڤـا. أمّـا أنـا فظروفـي مختلفـة؛ إذ إننـي أعيـش فـي الغابـة مـع آخريـن يبحثـون عـن طرائـق لنسـف الألمـان».

«يمكننـي العيـش هنـاك أيضًـا» قالت بصوت خفيض. «ستحتاجون إلـى مسـتندات مزيفة بلا شـك...»

لمـس وجههـا. نغيّـر موقعنـا فـي أيّـام قليلـة، ونحـن مسـتعدون للهرب فـور ملاحظتنـا. لـن توجـد طريقـة لإبقائـك أنـتِ وأدواتـك فـي الخـارج معنـا. إضافـة إلـى هـذا القتـال يتغيّـر. مـا عـادت مقاومتنـا مسـالمة بتهريـب النّـاس. نقلنـا المعركـة إلـى الألمـان الآن».

«رِمي»

«ما إن أصبح الأطفال في أمان، تبدأ مرحلتنا الثّانية». تردّد، وبصوت أقل من الهمس، أضاف: «جمعنا الأسلحة يا إيڤا. الأوراق المزيّفة لم تعد نافعة».

غطّت فمها. «ستكون في غاية الخطورة».

«لا توجد طريقة أخرى. المسألة برمّتها تتعلّق بإنقاذ فرنسا الآن، وربما العالم. إذا تمكنّا من دحر الألمان، قلب اتّجاه الموجة، سنحفظ الإنسانيّة».

هزّت رأسها اعتراضًا. «لكنّ قوات التّحالف آتية، أليس كذلك؟» قال الأب كليمنت...»

«الألمان يعرفون أنّهم آتون» قال رِمي وهو يقاطعها. «لا يعرفون أنّنا مستعدون للقتال أيضًا. سنُضعفهم أوّلًا. نهاجمهم حيث يتزعزع وجودهم. وحين تصل قوات التّحالف، لن يعرف الألمان طريقة التّصرّف». ابتعد رِمي عن إيڤا، والغضب في عينيْه، أدركت أنّه يبحث عن فرصة للقتال.

«أرجوك» همست. «ابقَ في سويسرا معي. ماذا إذا خسرت حياتك يا رِمي؟»

أشاح بنظره. «إذا مت لأجل فرنسا، فلن أخسر حياتي عبثًا. سيكون لإنقاذ بلد. أسفي الوحيد أنّ خسارة حياتي ستكلّفني عيش المستقبل معك».

غصّة في حلق إيڤا، تمكّنت من سحقها مع اقتراب أحد رجال الدّرك الفرنسي.

«المستندات» صرخ. فابتسمت إيڤا على أمل أنْ تكون ابتسامتها ساحرة وهي تُخرج أوراقها وأوراق الأطفال المزوّرة من حقيبتها،

حيث وضعتها بعد إخراجها من كمّها. سلّمه رِمي أوراقه أيضًا، فتفحصها الشّرطي بعبوس، من مستند إلى آخر.

«كل شيء نظامي» قال رِمي بعد دقيقة طويلة لم يتكلّم فيها الرّجل. إلى جانبها، شعرت إيڤا بارتعاش جاكلين.

«ربّما» قال الشّرطي. حدّقت إلى رِمي. لم يقم بأي حركة لاستعادة المستندات. «لكن كما تعرفون هذا الطّريق شائع للتّهريب».

«مهرّبون؟» ضحك رِمي في عدم تصديق مقنع. «سيّدي، نحن نسافر مع أطفالنا. ماذا يهربون؟ مالًا؟ بنادق؟

شهقت إيڤا قليلًا، أيتعمّد رِمي استفزاز الرّجل؟

نظر الرّجل من رِمي إلى الأطفال، ثمّ إلى إيڤا. «أعلم علم اليقين أنّكم تعرفون أنّ النّاس يُهرَّبون. كيف أتأكّد من أنّ هؤلاء الأطفال أبناؤك؟

«كيف تقول شيئًا مثل هذا؟» تظاهرت إيڤا بالاستياء. «أنجبتهم جميعًا بنفسي. سنذهب بكل بساطة لزيارة أمّي المقيمة في أنيسي، وسنعود بعد يوميّن».

أمعن في النّظر إليها، ثمّ إلى الطّفل الأكبر بابتسامة متكلّفة. «أنت. هناك. جورج، أليس كذلك؟ هذان والداك؟ ما اسمهما إذن؟»

احمرّ وجه الصّبي، ففغر فمه. كانت إيڤا على وشك التّدخل وتذكر الاسميْن الزّائفيْن، لكنّ جاكلين ذات الأعوام الأربعة وكَزَتها.

«ماما هي لوسي بيسون، وبابا هو أندريه بيسون» قالت بهدوء، بعينين واسعتيْن. «تراهما هنا. ومن أنت؟ يقول والداي

إنّ الضباط الألمان غير مخيفين، إنّهم أصدقاؤنا، لكن أنت، أنت لست ألمانيًّا؟»

حدّق الرّجل إليها، ثمّ إلى رِمي. «أأخبرت ابنتك أنّ بإمكانها الوثوق بالألمان؟»

استهجن رِمي، وحاولت إيڤا ألّا تزفر بصوتٍ عالٍ. نادى الرّجل جاكلين بابنتهما، ما يعني أنّه صدّقهما.

«حسنًا» قال ضابط الجندرمة. «إذن لستما مهرّبيْن كما أرى. مجرّد أحمقين».

ناولهما الأوراق ومشى مبتعدًا، وهو يهز رأسه. انتظر رِمي وإيڤا حتّى ابتعاده عن مرمى النّظر عند الزّاوية قبل أن ينحنيا عفويًا إلى الطّفلة. سألتها إيڤا: «كيف عرفتِ هذا؟ لقد أنقذتنا».

ابتسمت الفتاة. «علّمني أخواي اللذان يكبرانني بالعمر أنّ الكاذب يفتح عينيْه ليوهم الآخر بالحقيقة». ابتسمت بتهذيب، وطأطأت رأسها خجلًا، ثمّ أضافت بهمس: «اعتقلا مع أمي وأبي».

عانقت إيڤا الفتاة، وتمنّت انتزاع الألم منها. لكنْ، تأخّر الوقت كثيرًا؛ الفقد كالوشم، قد يبهت أثره مع الأيّام لكنّه لن يزول نهائيًّا.

* * *

قُبيل منتصف الليل، وصل المحطّة القطار المتوجّه إلى أنيسي، وبرؤوس مطأطأة، قاد رِمي وإيڤا «أسرتهما» الجديدة لركوبه. أمضيا السّاعات الفائتة في مراقبة الأطفال وهم نيام، وهما يحكيان عن أمور حدثت خلال افتراقهما. أرادت إيڤا الاستمتاع

بـكل لحظـة، لكـن بعـد جلـوس الأطفـال علـى مقاعدهـم وانطـلاق القطـار بيـن الأريـاف الفرنسـيّة المظلمـة، نـال التّعب منهـا. لـم تنـم خـلال اليوميْـن الماضييـن، وهنـا مـع رِمـي إلـى جانبهـا، شـعرت بأمـان أكبـر لـم تشـعر بـه منـذ أشـهر.

«ارتاحـي» همـس والأطفـال نيـام بالقـرب منهمـا. «سـأراقب المـكان، وسـأوقظك إذا جـاء أحـد للتأكّـد مـن الأوراق».

«سأراقب أوّلًا»

تثاءبت. «لا بدّ من أنّك مرهق أيضًا».

لمس وجنتها بلطـف. «إيڤـا، رؤيتـك وأنـتِ نائمـة سـتكون مكافـأة لي.”

نامـت علـى كتفـه سـاعات عـدة، وبعـد أنْ تفحّـص الشّـرطي الألمانـي المسـتندات بنظـرة خاطفـة وتثاقـل، أصـرّت أن يرتـاح رِمـي. مـال إلـى جانبهـا، ومسـحت شـعره وهـي تتأمّـل الأعجوبـة التـي جمعتهمـا. لكـن كـم سـتدوم قبـل أنْ ينفصـلا مـرّة أخـرى؟

عنـد السّادسـة صباحًـا، أيقظـت إيڤـا رِمـي، ثـمّ أيقظـا الأطفـال. توقّـف القطـار عنـد محطّـة صغيـرة فـي أنيسـي عنـد السّادسـة والنّصـف، خرجـوا بسـرعة وتوجّهـوا إلـى زقـاق ضيّـق خـارج المحطّـة إلـى كنيسـة بروتسـتانت قريبـة. الكنيسـة مبنـى مكعّـب مـن البـلاط، مثبّـت عليهـا صليـب كبيـر، داخلهـا، مقاعـد مصنوعـة مـن الخشـب الدّاكـن النّاعـم، وصليـب معدنـي بسـيط فـوق المذبـح.

«ابقـي هنـا مـع الأطفـال» همـس رِمـي لإيڤـا. «ادّعـي الصّـلاة إذا دخـل أي شـخص». شـابال هـو اسـم القـس هنـا. سـيتكفّل بـكِ».

«إلى أين ستذهب الآن؟»

«لمقابلة القس».

رمشت إيڤا. «قس؟»

«هنا في أنيسي، يعمل البروتستانتيون والكاثوليكيون معًا لإخراج أشخاص مثلنا. سيخبرني القس إن كان قائد حافلة هذا الصّباح إلى (كولونز سوساليف) عدوًّا أم صديقًا. سنبقى هنا الليلة إذا لم يكن من جماعتنا، أمّا إذا كان منّا فاستعدّوا للمسير».

«قمتَ بهذا مرّاتٍ كثيرة» قالت له وهي تلاحظ جانبًا جديدًا منه.

أومأ بالإيجاب. «لكن لم أرافق امرأة تهمّني. يجب أنْ يكون كلّ شيء مثاليًّا». غادر قبل سماع إجابتها.

جلس الأطفال بصمت إلى جانبها. حدّق الطّفلان الأكبر عمرًا في الصّليب، جورج يحرّك ركبته بإيقاع، وجاكلين تلف خصلات شعرها. «سيكون كل شيء على ما يرام» قال بصوت خفيض، وهي تميل إليهم. «سيعود قريبًا. إنّه يعرف ما يفعله».

«وكيف تعرفين هذا؟» سأل الطّفل الثّاني، ماوريس.

«أعرف وحسب. فعل هذا من قبل. أنا أستأمنه على حياتي».

«هل هو زوجك فعلًا؟» سألت جاكلين.

شعرت بغصّة كبيرة في حلقها منعتها من الكلام لحظةً واحدةً. «لا. لا، ليس كذلك، لكن يجب أنْ ندّعي ذلك».

«إنّه لا يدّعي» قال جورج. «إنّه يحبّك حقًّا. هذا واضح».

لمحته إيڤا. «نعرف بعضنا منذ زمن طويل».

«لا. أكثر من هذا. إنّه يحدّق إليك حين لا تنظرين إليه. تمامًا كما حدّق هيربرت مارشال إلى كلوديت كولبرت في فيلم زازا»

خجلت إيڤا. «ولماذا تشاهد فيلمًا أمريكيًا قصّته عاطفيّة؟»

أرادت إغاظته، لكنّ الطّفل تكدّر فورًا. «أحبّ والدي الأفلام. أخذني معه كلّما استطاع إلى السّينما القريبة من شقّتنا في باريس». تردّد، ثمّ أضاف بصوت خفيض بالكاد سمعته: «ما عاد أبي موجودًا. ما عاد هناك أفلام».

«أعتذر». كل ما استطاعت إيڤا قوله.

شهق الطّفل بعمق، ثمّ ابتسم ابتسامة مزيّفة. «على أي حال، تنظرين إليه كما تنظر كلوديت كولبرت إلى هربرت مارشال، أيضًا. أنتِ زازا وهو دوفرسن».

ما إن فتحت إيڤا فمها لتجيبه، فُتح باب الكنيسة ودخل رِمي، وخلفه نور النّهار. «تعالوا» أشار إلى إيڤا والأطفال. «ستتحرّك الحافلة باكرًا. لا وقت لإضاعته».

الفصل السّابع والعشرون

بعد خمسٍ وأربعين دقيقة، أمسك رِمي يد إيڤا ليساعدها هي والأطفال لصعود الحافلة المتّجهة إلى جنيف. من طريقة إيماءة رِمي والسّائق لبعضهما، أدركت أنّهما يعرفان بعضهما.

مع توجّه الحافلة إلى الشّمال، شعرت إيڤا بنظرات رِمي وهي تحدّق من النّافذة اليمنى إلى جبال الألب الشّاهقة في ارتفاعها والباهرة. رغم قضائها عامًا ونصف العام في أورينيون وهي تشاهد الجبال من بعيد، إلّا أنّ لا مجال للمقارنة بين جمال الجبال عن بُعد والاقتراب منها؛ بدا أنّها تتمدّد لتزداد ارتفاعًا، كأنّ قممها المكسوّة بالجليد قد خرجت من قصّة خرافيّة. لو لم تكن إيڤا مذعورة من رحلتهم وقلقة على الأطفال لاستمتعت بهذا المشهد.

توقّفوا عند (إيپانيي)، (ألونزييه-لا-كايْ)، (كغوزاي)، (كوپونيه)، (بومون)، (نيدان)، (أغشان) قبل التّوقف نهائيًّا في (كولّونج سو سالاف)، حيث توقّف السّائق فجأة على قمّة تل، عوضًا عن الوقوف في مركز المدينة. أشار رِمي إلى إيڤا، وخلال نزولهما مع الأطفال، أومأ السّائق رأسه إيماءة أخيرة، ثمّ تحرّك. «ها قد وصلنا» قال رِمي بسعادة وصوتٍ عالٍ مسموع، وتبيّن عدم وجود أحد في محيطهم في هذا الجو البارد. «قرية أمّك. لنذهب لمقابلة صديقها، الرّاهب، قبل زيارتها، هلّا فعلنا؟»

«راهبٌ آخر؟» تمتمت إيڤا حين بدؤوا يمشون في الثّلج الجديد المتساقط حتّى الكاحل نحو كوخ حجري في نهاية الزّقاق. تصاعد الدّخان من المدخنة المائلة بعض الشّيء.

«يد الـرّب فـي كلّ مـكان» أجابهـا رِمـي بنبـرة رقيقـة وابتسـم للأطفـال ابتسـامةً أخـرى مشـجّعة مـع اقترابهـم مـن المنـزل.

فُتح البـاب قبـل دخولهـم إلـى هنـاك، وظهـر رجـل قصيـر جليـل، يرتـدي طيلسـان الرّهبنـة الدّاكـن. كان مقدامًـا، تقاسـيم وجهـه متورّدة، عينـاه صافيتـان وزرقـاوان. «ادخلـوا، ادخلـوا. قبـل أنْ يراكـم أحـد» قـال وهـو يُشـير إلـى الدّاخـل.

دفع رِمي وإيڤا الأطفال إلى الدّخل، وأغلق الباب خلفهم بقوّة.

«إيڤا، هذا الأب بويسون. أيّها الأب بويسون، هذه إيڤا».

حاجبـا الرّاهـب ارتفعـا. «آه. إيڤـا. سـمعت الكثيـر عنـكِ». رمقت إيڤـا رِمـي الـذي تأمّـل الأرض فـورًا. ضحـك الرّاهـب. «وهـؤلاء هـم الأطفـال الأربعـة الذيـن فـي رعايتـك؟»

أومـأت إيڤـا بالإيجـاب. «أجـل. جورجـو ماوريـس، جاكليـن، ديدييـر».

انحنـى الرّاهـب حتّـى صـار بمسـتوى نظـر الطّفلـة. نظـر إلـى كل طفـل، واحـدًا تلـو الآخـر. «مـن الرّائـع مقابلتكـم. أريـد أنْ أذكركـم أنّ الـرّب يعـرف مـن أنتـم. يعـرف دائمًـا. إنّـه يـرى قلوبكـم، حتّـى فـي الظّـلام».

شـعر الفتيـة الثّلاثـة بالتّيـه، لكنّ الطّفلـة الصّغيـرة أومـأت كأنّهـا فهمـت مـا قالـه.

«شـكرًا لـك علـى اسـتضافتنا دائمًـا أيّهـا الأب بويسـون» قـال رِمـي. «أيبـدو كلّ شـيء جيّـدًا فـي عبورنـا الحـدود؟»

«أجـل، أجـل. لننقـل الأسـرة الصّغيـرة إلـى العليّـة. هـلّا فعلنـا؟ بعدهـا سـأوجز لـك تحـرّكات اليـوم مـن حـرّاس الحـدود». ابتسـم

لإيڤا. «أعتذر لأنّ المأوى غير ملائم، لكنّ العليّة آمنة جدًّا وهادئة لراحتكم. أفضل ما فيها، وجود نافذة مطلّة إلى الشّمال. يمكنكم رؤية سويسرا على بُعد خمسمئة متر من هنا، بعد السّياج الشّائك مباشرة».

قادهم إلى الأعلى على السّلم المتزعزع إلى مساحة صغيرة ممتلئة بالبطانيات والوسائد. كوز ماء وأكواب، ورغيف خبز، وجرّة طعام مجفّف على طاولة صغيرة. «طعام متواضع» قال الأب بويسون معتذرًا. «إذا حالفكم الحظ، لن تبقوا هنا طويلًا». أشار إلى النّافذة، وقال: «انظري يا إيڤا. خلف الأشجار».

تحرّكت إيڤا إلى النّافذة، وتفاجأت: خارج فناء الرّاهب، في نهاية الحقل سياج شائك. وفي الجانب السّويسري، أشجار طويلة عارية من الأوراق، وخلفها حرس الجيش الرّوسي بمعاطف صوفيّة طويلة وثقيلة، وأحذية سوداء سميكة يمشون على طول الحدود، وعلى أكتافهم بنادق. شعرت بنفَس رِمي على وجنتها حين اقترب إلى جانبها.

«هذه هي الحريّة يا إيڤا» همس لها. «ستتذوقينها قريبًا».

التفتت وتأمّلت عينيه الخضراوين العسليتيْن، فشعرت بالدّوار. «لكن السّياج الشّائك... الحرّاس...».

«لا تقلقي». وضع يدًا على كتفها وضغط برفق. «هناك حل. سنغادر الليلة عند التّاسعة، ما دام الحرّاس في تطوافهم العادي. الآن، يجب أنْ ترتاحي أنتِ والأطفال».

«ماذا عنك؟»

ابتسم ابتسامة بسيطة وقال: «نمت ما يكفي في القطار». مال إليها ثمّ همس: «كنت أعلم أنّي بأمان وأنتِ إلى جانبي».

«تعال» قال الرّاهب وهو يبتسم لإيڤا، ويُشير إلى رِمي. «هنالك الكثير لفعله». قال لإيڤا: «حاولي أنتِ والأطفال أكل شيء والنّوم. ستحتاجون إلى الطّاقة. سنعود عندما يحل الليل».

قبّل رِمي إيڤا على وجنتها ثمّ نزل خلف الرّاهب على السّلم الذي رُفع عن الأرض، وترك إيڤا والأطفال الأربعة في ظلام لا يُنيره إلّا نافذة صغيرة تطل على الحريّة.

«هل سنكون بخير؟» سألت جاكلين وهي تجلس إلى جانب إيڤا.

«أجل، أنا أكيدة». ولأوّل مرّة منذ مغادرة أورينيون، أدركت إيڤا أنّها تؤمن بهذا. الملجأ في مرمى بصرها، وإذا شاء الرّب، ستمنح هؤلاء الأطفال حياةً، مستقبلًا. لكن ماذا عنها؟ ماذا عن رِمي؟ كيف ستسمح له بالعودة للقتال بعد أنْ وجدته؟ تجاهلت السّؤال، طوّقت الفتاة بذراعها، وقالت: «تعالي، لنأكل شيئًا».

همس الأطفال بفرح لبعضهم وهم يأكلون الخبز والطّعام المجفّف تحت البطانيّات، ثمّ ناموا. تهويدتهم الصّمت والدّفء، سرعان ما نامت إيڤا أيضًا. استيقظت فجأة ووجدت رِمي إلى جانبها، يحدّق إليها والدّموع في عينيْه. أشاح ناظريْه.

«منذ متى وأنت هنا؟» سألته إيڤا. خيّم الظّلام في الخارج، ونور القمر هو النّور الوحيد من النّافذة. الأطفال حولهما نيام، وأحدهم يشخر.

«منذ وقت قصير» قال رِمي بصوت مبحوح.

«ما الذي شغل تفكيرك؟»

لم يجبها فورًا. «أنتِ» قال أخيرًا. «نحن. الماضي. المستقبل».

لكن على رِمي البقاء حيًّا إذا كانا سيعيشان المستقبل معًا. يعرف هذا كما تعرفه هي، فعضّت لسانها قبل أنّ تذكره: «إلى أين ستذهب بعد الحرب؟» سألته.

«إيڤا، سأذهب أينما تذهبين». غصّ في آخر كلمة، فتنحنح. «كفانا كلامًا. هيّا لنتحرّك. يعمل الحرّاس في هذا الجانب بمراحل عمل معتادة، ولهذا سيكون العبور هيّنًا».

«رِمي...» بدأت إيڤا. أرادت أنْ تقول الكثير. أرادت أنْ تخبره بأنّها تحبّه، أنّها لا تتخيّل حياتها دونه، لكن بشكل ما لم تخرج الكلمات.

«لا بأس» قال بعد لحظة. مال وقبّلها قبلة خفيفة على شفتيْها. «أعرف، يا إيڤا. أشعر بهذا أيضًا».

«ماذا لو لم أقابلك بعدها؟»

«ستقابلينني يا إيڤا. أعدك»

سمعا خطوات أقدام على الدّرج، وظهر رأس الأب بويسون خلفهما. «حان الوقت. ليستعد الأطفال».

أومأت إيڤا، وابتعدت عن رِمي. الشْعور الذي نما بداخلها منذ أشهر، الأمور لم تمتلك الشّجاعة لقولها، لا مكان لها هنا، ليس في هذه اللحظة. لديها مهمّة واحدة؛ ألا وهي رؤية الأطفال الأربعة الأبرياء بأمان. وكما كان الأب كليمنت ليذكرها بقوله: «سيتكفّل الرّب بالباقي».

بعد عشرين دقيقة، استيقظ الأطفال وارتدوا معاطفهم الصّوفيّة. الأب بويسون تحدّب في العِليّة في مواجهة المجموعة الصّغيرة، فيما جلس رِمي إلى جانب إيڤا، وأصابعه تتخلّل أصابعها.

«سأصلّي لكم» قال الرّاهب، وهو ينظر إلى الأطفال واحدًا تلو الآخر، ثمّ إلى إيڤا ورِمي. «تحلوا بالشّجاعة، واعلموا أنّ الرّب يرعاكم. شاهدت الكثيرين ينفذون هذا العبور إلى سويسرا، وأعلم أنكم ستنجحون». نظر إلى إيڤا مرّة أخرى، ثمّ أضاف: «الرّب يرعاكم دائمًا».

أومأت إيڤا، وضغط رِمي يدها، ثمّ تحرّكوا، ونزلوا السّلم إلى الغرفة الرئيسة في كوخ الرّاهب. اصطفوا لتدفئة أنفسهم أمام المدفئة في حين أطلعهم رِمي على التّعليمات بإيجاز.

«حرّاس الحدود الألمان هنا، لكنّ نظامهم متوقّع، وفيه ثغرات» قال بسرعة، عيناه على إيڤا طوال الوقت. «هناك حارسان، يتحركان بالاتجاه المعاكس لبعضهما، على طول الطّريق على بُعد مئتي متر من الباب الرّئيس. الطّريقة الوحيدة لتجنّبهما هي بالتّحرك باتجاه الطّريق بعد مرور الحارس الألماني الأوّل وانتظار الثّاني؛ وإلّا، لن يكون هناك وقت كاف قبل عودة الحارس الأوّل من جديد. سيمشي الأب بويسون إلى الطريق، وفور ابتعاد الحارس الأوّل، سيركض عائدًا ويعطينا الإشارة. معًا، سنتوجّه إلى الطّريق وننتظر في خندق حتّى يعبر الحارس الثّاني. بعدها ستتبعونني جميعًا بأقصى سرعة. مفهوم؟

إيڤا والأطفال أومؤوا بإذعان مع استمرار كلام رِمي: «فور انتهائنا من الحدود، اركضوا باتّجاه أوّل جندي سويسري ترونه. سيأخذكم إلى بر الأمان. لكن تأكّدوا تمامًا من كونه سويسري الجنسيّة، لا ألمانيًا. الطّريقة الوحيدة للتّفريق بينهما هي أنّ المعاطف السويسريّة لونها رمادي أدكن، وخوذاته تشبه السّلاحف بعض الشّيء. يرتدي الألمان أحذية مطر أطول. إذا رأيتم جنديًا ألمانيًا، بحذائين لركبتيْه، اركضوا بالاتّجاه المعاكس، بأقصى سرعة. هل تفهمون؟»

أومأ الأطفال واحدًا تلو الآخر، وأخيرًا، ثبت نظر رِمي على إيڤا. «ستبقون في سويسرا حتّى انتهاء الحرب، يجب أنْ تبقوا هناك حتّى انتهاء الحرب. ستكونون بأمان. لن تخافوا بعدها بتاتًا». الكلمات للجميع، لكنّ إيڤا شعرت بأنّها موجّهة إليها. كان يقول بأنّها حمقاء لو تخلّت عن بلد محايد وعادت إلى فرنسا. «سأعود لرؤيتكم فور استطاعتي» قال، وهذه المرّة لا شكّ في أنّها المعنيّة بكلماته. ابتلعت ريقها بصعوبة وأومأت. لم تتخيّل أنّهما سيفترقان خلال دقائق ولن يريا بعضهما مرّة أخرى.

«سأذهب إذن» قال الرّاهب. «انتظروا إشارتي. حظًّا موفّقًا للجميع. ليحفظكم الرّب». ثمّ رحل، تاركًا الأطفال مع رِمي وإيڤا وحدهم. طقطقت النّار في الحيّز الذي كان من المفترض أن تملأه الكلمات، وبعد دقائق، أشار رِمي للأطفال. «تعالوا» قال. «سننتظر خارج باب الأب بويسون. استعدوا للرّكض حين يُعطينا الإشارة».

«أنا خائفة» همست جاكلين.

مـال رِمـي إليهـا، بنبـرة حازمـة. «سـنكون هنـا. سـنحافظ علـى سـلامتك حتّـى تعبـري الحـدود. فـور دخولـك إلـى سويسـرا، سـتكونين آمنـة. سـتركضون واحـدًا تلـو الآخـر لتقليـل فـرص كشـفكم، وسـتلحق بكـم أمّكـم. اذهبـوا إلـى أوّل حـارس سويسـري ترونـه، وأخبـروه بأنكـم تحتاجـون إلـى المسـاعدة».

أومـأت الفتـاة بالإيجـاب، ورغـم عـدم شـعورها باطمئنـان كامـل، سـمحت لإيڤـا بمسـك يدهـا وقادتهـا إلـى البـاب مـع الآخريـن. فـور وجودهـم عنـد بـاب الرّاهـب الرّئيـس، أحـاط الظّـلام بهـم، وقـرص الهـواء الجليـدي وجوههـم، رغـم أنّ الرّيـاح قـد سـكنت أخيـرًا.

«لا يمكننـي رؤيـة أي شـيء» همسـت إيڤـا لرِمـي، فأمسـك يدهـا الخاليـة.

«سـتعتاد عينـاك الظّـلام» تمتـم، وأضـاف: «حتّـى ذلـك الحيـن، تذكـري أنّـي هنـا».

كان محقًّـا؛ مـع ظهـور الرّاهـب فـي رأس الطّريـق وتلويحـه لهـم، تمكّنـت إيڤـا مـن تمييـز أشـكال فـي الظّـلام، تحرّكـوا نحـو المعبـر ببطء حتّـى يلحق بهم الأطفـال، أمامهـم أنـوار، بعـد الحاجـز الشّـائك مباشـرة، فأنـارت طريقهـم.

مـرّوا بالرّاهـب الـذي لـم يقـل أي كلمـة لهـم وهـم يمـرّون بجانبـه، ثـمّ وصلـوا إلـى الطّريـق المُعبّـد. همـس رِمـي، «ادخلـوا إلـى الخنـدق. ستسـمعون جنودًا يمرّون خـلال لحظة. احبسـوا أنفاسـكم. سـأخبركم متـى ننطلـق بأمـان».

قلوبهـم تتسـارع؛ فعلـت إيڤـا مـا أمـر رِمـي بـه، وسـاعدت الأطفـال علـى الانبسـاط علـى الطّيـن البـارد فـي خنـدق سـطحي إلـى جانـب

الطّريق. حين بدأت الصّغيرة تئن، هدّأت إيڤا من روعها بتقريبها من حضنها. بكاء الطّفلة الرّقيق اختفى مع مرور أقدام الجنود على الثّلج والحصى بالقرب منهم.

ظلّوا ساكنين مع اقتراب خطوات الأقدام المرتفعة والثّقيلة ليلًا. سمعوا صوت ضحكة، بضع كلمات ألمانيّة، ثمّ ضحكات إضافيّة تلاشت في الاتّجاه الآخر. وأخيرًا، عمّ السّكون مرّة أخرى، فهمس رِمي: «حان الوقت».

ساعدا الأطفال على الوقوف. «بهدوء الآن»، ذكّرهم رِمي، وتوجّهوا نحو السّياج الشّائك، بهدوء تام. وحين وصلوا، كانت بضع إنشات تفصلهم عن سويسرا، لكن، فجأة، أدركت إيڤا أنّها لا تستطيع رؤية الطريق أمامهم.

«كيف...؟» سألت، لكنّ رِمي كان يتقدّمهم، بثقة رفع السّياج، فزحفوا تحته.

«قطعناه قبل زمن طويل» علّل بهمس. «عدم ملاحظتهم حتّى الآن معجزة». ثمّ قال للأطفال: «انطلقوا. كونوا أحرارًا آمنين».

الصّبي الأوّل، جورج، هو أوّل العابرين. مع بدء ديدييه العبور، شاهدت إيڤا جورج وهو يساعده، ثم ركضا. أمّا الفتى الثّالث، ماوريس، فعبر ثمّ انتظر جاكلين. «أمسك بها» همس لإيڤا ورِمي. «شكرًا لكما على كلّ شيء» ثمّ ابتعدا، جسمان صغيران في الظّلام يركضان نحو أنوار قرية سويسريّة.

«حان وقت ذهابك أنت أيضًا» قال رِمي لإيڤا وهو يقبض على يدها بقوّة. «أسرعي، قبل أنّ يلاحظ الجنود الأطفال بسببنا».

التفتت إيڤا إليه. بعد لحظة، كانت على استعداد للحاق بالأطفال، رغم شعورها بألم الفقد، باتت الآن متيقنة كما يعرف قلبها أنّها لن تذهب إلى سويسرا اليوم. قالت: «لا أستطيع».

«إيڤا، يجب أنْ تذهبي». وجه رِمي على بُعد إنشات من وجهها، عيناه داكنتان في قلب الظّلام. «هذه هي فرصتك».

«أعرف» ثمّ، ببطء، بلطف، قبّلته، وحين لم يبتعد، عرفت أنّه فهمها. لا تستطيع المغادرة، ولم يتمكّن من تركها، رغم أنّهما يعرفان أنّ ذهابها هو الصّواب.

«أأنت متأكّدة؟» سألها حين ابتعدت إيڤا عنه منقطعة النّفس.

«أجل»

«إذن علينا التّحرك الآن. سنبقى في منزل آمن في ضاحية القرية قبل العودة إلى الغابة حول أورينيون».

"ألن تعود إلى منزل الرّاهب؟»

"سيكون ذلك في غاية الخطورة. تعالي». جذبها من يدها، وفي نظرة أخيرة إلى سويسرا تمنّت أن يكون الأطفال بأمان، وعادت هي إلى ظلام فرنسا.

***

مأواهم كوخٌ حجري في أطراف القرية، على بعد ربع ساعة من السّلك الشّائك المقطوع الذي منحهم فرصة النّجاة. مع إسراعهما بصمت، أمسك رِمي يدها بقوّة، وسمحت لهذه القوّة بأن تطمئنها باحتمال تحقّق ذلك المستقبل الذي عملت في التّزوير ليتوافر للأطفال.

استخدم رِمي مفتاحًا لفتح باب المنزل الآمن الذي كان معتمًا وباردًا من الدّاخل. فور إغلاقه الباب، ووجودهما في الظّلام، جذبها نحوه، دون تردّد، أطبق بشفتيْه على شفتيْها، ويداه على وجهها، تخلّلت أصابعه شعرها، ثمّ أمسك خصرها. «من المفترض أنْ تغادري معهم» قال بين القبلات. «يجب ألّا تكوني هنا».

«لكن...»

«أنا سعيد لأنّك بقيت يا إيڤا» قال دون مفارقة شفتيْها. «أنا أحبّك».

هذه هي المرّة الأولى التي ينطق بهذه الكلمات، ففرحَا فرحًا شديدًا. «أحبّك أيضًا» تمتمت.

يداه باردتان وهو يمسك وجهها، ثمّ لمس بإبهاميْه أسفل عنقها، ارتعشت حين قبّلها من جديد.

«جسدك بارد» ابتعد وقال: «دعيني أشعل النّار».

«لا أريد تركك» اعترضت.

«لكنّي أريد النّظر إلى عينيْك يا إيڤا. دعيني أشعل نورًا لنا. أعدك لن أذهب إلى أي مكان. قد يكون في المطبخ بعض الطّعام. الأب بويسون يرتبه أحيانًا.

لم ترغب إيڤا في ترك رِمي، لكنّه على حق؛ كانت تتجمّد، ولا يمكنها رؤيته في الظّلام. خلعت حذاءي المطر وذهبت إلى المطبخ لتأكل شيئًا، فيما أعاد رِمي ترتيب الحطب في المدفأة. على المنضدة إلى جانب الموقد قنينة نبيذ أحمر، رغيف كبير، وقطعة جبن كبيرة، مع ملحوظة كُتبت بخط اليد: الرّب معك. حدّقت إيڤا إلى الوليمة التي أمامها، وفهمت أنّ الأب بويسون

كان يعرف، قبل أنْ تعرف هي، أنّها على الأرجح ستعود مع رِمي الليلة. الملحوظة هي مباركته لهما.

عادت إلى الغرفة الرّئيسة، ووجدت رِمي يزيد من لهيب النّار، معطفه معلّق على الكرسي. التفت وابتسم وهي ممسكة النّبيذ الأحمر بيدها، والخبز والجبنة باليد الأخرى. قال: «الأب بويسون يعتني بنا، كما أرى».

سألت إيفا: «ألا تعتقد أنّه غاضب منّا لقضائنا الليلة معًا؟ الرّجل على كلّ، راهب».

أجاب رِمي: «أظنّه يعرف معنى الحب». وضع آلة الموقد الحديديّة جانبًا وذهب إليها، أمسك النّبيذ والطّعام ووضعهما على طاولة خشبيّة في الزّاوية. بعدها، مع طقطقة النّار وانتشار الدّف في الغرفة، أنزل معطفها عن ذراعيْها، ورفع فستانها بلطف فوق رأسها، فوقفت أمامه بملابسها الدّاخليّة. تراجع ليحدّق إليها ثانية واحدة، عيناه تلتمعان، ثمّ قبّلها مرّة أخرى. هذه المرّة، كانت قبلته قبلة شبق، فاستجابت له، وهي تسحب حزامه، وتفتح أزرار قميصه.

طارحها الغرام على عجل، ألم تجربتها الأولى زال فورًا مع الاهتياج –شعور جلده على جلدها، رائحة دخان الحطب، دفء أنفاسهما في البرد. ثمّ، تدثّرا بالبطّانيات وتقرفصا أمام النّار، شربا النّبيذ، وتناولا الطّعام بشراهة، ثمّ عاشرها مرّة أخرى. هذه المرّة، قبّلها رِمي بقبلات أبطأ، وأعمق، وتمهّل كل منهما في استكشاف جسد الآخر. بعد انتهائهما، استلقت متعرّقة وهي تبتسم على صدره العاري، وقبّل رأسها. «يجب أنْ تغادري غدًا يا

إيفا. يجب أنْ تعبري الحدود السّويسريّة. لا أطيق فكرة أي إصابة بضرر».

«ألا أستطيع البقاء معك؟» سألته، وتنهّدت وهو يمسّد شعرها، أصابعه تُسرّح تعقيدات شعرها بسبب ممارسة الحب.

«تعرفين أنّ هذا غير ممكن يا إيفا الحبيبة. لكن بعد الحرب، سآتيك».

«كيف ستجدني؟»

«سكت زمنًا طويلًا، دون توقّف يديْه عن الحركة، فوجدت الراحة. «اذكري اسم مكانٍ عزيزٍ على قلبك».

أغمضت عينيْها واستنشقت رائحته، مسك وملح وصنوبر. قالت: «في باريس مكتبة اسمها مازارين. في طفولتي، اعتاد أبي أخذي إليها مرّة أسبوعيًا. أصلَح الآلات الكاتبة في مكتبات كثيرة قبل أنْ يعمل في إصلاح آلات الكتابة للشّرطة، لكنّ مازارين هي مكاني المفضّل. كنت أجلس على العتبات في انتظاره، وأنا أحلم بأمراء وأميرات وممالك قصيّة». ضحكت بلطف. «أتعرف أنّي حلمت بالزّواج من أمير يومًا ما، هناك على عتبات المكتبة».

«مازارين؟» كرّر رِمي. «أجل. إنّها جزء من قصر معهد فرنسا، يسار المصرف». ضحك رِمي وقبّل رأسها. «أعرف. اعتدت اللعب هناك في صغري. كنّا نمشي أنا وأمّي على جسر الفنون، وكانت تتركني في الخارج حتّى تقرأ. «لا تبتعد عن العتبات يا رِمي» كانت تقول. «هناك أشرار في هذا العالم». ولهذا كنت أجلس في المكان ذاته متظاهرًا بأنّي أقاتل الأعداء القادمين لسرقة الكتب».

جلست إيڤا ونظرت إليه دون تصديق. «أتعتقد أنّنا قد تقابلنا هناك؟»

«ربّما. ترددت على المكان أعوامًا طويلة، حتّى وفاة أمّي في الصّيف الذي أصبح فيه عمري اثني عشر عامًا، ولم أعد إلى ذلك المكان قط».

«وحين عمل والدي في إصلاح الآلات للشرطة، توقّفت عن الذّهاب إلى المكتبة أنا أيضًا». هزّت رأسها بعدم تصديق ونامت على صدره. أيعقل أنّ الأمير الذي حلمت به في طفولتها كان في المكان ذاته طوال الوقت؟ مصادفة غريبة؛ قدر لا مصادفة. تنهّدت برضى. «أنا في غاية الحزن لفقدانك والدتك في عمر صغير يا رِمي. لم أسمعك تتحدّث عنها».

«اعتقدت أنّ الذّكريات أقلّ وجعًا إذا تكتّمت عليها. هذا غير صحيح ربما. ألم الفقدان يفقد تأثيره عند مشاطرته مع الآخرين».

أومأت والدّموع في عينيّها. «يمكنك مشاطرة آلامك معي دائمًا».

«أعرف هذا الآن» قال، ثمّ قبّل رأسها من جديد. «في أحد الأيّام، بعد انتهاء الحرب، سنذهب إلى هناك معًا؟ إلى مكتبة مازارين؟»

ابتسمت على صدره. «باريس ستعود باريس من جديد، ولن يحدّق أحد إليّ لأنّي يهوديّة. سنكون مجرّد شخصين قد تقابلا على عتبات المكتبة».

حين عمّ الصّمت في أرجاء المكان، أصبحت رموش إيڤا ثقيلة. كانت شبه نائمة حين كسر رِمي الصّمت. «قلت إنّك كنت تحلمين بالزّواج هناك».

«تبدو الفكرة سخيفة الآن. أعرف»

«لا، ليست سخيفة» انتظر رِمي حتّى حدّقت إيڤا إلى عينيْه. ماذا لو فعلنا هذا؟»

«فعلنا ماذا؟»

«تزوّجنا على عتبات مكتبة مازارين»

«رِمي، أنا...» لم تتمكّن من إنهاء جملتها. أطبقت جفنيْها، بقلب مفطور. أرادت الزّواج به أكثر ممّا تريد أي شيء في العالم تقريبًا. لكن كيف ستؤذي ماموشا، المرأة التي فقدت كلّ شيء، المرأة التي لن تسامحها ربّما إذا تجاهلت إيڤا اليهوديّة؟ ومع هذا لم ترفض، كيف تسمح لرغبات والدتها بالسّيطرة على رغباتها؟ فكرة عيش حياة يكتبها الآخرون لك مزعجة. لا توجد إجابة صائبة.

حين فتحت عينيْها من جديد، كان رِمي يحدّق إليها، وقد عرفت من ملامح وجهه أنّه قرأ أفكارها. «لن توافق والدتك بتاتًا».

«ليس مهمًّا». مسحت إيڤا دمعة نزلت على وجنتها.

«مهم بالطّبع» قال بلطف. قبّل جبينها. «الأسرة هي كلّ شيء، والآن أسرتك مُفكّكة».

«ستفهم يومًا ما. إنّها الآن غاضبة وخائفة وتشتاق إلى والدي كثيرًا...».

«ومن يستطيع لومها؟» بدأ رِمي يمسّد شعرها. «إنّها تخشى فقدانك أنتِ أيضًا إذا أحببت رجلًا يختلف عنك، من دين مختلف».

«لكن لن يحدث. لن تفقدني. سأحرص على هذا. طريقة عثور أحدنا على الآخر يا رِمي، لا بدّ من أنّها من تخطيط الرّب».

«إذن، يجب أنْ نثق بأنّه سيجمعنا مرّة أخرى». أخذ نفسًا عميقًا. «لا يهم الآن كم أحبك. لا يمكن أنْ أطلب منك أن تكوني شريكة حياتي ما لم تفهم والدتك».

«لكن رِمي...»

«إذا كنّا سنعيش معًا، سيكون هناك متّسعٌ من الوقت دائمًا. لكن لن يكون وجودي في حياتك على حساب خسارتك لآخر فرد من عائلتك. أعشقك إلى هذه الدّرجة».

«أعشقك أيضًا» شعرت إيڤا بانهمار دموعها الآن، بلّلت صدر رِمي في الظّلام. «أنا في غاية الأسف يا رِمي. آسفة لأنّي لست أقوى».

«إيڤا، أنتِ أقوى شخص أعرفه، قويّة إلى درجة تشبثك حتّى الآن بفعل الصّواب، حتّى لو فطر قلبك»

عرفت، حتّى لو تقبّلت كلماته، أنّها ستندم على هذه اللحظة لباقي حياتها. «سأكلّمها فور وصولها إلى سويسرا. سأجعلها تفهم. لن أحقّق لها اتّهاماتها لي من خلال هجرها. لا أستطيع أنْ أكون ما تخشى أن أكونه. لن أسامح نفسي على إيذائها بهذه الطّريقة».

طوّق رِمي وجهها بيديّه بلطف ونظر إلى عينيّها. «أعرف يا حبيبتي».

«هل ستعود من أجلي؟ بعد الحرب؟»

«سأفعل بالتّأكيد. سألتقيكِ على عتبات المكتبة، بعدها سنبدأ حياتنا».

"Ani l'dodi v'Dodi li» همست.

«ما معنى هذا؟»

«بالعبريّة، تعني: أنا لحبيبي، وحبيبي لي من نشيد الأنشاد العبري الذي يُنشده النّاس عند الزّواج، ليعدوا بعضهم بحب أبدي».

ابتسم رِمي لها. «إذن في هذه الحال، أنا لحبيبي، وحبيبي لي». مال إلى الأمام وقبّلها، بلطف كأنّه يستعد للرّحيل.

ورغم ظنونها، والنّار التي خبت، وازدياد الظّلام والبرودة في المنزل، استسلمت إيفا للنّوم. إرهاق الأيّام الماضية –ومتعة لقاء رِمي– استبدّ بها. مسّد شعرها حتّى نامت.

الفصل الثّامن والعشرون

حلمت إيڤا بالوقوف على عتبات مكتبة مازارين وهي ترتدي الفستان الأبيض، وتبحث عن عريس لم يأت. استيقظت مرتعبة والدّموع على وجنتيْها، واحتاجت إلى لحظات قليلة لتتذكّر أنّها ليست في باريس، ولم تُهجر عند المذبح، وأنّ رِمي إلى جانبها.

لكن مع ملاحظتها نور الصّباح المتسلّل عبر ستائر الكوخ الصّغيرة، أدركت أنّ الغرفة باردة، والنّار قد خَمَدَت، ورِمي قد رحل.

وقفت بسرعة، بنبض متسارع، لكنّه ليس في المطبخ، المغتسل فارغ أيضًا. فتحت الباب في الصّباح المثلج على أمل أنْ تجده في الخارج يتنفّس الهواء النّقي، لكنّ الحديقة خالية، ولا توجد آثار أقدام في الثّلج المتساقط حديثًا. هذا يدل على مغادرته قبل ساعات، ساعات طويلة أخفت الآثار.

أغلقت إيڤا الباب بخدر في أناملها، دخلت المنزل الصّغير. لاحظت حينها قصاصة ورق على الطّاولة الخشبيّة الصّغيرة. إنّها رسالة مكتوبة لها، أمسكتها لتقرأ ما فيها، آخر بصيص أمل بالنّسبة إليها.

عزيزتي إيڤا،

وجودي معكِ أقنعني أنّ حصول المعجزات ممكن، سأتذكر ليلتنا معًا حتّى أراكِ مرّة أخرى. أتمنى فقط أنّ يومًا ستتحسن الأمور بالنّسبة إلينا.

اذهبي إلى سويسرا الليلة يا حبيبتي. إنّها طريقك الوحيد للنّجاة. تابعي حياتك. سأخبر الأب بويسون أن يتوقّع حضورك؛ يجب أنْ تعودي بعد حلول الليل، وسيساعدك على العبور.

إيڤا، أرجوك اعرفي أنّي أحبّك، وسأحبّك ما حييت.

أنا لحبيبي، وحبيبي لي.

رِمي.

قرأت إيڤا الرّسالة مرّتيْن، والدّموع تتدفق من عينيْها. خرج رِمي في الليل البارد وهو يعرف أنّها ليست قويّة بما يكفي لتعده بالزّواج، فآلمها هذا أشدّ إيلام. هذا خطؤها، وعرفت أنّها ارتكبت خطأ. ففي النّهاية، رأت أمّها الموقف بأفق ضيّق محصور في الغضب والفقد. لماذا سمحت إيڤا لهذا بتحديد حياتها؟ مستقبلها؟

ماذا لو لم يعد رِمي؟ ماذا لو لم يصمد خلال الأشهر المقبلة؟ ماذا لو ماتت هي (إيڤا)؟ لن تتمكّن من تصويب الخطأ، أنْ تخبره بأنّها موافقة، وأنّها تحبّه بروحها.

فجأة، خطر لإيڤا خاطر. الحافلة لن تعود إلى أنيسي باكرًا هذا الصّباح بلا شك. هذا يعني أنّ رِمي في مكان في القرية.

أليس كذلك؟ قد تعثر عليه، وتصحّح الخطأ، وتخبره بأنّ لا شيء يهم إلّا هو، وأنّها ستتزوّجه وتجد طريقة لإقناع والدتها.

سحبت معطفها، وتوجّهت إلى الباب قبل أن تمنع نفسها، رغم أنّ الشّكوك ساورتها وهي في طريقها إلى منزل الرّاهب. هل ستتسبّب بمشكلة للرّاهب إذا زارته في النّهار؟ توقّفت فجأة وفكّرت، لكنّها أكملت المسير بعد ثوان. عليها الوصول إلى رِمي.

يتصاعد الدّخان من مدخنة الرّاهب، والأنوار مضاءة، وهذا يشير إلى استيقاظه. هل رِمي هناك أيضًا؟ دعت إيڤا الرّب، أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ طرقت الباب.

تفاجأ الأب بويسون عندما رأى إيڤا. رمش مرات عدّة قبل أن يدخلها من ذراعها دون أي كلمة، أغلق الباب خلفها بسرعة.

«ما كان يجب أنْ تأتي قبل تخييم الظّلام» قال لها بلطف، دون غضب.

«أعتذر. أحتاج إلى رِمي»

«أنا آسف يا عزيزتي، لكنّه رحل»

«أكان هنا هذا الصّباح؟»

أومأ الرّاهب بالإيجاب. «غادر قبل الشّروق مع مجموعة مقاومة سريّة سيعيدونه إلى ليون».

انفطر قلب إيڤا. فات الأوان، لا طريقة للعثور عليه بعد دخوله إلى الغابة الكثيفة الأشجار خارج أورينيون. اغرورقت عيناها بدموع مسحتها فورًا، لكن الرّاهب شاهدها. سحبها وعانقها، فبكت على كتفه بضع ثوان، ثمّ تمالكت نفسها وابتعدت عنه.

قالت له: «أنا آسفة. ما.. ما كان يجب أن آتي».

«سعيد بمجيئك يا إيڤا». لاحظت حينها الحزن في ملامحه. «مع الأسف لدي خبر، وصلني بعد رحيل رِمي بساعة».

«خبر؟»

تنهّد. «تعالي معي». قادها نحو سلّم العليّة، الذي كان في الأسفل، وأشار إليها لتصعد. «لدينا زائرة». صعدت ولحق بها فوق.

ثوان معدودات، اعتادت بعدها عيناها الظّلام، لكن فور رؤية المرأة شهقت. في الزّاوية مدام ترينيانت، صاحبة المخبز في أورينيون، شعرها أشعث، كم قميصها ممزّق، عيناها محتقنتان بالدّماء. «مدام؟» سألتها إيڤا. «ماذا تفعلين هنا؟ ماذا حدث؟»

«أوه، إيڤا!» مالت مدام ترينيانت لتعانقها بوهن. «انتهى كلّ شيء في أورينيون».

«ماذا؟»

«الاعتقالات...» انفجرت باكية، لكنّها تمالكت نفسها بسرعة. «الألمان يتقدّمون. لقد اعتقلوا الكثير منّا. مدام باربيير. مدام ترافير. مدام نورو. الجميع».

اقشعرّ جسد إيڤا. «ماذا عن الأب كليمنت؟»

هزّت مدام ترينيانت رأسها. «كان بخير حين غادرت. هو من علّمني طريقة الوصول إلى هنا. أصرّ أنْ أغادر فورًا». تردّدت، وأشاحت بنظرها. «اعتقلوا أمّك يا إيڤا».

«أمّي؟ لا، لا، هذا مستحيل. لا علاقة لها بهذا»

نزلت دمعة على وجنة مدام ترينيانت. «كان الألمان يبحثون عنكِ، وحين رفضت إخبارهم بمكانك، أخذوها».

«لا، لا، لا. هل...؟» لم تستطع إيڤا إنهاء الجملة.

«كانت حيّة حين غادرت» أجابتها بسرعة. «أخذوها لتُسجن في كلوتييه، حسب علمي. مع الأسف عرفوا هُويّتها الحقيقيّة».

تجمّد الدّم في أوصال إيڤا. «كيف؟»

هزّت مدام ترينيانت رأسها لأنّها لا تعرف.

مال الرّاهب ووضع يده بمواساة على كتف إيڤا. سأصلّي لها يا إيڤا. سنصلّي لها».

«لكن...» شعرت إيڤا بالدّوار. «يجب.. يجب أن أرجع».

تبادلت مدام ترينيانت النّظرات مع الرّاهب. «لا يمكنك» قالت بحزم. «إنّهم يعرفون حقيقتك الآن. يبحثون عنكِ. ستُعدمين يا إيڤا».

«لا أستطيع التّخلّي عن أمّي»

«دعي المقاومة السّريّة تتولّى المسألة» قال الأب بويسون. «سيبذلون قصارى جهدهم».

إيڤا تعرف أنّ لدى المقاتلين المختبئين في الغابة أمورًا أهم من امرأة في منتصف العمر لا قيمة لها بالنّسبة إليهم. يجب أنْ تغادر الآن، وإلّا ستموت أمّها. انتحبت إيڤا، ثمّ قالت: «لا. يجب أنْ أصوّب الأمور».

«ما حدث لأمّك ليس خطأك»

«خطئي حتمًا! لو لم أتورّط في أي من هذا، لكنّا أنا وهي في سويسرا قبل سنة ونصف»

ستُقتلين فورًا إذا رجعتِ الآن. أتريدين رمْيَ نفسك في التّهلكة؟» تساءلت مدام ترينيانت.

حدّقت إيڤا إليها، وقلبها ينبض بقوّة. المرأة على حق، لكنْ، أثمّة خيار آخر؟ لن تسامح نفسها بتاتًا إذا تركت أمّها تُقتل بكل بساطة بسبب قراراتها هي. حين اعتقلوا والدها، لم يكن بوسعها فعل شيء. لكنّ حياة ماموشا قد تُنقذ إذا عادت إيڤا. «يجب أنْ أذهب» قالت بلطف وقد عزمت على تنفيذ الأمر.

تردّد الرّاهب، ثمّ أومأ باستسلام. «إذن أسرعي. ستغادر الحافلة إلى أنيماسي خلال ثلاثين ثانية».

«شكرًا لك أيّها الأب بويسون»

«لا تشكريني. مع الأسف أنا أرسلك إلى حتفك». تنهّد، ثمّ أضاف: «ليكن الرّب معكِ يا إيڤا. سأدعو لكِ في صلواتي».

***

في وقت متأخّر من صباح اليوم التّالي، عادت إيڤا إلى أورينيون بعد ركوب الحافلة من أنيماسي إلى ليون، سهرت الليل وهي ترتعش في المحطّة، ثمّ ركبت القطار المتوجّه إلى كليرمونت فيرّاند، وحافلة إلى القرية. توجّهت إلى الكنيسة مباشرة، ووجدت الأب كليمنت واقفًا أمام المذبح، المقاعد حوله محطّمة. التفت عند دخولها، فتعجّب.

«يُفترض أنْ تكوني في سويسرا!» قال وهو يتحرّك نحوها، بعينين مضطربتَيْن. رداؤه مائل، ووجهه مكدوم. «يا إلهي! إيڤا! ماذا تفعلين هنا؟ المكان ليس آمنًا. ألا ترَيْن؟»

«أمّي» تمكّنت من لفظ هذه الكلمة، وفجأة استرخت ملامح وجهه، وتقدّم نحوها، فجذبها ليعانقها فانهارت. «ماذا حدث أيّها

الأب كليمنت؟» سألت بين العبرات المتساقطة. «أين هي؟ يجب أنْ أساعدها».

«تعالي يا عزيزتي» قال وهو يبتعد عنها، ويحدّق حوله. «المكان ليس آمنًا هنا. لم يعتقلوني بعد، لكنهم يأملون عودتكِ، وأنّي سأشي بكِ».

مسحت إيڤا دموعها. «دمّروا الكنيسة...»

«لم يدمّروها يا إيڤا. الكنيسة باقية ببقاء الرّب. لا تنسي هذا. أسرعي الآن. اخرجي واذهبي إلى المدرسة حيث قابلتِ فوكون أوّل مرّة. أتذكرين؟»

«أجل»

«سآتيك عمّا قريب. احذري. قد يتبعك أحدهم».

خرجت إيڤا من الباب الخلفي، وكان الصّباح هادئًا، ولا توجد آثار أقدام خلفها. ذهبت في طريق آخر، احتياطًا، وعند وصولها إلى المدرسة، كانت أكيدة من أنّها وحدها.

المبنى بارد ومعتم، أُخلي منذ زمن طويل من التّلاميذ والمُعلّمين. نُهب المكان، وقُلبَت المكاتب، وأُسقِطَت الكتب من الرّفوف، والصّفحات مُزّقت وبُعثرت وتجمّعت في زوايا مُظلمة، عشوائيًا. كان هناك أمرٌ مُحيّر، من عالم آخر في هذا المكان. السّتائر منسدلة، لكن أشعة الشّمس تسلّلت من بين التّشققات والتّمزّقات، مُلقية بظلال كلّما هبّت الرّياح في الخارج. إحدى النّوافذ مهشّمة ومنها دخلت الرّياح العاصفة.

اقتربت إيڤا من الزّاوية المحاذية للسّبورة، وظهرها للجدار، وهي تشعر بأنّها هدفٌ سهل، ازداد قلقها مع مرور الدّقائق.

أتعقّبوا الأب كليمنت؟ اعتقلوه؟ أيتوجّهون إليه الآن؟ أهي حمقاء للجوئها إليه، هي وهو في خطر مضاعف الآن؟

ثمّ فُتح باب المدرسة، ومع الثّلج ونور الشّمس، ظهر الأب كليمنت، وقد أغلق الباب خلفه بسرعة. همس: «إيڤا. أنا هنا».

وقفت وظهرت من الظّل. «أيّها الأب كليمنت أنا في غاية القلق».

مع وقوفهما معًا تحت شعاع الشّمس الخافت، أمسك يدها. «لا نملك الكثير من الوقت يا إيڤا. يجب أنْ تغادري أورينيون قبل أن يعرفوا بعودتكِ».

«لا أستطيع. لن أغادر دون والدتي»

«إيڤا. أنا في غاية الأسف، لكنّهم قتلوها على الأغلب»

هزّت رأسها. «لا. لا، لا أصدّق هذا».

«إيڤا...»

«ماذا حدث أيّها الأب كليمنت؟» قاطعته. «كيف حدث ما لا نريد؟»

«خاننا شخص في مجموعتنا يا إيڤا. هذا هو الاحتمال الوحيد. يعرف الألمان كل من في مجموعتنا في القرية تقريبًا»

«أيمكن أنْ يكون إرِش؟»

«تساءلت إن كان هو، أيضًا، لكنّه لم يتواصل مع أحد غيري، وكنتُ حذرًا في المعلومات التي أتشاركها معه». أخذ نفسًا عميقًا. «إيڤا، اعتقلوا كلود جودبيرت وعذّبوه. أنا واثق بأنّ إرش لا يعرف شيئًا عنه، لم يقابله نهائيًا، لذا ليس هو من وشى به».

إذا اعتقل الألمان قائد المقاومة، لا بدّ أنّ الجاسوس من الدّاخل، ذلك لأنّ عددًا قليلًا من النّاس يعرفون هُويّته أو مكانه. «هل مات جودبيرت؟»

أومأ الرّاهب بالإيجاب بحزن. علّقوا جثّته خارج القرية لتكون تحذيرًا لنا».

ابتلعت إيڤا لعابها بصعوبة. «أين إرِش الآن؟»

«قتلوه حسب ظنّي». الأب كليمنت بائس. «إذا عرف الألمان مكان جودبيرت، فليس من الغريب أنّهم يعرفون أنّ إرِش مصدر معلوماتنا».

«ماذا عن فوكون؟ هل قبضوا عليه؟»

«حسب علمي، ما زال طليقًا»

«إذن سأذهب للعثور عليه. سيعرف كيفيّة التّصرف لإنقاذ أمّي»

«لا» أجاب الأب كليمنت فورًا وبصرامة. «حتّى لو عثرتِ عليه، ستدلّين الألمان إليه مباشرة. ستدمّرين ما تبقّى من مجموعتنا يا إيڤا. أرجوكِ لا تفعلي».

«أعرف. أشعر بالعجز» حاولت التّماسك. «كيف سأسامح نفسي إذا فقدت أمّي حياتها بسبب قراراتي؟»

«إيڤا، قراراتك أنقذت حياة أمّك. لا يمكنك النّظر إلى الماضي. انظري إلى المستقبل فقط. والآن، هم يبحثون عنكِ يا إيڤا. ستموتين إذا بقيتِ»

«لكن إذا غادرت، لن أتمكّن من الحياة براحة» أخذت نفسًا عميقًا وشدّت ظهرها وكتفيها، ونظرت إلى عينيْه مباشرة، ثمّ قالت: «لا أستطيع التّخلي عن والدتي. يجب أنْ أفعل ما بوسعي لإنقاذها».

حدّق إليها زمنًا طويلًا. «أعرف. كنت آمل أنْ تعدلي عن رأيك، لكنّي أعلم. وأعتقد أنّ لدي خطّة. تختبئين، في مكان آمن. وأنا أتفاوض مع الألمان نيابة عنكِ. سأخبرهم بأنّهم إذا أطلقوا سراح والدتك، ستسلّمين نفسك».

«ألن يعتقلوك ويُعذّبوك ليعرفوا مكاني؟»

«مخاطرة أنا مستعد لها»

«حتّى لو حرّروا أمّي الآن، ألن يعتقلوها مرّة أخرى أيضًا؟»

«أثق بعدد قليل من النّاس في ليون لم يُعتقلوا بعد. مدام ترينيانت عبرت الحدود بأمان، أليس كذلك؟ وهذا ما سيحدث لأمّك. ولزيادة الاحتمالات لصالحنا، سأحاول إيصال رسالة إلى الجماعة المسلّحة أنّنا بحاجة إلى إلهائهم لضمان سفرها بأمان».

«بعدها سأسلّم نفسي، فور علمي أنّها بأمان؟»

«لا، يا إيڤا، بالطّبع لا. ستهربين للنّجاة بحياتك. ستعودين إلى سويسرا، وستكبرين في العمر، وتخبرين النّاس بما حصل هنا»

«لكنّك ستُقتل إذا هربت»

«يعتقد هؤلاء الرّجال أنّهم يعرفون الرّب. خدعوا أنفسهم بالاعتقاد أنّهم يفعلون ما يأمر به. يجب أنْ أصدّق أنّ للنّازي أفكارًا أخرى تتعلّق بقتل راهب كاثوليكي بدم بارد».

شعرت بالدّوار وهي تحدّق إليه. لم تتمكّن قبول مقايضة الرّاهب بحياته مقابل حياتها، أو حتّى بحياة أمّها. المصيبة التي وقعت فيها أمّها هي بسبب إيڤا، وهذا يعني أنّ إنقاذ أمّها مسؤوليتها.

«لا أيّها الأب كليمنت. شكرًا لك، لكن لا. سأعثر على طريقة أخرى»

«لا يوجد طريقة أخرى»

«ألستَ أنت من أخبرني بأنّ الرّب يفتح أبوابًا لا نعرف عن وجودها شيئًا؟ يجب أنْ أومن بهذا بكل شجاعة. لا شيء مستحيل»

ابتسم الرّاهب بحزن. «مع الأسف يا إيڤا هذا ليس كافيًا أحيانًا».

«هذا كل ما أملك. شكرًا لك على كلّ شيء؛ على رغبتك بالتّضحية من أجلي، على إنقاذي في المقام الأوّل، على منحي هدفًا، مأوى. لكن الآن، حان وقت دفاعي عن حقوقي. ويجب أنّ تغادر قبل تأخّر الوقت. اذهب إلى سويسرا. عِش حياتك. أمّي وأنا سنلتقيك هناك متى استطعنا»

رأيت في عينيْه أنّه يعرف أنّها لن تصل إلى سويسرا، وأنّها ستموت في سبيل تحرير والدتها. «لن أغادر يا إيڤا» قال الأب كليمنت. «مكاني كان وسيبقى في أورينيون. لم يتخلَّ الرّب عنّي، وأنا لن أتخلّى عنه. وسأفعل ما بوسعي من أجل والدتك، لأنّي ما عدت قادرًا على تجاهل أي روح بريئة بعد الآن. هذا قراري، لا قرارك. اذهبي الآن يا إيڤا. اذهبي، قبل أنْ يُلقي الألمان القبض علينا هنا».

عانقته إيڤا بقوّة قبل مغادرتها. أدركت أنّها المرّة الأخيرة التي سترى فيها الرّاهب الذي ساهم في حمايتها. مع خروجها في الصّباح البارد والعاصف بعد لحظة، صلّت وتمنّت أن يكون الرّب معها لتنقذ حياة أخرى من الموت.

الفصل التّاسع والعشرون

عرفت إيڤا، بعد أربع ساعات، وهي تمشي في كلتيير نحو السّجن المحلّي الصّغير الذي استولى الألمان عليه، أنّها تمشي نحو فم الأسد الذي سيلتهمها حيّة على الأرجح. لا يوجد أي خيار آخر. أملها الوحيد هو أن لا يتعرّف الحرّاس إليها، وستخدعهم طريقة ارتدائها طبقة إضافيّة من الملابس السّميكة التي جعلتها تكتسب عشرات الباوندات. سلّمت مستندات كُتب فيها أنّها أرملة في التّاسعة والأربعين من عمرها، وقد مات زوجها ببطولة في ڤيردون قبل جيل كامل، ورغم أنّ الخطة طائشة، فإنها تمنّت أن تنطلي على الألماني الذي ستُقابله، ولو لدقائق معدودة. هذا كل ما احتاجت إلى رؤيته إذا كانت أمّها على قيد الحياة.

أتوسّل إلي، يا رب. دعت بصمت وهي تعرج نحو السّجن، بكتفين مرتخيتين، وتجر رجلها اليمنى، وتستند على عصى. ساعدني على إنقاذ أمّي. كلّ ما يحدث لي هو من إرادتك. كلّما اقتربت، اقتنعت أنّ موتها اليوم هو الصّواب. آمنت دومًا بمرحلة ما بعد الموت، وعيش الأرواح، رغم أنّ هذا التّعليل ليس واضحًا في اليهوديّة كما هو في الكاثوليكيّة. لكن لو كانت على حق، لو كان هناك ما يشبه عدن تنتظرها بعد الموت، فستلتقي تاتوش مرّة أخرى، أليس كذلك؟ ويومًا ما، على أمل أن يكون بعد سنوات كثيرة، كثيرة من الآن، قد يكون رِمي هناك أيضًا في الجانب الآخر. كانت تؤمن أنّ بإمكاننا مشاهدة ما في الأرواح الأخرى

مباشـرة بعـد المـوت، وحينهـا، وأخيـرًا، سـيعرف رِمـي شـعورها، ومـدى ندمهـا علـى السّـماح لـه بالرّحيـل.

إذا عاشـت، فيجـب أنْ تخبـره أنّهـا وافقـت علـى الـزّواج بـه، لطالما كانـت الإجابـة «نعـم»، وسـتبقى «نعـم». بعـد تجربتهـا، علـى أمّهـا أنْ تفهـم أنّ فـي وجـه شـر كهـذا، لا معنـى للفروقـات بيـن المسـيحيّة واليهوديّـة. كل مـا يهـم هـو أنّ رِمـي رجـل صالـح، وأنّ الوقـت أثمـن مـن إضاعتـه. قالـت للـرّب وهـي تسـتدير عنـد زقـاق (دي غرافينـوت) إذا وهبتنـي النّجـاة، أعاهـدك، بتصويـب كل شـيء مـع رِمـي أيضًـا. سـأقوّم أخطائـي قبـل فـوات الأوان.

السّـجن أمامهـا، معتـم يتوعدهـا بالسّـوء حتّـى فـي شـمس الأصيل. أو ربّمـا هـي لعبـة الظّـلال، تحجـب البـلاط بفظاظـة ويأس.

شـجّعت إيڤـا نفسـها، ودخلـت مـن البـاب الرّئيـس، وقلبهـا ينبـض بقـوّة، وهـي تعـرج. وشـاح يُغطّـي النّصـف السّـفلي مـن وجههـا، وقبّعـة تُظلّـل النّصـف العلـوي. مـع اقترابهـا مـن المكتـب، ذُهلـت لأنّ الحـارس ليـس ألمانيًـا، كمـا توقّعـت. كان أحـد شـرطة الـدّرك الفرنسـي، وكان يُقلّـب أوراقًـا، وعينـاه مُحمرّتـان مـن الإرهـاق، دقيـق الشّـفتين أسـفل شـارب خفيـف.

رفـع رأسـه عنـد اقترابهـا، وفـي تلـك اللحظـة، كرهتـه كرهًـا شـديدًا تفاجـأت منـه. لـم يولـد فـي الجانـب الآخـر. إنّـه فرنسـي أقسـم يومًـا علـى حمايـة بنـي شـعبه. لكنّـه خـان القسـم، واختـار مسـاندة المحتلّيـن، علـى الأغلـب ليضمـن لنفسـه منصبًـا فـي السّـلطة بعـد انتهـاء الحـرب. سـيدفع الألمـان ثمـن مـا اقترفـوه يومًـا مـا، إيڤـا أكيـدة، لكنـه فـي الجحيـم مـكان مخصّـص لـكل الفرنسـيين والفرنسـيّات الذيـن باعـوا إخوانهـم وأخواتهـم للعـدو.

رفع الشّرطي عينيْه، عيناه بلا مشاعر وهو ينظر إليها بفضول. «مدام؟»

أخذت إيڤا نفسًا عميقًا، وهي تستجمع شجاعتها، ثمّ انحنت إلى صدرها. «أنا هنا لأقابل يلينا مورو» قالت بصوت خفيض ومرتعش، كأنّه صوت امرأة حزينة دمّرتها الحياة.

«وما علاقتك بمدام مورو؟» سأل الشّرطي، وفي عينيه اهتمام أخيرًا. «هذا ليس اسمها الحقيقي على أي حال، اليهوديّة القذرة». دقّق النّظر إلى إيڤا، لكنّها أبقت ذقنها في الوشاح، والقبّعة منخفضة وهي تحارب لئلّا يظهر الغضب على وجهها. حين مال ليراها بشكل أفضل، سعلت سعالاً حادًا، ولم تغط فمها. تراجع، وهو يشعر بالتّقزّز.

«أرسلتني الكنيسة» تنفّست، وقبل أنْ يسألها عن اسم الكنيسة، أو السّبب، سعلت مرّة أخرى سعلة طويلة وقويّة، بأكبر قدر من البصاق باتّجاهه. شعر بالنّفور، ومع إبعاده كرسيّه، عرفت أنّها قد قيّمته تقييمًا صحيحًا؛ سيكون أكثر اهتمامًا بتجنّب الإصابة بمرض السّل أقوى من تنفيذ واجباته التي أمره بها الألمان.

«نعم، أجل، تأخّر الوقت كثيرًا» قال وهو يعود إلى عمله الورقي.

«تأخّر كثيرًا؟» تمكّنت إيڤا من الحفاظ على نبرة صوتها العاديّة.

«هذا ما قلت»

«رُحّلت إذن؟» لكن ما سبب إرسال أمّها إلى الشّرق إذا كان كانت ستُستخدم للاستدراج؟

«رُحِّلت!» بدا الشّرطي مستمتعًا حين قهقه بشخير. «لا، مدام، لقد أُعدمت. هذا الصّباح». رفع سبّابته وإبهام يده اليمنى وقلّد حركة إطلاق نار من مسدّس.

سكن العالم فجأة. ارتعشت قدما إيڤا، وانقطع نفسها. حاولت الابتلاع، لكنّ فمها جاف كما الغبار. هذه المرّة، حين ضاعفت السّعال، لم يكن تزييفًا، كان حزنًا متناهيًا. «لا» قالت، وهي تتمالك نفسها. «لا. لا. هذا مستحيل. لم ترتكب خطأ».

تأرجحت ملامح الرّجل بين الارتياب وعدم الاهتمام للحظة قبل استقراره على اللا مبالاة. «سمعت أنّ لديها ابنة تتعاون مع المقاومة السّريّة. رفضت تسليم نفسها». مال قليلًا وحاول رؤية وجه إيڤا، لكنّها غطّت وجهها لتخفي دموعها. «أنت لا تعرفين شيئًا، صحيح؟ عن الابنة؟»

«بالطّبع لا». تمكّنت إيڤا من الحفاظ على نبرة صوت ساخطة، رغم أنّ وجهها اهتز نفيًا. «أأنت متأكّد من أنّ شخصيتها لم تلتبس عليك مع شخصية أخرى؟» لعلّ عالمها برمته لم ينقلب رمادًا وهو يحدّق إليها، غافلًا.

«شاهدتها بأمّ عيني». استند الرّجل إلى كرسيّه، وهو يشعر بالرّضا، وفي تلك اللحظة، لم تكره إيڤا إنسانًا مثله. ماتت. مستحيل.

«فهمت»

لم ينته حديث الرّجل بعد. كحيوان يشم دمًا طازجًا، بُعثت الحياة فيه فجأة. «أتعرفين ما هو أسوأ جزء؟»

«لا يمكنني تصوّره» لاحظت إيڤا انزعاجها، والمرارة، والاضطراب. أرادت التّقيّؤ، ولجزء من الثّانية، تخيّلت تفريغ ما

في معدتها على زي الشّرطي النّظيف. لكنّها لن تغامر بتحويل اشمئزازه إلى غضب.

«كانت لا تزال تدافع عن الابنة رغم موتها!» قهقه، كأنّه قال دعابة مع صديقة عوضًا عن كسر قلب عدوّة. «الألماني الذي أعطى أمر إطلاق النّار سألها إن كان لديها كلمات أخيرة، وقالت هراء عن كونها فخرها لأنّها أم لابنة شجاعة». هزّ الرّجل رأسه بضحك كالشّخير، ثمّ أضاف: «الحمقاء العجوز. إنّه خطأ الشّابة».

«صحيح. لا شك في هذا». أخفت إيڤا ذقنها قدر الإمكان لإخفاء الدّموع المنهمرة على وجهها وقلبها يتشظّى. لن تسامح نفسها بتاتًا. «ماذا عن المرأة المعتقلة معها؟ مدام باربيير؟»

قال الشّرطي: «ماتت، هي الأخرى. ماذا تتوقّعين؟ كانت تساعد المقاومة. كان من المفروض أنْ تعرف نهايتها».

«فهمت». سمعت إيڤا صوتها الأجش الحزين، لكنّ الشّرطي لم يلاحظ. «حسنًا. يجب أنْ أعود إلى الكنيسة. سأصلّي للمدام مورو ومدام باربيير. ولكن، هناك أبرشيون يحتاجون إلى مساعدتنا أيضًا».

«أكيد. لكن ربّما عليك التّكلم مع كنيستك بشأن عدم دعم الخونة، أليس كذلك؟»

أجابته إيڤا بصوت مرتعش: «أكيد يا سيّدي. سينال الخونة عقابهم عندما يقفون في حضرة الرّب».

أومأ الرّجل برضا، ثمّ أضافت إيڤا سعالًا فيه بصاق لتتأكّد من أنّه لن يتبعها. تقيّأت على الشّجيرات المتيبّسة خارج السّجن، أخرجت كل ما في معدتها، وأذابت دموعها الثّلج عند سقوطها.

لم يبق لإيڤا شيء تخسره.

أخذ الألمان أباها، والآن أمّها، وإيڤا تعرف أنّها هي الملامة. فخورة لأنّها أم لابنة شجاعة، قالت الشّرطة، لكنّ إيڤا ليست شجاعة. كانت مرعوبة طوال الوقت. كانت تخدع نفسها بأنّها قادرة على ابتلاع خوفها وصنْع فارق. التّغيير الوحيد الذي أحدثته هو خسارة المرأة التي أنجبتها إلى الدنيا. ألم تكن كلمات تاتوش الأخيرة توصيها بالاعتناء بأمّها؟ قذفتها للذئاب عوضًا عن حمايتها.

خذلت إيڤا والدها في باريس، والآن خذلت والدتها أيضًا. رحل والداها عن الدّنيا، وهي المُلامة. جرحت رِمي، أيضًا. من يعرف ماذا سيواجه في الغابة الخطرة الباردة قبل تصويب الأمور؟ ماتت أمّها وهي تعتقد أنّ ابنتها قد خانت دينها.

في يوم شتوي بارد قبل عام واحد، حين أخبرها رِمي بأنّه يريد المقاومة بما هو أكثر من تزوير الوثائق، لم تفهم إيڤا قصده حقيقةً. ألم يكن تزوير المستندات مقاومة؟ يجب أنْ ينقل أحدنا المقاومة إلى معقل الألمان. أفزعتها كلماته، لكن هذا قبل فقدانها أمّها. قبل أنْ تنفجر حياتها إلى الدّاخل بسبب زلّاتها.

قبل استيلاء الألمان على كل شيء.

لا يهم إذا عاشت، ولهذا قرّرت الذّهاب إلى المزرعة التي أقام جوزِف فيها أحيانًا. انتبهت لعدم ملاحقة أي شخص لها، لكن عليها فعل أمر ما. عليها نقل القتال إلى عرين الوحوش الذين أخذوا عائلتها منها. قضت مدة الحرب وهي تساعد النّاس دون تأثير فاعل، ولم يعد هذا كافيًا. أرادت سفك الدّماء،

وستركع توسلًا أمام جوزِف ليحقّق لها ما تريد. يمكنه التّوسّط لها وإرسالها إلى المقاتلين في الغابة، يخبرهم بأنّها ستنفّذ كل ما يطلب منها.

عادت الحافلة إلى أورينيون والمسير الطّويل باتّجاه الضّاحية لم يشف غليلها، ومع وصولها إلى المزرعة طحنت ثمانية إنشات من الثّلج المتساقط تحتها. تشعر الآن بغيظ أكبر من الذي شعرت به بعد مغادرة السّجن. سلكت طريقًا غير مباشر هنا، حول القرية، دخلت إلى واجهة المخزن لتخلع قطعة الثّياب الإضافيّة ورمت العصا ولفّت الوشاح بإحكام أكبر اتّقاء للبرد الذي ازداد عصفًا مع مغادرتها ميدان أورينيون الصّغير. التفتت مرّة أخيرة لتتأكّد من عدم ملاحقة أحد لها عندما وصلت إلى الباب الرّئيس. إنّها بخير ووحيدة.

طرقت الباب، ولم يفتحه أحد، حتّى عندما نادت. الباب مقفل بإحكام. دارت حول المنزل ودخلت من نافذة لم تغلق بإحكام. المكان مظلم، ومهجور. التمع نسيج عنكبوت عن يمينها.

تبيّن أن المزارعين المقيمين هنا قد غادروا، ربّما اعتقلهم الألمان، أيضًا. لكن أيختبئ جوزِف هنا كما فعل من قبل؟ ليس مرجّحًا، لكنّها لا تعرف مكانًا آخر لتذهب إليه. دب الرّعب في أوصالها، مشت إيڤا بإجهاد عبر الجليد إلى المنزل ذي الجدران غير المتساوية في الارتفاع. داخله رائحة تبن عفن وحليب فاسد. «مرحبًا؟» نادت إيڤا، في حال سمع جوزِف خطواتها فاختبأ. «أنا! إيڤا! أرجوك، أحتاج إلى المساعدة!»

شيء ما تحرّك في الأعلى. «جوزِف؟» صاحت. «أرجوك! أأنت هنا؟»

صمت مُطبق، وأخيرًا، شعرت أنّ كتفيها ترتخيان باستسلام. لعلّها سمعت حركة فأر أو مخلوق آخر اختبأ من برد الشّتاء القاسي بعد هروب البشر. «من فضلك؟» صاحت بصوت أعلى من جديد، لكنّها عرفت بالفعل أنّ نداءاتها عبثيّة. رحل جوزِف قبل زمن طويل، ومعه رحل أملها بالانضمام إلى المقاومة المسلّحة.

استدارت إيڤا لتغادر وهي تبكي مرّة أخرى. يبدو كلّ شيء بلا أمل، مستحيلًا.

كانت على وشك الخروج من باب الحظيرة عصرًا حين سمعت همسًا خلفها.

التفتت، ولا شيء غير الظّلام. هل تتخيّل؟ أتصوّر سماع صوت من فرط يأسها؟

«إيڤا» سمعته مرّة أخرى، أوهن هذه المرّة. الصّوت صادر من العليّة التي فوقها. هناك شخص في الأعلى.

«جوزِف؟» صاحت وهي تصعد السّلم الضّيق المستند إلى الجدار الخلفي. فور دخولها إلى كومة القش فوقها صرخت صرخة مكتومة. القش ملطّخ باللون الأحمر القاني، وهناك لطخات داكنة على الأرض الخشبيّة. للعليّة رائحة حديد، وفي الزّاوية جَنفْييف مستلقية، مرتخية بغرابة إلى اليمين، وفستانها الأزرق ملطّخ بالدّماء. هناك حفرة، داكنة، في معدتها.

«يا إلهي، جَنفْييف!» صرخت إيڤا وهي تتحرّك بسرعة باتّجاهها لتمسح الدّم الداكن عن وجهها الشّاحب.

«إيڤا» همست جَنڤييڤ. عيناها ترمشان؛ شبه فاقدة الوعي. نظرت إلى إيڤا. «أهذا أنتِ حقًا؟»

«أجل، جَنڤييڤ! ماذا حدث؟»

سعلت جَنڤييڤ، وخرجت قطرات دم من فمها. «جيرارد» همست.

نظرت إيڤا حولها. «ذهب ليجلب المساعدة؟»

«لا، يا إيڤا» سعلت مرّة أخرى، والدّم سال على ذقنها. «هو».

«ماذا؟»

«قتلني»

كلام جَنڤييڤ هراء حتمًا. «لا يا جَنڤييڤ ما زلت حيّة».

ضحكت بمرارة ووهن. «أنا أموت يا إيڤا».

«سأجلب المساعدة»

«تأخّر الوقت». سعلت مرّة أخرى وسعلت دمًا. «جيرارد هو الخائن يا إيڤا. خاننا جميعًا».

ارتجفت إيڤا. «لا، لا، لا، لا. مستحيل. أعرفه منذ سنوات. لن ...» سكتت. «لا» أضافت بهمس.

«أخبرني بأنّ الألمان قد عرضوا عليه أنْ يكون جاسوسًا حين قبضوا عليه في شهر ديسمبر»

«لكنّه يهودي!»

بصقت دمًا. «ما كان يجب أنْ تغادري مبكرًا، قال. وعدهم بتسليمك إليهم. وعدهم بجلب اليهوديّة التي زوّرت جميع مستندات المنطقة. لم يُصدّق أنّي لا أعرف مكانك».

تجمّد الدّم في أوصال إيڤا. «فعل هذا بكِ بسببي؟»

«ليس خطأك». لمست جَنقييف يد إيڤا، وعيناها ترمشان بسرعة من جديد. «خطئي» أخذت نفسًا بإجهاد، فسمعت إيڤا حشرجةً في رئتيْها. «و... وثقت بالشّخص الخطأ».

«وثقت به أنا أيضًا»

«ارحلي قبل عودته»

«لن أتركك»

«انتهت حياتي». صار صوتها أوهن. «اجعليه يدفع الثّمن».

«لكن...»

«اذهبي يا إيڤا»

تردّدت إيڤا. وضعت يدها على معدة جَنْڤييف ولم تشعر إلّا بالدّم الدّافئ المتجمّع. أطلق جوزِف النّار عليها وتركها تموت موتًا بطيئًا شنيعًا، وحيدة. لكنّها تكون وحيدة. أقل ما يمكن فعله. «لن أتركك يا صديقتي. أنا هنا».

جَنْڤييف أضعف من أنْ تجادل. غابت عن الوعي، فرفعت إيڤا رأسها برقّة وترنّمت بتهويدة: تحت ضوء القمر التي كانت تغنيها أم جَنْڤييف لها في طفولتها:

Ma chandelle est morte

Je n'ai plus de feu

Ouvres-moi ta porte

Pour l'amour de Dieu

[شمعتي انطفأت. لا مزيد من النّور عندي. افتح بابك لي، حبًّا بالرّب]

اختلج جسد جَنْڤييف. كرّرت إيڤا التّهويدة بلا لحن، بدعاء:

«افتح بابك لها يا ربّنا». خرجت روحها، وانتهى عذابها. وقفت إيڤا ويدها ممرّغة بدماء صديقتها، وتوجّهت إلى السّلم. حياة بريئة أخرى بسببها، سبب آخر لتقاوم بكل ذرة فيها.

***

المكان الوحيد الذي فكّرت في الذّهاب إليه هو الكنيسة. كانت لا تزال متوجّعة من الخيانة التي ملأتها اضطرابًا وندمًا. كيف خانهم؟ خانها؟ من الواضح أنّها لم تعرفه جيّدًا، ذلك الشّاب الذي يذيب بوسامته القلوب. سيطر عليها الغضب؛ على جوزِف وعلى ذاتها. كيف وثقت به فقط لأنّها عرفته في الماضي؟

يجب أنْ تُحذّر الأب كليمنت. لكن كيف ستوقف جوزِف وهو هنا؟ لديه مسدّس، وإيڤا تملك... ماذا؟ غضبها المشروع؟ حزنها المُسبّب للعجز؟ سيكفيان. لقد خذلت أمّها وجَنْڤييڤ. لا يمكنها أنْ تخذل الرّاهب الطّيب أيضًا.

وقفت زمنًا طويلًا لتغسل الدّم عن يديْها ووجهها. أخذت درّاجة القتيلة وتوجّهت إلى القرية. قادتها عبر الثّلج المتراكم حتّى وصلت إلى الطّريق الرّئيس الخالي. قادت الدّراجة عليه حتّى وصلت مع مغيب الشّمس وتجميد الرّياح لدموعها.

الكنيسة مظلمة وهادئة، رغم أنّ الباب الأمامي غير مقفول. هذا بيت الرّب، قال الأب كليمنت لها يومًا. لن تُقفل الأبواب بتاتًا أمام طالبٍ لسلام الرّب. لا تريد إيڤا السّلام اليوم.

فتّشت عن الأب كليمنت في مكتبه، غرفة الاعتراف، والمكتبة السّريّة، لم تجده. نظرة سريعة إلى غرفته الصّغيرة خلف

الكنيسة، ولم تجده أيضًا؛ الباب مغلق ومقفل، والنّوافذ مظلمة. رجعت إيڤا إلى المكتبة، رغم أنّ بقاءها هنا يعني أنّها بلا حماية من أي هجوم. جوزِف على دراية بالمكتبة، والمفتاح الذي بحوزة الأب كليمنت، وسيعود لاحقًا أم عاجلًا إليها.

لكن عليها تنفيذ أمرٍ ما.

في السّكون، أشعلت مصابيح وسحبت كتاب الأسماء المفقودة من مكانه الآمن على الرّف. الشّيء الوحيد الذي لن يتمكّن جوزِف من أخذه منها؛ حمدًا للرّب أنّ إيڤا لم تشارك السّر إلّا مع الأب كليمنت ورِمي.

حدّقت إلى الكتاب لحظة. تغليفه البُنّي تلف أكثر من ذي قبل، كعبه زاد تجعّدًا، على غلافه الخلفي أثران وعلى غلافه الأمامي أثر واحد من بصماتها، بسبب عدد المرات التي أمسكته فيها دون أنْ تزيل المواد الكيميائيّة من أصابعها أوّلًا. هي آخر من مسكه. ما عدد المتعبّدين الكاثوليكيين الذي أمسكوا هذا الكتاب بين أيديهم خلال القرْنيْن الماضيين قبل أنْ يصل إليها؟ موجود قبل الثّورة الفرنسيّة، قبل ولادة نابليون، قبل فقدان لويس السّادس عشر وماري أنطوانيت رأسيْهما في سبيل الانعتاق، قبل مجيء والدي إيڤا إلى فرنسا وهما يعتقدان أنّ هجرتهما هذه ستمنحهما الحريّة والفرصة. وها هو الآن، بين يدي يهوديّة تعتز بدينها، في كنيسة رأى فيها الرّب انتشار الشّر والغدر.

كفكفت دموعها وفتحت الصّفحة الثّانية؛ صفحة رِمي، وهي تعرف ما تريد كتابته، الكلمات التي كان من المفروض أنْ تقولها في ذلك الكوخ على أطراف فرنسا قبل أيّام قلائل. على السّطر

الأوّل، ارتعشت يدها، ووضعت نجمة فوق حرف é في كلمة étoit، ثمّ نقطة على حرف p في prion. في الصّفحة التّالية، أضافت نقطة فوق حرف o في recevoir. أمّا في الصّفحة الرّابعة، فوضعت نقطة فوق u في leurs. استمرّت في فعل هذا على صفحات رِمي: الصفحة السّادسة، والرّابعة عشرة، والثّانية والعشرون، والخامسة والثّلاثون، إلخ. حتّى كتبت ما تريد. أغلقت الكتاب بعد وضع نقطة على أوّل حرف m في صفحة 611؛ لا توجد صفحات كافية لحرف e الأخير، لكنّه كافٍ لرسالتها:

Éouse-moi. Je t'aime.

[تزوّجني. أحبّك]

مع إعادة الكتاب إلى مكانه، لمست كعبه، ثانية واحدة. هل سيجد رِمي الرّسالة؟ هل سيعرف أنّها أحبّته؟ أم لن يكون للكتاب قيمة في نهاية المطاف؟

حينئذٍ، سمعت جلبة عند الباب، فأبعدت يدها عن الرّف. أدركت أنّ الوقت قد تأخّر كثيرًا على كلّ شيء. دخل جوزِف الغرفة وبيده مسدّس، التصقت إيڤا بالجدار. لا تملك شيئًا تحمي به نفسها، لا شيء سوى الكتب. أغلقت يدها على كعب إنجيل ثقيل. سيطلق النّار عليها، أكيدة من هذا، لكنّها لم ترغب في الموت دون قتال.

«جوزِف!»

لوى وجهه وهو يمشي إلى المكان الذي تشاركته مع رِمي في أحد الأيّام. «إيڤا، أنتِ أحمق ممّا اعتقدت، رجعتِ؟ إلى المكان الوحيد الذي تعلمين أنّي سأجدك فيه؟»

أخذت نفسًا عميقًا مضطربًا. «عليّ فعل هذا». حتّى لو ماتت هنا اليوم، وهو أمرٌ وشيكٌ، سيعرف رِمي أنّها أحبّته.

«أتعلمين، لم أفهمك بتاتًا يا إيڤا تروب، حتّى في باريس، بعينَيْك الواسعتَيْن وأنفك المندس في الكتب كأنّ العالم الخارجي غير مهم. كنتِ الطّائر الغريب، أليس كذلك؟ وتعتقدين أنّي لم ألاحظ نظراتك إليّ؟ كباقي الفتيات. كنت سأحصل عليك لو أردت، وفي أي وقت».

تجاهلته. «ماذا فعلت يا جوزِف؟ بجَنْڤييڤ؟ بأمّي؟»

في عينيه الزّرقاوين دموع، للحظة واحدة، ثمّ مسحها. «لم أرِد إيذاءهما يا إيڤا. خرجت الأمور عن سيطرتي».

«ماذا فعلت؟ كيف ارتكبت أيًّا من هذا أيّها الوضيع؟»

اختفت الدّموع حين التفت، وحلّ مكانها نظرة إصرار فولاذي أشعرها باختلاجة في عمودها الفقري. «لا خيار لدي. يعرف الألمان أنّي عضو في المقاومة. كانوا سيعدمونني، فعرضت عليهم صفقة».

«العمل معهم فكرتك؟»

«كنتِ ستفعلين الشّيء ذاته لإنقاذ نفسك»

«لا يا جوزِف. لم أكن لأفعل. مستحيل»

ضيّق عينيه. «لم يكونوا ليعرضوا الصّفقة عليك أصلًا. أنتِ يهوديّة».

«وأنتَ يهودي، أيضًا!»

هـزّ رأسـه نافيًـا، وعلـى شـفتيْه تعجـرف. «أبـي كاثوليكـي، وأمّـي نصف يهوديّـة. قـال الألمـان أنّـي محظـوظ؛ قطـرة دم يهوديّـة إضافيّـة كانـت سـتهلكني».

«أنـت هالـك لا محالـة يا جوزِف. أتعتقـد فعـلًا أنّ لـك مكانًـا فـي ألمانيـا إذا انتهـت الحـرب؟ لـن يغضّـوا الطّـرف عـن دمـك اليهـودي، وإذا انتصـرت فرنسـا سيُعدم الخائنـون»

«أتعتقديـن أنّـي لـم أفكـر مليّـا؟ وعدنـي الألمـان بدفـع مكافـأة تكفينـي بعـد الحـرب لأعيـش حياتـي». زادت ملامـح وجهـه قسـوة. «إضافـة إلـى هـذا، لـن يبقـى أي شـخص ليخبرهـم بمـا فعلـت يـا إيڤـا».

ابتلعت ريقهـا بصعوبـة. إذن فأنـت سـتقتلني أنـا أيضًـا. كمـا قتلـت أمّـي».

حـزن فجـأة. «لـم أقصـد هـذا. كانـت تهمّنـي يـا إيڤـا، حقيقـةً. غمرتنـي بلطفهـا علـى الدّوام. كل مـا هنالـك أنّهـا كانـت فـي المكان الخاطـئ، فـي الوقـت الخاطـئ. كانـوا فـي النّـزل مـن أجـل مـدام باربييـر، وبعـد اعتقـال أمّـك، أيضًـا، سـألوني إن كنـت أعرفهـا. كنـت سـأنكر، لكنّهـا رجتنـي لأسـاعدها، حتّـى أنّهـا اسـتخدمت اسـمي الحقيقـي، عجـوز حمقـاء! بعدهـا، لـم أسـتطع إنـكار أنّـي أعرفهـا، خاصّـة أنّهـم عرفـوا أنّهـا أمّـك. رفضـت إخبـار الألمـان عمّـا تعرفـه يـا إيڤـا، كانـت ستُرحّل إلـى الشّـرق عوضًـا عـن إعدامهـا لـو أخبرتهـم بمكانـك. غلطتهـا».

«لا شيء ممّا حدث خطؤها». ابتلعت إيڤا الغصّة. «ماذا عن جَنْڤييف؟»

اعوجّ فكّه السّفلي. «لربما كنّا سنحظى بفرصة لو سارت الأمور بشكل مختلف. لكنّي احتجت إلى معرفة مكانك. أنتِ سبيلي إلى حياة جديدة. كنت قد سلّمتهم جودبيرت، وأنتِ النّصف الثّاني من الصّفقة. إذا سلّمتكِ إلى الألمان، سلّمتهم اليهوديّة التي قامت بأكبر عملية تزوير في المنطقة، سأعيش. أترين المعضلة التي كنت فيها؟ جَنڤييف تعرف معلومة، ورفضت مشاركتها معي. رغبت في تهديدها فقط يا إيڤا، لكنّها كانت أنانيّة. أخبرتها بأنّ لا طريقة لإنقاذ حياتي إلّا بتسليمك لهم، ورفضت مساعدتي».

«فأطلقت النّار في معدتها وتركتها تموت؟»

«انتهاء الأمور بهذه الطّريقة عار حقيقي»

«أنت وحش»

أشاح بنظره. «عرفت أنّك لن تفهمي. كيف ستفهمين؟ ليس لليهود مستقبل في فرنسا، أما أنا فلي مستقبل. ترين هذا بالطّبع».

شعرت باحتدام غضبها. حثّت نفسها على الهدوء. «وماذا سيحدث الآن يا جوزِف؟»

«ستخبرينني بكل شيء يتعلّق بما فعلته في السنّة الماضية. أعرف مصدر الأوراق بالتأكيد، وقد أخبرت الألمان عن إسقاطات الجزائر من التّحالف، لكن ما سبب احترافك التّزوير؟ حاولت الحصول على المعلومات من جودبيرت والأب كليمنت قبل أشهر، لكنّهما في غاية الحذر، متكتّمان جدًّا. حتّى تحت التّعذيب، لم

يخبرنـي جودبيـرت عـن أسـرارك! كيـف مسـحتما البيانـات أنـتِ ورِمـي؟ كيـف نسـختما الأختـام بدقّـة وسـرعة، رغـم تغييـر الألمـان أسـاليبهم ونـوع الحبـر؟ مـا الشّـبكات الأخـرى التـي تعمليـن معهـا؟ مـن هـم معارفك؟ يريـد الألمـان هـذه المعلومـات ليوقفوا كل عمليـات التّزويـر فـي فرنسـا. إذا أخبرتهـم بهـذه المعلومـات، سيسـمحون لـي بمغـادرة أورينيـون، وبـدء حيـاة جديـدة».

«أحمـق أنـتَ إذا اعتقـدت أنّهـم سـيوفون بعهدهـم يـا جـوزِف. سـتُقتل»

هـزّ رأسـه. «أنـتِ لا تعرفيـن شـيئًا عـن الموضـوع. مـاذا تعرفيـن؟ ثقـي بـي، مـن الأسـهل إذا أخبرتنـي».

«ولماذا أخبرك بأي شيء أيّها المخادع؟»

«لأنّـك إذا لـم تخبرينـي، فسأسـلّمكِ إلـى الألمـان، وسـتخبرينهم غصبًـا. سـيعذبونك حتّـى تطلبـي الرّحمـة، حتّـى تتمنـي رصاصـة فـي دماغـك. أنـا صديـق قديـم يـا إيڤـا. أفضّـل رؤيتـك بسـلام. سـاعديني وسأسـاعدك».

«كما ساعدت جَنْڤييف؟»

تغيّـر فـي وجه جوزِف شـيء للحظـة، شـيء يشـبه النّـدم. بالسّـرعة التـي لاح فيهـا، اختفـى. «قلـتُ لـك، كان بإمكانهـا إنقـاذ نفسـها. كان بـودّي أخذهـا معـي، لكنّهـا لـم تحبنـي بمـا يكفـي. هـي المُلامـة».

«هـي الملامـة؟» زاد غضـب إيڤـا، وقبـل أنْ تعيـد النّظـر، سـحبت الكتـاب المقدّس مـن الـرّف الـذي خلفهـا ورفعتـه بـكل قـوّة. رفـع يـده اتّقـاء للضّربـة، لكـنّ المفاجـأة جعلتـه يطلـق النّـار. مـرّت الرّصاصـة فـوق كتـف إيڤـا اليمنـى، قريبـة بمـا يكفـي لتشـعر بهـا. حيـن اعتـدل

جوزِف مرّة أخرى، سال دم فوق حاجبه الأيمن، وكان يسخر منها. على الأقل، أصابته. حتّى لو كان هذا آخر فعل لها.

«أوه يا إيڤا. ستندمين» تذمّر.

قوّمت ظهرها وفكّرت في أمّها، في أبيها، في رِمي، في كل ما خسرته بسبب الحرب. «أنا نادمة على أمور كثيرة لا تعرفها، لكنّ إصابتك بجرح ليس أحدها».

رفع المسدّس مرّة أخرى. «أخبرني عن التّزويرات يا إيڤا، وإلّا سأعذبك بنفسي. سأستمتع بالفرصة أيتها البقرة المثيرة للشّفقة. ستتخلين عن رِمي العزيز والآخرين».

«سأموت عمّا قريب يا جوزِف»

«أوه، ستموتين يا إيڤا. المسألة هي أنك ستتعذبين أيضًا. لو لم أبدأ الكلام، لوضعت رصاصة هنا، في رجلك. ستنزفين حتّى الموت ببطء، وسيكون العذاب شديدًا. سأحرص على هذا».

«ستدفع ثمن هذا، وثمن جميع أفعالك» بصقت عليه.

اكفهرّ وجهه، واحتدم الغضب في عينيْه التي أحبّت جمالهما يومًا ما. «لا أريد فعل هذا يا إيڤا، لكن لم تتركي خيارًا لي. لديك عشر ثوان لتقرّري، وأنا أمنحك هذا الوقت بحكم صداقتنا الطّويلة كما تعلمين. لكن إذا تشبّثتِ بعنادك حين أنتهي من العد، فمع الأسف، لن يكون لدي أي خيار باستثناء سحب الزّناد. مفهوم؟ عشرة، تسعة، ثمانية...»

«اذهب إلى الجحيم يا جوزِف». مع عدّه التّنازلي أغمضت عينيْها وبدأت تصلّي؛ لا لتنجو، إذ لا فرصة للنّجاة الآن.

«... سبعة، ستّة، خمسة...»

عوضًا، صلّت إيڤا لتمتلك الشّجاعة والجَلَد لتتنفّس نفسها الأخير قبل أنْ تخون أي أحد. لن يموت أي أحد بسببها؛ لم تتمكّن من التّحمّل.

«...أربعة، ثلاثة، اثنان...» مع وصول جوزِف لنهاية العد التّنازلي، عانقت إيڤا نفسها لأنّ العذاب القادم مؤلم، والعذاب مجرّد بداية.

انطلقت رصاصة دويّها يشبه الانفجار. ارتجّت في أرجاء الغرفة، تهيأ لها سماع الدّوي من جديد من فرط قوّتها. احتاجت إلى جزء من الثّانية لتدرك أنّها لم تشعر بشيء. هل أخطأها؟ فمه فاغر وعيناه مفتوحتان.

هناك على الأرض أمامها، سقط جوزِف على بطنه، رأسه ملتف، وعيناه مفتوحتان ولا تريان، فاغر الفم، رصاصة نفذت في مؤخّرة جمجمته.

فوقه، ما زال الدّخان يتصاعد من المسدّس الذي في يده، وقف إرِش، بزيّه النّازي، وعيناه على إيڤا. قال لها: «يجب أن تغادري يا إيڤا. اذهبي الآن. إنّهم قادمون من أجلك».

بدأت ترتجف وهي تحدّق في صدمة بلا تصديق. «كيف...؟»

«جوزِف خانني، أيضًا. رؤساء عملي يعرفون أنّي ساعدت المقاومة. أخبرني صديق، فهربت قبل اعتقالي. جئت إلى هنا لتحذير الأب كليمنت. لم أعثر عليه، ثمّ سمعت صوت جوزِف، فأطلقت النّار».

«أنقذتني»

ابتسم بحزن. «فعلت على الأقل الشّيء الوحيد الذي سيشفع لي عند خالقي».

«ماذا تقصد يا إرش؟ تعال معي بسرعة. يمكننا الهرب معًا».

تأخّر الوقت بالنّسبة إليّ. لا إليكِ. اذهبي يا إيڤا. اهربي بحياتك. لا تقلقي. سألهيهم لدقائق، على الأقل. إنّها فرصتك الوحيدة».

«إرِش...»

«قبل أن آتي إلى الأب كليمنت للاعتراف، ارتكبت أمورًا يستحيل أنْ تُغفر. توصّلت إلى مرحلة تقبّل ما يخبّئه لي القدر. عند معرفة أنّ آخر فعل من أفعالي هو إنقاذك، سيمنحني بعض السّلام في النّهاية. من فضلك، ليكن لحياتي معنى».

فجأة، فهمت الذي يقوله. «إرِش، لا!» اقتربت منه، لكنّه تراجع، وهو يهز رأسه.

في الخارج أصوات تقترب من الكنيسة، ثمّ تعالت، أوامر بالألمانيّة. «عيشي حياة رائعة يا إيڤا» همس إرش، ثمّ، دون تردّد، أغمض عينيْه، ووضع فتحة التّصويب على رأسه، وسحب الزّناد.

كتمت إيڤا صرخة مع سقوطه على الأرض، لكن في تلك الثانية، عرفت ما يجب فعله. افتعل إرش فوضى مكّنتها من الهرب. وهكذا، قبل دخول النّازيين، خرجت من المكتبة السّريّة واختبأت أسفل الأريكة، وحبست أنفاسها مع مرور عشرات الأحذية السّوداء بجانبها نحو جثّتي إرش وجوزِف. انتظرت دخولهم جميعًا إلى الغرفة وهم يشرحون لبعضهم ما حدث داخل الغرفة الصّديقة، ثمّ خرجت بسرعة وهدوء نحو الباب الخلفي للكنيسة. لمحت تمثال يسوع فوق المذبح وصلّت صلاة سريعة لروح إرش قبل أنْ تخرج في الليل المثلج.

وكما أوصاها إرش، خرجت في الظّلام، للنجاة.

الفصل الثّلاثون

بعد ستة عشر شهرًا

يونيو 1945

ضوء النّهار في بوليڤارد راسبيل في باريس كان يبهت عصر يوم دافئ وإيڤا ذاهبة للمرّة المئة تقريبًا إلى فندق لوتيسيا، التّحفة الفنيّة البيضاء في (سان جيرمان دي بري) الذي كان مجمع الكُتّاب والفنّانين. حوّلته الحرب إلى أمرٍ مختلف، المعقل الأساسي للجواسيس وخبراء التّعذيب في منظّمة الدّفاع الألمانيّة، لكنّ باريس كانت قد تحرّرت قبل عشرة أشهر، وفي أبريل، اكتسى الفندق العظيم بحلّة جديدة لكونه مركز تجمّع اللاجئين العائدين إلى الوطن من معسكرات الاعتقال الألمانيّة.

عادت إيڤا إلى باريس من سويسرا خريف 1944، بعد شهرَيْن من تحرير المدينة، جابت الطّرقات على أمل لقاء شخص تعرفه، شخص يخبرها عن مصير والدها. لكن ما من أحد. لا شيء. أسرة فرنسيّة لا تعرفها كانت تقيم في شقّتها القديمة، ولم يبقَ أحد من جيرانها. بدأت تذهب إلى مكتبة مازارين يوميًا لتنتظر على سلالمها على أمل عودة رِمي إليْها. انصرمت الأيّام وخبتْ جذوة الأمل، فحدّثتها نفسها بأنّه قد هلك في الحرب كما هلك من تعرفهم.

السّيد كوجون، رب عمل والدها العجوز ساعدها في العثور على عمل جزئي في تصليح الآلات الكاتبة، تمامًا كما فعل والدها

سابقًا، ما مكنها من دفع أجرة السّكن في شقّة مكونة من غرفة واحدة في الدّائرة السّابعة. لم تعد إلى أورينيون بعد. رغم يقينها من زيارتها في المستقبل؛ حين تصبح أقوى وحين يستعيد البلد المدمّر بسبب الحرب رونقه. احتاجت إلى معرفة مصير الأب كليمنت، ومدام نورو، ومدام ترافير، ومدام ترينيانت. عرفت في صميم قلبها أنّ الإجابة قد تكون (ماتوا)، لكنها لم تتمكّن من مواجهة الحقيقة بعد. طوال مدة بقائها في باريس تخيّلتهم أحياء يرزقون. ثمّ أنّها عاهدت رِمي على لقائه هنا. الرّحيل يعني الاعتراف بأنّه لن يعود بتاتًا.

في الرّبيع، بدأ اليهود السّقام يعودون بثيابهم الرّثّة من معسكرات الاعتقال. أمعن الباحثون عن أحبائهم في تلك الهياكل البشريّة التي تمشي وتعاني لاعتقادهم أنّ الشّمس لن تُشرق عليهم يومًا، أحيانًا، لم شمل بهيج. وغالبًا، اكتشف النّاجون أنّ أحبّاءهم قد قضوا نحبهم، وأنّ جزاء تحمّلهم الجحيم هو تجدّد إحساس الفقد واليأس.

مع بدء استقبال فندق لوتيسيا للاجئين، كان هناك بصيص أمل. الصّليب الأحمر في المكان، احتفظوا بقوائم دقيقة فيها أسماء المعتقلين السّابقين ومن يبحث عنهم. أعطوا كلّ النّاجين طعامًا وسكنًا وألفي فرنك فرنسي، وقسيمة لشراء بدلة جديدة. ألصقت إيفا صورة عزيزة عليها لوالدها، وجاءت يوميًا لترفع لوحة عليها اسمه، فقد يراها شخص ويخبرها ما لا تعلم عن مصيره. عرفت أنّه كان ميتًا؛ شعرت بهذا. لكنّها احتاجت إلى أنْ يقول أحدهم الكلمات لتطوي هذه المرحلة من حياتها رسميًا. الأمل لصٌ خطِر؛ يسرق حاضرها لغدٍ لن يأت.

وَفَـد مئـات الأشـخاص مـن أبـواب الفنـدق الرّئيسـة يوميًـا، وأمعنـت إيڤـا فـي وجوههـم جميعًـا. لـم تكتـرث لدموعهـم ورائحـة الدّمـاء الجافّـة علـى ثيـاب السّـجن المخطّطـة، وواصلـت المجـيء إليـه بحثًـا عـن إجابـة.

في الرّابع من يونيو، تحصّلت عليها. كانت تطالع أعين العائدين بإنهاك، حيـن سـمعت صوتًـا تألفـه ينـادي اسـمها. تفاجـأت، وحيـن التفتـت، كانـت تحـدّق إلـى وجـه رجـل لا يتجـاوز وزنـه الخمسـين كيلوغرامًـا. عظـام وجنتيْـه بـارزة، والشّـيب قـد غـزا مفـرق رأسـه، ولحيتـه شـعثاء. عرفتـه فـورًا. «تاتـوش؟» همسـت، خشـيت لمسـه مخافـة أنْ يكـون وهمًـا فيتبـدّد أمـام عينيْهـا.

«أهذه أنتِ يا شمسي الحبيبة؟» سألها بصوته الخشن.

كل مـا فعلته هـو الإيمـاء. جذبهـا إلـى ذراعيْه، فشـعرت أنّ جسـده هـشٌّ غريـب، لكـن قـوّة عاطفتـه تشـبه العـودة إلـى الوطـن. انتحبـت علـى كتفـه، وانتحـب علـى كتفهـا. حيـن ابتعـدا، وجـدت الأب الـذي تعرفـه تمـام المعرفـة فـي عيْنيْـه البُنيّتيْـن الحكيمتيْـن.

«وأمّك؟» سألها. «أين أمّك؟»

«أوه، تاتوش» انتحبت من جديد. «ماتت. مع مطلع شتاء 1944».

دمعـت عينـاه. «شـعرت بهـذا. سـأحزن عليهـا، لكنّـي أشـكر الـرّب شـكرًا عظيمًـا علـى نجاتـك».

«أنـا... أنـا فـي غايـة الأسـف يـا تاتـوش. أتمنّـى لـو أنّهـا هـي مـن عاشـت، لا أنـا»

«أوه، يـا شمسـي الحبيبـة، كتـب الـرّب أقدارنـا. كلّنـا» مسـح تاتـوش دموعـه. «يجب أنْ نتطلّـع إلـى المسـتقبل».

احتاجت إيڤا إلى أسبوع كامل لتخبر تاتوش بما حدث لوالدتها. بكى وأخبرها بأنّها ليست الملامة، تعجّبت، حتّى عندما أصرّ أنّ ماموشا فخورة بها حتمًا. «أرادت أن تعيشي حياة سعيدة فقط» قال تاتوش. سيسعدها أنّك نجوتِ».

«تاتوش، لم أجلب لها إلّا الخذلان»

«هذا غير صحيح يا إيڤا»

«صحيح»

التزم الصّمت عندما أخبرته بقصّة رِمي، وكيف أحبّته رغم اعتراضات والدتها، وكيف غضبت لهذا الاختيار واختيارات أخرى فعلتها. «حطّمت قلبها، تاتوش» ختمت حديثها بتعاسة. «لربما كانت لتعيش، لو أطعتها».

«لو أطعتها، يا شمسي الحبيبة، لكنت في عداد الأموات أنتِ أيضًا؛ لرميتِ نفسك بين ذراعي جوزِف بالِتيير مباشرة»، أضاف بحزن: «كونها أمّك لا يعني أنّها على صواب».

«لكن لو شرّفتها...»

«تُشرّفينها -وتُشرّفينني- يوميًا بكونك الابنة الصّالحة كما ربّيناكِ»

غطّت إيڤا وجهها بيديْها، فأبعدهما تاتوش بلطف.

«رِمي هذا، ما زلتِ تحبينه؟» سألها بعد هُنيهة.

«أنا متأكدة من موته، تاتوش»

«اعتقدتِ أنّي متُّ أيضًا، أليس كذلك؟ وها أنا هنا». سكت. «أتعرفين أنّ جدّيْكِ لأمّك لم يوافقا على زواجنا».

رفعت إيڤا رأسها. «لم يوافقا؟»

ابتسم. «وجدوني في فقرٍ مُدقع غير قادر على توفير حياة كريمة. أرادوا تزويجها برجل اسمه زيمون لوزينسكي؛ ابن طبيب. لوزينسكي ذاك، كان فظًا، وزواجها منه كان سيفطر قلبها. أعتقد أنّي أسعدتها في أعوام عيشنا تحت سقفٍ واحد».

«أسعدتها، تاتوش. أسعدتها»

ابتسم. «قصدي هو أنّ كل أب يريد الأفضل لابنه، لكنّه يُخطئ حين يُسقِط حياته على حياة ابنه. ننسى أحيانًا أنّها حيواتهم لا حيواتنا».

«ماذا عن دينه؟ قالت ماموشا أنّ محبّته تعني خيانة معتقدي اليهودي، خاصّة أننا في مرحلة طمس وجودنا من وجه الخليقة».

«لا تخونين شيئًا إذا اتّبعتِ قلبك» قال تاتوش بصرامة. «تعرفين هذا في صميم قلبك أيضًا».

حين سكتت. مال وهمس في أذنها، «اذهبي يا إيڤا. عودي إلى أورنيون واسألي علّ أحدًا يعرف شيئًا عنه. هذه هي الطّريقة الوحيدة لتحصلي على السّلام، وكلّنا نستحقه».

«هلّا رافقتني؟»

«لا إيڤا، لا أستطيع». ارتعش. «لا أتخيل وجودي على قطار آخر. لكن اذهبي. سأنتظر عودتك».

***

حين نزلت إيڤا من القطار بعد أسبوع في أورنيون، وجدتها كما كانت في 1942 حين وصلت هي وأمّها أوّل مرّة إليها. الأزهار يانعة، وشذاها في الهواء، والشّوارع رائحتها صنوبر وحيويّة تحت

الشّمس الذّهبيّة. أغمضت إيڤا عينيْها دقيقة، واستنشقت الهواء بعمق، وهي تحاول تخيّل ماموشا إلى جانبها، لكن لا فائدة. ذهبت أمّها مع الرّيح قبل زمن طويل.

كنيسة القدّيس ألبان لم تتغيّر؛ رغم اكتسائها بطبقة طلاء حديثة، ورغم نمو الأشجار وميل أغصانها إلى المدخل كأنّها مظلّة ترحيب. الشّمس تتحرّك ببطء مع اقتراب إيڤا من الباب الرّئيس.

في الدّاخل، هدوء عمّ أرجاء الكنيسة، لكنّ تمثال المسيح المصلوب في مكانه. «مرحبًا» همست، وشعرت أنّه يُحييها كصديق قديم. أُصلحت المقاعد، وطُليت الجدران وجُدّدت، كأنّ شيئًا لم يكن.

توجّهت إلى غرفة الاعتراف، والمكتب خلف المذبح، ولكن لا أحد. أخذت نفسًا عميقًا واقتربت من باب المكتبة السّريّة. ما زالت تملك مفتاحها، لكن لم يُفتح الباب به. حاولت من جديد، حركت المفتاح، ولم يفتح الباب. حزنت.

«إيڤا؟» قال صوت خلفها فاستدارت، وامتلأت بهجة. إنّه الأب كليمنت، وكان يحدّق إليها كأنّه يحلم. «أهذه أنت فعلًا؟» سألها.

شعرت أنّها تشاهد شبحًا هي أيضًا. رأت جزءًا من الرّجل الذي عرفته يومًا؛ أقل بثلاثين باوندًا، حلّ الشّيب مكان شعره الأشقر، رداؤه فضفاض على عظامه. لكنّه هنا حي، ويجب ألّا تنهار تحت وطأة عدم التّصديق. «أب كليمنت» همست.

«إيڤا، هذه أنت». تقدّم وعانقها. «كنت متأكدًا من موتك».

«حسبتك مت أيضًا». تنفّست رائحته المألوفة، لبان وصنوبر. هنالك أمرٌ جديد. «ماذا حدث لك؟»

تراجع وابتسم ابتسامة مواربة. «قضيت وقتًا بصفتي ضيف ألمانيا في بولندا».

«أنا آسفة»

لوح تقليلًا من شأن المسألة. «لكنّي تمكنت من العودة، وهذا هو المهم. أُغلقت الكنيسة بعد ترحيلي، ولهذا أنا سعيد لترميمها وفتح أبوابها من جديد. ماذا عنكِ يا إيڤا؟ أذهبتِ إلى سويسرا؟»

أومأت بالإيجاب، وحدثته بإيجاز عن عودتها إلى باريس وعثورها على والدها. ثمّ، ولأنّها لم تطق صبرًا، سألته السّؤال الذي أدمى قلبها منذ ليلة شتويّة باردة بالقرب من حريّة سويسرا. «ورِمي أيّها الأب كليمنت؟ ماذا حدث له؟»

من لفيف الحزن الذي أحاط بوجه الأب كليمنت، والأب الذي في عينيه، عرفت الجواب قبل أنْ ينطق به.

«أوه، إيڤا، أنتِ لا تعرفين». أمسك يدها. «أنا في غاية الأسف يا عزيزتي. لم ينج».

عرفت أنّ كلامه صحيح؛ لو أنّ رِمي حي، فسيأتي إليها. لكنّها لم تنتبه حتّى ذلك الحين أنّها تتمسّك بأمل واهٍ. برودة سرت في أوصالها، وفي حركة بطيئة، ارتمت على ركبتيْها، ارتخت أطرافها فجأة كخرقة. شعرت بتدفّق الدّم المتسارع في أوردتها، والدّموع تخدش عينيْها، انقطع تنفّسها فغصّت، آلمها قلبها الذي امتلأ يومًا بطموحات وآمال. «لا» همست أخيرًا، شهقت شهقات متتالية وهي تتجرّع اليأس، غير قادرة على التّحكم بارتعاشات جسدها، فركع الأب كليمنت إلى جانبها وربّت على ظهرها وهي تبكي بيْن يديْه. «ماذا حدث؟» سألت حين تمكّنت من التّنفس مرّة أخرى. «ماذا حدث له؟»

«عاد إلى أورينيون» قال الأب كليمنت ببطء. لمحته مرّتين في ميدان القرية، وفي المرّتيْن ادّعى أنّه لا يعرفني. عرفت لاحقًا أنّه كان يلحق ببيسنارد؛ عسكري في الدّرك الفرنسي، اعتاد التّعبّد هنا، وكنت قد عمّدت أطفاله».

طرف جفن إيڤا. «أتذكره». إنّه الشّرطي الذي كان يحدّق إليها حتّى تنزعج من نظراته، رغم أنّها حاولت إقناع نفسها أنّ هذا من فعل خيالها.

أومأ الأب كليمنت وأخذ نفسًا عميقًا. «اتّضح أنّ بيسنارد قد غدر بزملائه الذين تعاطفوا مع الفرنسيين، ووشى بهم إلى القيادة الألمانيّة. كان تقرّبًا من بعض أسر المقاومة المُسلّحة. أرسلوا رِمي ليلقي القبض عليه قبل أنْ يتسبّب بمزيد من الضّرر».

بالكاد تنفّست إيڤا. «ماذا حدث؟»

«أخبر أحدهم بيسنارد، فكان مسلّحًا حين أقبل رِمي عليه. ممّا فهمت، كان هناك قتال بالقرب من الحظيرة التي قُتلت فيها جَنڤييف، وكلا الرّجلين مات».

بدأت إيڤا تبكي. «متى؟»

«في الأسبوع الأوّل من يونيو 1944»

بعد أشهر من هربها. لو أنّها انتظرته وقتًا أطول، أكانت ستلتقيه؟ أكانت ستقنعه لكيلا يسقط في ذلك الشّرك؟ أنْ يبقى معها؟ أسئلة ستُهيمن على إيڤا مدى العمر. «هل... دُفن هنا؟»

هزّ الأب كليمنت رأسه نافيًا. المقاتلون المسلّحون يهتمون بزملائهم يا إيڤا. جاؤوا لأخذ جثّته قبل أنْ يمثّل بها الألمان.

أنا آسف». تردّد ثمّ أضاف: «تلوت شعائر الجنازة على أي حال».

«أعتقد أنّ هذا كان ليعني الكثير بالنّسبة إليه». للحظة، كانت صامتة، تتخيّل عالمًا دون رِمي فيه. من العجيب أنّ الشّمس واصلت الشّروق، والأرض استمرّت في الدّوران، كأنّ شيئًا لم يحدث. الحقيقة التي وقعت قبل عام لها أثر يبدو مستحيلًا الآن.

«أنا في غاية الأسف يا إيڤا. أعلم كم أحببته»

«لو وافقت على الزّواج...»

«لا تفعلي هذا» قاطعها الأب كليمنت. «لن تتغيّر النّهاية يا طفلتي. كان سيستمر في القتال. شعر بأنّ هذا واجبه. مات بطلًا في سبيل فرنسا».

«بطل فرنسا» أعادت بتمتمة. «وماذا عن الأخريات؟ مدام نورو، مدام ترافير؟»

«رُحّلن جميعًا إلى الشّرق، ولم يعدن»

«ماذا عن مدام ترينيانت؟ هل نجت، على الأقل؟»

تنهّد. «مع الأسف، ألقوا القبض عليها عند الحدود في أثناء هربها. ماتت في السّجن».

هزّت إيڤا رأسها. يصعب تصديق مقدار الفقد. فكّرت في رِمي، وهو واقف خارج الحظيرة الزّرقاء، وهو يعرف أنّه يمشي إلى موته. هل مات وهو يعرف أنّها تحبّه؟ أم مات وهو يفكّر في أنها رفضته؟ «أب كليمنت؟ هل عاد رِمي إلى المكتبة السّريّة قبل وفاته؟ هل فتح كتاب الأسماء المفقودة؟»

تغيّر شيء في وجه الرّاهب. «إيڤا، مع الأسف لا أعرف».

«هلّا فتحت الباب؟ أحتاج إلى رؤية الكتاب». شعرت فجأة بأنّه أهم ما في الحياة. هل قرأ رِمي رسالتها؟ هل ترك ملحوظة؟ من فضلك أيّها الأب».

لم يتحرّك الرّاهب، رغم ازدياد الحزن في وجهه. «إيفا، نهب النّازيّون المكتبة في المدة التي قُتل فيها رِمي. كان من الواضح أنّهم قد خسروا الحرب، لكنّهم أرادوا أخذ ما استطاعوا إلى ألمانيا. نُهبت منازل خاصّة أيضًا، إضافة إلى مكتبة مدام نورو، لكنّ مكتبتنا السّرية قد تعرّضت لخسارات أكبر، ربّما لأنّهم سرقوا مجموعاتنا من النّصوص الدّينيّة القيّمة».

«أأخذوا كتابنا؟ كتاب الأسماء المفقودة؟» همسَت.

أومأ ببطء.

ملأت الدّموع عينيْها من جديد. ضربة قاصمة أخرى. الآن لن تقابل رِمي، ولن تعرف إذا مات وهو يعرف أنّها موافقة، ولن تملك سجلًّا بأسماء مئات الأطفال الذين غُيّرت أسماؤهم، الأطفال الذي تاقت إلى حفظ ماضيهم. فقدان الكتاب أشبه بموت الأمل. «أيمكنني البقاء دقائق وحدي في المكتبة؟» قالت.

قال الأب كليمنت: «غيّرت القفل وأحكمت إغلاقه حين عدت إلى أورينيون. أصبح الدّخول إليها مؤلمًا. ذكّرتني بكِ، وبرِمي، وجَنْڤييڤ وكل الأشياء التي حققناها هنا معًا، وكل الذي فقدناه».

طأطأت إيفا رأسها. «ولهذا أحتاج إلى توديعها».

أومأ الأب كليمنت وقادها نحو الغرفة المعهودة. سحب مفتاحًا من تحت ردائه، فتح الباب لها. «سأنتظرك في الخارج» قال لها وهو يضغط على كتفها. «ابقي قدر ما تشائين».

احتاجت إيڤا إلى لحظات لتتعوّد على النّور الباهت؛ لم تفكّر في طلب مصباح من الرّاهب. نور الشّمس المتسرّب بأشعّة نحيلة من الزّجاج الملوّن فوقها، كما حدث دائمًا، فوجدت فيه بعض العزاء.

وهذا الشّيء الوحيد الذي بقي على حاله في الغرفة. الطّاولة والكراسي ليست موجودة، والرّفوف شبه خالية؛ عليها نحو مئة كتاب من آلاف الكتب التي كانت في الغرفة. طبقة رقيقة من الغبار أشعرتها بأنّ المكان مسكون بالأشباح، ومع لمسها مجلّدات الكتب المتبقيّة، امتلأت حزنًا.

أخذ الألمان كل كتاب قيّم، وتركوا الكتب التي تبدو حديثة. كان هناك بعض كتب القداس المطبوعة عام 1920، والأناجيل الجديدة، ومجموعة من الدّراسات أكعبها بالية لن يستفيد منها أي شخص. بدت الكتب وحيدة على الرّفوف، بلا إخوة وأخوات أمضوا السّنوات معهم. حزن تعرف إيڤا أنّه غير منطقي.

لمست أصدقاءها القدامى وودعتهم وهم في مكان لن تراه من جديد. لكن حين اقتربت من نهاية رف الأناجيل التي تعرفها، توقّفت فجأة، ولمست كتابًا في مكانه الخطأ.

سحبته وحدّقت إلى الغلاف. كان الطّبعة الإنجليزيّة من مغامرات توم سوير؛ ذلك الكتاب الذي ذكرته يومًا لرِمي حين عملَا جنبًا إلى جنب، بعد شهرين من وصولها إلى أورينيون. سأل عن والدها، وأخبرته بكل الكتب التي كانت في مكتبة المنزل. قالت له: «أتعرف أنّ مغامرات توم سوير هي إحدى الرّوايات الأولى التي كُتبت على الآلة الكاتبة؟ إنّها إحدى روايات أبي

المفضّلة. لدينا نسخة، لكنّي اضطررت إلى تركها. أفي اشتياقي إليها غرابة؟»

ببطء، فتحت الغلاف الأمامي، وتفاجأت. هناك، على صفحة العنوان، هناك ملحوظة بخط رِمي:

إلى إ

وجدت هذا في باريس. سأشتري لكِ يومًا ما نسخة أفضل منه.

ر

4 يونيو 1944

قرأت الملحوظة مرّة ومرّتيْن وثلاثًا بحثًا عن معنى، شِيفرة، غير أنّ الكلمات مجرّد كلمات، إشارة أخيرة إلى لطف رجل كان يُفكّر فيها قبل موته. لكن، هل ترك لها رسالة في كتاب الأسماء المفقودة أيضًا؟ أم أنّه كان على عجل، وتوقّف ليوصل هذه الرّسالة؟ ولماذا يتركها هنا إن كان سيهرب فعلًا إلى سويسرا؟ ألأنّه عرف أنّها ستعود إذا عاشت بعد الحرب؟

بعد ساعات على القطار المتّجه إلى باريس، بعد توديع الأب كليمنت، تصفّحت كتاب الرّوائي مارك توين بشرود، أهداها رِمي شيئًا أخيرًا. حين توقّفت فجأة على فقرة في الفصل السّابع عشر، وجدت علامة –نقطة صغيرة– فوق الحرف الأوّل من أوّل كلمة، جذبت انتباهها، لأنّها تذكّرت على الفور العلامات التي وضعتها على كتاب الأسماء المفقودة:

عينان ثم أربعة أعين تبعت الوزير، ثمّ باندفاعة واحدة تقريبًا

نهض التّجمع وحدّق، فيما تقدّم الصّبية الثلاثة نحو الطّريق، توم في المقدّمة، جو إلى جانبه مع هَك، عليهم أطمار بالية مرتخية، جلسوا بخجل في نهاية القاعة! كانوا يختبؤون في المعرض غير المستخدم ويستمعون إلى الخطب التي تُلقى على نعوشهم!

حدّقت إيڤا إلى الصّفحة، وقلبها ينبض بقوّة. في القصّة، يُزيّف توم ورفاقه موتهم، تفصيل من الحبكة نسيته إيڤا كُليًا، لمرور عقد ونصف مذ قرأت الكتاب آخر مرّة. أمن الجنون التّساؤل إذا قصد رِمي اختيار هذه الصّفحة بعيْنها، إشارة دقيقة إلى أنّه يُخطّط للقيام بذات الأمر إذا سارت الأمور بشكلٍ خاطئ؟ أحاول إخبارها بأنّه في مكان ما وعليها عدم التّخلّي عنه؟

لكنّه كان سيأتي إليها لو كان على قيد الحياة. كان ليلتقيها على سلام مكتبة مازارين العامّة كما عاهدها. على الأقل، كان ليعود إلى أورنيون لمقابلة الأب كليمنت. لا، مستحيل، أليس كذلك؟ قطرة الحبر على الكلمة الأولى في الفقرة قد تكون لطخة قذارة أو إشارة ليس لها معنى أحدثها حبر غريب امتلك الكتاب من قبل، ولربما ليست إشارة بتاتًا.

ومع هذا، الأمل شيء خطير. نمى كحقل فيه أزهار بريّة داخل إيڤا، أزهار تنمو في كل المساحات التي شغلها الظّلام والغم، حتّى بدأت تؤمن باحتمال عيش رِمي بعد الحرب. عادت إلى المكتبة حيث انتظرت أميرها عبثًا، تقرأ وتعيد قراءة فقرة من الرّواية وتصلّي لحدوث معجزة.

***

بعد عام واحد، في يونيو 1946، ووالدها مستلقٍ في سريره ويطلب منها التّوقّف عن الحلم بلقاء لن يتحقّق.

«أرجوكِ، إيڤا» قال بين أنفاس متقطّعة. كان على فراش موت بطيء ومؤلم، تدهورت رئتاه بسبب المرض الخبيث الذي انتشر في جسده ليأخذ ما لم يأخذه الألمان. «اهجري حزنك وأمَلك بعودة رِمي، وإلّا لن تعيشي حياةً تخصّك».

«كيف أتخلى عنه؟»

«حبيبتي إيڤا، لقد مات». سعل تاتوش مرّة أخرى سعالًا طويلًا وقويًّا. «وذلك الكتاب الذي تركه مجرّد كتاب. تتعلقين بشبح. لم أرد هذا لكِ، ولم ترده أمّك أيضًا. لم أعرفه يا إيڤا، لكنّ رِمي لن يرغب في هذا هو الآخر».

«لكن ماذا لو...؟»

«إيڤا، رجاء. عديني أن ترجعي إلى الحياة»

أمسكت يديْه بين يديْها، وانتقل من هذا العالم إلى العالم الآخر، مالت إلى الأمام وقبّلته على جبينه، وتساقطت دموعها كمطر. «أعدك، تاتوش».

أصبحت وحيدة في العالم من جديد، وحيدة كما لم تكن من قبل. دفنته، ودفنت معه الأمل بتحقّق المستحيل. زارت مكتبة مازارين للمرّة الأخيرة، عصر يوم مُشمس من خريف ذلك العام، وحين دخلت مقهى (ليه دوكس ماجوتس) لشراء قهوة في طريقها إلى المنزل، كلّمت سائحًا يهوديًّا يعشق الكتب كان جاء من أمريكا ليتتبع خطى إرنست همنغواي.

قبل أنْ تنتقد نفسها، عرضت إيڤا على الرّجل الذي قال لها أنّ اسمه هو لويس أبراهام جولة في المدينة، ومع قضاء اليوم الثّاني معه، أدركت استمتاعها بوقتها. فرصة رائعة لممارسة اللغة الإنجليزيّة، ومصاحبة شخص يحترم الكلمة المكتوبة كما تحترمها هي لأمر مُفرح.

قبّلها للمرّة الأولى بين رفوف مكتبة القدّيسة جنڤييف، حيث عملت. في اليوم الرّابع قُبيْل مغادرته، ركع على ركبة واحدة في حديقة التويلري، وطلب منها السّفر معه إلى الولايات المتّحدة، لتكون زوجته. «أعرف أنّنا لا نعرف بعضنا جيّدًا بعد. «لكنّي سأحاول إسعادك ما حييت».

شاهدت فيه رجلًا سيكون صديقًا وشريكًا في الحياة له اهتمامات تمكّنه من تقدير عشقها للكتب. وفي عرض الزّواج، رأت فرصة لبدء حياة جديدة. تاتوش على حق؛ رِمي لن يعود. عرفت إيڤا أنّها لن تعثر على السّلام في فرنسا، حيث تزداد ظلال كل من فقدتهم. فوافقت، وبعد شهر واحد وجدت نفسها على متن باخرة متوجّهة إلى أمريكا لبدء حياة جديدة.

مرّت الأعوام، وازداد حبّها للويس حتّى فاق حبّها لرِمي. بعض الفصول يجب أنْ تُختم، وبعض الكتب يجب أنْ تُغلق. ومن ثمّ، بعد أعوام، رُزقت بابن، وعرفت أنّ انقلاب حالها قد اكتمل. لم يعرف ابنها شيئًا عن ماضيها. أسرتها الصّغيرة لا تعرف شيئًا عن قتالها لتحرير فرنسا، ولا عن تزويرها مستندات أنقذت مئات الأشخاص، ولا عن كونها امرأة عشقت بكل روحها.

هـذا أفضـل، قالـت لنفسـها . الماضـي مجـرّد مـاض. لكـن ورغـم كل تلك الأعوام، لـم يقـل حبّهـا لرِمـي عـن آخـر مـرّة شـاهدته فيهـا . ولـم تتوقّـف عـن التّسـاؤل عـن مصيـر كتـاب الأسـماء المفقـودة، أو إذا قـرأ رِمـي رسـالتها علـى صفحاتـه قبـل موتـه.

الفصل الحادي والثّلاثون

مايو 2005

أمين المكتبة أوتو كوهن يبدو تمامًا كما في الصّورة المنشورة في مقال نيويورك تايمز. أحبته فورًا؛ عيناه لطيفتان، إنجليزيّته شبه مثاليّة.

«آسف شديد الأسف على كل الأشياء التي فعلتها ألمانيا، على الأشياء التي أخذناها» قال فور أنْ عرّفته بنفسي، وهو يقودني في المكتبة إلى مكتبه. «وأقدّم اعتذاري الخالص على سرقة هذا الكتاب الذي يعني الكثير لك».

وددت لو أسبق خطواته، أنْ أسحب الكتاب، وأفتحه على الصّفحة المخصّصة لي منذ سنة 1942، لكنّي أجبرت نفسي على التّنفّس، وإبطاء خطواتي. سأحصل على إجاباتي عمّا قريب، وقد تفطر قلبي وتُدميه. أجبته: «سيّدي، نحن مسؤولون عن أفعالنا أو إخفاقاتنا فقط. لا تدين لي بأي اعتذار».

قال: «مع هذا، هنالك كتب كثيرة يا سيّدة أبراهام، ملايين الكتب. لن يكفي عمري لردّها إلى أصحابها. وبلا شك، فارق كثير منهم الحياة قبل سنوات. تأخّر الوقت كثيرًا في معظم الحالات». فتح باب مكتبه، فتسارعت دقّات قلبي فجأة، هناك، على مكتبه، كتابي. أعرفه في أي مكان. قلبي في حلقي، أعجز عن التّنفّس، أعجز عن الكلام.

همست: «إنّه حقيقي. إنّه حقيقي بعد كل تلك السّنوات. كتاب الأسماء المفقودة».

«آه، أجل، نيكولا –موظّفة الاستقبال– أنّك أطلقتِ عليه هذا الاسم». ذهب خلف مكتبه والتقط الكتاب. «لماذا؟ وما معنى الشّيفرة التي داخله؟ أتوق إلى معرفة السّبب».

استجمعت رباطة جأشي. «سأخبرك. لكن من فضلك يا سيّد كوهن، هل يمكنني إلقاء نظرة إليه من فضلك؟ انتظرت هذه اللحظة زمنًا طويلًا».

«طبعًا، طبعًا، سيّدتي. أعتذر». ناولها الكتاب، ولثوانٍ معدودات، توقّف العالم عن الحركة، وأنا أحدّق إليه بكل بساطة، جلد أنيق تحت أناملي».

مرّرت إبهامي على كعبه المُذهّب ولمست الجزء المهترئ من زاوية غلافه اليمنى السُّفلى، وفجأة، انهمرت الذّكريات انهمارًا. أتذكّر يد رِمي فوق يدي على هذا الغلاف يومَ التقيته أوّل مرّة. يمكنني سماع صوته وهو يمس في أذني، صدى من مرحلة زمنية طويت صفحتها. مضى الآن ستّون عامًا مذ رأيت هذا الكتاب آخر مرّة، مُذ رأيته رأيت رِمي آخر مرّة، لكنّ الماضي يبدو حاضرًا الآن، هنا في هذه الغرفة معي، اختنقت. دون تعمّد، رفعت الكتاب وقبّلته. رفعت نظري، فكان السّيد يشاهدني. «أنا آسفة» قلت له.

«أرجوكِ، لا تعتذري. أعيش لهذه اللحظات؛ لم شمل القُرّاء مع كتبهم قد يكون ساحرًا».

أومأت، وببطء، بحذر، قلبي ينبض بأمل ظننتني دفنته منذ دهر، فتحت الكتاب على الصّفحة الأولى. صفحتي. تلك التي

تجد فيها نجمها على حرف e، ونقطة على حرف v، ونجمة على حرف J، ونقطة على حرف e. إيڤا تروب سأعود إليكِ. حدّقت في الكلمات البسيطة واليأس يتسلّل إلى قلبي.

لا توجد نجمة ثالثة. لا رسالة جديدة من رِمي.

فتحت الصّفحة الثّانية، صفحة رِمي، احتياطًا، لكن لا جديد فيها. نجمة فوق أول حرف r، نقطة فوق أوّل é، ونجمة ونقطة على أوّل حرفيْن من كلمةÉpouse-moi.

تزوّجني. أحبّك. كتبت بالرّموز قبل زمن بعيد، على أمل أن يقرأ العبارة، لكنّي أعرف الآن أنّه لم يقرأها، ومع إغلاقي الكتاب وضمّه إلى صدري، أرتعش. ذهب حبُّ حياتي إلى قبره دون أن يعرف شيئًا عن شعوري، شيء ليس بمقدوري تقويمه، ولا إصلاحه بتاتًا، ويُشعرني فجأة كما لو أنّ كل الذي فعلته في حياتي منذ ذلك الحين بلا معنى.

«سيّدة أبرامز؟» تخلّل صوت السّيد كوهن حزني، فرفعت رأسي لأراه ينظر إليّ بقلق. «أأنتِ بخير؟ تحتاجين إلى ماء، ربّما؟»

مسحت دموعي، دموعي التي لا حقّ لي في ذرفها. «لا، أنا آسفة. أنا بخيْر». هززت رأسي في محاولة لطرد أشباحي التي تصاحبني فجأة. نحن الآن في عام 2005، لا سنة 1944، وأنا أدين لهذا الرّجل ببعض الإجابات. هذا أقل ما يمكنني فعله. «الآن، بخصوص الشّيفرة».

مال إلى الأمام بحماسة، وقال: «أجل، لكن خذي وقتك يا سيّدتي. حين تكونين مستعدّة».

أخذت نفسًا عميقًا. «النّجوم والنّقاط هي الأسماء المفقودة، أسماء أطفال أصغر من أن يتذكّروا أسماءهم التي مسحناها لينجوا. كنت أتمنى، بعد انتهاء الحرب، مساعدتهم على استعادة هُويّاتهم الحقيقيّة. لكنّ أسماءنا ومُعتقداتنا وأعلام البلاد التي تُرفرف فوق رؤوسنا لا تُحدّد هُويّاتنا. أعرف هذا الآن. قلوبنا ومن اخترنا أنْ نكون على الأرض هما اللذان يُحدّدان هُويّاتنا».

أصغى بصمت، عيناه متّسعتان، وأنا أحدّثه عن طريقة تعلّمي التّزوير، وكيف قابلت رِمي والأب كليمنت، وكيف عملنا بجد لمساعدة النّاس على الهروب من قبضة النّازيّة. شرحت فكرة رِمي باستخدام متتالية فيبوناتشي لفك رموز الأسماء حتّى نضمن عدم نسيان أصغر ضحايا الحرب عمرًا.

أقول له إنّ بعد الحرب، سنوات بعد انتقالي إلى أمريكا، حدّثني زوجي في أحد الأيّام عن منظّمة اسمها (ياد ڤاشِم) أسّست في القدس لتخليد ضحايا الهولوكوست، استدعى عنوان متحفهم (ذكرى واسم) في ذاكرتي الأسماء التي فقدتها في الكتاب، وتدريجيًا خلال الأسابيع التّالية، في أثناء نوم لويس إلى جواري، كنت أجهّز قائمة ذهنيّة بالأسماء التي أتذكرها. كان هناك أكثر من خمسين اسمًا. وحين تواصلت أخيرًا مع مسؤولين في المنظّمة ربيع عام 1956 وزوّدتهم بأسماء حقيقيّة ومستعارة نقّبتُ عنها في أعماق ذاكرتي، وعدوني بأنّهم سيحاولون إيجاد الأطفال في سويسرا، على أمل إعادة اكتشافهم أصولهم.

سألني كوهن: «وهل فعلوا؟ هل عثروا على أي طفل منهم؟»

تنهّدت، وأجبته: «لا أعرف. رفضت إخبارهم باسمي أو

إخبارهم بأي طريقة للتواصل. أرادوا تكريمي على ما فعلت، وأنا لم أرد هذا، لم أكن بطلة. مجرّد امرأة تحاول فعل الصّواب. ومع هذا، أخطأت في كل شيء».

تأمّلني كوهن لحظة، وحين تكلّم أخيرًا، كانت نبرة صوته لطيفة. «سيّدة أبرامز، أخبرتني امرأة حكيمة يومًا أنّنا مسؤولون عن أفعالنا أو إخفاقاتنا». ابتسمت ابتسامة بسيطة، وابتسم قبل أنْ يستكمل حديثه. «ويبدو لي أنّك أمضيت الحرب في محاولة إنقاذ الأبرياء».

«لكنّي خسرت من أحب». تردّدت ثمّ همست: «تسبّبت في مقتل أمّي، ومات رِمي أيضًا يا سيّد كوهن. لا يهم عدد مَن ساعدت إذا عجزت عن فعل الصّواب لهم».

«لست الملامة يا سيّدة أبرامز».

أبكي الآن، أنتحب كعجوز حمقاء، فواساني كوهن بمعانقتي، فتذكّرت الأب كليمنت. وحين ابتعدت عنه، حدّق إليّ.

«أتعرفين ماذا قالت لي السّيدة الحكيمة أيضًا؟ «قالت: إنّ أهواءنا ومَن اخترنا أنْ نكون على الأرض هما اللذان يحدّدنا هُويّاتنا. وأومن يا سيّدة أبرامز أنّكِ اخترتِ أنْ تكوني بطلة، حتّى لو لم تشاهدي المسألة من هذا المنظور». أمسك الكتاب وقال: «ملكك إذا رغبتِ، بعد إتمام أوراق الاستلام، بالطّبع، لكن من بعد إذنك أريد الاحتفاظ به بضعة أيّام لإعداد قائمة بالأسماء التي فيه. قد أساهم في الأسماء التي لم تتمكّني من تذكرها كل تلك السّنوات. ألن تكون هديّة؛ تعريف أولئك الأطفال بماضيهم؟ حقيقة، لم لا تبقين لمساعدتي؟»

نظرت إلى الكتاب ثم إلى كوهن. «لعلّ ابني قلق علي. سافرت دون إبلاغه».

«هاتفيه إذن. وضّحي له أنّ لديك عملًا ستنهينه».

«لكنّه... لا يعرف شيئًا عن ماضيّ»

«ألم يحن وقت إخباره؟ لعل أوّل هُويّة يجب كشفها هي هُويّتكِ»

حدّقت في الكتاب. يضم بيْن دفّتيْه أهم رسالة كتبتها، رغم أنّي كتبتها بعد وفاة الأوان. أوليست هذي قصّة حيّاتي مع النّاس الذين أحببتهم؟ تأخّرت كثيرًا حين حاولت إنقاذ أبي من معتقل درانسي. تأخّرت كثيرًا في عودتي إلى أورينيون من أجل أمّي. لا أريد أنْ أتأخّر كثيرًا مع ابني أيضًا.

نظرت إلى كوهن. «أيمكنني استعارة هاتفك؟»

ابتسم ابتسامةً عريضةً وقال: اعتقدت أنّك لن تطلبي يا سيّدة أبرامز. اضغطي اثنان للمكالمات الخارجيّة، ثمّ صفر صفر واحد لمهاتفة أمريكا».

أمسكت السّماعة، ضغطت الأرقام التي قالها، ثم رقم ابني. استمعت إلى الرّنة مرّة، ومرّتيْن ثمّ أجابني.

«بِنْ؟» بدأت حديثي.

«أمّي؟ أين أنتِ؟ قلقت كثيرًا عليكِ»

«لا داعي للقلق علي». تبادلت الابتسامات مع كوهن، ثمّ أغمضت عيني، وأنا أحاول رؤية وجه رِمي في ذهني. «بِنْ، حبيب قلبي، آن أوان إخبارك بمن أنا حقيقةً».

الفصل الثّاني والثّلاثون

حلّ الليل حين أنجزنا أنا وكوهن كتابة أوّل ستّين اسمًا. بعد إنهاء المكالمة مع بِنْ المرتاب. عرضت البقاء. في نهاية المطاف، أنا التي مسحت هذه الأسماء قبل سنوات، ومن العدل أنْ أستعيدها.

«ألديْك مكان تقيمين فيه سيّدة أبرامز؟» سأل كوهن، وهو يستند إلى كرسيّه. «أعتقد أنّ علينا الاستراحة قليلًا ومعاودة العمل بنشاط غدًا. هناك فندق في هذا الشّارع يقيم فيه ضيوف المكتبة أحيانًا، يمكنني مهاتفة الفندق لحجز غرفتكِ لو أردتِ».

«أريد الاستمرار؛ انتظرت هذه الأسماء أكثر من ستّين عامًا، وأعتقد أنّ بإمكانها الانتظار يومًا إضافيًّا. صراحةً، أنا في غاية الإجهاد. اقتراحك جميل سيّد كوهن. شكرًا لك»

مع رفعه سمّاعة الهاتف للاتّصال بالفندق، فتحت صفحة 308، الصّفحة الأخيرة التي رسمت عليها نجمة. صاحبة الصّفحة فتاة اسمها جاكلين، تلك الطّفلة التي ساعدناها أنا ورِمي على عبور الحدود السويسريّة في ليل شتوي قبل زمن طويل، ليلة المعاشرة، ليلة عرضه الزّواج علي، ليلة رفضي. اسمها الحقيقي هو إلين ميسيل. أتساءل عن مصيرها، هل عاش والداها؟ هل عادت إلى وطنها؟»

أغمضت عيني لأحاول رؤية وجهها الجميل في ذهني بين ضباب الزّمن، حين قاطعنا أنا وكوهن صوتٌ على الباب. قالت

امرأة بالألمانيّة: «Entschuldigung» (عفوًا)، ففتحت عيني بفزع. عند الباب حارسة في منتصف العمر وهي متردّدة.

«“Guten Abend, Mila» [مساء الخير يا ميلا]. أغلق كوهن السّماعة والتفت إلى الحارسة، وقال:

«?“Wie kann ich dir behilglich» [هل يمكنني مساعدتك؟].

نظرت المرأة إليّ ثمّ قالت جملًا سريعة بالألمانيّة لكوهن، وأومأت مرّة إلى كتاب الأسماء المفقودة. حاولت فهم كلامها، لكنّي عجزت. أجابها كوهن بسرعة، ثمّ وقف وعاد إليّ بعد مغادرتها.

سألته: «ما الأمر؟».

«هذه حارسة الأمن ليلًا في المكتبة، ميلا. تقول إنّ في الخارج رجلًا يقول إنّ هذا الكتاب ملكه، وإنّه نزل من رحلة جاءت من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ولا يمكنه انتظار أي دقيقة إضافيّة لرؤيته».

«كتابي؟» أمسكته وقرّبته من صدري بعدائيّة. «مستحيل».

«مع الأسف نصادف أشخاصًا مثلهم» قال كوهن وهو يهز رأسه. «يحاول جامعو الكتب إضافة المزيد إلى مجموعاتهم. فكّر هذا الرّجل في المجيء ليلًا واستخدام القوّة».

«أنهاتف الشّرطة؟»

ابتسم كوهن. «ميلا أقوى مما تبدو، وأنا أيضًا، وأنت كذلك. سنكون بخير. سأذهب للتّخلّص منه. سأعود عمّا قريب».

«سأرافقك. إذا كان هناك من يحاول سرقة كتابي، فأريد النّظر في عينيْه».

تردّد، ثمّ وافق. «لنُخبّئ الكتاب».

انتظرت حتّى خبّأ الكتاب داخل درج مكتبه، ولحقته إلى الغرفة الرّئيسة في المكتبة، أدركت أنّي أفتقده؛ أفتقد دفء الكتاب بين يدي. ما زلت أشعر بأنّه جزء منّي، حتّى بعد كل تلك السّنوات.

ميلا واقفة عند الباب الرّئيس. «إنّه هناك» قالت ونحن نمشي إلى جانبها. «هيّا».

تبعناها أنا وكوهن، حيث وقف على بعد خطوات رجل شعره أبيض مرتديًا معطف مطر خفيفًا، ظهره لنا وهو يشاهد المدينة.

«سيّد؟» سألته ميلا بنبرة حازمة قويّة، فاستدار الرّجل ببطء، لمحت جزءًا من ابتسامة مهذّبة على وجهه.

لكن فجأة، اختفت ابتسامته وارتخى فكّه وعيناه التقت عيني، تفاجأت مثله تمامًا. قال كوهن شيئًا، لكنّ كلماته تبدو قصيّة، إذ تلاشت السّنوات فجأة، ووجدتني أمشي نحو الرّجل، وأنا أشعر بالدّوار. أشاهد شبحًا، عقلي يخبرني بأنّ هذا مستحيل، وقلبي يعرف أنّه ليس مستحيلًا.

«ذهبتِ إلى المكتبة الخطأ يا إيڤا» قال الرّجل بالفرنسيّة، وفي صوته مشاعر محتدمة.

في عيني دموع الآن، ذلك لأنّي كنت واثقة من عدم سماع هذا الصّوت من جديد. «رمي؟ كيف؟».

ابتسم، ثمّ أقبل نحوي، أيضًا، ودموعه منهمرة. «كان من المفترض أنْ نلتقي على سلالم مكتبة مازارين يا إيڤا» قال وهو يحتضن يدي. إنّهما خشنتان الآن، لكنّهما تلائمان يدي كما حدث في سنوات الشّباب.

«انتظرتكَ هناك. انتظرت زمنًا طويلًا»

«حسبت أنّك قد فارقتِ الحياة. عدت إلى أورينيون نهاية 1947. مات الأب كليمنت، لكن أشخاصًا في المقاومة أخبروني بوفاتك خلال الحرب».

أغمضت عيني. بعد الحرب، فوضى واضطراب ومعلومات مغلوطة. «أخبروني بالشّيء ذاته عنك».

«واجهت خائنًا؛ جندرمة اسمه بيسنارد، إن كنت تذكرينه، وقد جُرحت جرحًا كبيرًا في 1944. فنقلوني إلى إنجلترا. بقيت في المستشفى زمنًا طويلًا، بعدها، ولوجود لغط دبلوماسيّ، حدث هذا قبل 1974 قبل خروجي من المستشفى وعودتي إلى فرنسا. ذهبت إلى مازارين يوميًا يا إيڤا لأشهر، احتياطًا فقد تكونين حيّة. لكنكِ لم تأتي قط».

همست: «انتظرت عاميّن. أقنعت نفسي أنّك حاولت ترك رسالة لي في مغامرات توم سوير. لهذا الأمل تمسّكت بالحياة».

ارتفع حاجباه. «وجدتِ الكتاب؟ كانت رسالة يا إيڤا، قصدت تزييف موتي بسبب بيسنارد، لكنّي لم أحسب حساب نقلي إلى المستشفى، ومشكلات إصدار تصريح السّفر مدة طويلة».

مسحت دموع وجنتي، لكنّي ما زلت أبكي. «ظننت أنّي مجنونة. أقنعت نفسي أخيرًا أنّي على خطأ، أنّي كنت أتمسّك بشبح. سافرت إلى أمريكا في نهاية 1946».

«أمريكا؟ أين؟»

«فلوريدا»

«تخيّلي هذا. عشت في نيومكسيكو منذ 1951» ابتسم. «بعد استكمال دراستي في إنجلترا، تبيّن أنّ في بلدة لوس ألاموس وظيفة لكيميائي».

هززت رأسي بلا تصديق. «لكن ماذا تفعل هنا يا رِمي؟»

شاهدت الكتاب في مقال نيويورك تايمز. سافرت مباشرة». أخذ نفسًا عميقًا، دون أنْ يقطع التّواصل. «عدت إلى الكتاب قبل ستّين عامًا يا إيڤا، لكن واجهني بيسنارد، في يوم ترك كتاب توم سوير. كنتِ قد غادرتِ فرنسا، افترضت أنّك بأمان في سويسرا، وتمنّيت كتابة رسالة أخيرة لك. لكنّ النّازيين نهبوا المكتبة، فأدركت أنّي لن أعرف الإجابة بتاتًا».

حدّقت إليه. هذا أشبه بحلم، لكن ليس كذلك. أوتو كوهن خلفي بخطوات، يشاهد بصمت هذه الحبكة الخرافيّة، أمّا ميلا فتراجعت في الظّلال. نحن في برلين، أرض عدوّنا، وقد عثر أحدنا على الآخر رغم كل المتناقضات. «فعلت يا رِمي. كتبت رسالة».

«حقًّا؟»

حدّق إلي، في عينيه دفء، ألفة. «ما هي يا حبيبتي إيڤا؟»

حبيبتي إيڤا. بعد كل تلك الأعوام، ما زلت حبيبته، وما زال حبيبي. «تزوّجني. أحبّك. كتبت هذا أنا... أنا أحبّك يا رِمي. أحببتك دائمًا».

«أنا أحبّك أيضًا يا إيڤا، وإجابتي موافق إن كان العرض ما زال قائمًا». اقترب منّي، شفتاه على شفتي، عدت إلى عمر الخامسة والعشرين تارة أخرى، حياتي كلّها أمامي، لا خلفي، أحداثها لم تكتب بعد».

***

تعقيب الرّوائيّة

في أثناء بحثي لكتابة روايتي السّابقة، زوجة صانع النّبيذ التي تقع أحداثها في مقاطعة شامبانيا في فرنسا خلال الحرب العالميّة الثّانية، تعرّفت إلى أهميّة المزوّرين في المقاومة. مسألة لم أفكّر فيها من قبل، لكن مع قراءتي عن كهوف شامبانيا وتهريب الأسلحة، تكوّنت في ذاكرتي صور لشجعان استخدموا قدراتهم الفنيّة ومعرفتهم العلميّة لتزوير مستندات مقُنعة سمحت لأشخاص بالنّجاة.

ومع إنهاء رواية زوجة صانع النّبيذ، ازداد فضولي كثيرًا، وتساءلت إن كانت الكتابة عن المزوّرين يمكن أنْ تكون مادة لكتاب. ثمّ قرأت الرّوايتين الآتيتين:

1. أدولفو كامنسكي: حياة مزوّر للكاتبة سارة كامنسكي[1]

2. مكان جيّد للاختباء: كيف أنقذ مجتمعٌ فرنسي واحد آلاف الحيوات خلال الحرب العالميّة الثّانية للكاتب بيتر غروس[2]

وهما روايتان رائعتان لاستكشاف التّزوير خلال الحرب، وعلمت حينها أنّي قد عثرت على موضوع مهم. هنالك أمور كثيرة تتعلّق بهذا الموضوع، أكثر ممّا تخيّلت.

لكنّي شعرت بوجود نقص ما - حتّى أرسل إليّ وكيلي الأدبي عبر البريد الإلكتروني مقالًا منشورًا في نيويورك تايمز عن سرقة النّازيين الكتب، وحقيقة أنّ المكتبات الألمانيّة لا تزال عامرة بكتب مسروقة من أيّام الحرب العالميّة الثّانية. ومع قراءة المقال الذي كتبه ميلتون إستيريو[3]، اكتملت الأحجية، يمكنني كتابة رواية عن

التّزوير، تحت إطار كتاب مسروق له أهميّة للجميع. ستسمح لي هذه الفكرة بالتّعمّق في تقنيات التّزوير والتّاريخ الطّويل للسّرقات النّازيّة ومشاركتها معكم في قصّة عن العشق والفقد والشّجاعة والمجازفات.

أوتّو كوهن، أمين المكتبة الألماني في الرّواية، مُتخيّل، لكنّ وظيفته موجودة في الواقع. في وسط برلين والمكتبة الإقليميّة، على سبيل المثال، يخمّن الباحثون أنّ ثلاثة ملايين ونصف كتاب قد سرقها النّازيّون، حسب نيويورك تايمز. باحثان مثل: سباستيان فنستروالدر -أمين مكتبة حقيقي- وباريشيا كينيدي عاملان في مكتبة الأبحاث الأوكرانيّة في جامعة هارفرد يعملان بلا كلل لإعادة الكتب إلى أصحابها، لكنّ المهمّة عسيرة خاصّة بعد مرور خمس وسبعين عامًا. مع الأسف قليل من الأشخاص ممن أحبوا الكتب على قيد الحياة اليوم.

وبالمناسبة، إذا كنت مهتمًا بالقراءة عن نهب الكتب والبحث عن أصحابها الحقيقيين، أنصحك بكتاب:

لصوص الكتب: نهبُ النّازيين المكتبات الأوروبيّة والسّباق لإعادة موروث أدبي للكاتب أندرس ريدل[4] الذي استعنت به كثيرًا في بحثي.

في روايتي، تسافر أمينة المكتبة إيفا إلى برلين لاستلام كتابها الذي يعود إلى القرن الثّامن عشر الذي سرق منها قبل عقود، وهذه القصّة مبنيّة جزئيًا على قصّة مُزوّرين: أدولفو كمنسكي، وأوسكار روسوسكي؛ يهوديان شابان عملا في التّزوير بسبب الحاجة -كما حدث لإيفا وأمّها في كتاب الأسماء المفقودة-

وتبعًا لهذا أنقذا آلاف الحيوات. نجا كمنسكي من التّرحيل وأصبح أحد أهم المزوّرين العاملين لصالح المقاومة في باريس، رغم كونه مجرّد مراهق في ذلك الوقت. أمّا أوسكار روسوسكي الذي حكى قصّته بيتر غروس في مكان جيّد للاختباء فكان في الثّامنة عشرة من عمره سنة 1942. حين أُجبِر على الهرب من منزله، ومن حسن طالعه علق في (لا شامبون سوغ ليغون) وهي قرية جبليّة صغيرة تؤوي آلاف المطلوبين من النّازيّة، من بينهم أطفال رُحّل أهاليهم. ومثل إيفا تقريبًا، بدأ روسوسكي تزوير هُويّتين له ولأمّه، لكنّه حين وجد نفسه بين أشخاص يشبهونه، بدأ يطوّر طرائق أسرع وأكثر فاعليّة. مع نهاية الحرب، ساعد أكثر من خمسة وثلاثين ألف يهودي.

لكيلا تعتقد أنّ جميع المزوّرين ذكور، عملت نساء كثيرات في هذا لمجال أيضًا، بمن فيهن: ميريل فيليب، جاكلين ديكوردمونش، جابرييل بارّود في (لا شامبون سوغ ليغون)، وسوزي وهارتا شيدلوف، أختان عملتا في مختبر كامنسكي في باريس.

كثيرٌ من التّفاصيل الواردة في كتاب الأسماء المفقودة مبنية على طرائق تزوير حقيقيّة استُخدمت خلال الحرب العالميّة الثّانية. روسوسكي على سبيل المثال، استخدم الجريدة الرّسميّة للبحث عن هُويّات مزوّرة، كمنسكي الذي لديه خلفيّة كيميائيّة – مثل رِمي– اكتشف طريقة لمسح حبر (واترمان) بحمض اللاكتيك. غابرييل بارّود هي التي اكتشفت طريقة الضّغط لإنتاج الأختام الرّسميّة. ذكرت شخصيّة روسوسكي في كتاب الأسماء المفقودة

حين تكلّمت جَنڤييڤ بعد وصولها إلى أورينيون عن رجل اسمه بلون في منطقة تسمى بلاتو. جان-كلود بلون هو المقصود.

خلال كتابة الرّواية، تكدّست على مكتبي معلومات حقيقيّة عن أشخاص مثل إيڤا ورِمي وجَنڤييڤ الذين اعتمدوا التّزوير. لدي عشرات النّسخ من الجريدة الرّسميّة الصّادرة عام 1944؛ كما حدث للمزوّرين في الكتاب، اخترت أسماء بعض الشّخصيّات من الجريدة. لدي شهادة تعميد تعود إلى يناير 1944، كاملة مع الأختام، وتصريح سفر ألماني مختوم في باريس في ديسمبر 1940. وأهم ممّا سبق هو امتلاكي نسخة حقيقيّة من الرّسائل والأناجيل طُبعت عام 1732 التي بنيْت عليها قصّة كتاب الأسماء المفقودة. استخدمت إيڤا ورِمي الشيفرة في الكتاب، واستخدمت أنا صفحات حقيقيّة من الكتاب.

في ملحوظة جانبيّة ممتعة، أتذكر أنّي كنت مولعة بالحساب في طفولتي؛ في الواقع، كنت أستلقي على سريري ليلًا وأحاول حل المسائل الحسابيّة التي لم يحلها أذكى علماء الحساب. (أعترف أنه كان لدي طموح غريب! لا تقلق، فبعد سنوات لاحقة، أصبحت طموحاتي أكثر واقعيّة تتعلّق بزواجي من المغنّي دوني والبيرغ، وأكون نجمة بوب في يوم ما). في هذه المرحلة من حياتي عرفت بمتتالية فيبوناتشي (Febonacci sequence)، وكنت أنام بسبب التّعب وأنا أحاول إضافة الأرقام في عقلي. وحين خطرت فكرة استخدام المتتالية بوصفها جزءًا من الشّيفرة في رواية كتاب الأسماء المفقودة، سررت كثيرًا؛ إذْ إنّ كل ليالي السّهر تلك لم تذهب عبثًا.

كل مـا سـبق جـزء بسـيط لعناصـر حقيقيّـة اجتمعـت فألهمتنـي لكتابـة كتـاب الأسـماء المفقـودة. وإذا كنـت مهتمًـا بمعرفـة المزيـد عـن فرنسـا فـي النّصـف الأوّل مـن الأربعينيّـات، فأنصحـك مـن كل قلبـي بكتـاب مذهـل عـن (شـامبون سـوغ ليغـون) عنوانـه: قريـة الأسـرار: تحـدّي النّازيـن فـي فيتشـي الفرنسـيّة.[5]

كمـا اسـتعنت ببعـض كتبـي المفضّلـة مثـل: اليهـود فـي فرنسـا خـلال الحـرب العالميّـة الثّانيـة[6] لرينيـه بوزنانسـكي، وكتـاب المقاومـة: ذكريـات فرنسـا المحتلّـة[7] لأغنيـس همبـرت، وكتـاب مذكـرات هيليـن بِـر[8] للتّعمّـق فـي بحثـي أيضًـا. قريـة أورينيـون مُتخيّلـة، لكنّهـا تُشـبه قـرى وبلـدات كثيـرة فـي جنـوب فيتشـي.

كُلّـي أمـل أنّـك اكتشـفت جديـدًا فـي كتـاب الأسـماء المفقـودة، وأنْ تضـع فـي بالـك حقيقـة عـدم حاجتـك إلـى نقـود أو أسـلحة أو منصّـات ضخمـة لتغييـر العالـم. أحيانًـا، يمكـن لشـيئَيْن بسـيطَيْن كالقلـم والخيـال تغييـر مجـرى التّاريـخ.

شـكرًا لأنّـك رافقتنـي فـي هـذه الرّحلـة، وشـكرًا لأنّـك ممّـن يجـدون شيئًا خاصًـا فـي الكتـب، كمـا قالـت إيفـا فـي هـذه الرّوايـة: «الذيـن يجـدون سـحرًا فـي الكتـب، سـيحظون بـأروع حيـوات». أتمنّـى لـك أروع حيـاة.

كرِستِن هارمل

Kristin Harmel

الهوامش:

1. Adolfo Kaminsky: A Forger's Life by Sarah Kaminsky
2. A Good Place to Hide: How One French Community Saved Thousands of Lives During World War II by Peter Grose
3. نُشر المقال بعنوان: تتبع الكتب التي سرقها النّازيّون على رفوف المكتبات (المترجمة)

Esterow, Milton. "The Hunt for The Nazi Loot Still Sitting on Library Shelves." The New York Times. Jan 14, 2019.

4. The Book Thieves: The Nazi Looting of Europe's Libraries and the Race to Return a Literary Inheritance by Anders Rydell
5. Village of Secrets: Defying the Nazis in Vichy France.
6. Jews in France During World War II (Renée Poznanski),
7. Résistance: Memoirs of Occupied France (Agnès Humbert)
8. The Journal of Hélène Berr



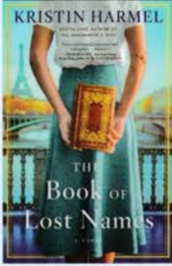
كرِستِن هارمل (المؤلّفة)

روائيّـة أمريكيّـة ولـدت فـي مايـو 1979. حصلـت علـى تجربتهـا الأولـى فـي الكتابـة وهـي فـي السّادسـة عشـرة مـن عمرهـا، إذ عملت مراسـلة إخباريّـة لجريـدة ومجلّـة فـي أثنـاء دراسـتها فـي المرحلـة الثّانويّـة. كتبـت روايتهـا الأولـى عـام 2006، وصـدر لهـا حتّـى الآن ثـلاث عشـرة روايـة.

دلال نصر الله (المترجمة)

مترجمـة كويتيّـة تترجـم عـن اللغتيْـن الإيطاليّـة والإنجليزيّـة. فـازت بالمركـز الأوّل فـي جائـزة الكويـت للإبـداع الشّـبابي بنسـخته الرّابعـة 2019 عـن أحـد كتبهـا المترجمـة. تَرجمـت حتـى الآن أكثـر مـن عشـرة كتـب تتـراوح بيـن السّـير الذّاتيّـة والرّوايـات والرّسـائل والسّـينما.

K R I S T I N H A R M E L



بين ليلة وضحاها، في 1942، وجدت إيڤا تروب الفرنسيّة اسمها واسم أمّها وأبيها في قوائم الاعتقال النّازيّة. بين ليلة وضحاها، وجدت نفسها في فرنسا غريبة عنها، فرنسا التي أحكم العدو قبضته عليها، وساعده في ذلك الخونة من الفرنسيين، فأصبحت شريدة طريدة في وطنها. من قلب أحلك الفترات التي عرفتها البشريّة نتعرّف إلى إيڤا عاشقة الكتب والرّسم التي أصبحت بشكل ما عضوة في حركة مقاومة تعمل فيها المرأة كما الرّجل لتحرير فرنسا، غير أنّ مقاومتها كانت بلا عنف، وبلا مواجهة مباشرة مع العدو. هذه رواية حقيقيّة استلهمت الكاتبة كرِستن هارمِل فكرتها من مقال قرأته في نيويورك تايمز: نهب ألمانيا النّازيّة الكتب من المكتبات الفرنسيّة، العامّة والخاصّة، قُبيل انتهاء الحرب العالميّة الثّانية، واندحار ألمانيا النّازية.



kalemat
www.kalemat.com

